384
يناير
2012





الغرابة
المفهوم وتجلياته في الأدب

تأليف: د. شاكر عبدالحميد

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978

أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود. فؤاد زكريا (1927-2010)

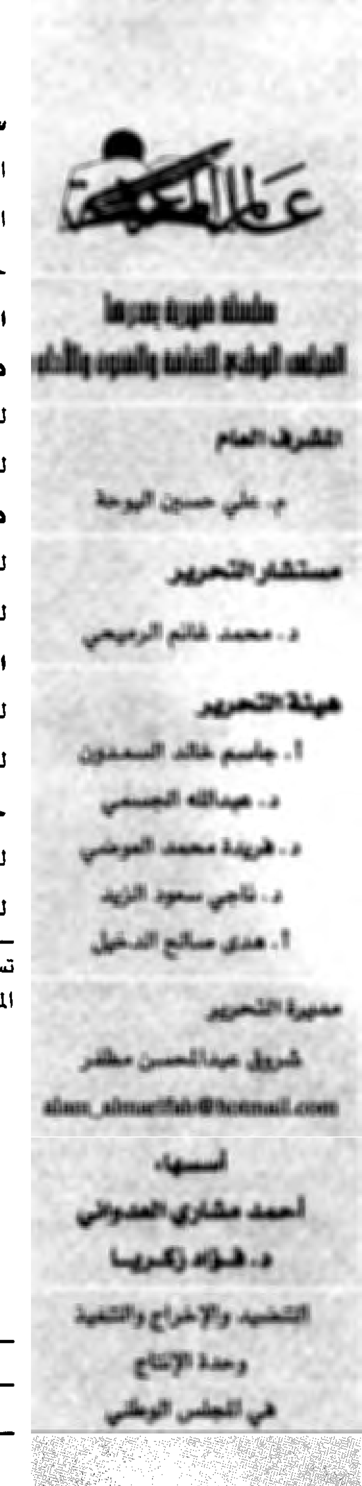
384

الغرابة
المفهوم وتجلياته في الأدب

تأليف: د. شاكر عبدالحميد



يناير 2012



سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	دينار كويتي
الدول العربية	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	أربعة دولارات أمريكية

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	15 د.ك
للمؤسسات	25 د.ك

دول الخليج

للأفراد	17 د.ك
للمؤسسات	30 د.ك

الدول العربية

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28613 - الصفاة
الرمز البريدي 13147
دولة الكويت
تليفون: 22431704 (965)
فاكس: 22431229 (965)
www.kuwaitculture.org.kw

ISBN 978 - 99906 - 0 - 353 - 8

رقم الإيداع (2011/792)

الغرابة
المفهوم وتجلياته في الأدب

تأليف: د. شاكر عبدالحميد

طُبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

صفر 1433 هـ - يناير 2012

المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر عن رأي كاتبها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

المحتوى

توطئة

«الأكثر غرابة من هذه الغرابة نفسـها أن تتحول الأشـياء، التي كان ينبغـي النظر إليها على أنها غريبة، إلى أشـياء عادية ومألوفة»

المؤلف

الغرابـة ضـد الألفة، نوع مـن القلق المقيـم، حالة بين الحياة والمـوت، التباس بين الوعي وغيـاب الوعي، حضور خاص للماضـي فـي الحاضر، وحضـور خاص للآخر فـي الذات، قلق غير مسـتقر بين الزمان والمـكان، إقامة عند التخوم؛ تخوم الوعي والوجدان، إفاقة ليست كاملة، حالة حدودية، أو بينية، تقع بين انفعالات الخوف والرهبة والتشويق وحب الاستطلاع والمتعة والطمأنينـة والتذكـر والرعـب والتخيل والوحشـة والالتبـاس والفقـدان لليقين: مازال الغمـوض يلف معنى الغرابة، أدرك ذلك جيدا، فماذا نقصد بالغرابة أيضا؟

الغرابة نوع من الخيال، لكنه الخيال المرتبط بالخوف وانعدام الأمن والوحشة والتوجس. إنه باختصار: خيال الوحشة،

وليس خيال التفاؤل والبهجة وأحلام اليقظة، وسـرعة تحقق الأمنيات في خيال البهجة، أو ما أسـميه «الخيال المضـيء». قد نفرك مصباح علاء الدين فيخرج لنا المارد منه ويحقق لنا المستحيلات، أما في خيال الغرابـة، أو ما أسـميه «الخيال المعتم»، فإن ذلك المـارد - إذا خرج - سيكون مصدرا لخوفنا منه، بل قد يقتلنا هذا الخوف أيضا. مجازيا أو حتـى ماديا في الحياة أنواع كثيرة من هؤلاء المردة، يحاول الأدب والفن أن يجسدهم على أنحاء شتى.

يكمـن جوهر الغرابة فـي الحياة، وفي الفن، وفـي الأدب في تلك العلاقـة التي توجد بين المـوت والحياة، وكذلك في آليـة التكرار، في انتفاء الألفة، وغياب الشـعور بالأمـن، وحضور الخوف في الحياة. كل ما هو ضد الأمن غريب، وكل ما هو ضد الألفة غريب، وكل ما هو ضد الفرح غريب، والأكثر غرابة من هذه الغرابة نفسـها أن تتحول الأشياء، التي كان ينبغي النظر إليها على أنها غريبة، إلى أشياء عادية ومألوفة. فمثلا في إحدى قصص الكاتب التشـيكي جوزيف كافكا تحول شخص إلى حشـرة مخيفة مقـززة، وكانت هذه الغرابة الأولـى، غرابة المظهر الخارجـي ولم تكن هي الغرابة المقصودة في ذلك العمل الأدبي، بل كان يكمن جوهر الغرابة في أن أسـرته قد أصبحت تتعامل مع ما حدث له على أنه شـيء عادي، لقد أصبح غير المألوف الذي حدث لابنهم شيئا مألوفا اعتادوه، مثلما تصبح سكنى المقابر في بعض البلدان أمرا مألوفا بالنسبة إلى الأحياء من البشر.

والغرابة حياتية وإبداعية، وقد تتجاوز الغرابة الحياتية فعلا الغرابة الفنية والأدبية، والغرابة الأدبية - والفنية - نوعان: غرابة غير المألوف، وغرابة المألوف وكما سنوضح ذلك في هذا الكتاب.

والخوف أساسي في حدوث الإحساس بالغرابة؛ لأنه نقيض الأمن وعدو الطمأنينة، فقد ينتابك شـيء، يداهمك، يراودك، يشـاغلك، يوجد على مشـارف وعيك، وكأنه شـيء يوشك على الحدوث، وقد يحدث أو لا يحدث. ولكن، ولأنه غامض، غير معروف، لا نعرف متى سيظهر، وكيف، وأين. تتولد لدينا مشاعر الخوف منه، مثلا: توقعك

عندما تنام أنك ستـرى أشـباحا. ترتبط هكذا الغرابة أيضا بعالم الليل: عالم الكوابيس والأشـباح والمقابـر والموت، وكذلك كل ما هو مكبوت في أعماق لاوعينا الجمعي، ولا نعرف عنه شـيئا، أو نعرف عنـه بعض الأشـياء، ولكننا لا نعرف متى يظهـر، فإذا ما ظهر كان غريبـا، لكن الغرابة ترتبط أيضا بعالم النهار: عالم اليقظة، بكل ما يزخـر به هذا العالم من خوف وفقدان للأمن، وموت كامن أو ظاهر في الحياة.

هكذا تجسـد الغرابـة ذلك الموت الموجود في الحيـاة، وكذلك تلك الحيـاة التي في الموت، ذلك التردد بين الموت والحياة (كما تمثلها فكرة الشـبح والأشباح مثلا)، وأيضا ذلك الموت الذي في الحياة (كما يتجلى في ذلك التكرار والحركة الآلية التي تسم كل ما كان ينبغي أن يكون حيا متدفقا متجددا، كالبشر، الأحياء مثلا).

ووفقا لما استعرضناه في كتابنا هذا فإن «الغرابة» ليست مصطلحا أحـادي البعد، بسـيط المعنى؛ بل إنه مصطلح متعـدد الأبعاد، مركب المعانـي، متنوع الـدلالات، وإن من معانيه: حضور المـوت في الحياة وحضور الحياة في الموت. ومن معانيه أيضا ظهور المألوف في سـياق غيـر المألوف، ظهـور المألوف مـن الأفكار والتصـورات والانفعالات القديمـة التي اعتقدنا أننا تجاوزناهـا أو كبتناها، ظهورها الآن، في الحاضر، في سـياق زماني ومكاني غير مألـوف لظهورها، وهذا هو المعنى الـذي أطلق فرويد عليه مصطلح: عودة المكبوت. ومن معانيها: ظهور غير المألوف في سـياق مألوف، ظهور أشـباح الماضي وأفكاره وسـلوكياته في الحاضر وربما المسـتقبل، ظهور غير المتوقع، المخيف الغريب عن البيت، الأجنبي عنه في سياق البيت الأليف المألوف. ومن معاني الغرابة أيضا: تحول الساكن إلى متحرك، والمتحرك إلى ساكن، عـودة الموتى إلى الحياة، ودخـول الأحياء عالم الموتـى، هذه الحيرة المعرفيـة والالتباس الـذي لا نعرف معه، ما إذا كان شـخص ما حيا أو ميتـا، هي أيضـا أحد المعاني الخاصة للغرابـة. وثمة معانٍ أخرى ستتجلى لنا خلال هذا الكتاب.

يشـــتمل هذا الكتاب على تســـعة فصول: قدمنا في الفصل الأول منها تحديدا لغويا وفلســـفيا وســـيكولوجيا لمعنى الغرابة، وقارنا بينه وبـــين المعاني الخاصة بمفاهيم أخرى تلتبـــس معه أحيانا مثل الغربة والاغتـــراب والتغريـــب وغيرها. وفـــي الفصل الثانـــي طرحنا بعض التصورات الخاصة حول تلـــك العلاقات الممكنة بين «عالم الأدب» - القصة القصيرة والرواية خاصة - ومفهوم الغرابة وركزنا في الفصل الثالـــث أيضا على تلـــك العلاقات الموجودة بين إحساســـات الخوف والفزع والرعب من الإحساسات المخيفة وبين الإحساس بالغرابة. أما الفصل الرابع فقد كرسناه للحديث عن مفهوم الذات وعن تطور هذه الذات - وارتقائها - نحو الســـواء أو نحو التفكك والاختلال والمرض، ومـــا يصاحب هذه الحالات من مشـــاعر خاصـــة بالغرابة. وقد كان الفصـــل الخامس هو الفصل الذي ركزنا فيه على الجذور الفلســـفية والســـيكولوجية والأدبية لفكرة الازدواج. وفي الفصل السادس ركزنا علـــى فكرة القرين أو الشـــبيه في الأدب، وقلنـــا خلاله إن الاختلال عندما يتفاقم قد يـــؤدي إلى الازدواج، وقد يحدث هذا الازدواج عند مستوى الوعي فتظهر الشـــخصية المتناقضة المدعية المنافقة أو ذات الحياة الســـرية... إلخ. وقد يخرج الأمر الخاص بهذا الاختلال على السيطرة فتظهر ظاهرة القرين. وفي الفصل السابع تحدثنا عن روح المكان، وعن الروح المهوِّمة في المكان، وعن مفاهيم الأشباح والأطياف والمـــراودة وعـــن معاني هذه المفاهيـــم القديمة والحديثـــة وعلاقتها بموضـــوع الغرابة. وفي الفصـــل الثامن قدمنا ترجمـــة لقصة «رجل الرمـــال»، وهي من تأليف الكاتب الألمانـــي أي. هوفمان والتي قامت على أساسها أفكار فرويد جميعها حول الغرابة، وهي تلك الأفكار التي مازالت تتردد أصداؤها في الدراســـات النقدية والتحليلية والنفسية حتى الآن. أما الفصل التاســـع فقد خصصناه لعرض ومناقشة بعض الدراســـات النقدية الحديثة التي أجريـــت على قصة هوفمان، وعلى دراسة هوفمان حولها، وهو ما يمكن أن يندرج الآن تحت ما يسمى بـ «نقد النقد».

كنت أفضل أن أسـمي هـذا الكتاب «الأدب والغرابة» لولا خشـية أن يختلـط هذا العنوان مع عنـوان كتاب مماثل للناقد المغربي المعروف عبدالفتـاح كليطو، وهو أشـهر منـي بطبيعة الحال، علـى الرغم من محدوديـة تصوره الـذي قدمه في كتابه: «الأدب والغرابة - دراسـات بنيوية في الأدب العربي» (2006)، ومن ثم فقد قررت أن أسـمي هذا الكتاب أولا «الغرابة في الأدب»، كما اقترح عليّ ذلك الصديق الشـاعر المصـري عبدالمنعم رمضان، ثم وجدت، بعد ذلـك، أنه من الأفضل أن أسـمي هذا الكتاب «الغرابة: المفهوم وتجلياته فـي الأدب»، وذلك لأن الغرابة هي المفهوم الأشمل، بينما الأدب هو أحد تجلياتها، وقد يضاف إلى هذه التجليات الخاصة بها أيضا: الفن التشكيلي والعمارة والسينما والمسرح والكثير والكثير من حقول الثقافة والحياة.

لا بـد لـي هنا أن أتقـدم بجزيل الشـكر وعميـق الامتنان لجميع الأصدقاء الأعزاء الذين أسـهموا معي، من خلال تشـجيعهم ومودتهم وإحتفائهـم بكتابي الأول عن «الفن والغرابـة»، وكذلك في خروج هذا الكتـاب بالصورة اللائقة التي أرجوهـا وأتمناها، وأخص منهم بالذكر الأصدقـاء: الناقد والكاتب المسـرحي الدكتور فـوزي فهمي، والمؤرخ الدكتـور صابر عرب، والكاتب المعروف والمفكر الراحل الأسـتاذ أنيس منصـور، والروائـي الصديق إبراهيـم عبد المجيـد، والصديق الناقد التشـكيلي سـمير غريب، والكاتب الصحافي القاص أسامة الرحيمي، والصديق الشاعر محمد آدم، والصديق الناشر محمد هاشم، والصديق الشـاعر والمترجـم محمد عيـد إبراهيم، والصديق الشـاعر جرجس شـكري الذي أمدني بمعظم النصوص المسـرحية التي وردت في هذا الكتاب، وكذلك الفنان عادل السـيوي، والشـاعر عبـد المنعم رمضان، والشاعر محمد كشيك، والشاعر محمد سليمان والشاعر محمود خير الله، والصديق الصحافي سـيد محمود، والصديق الروائي أشرف عبد الشـافي، والشـاعر محمد الحمامصي، والدكتورة هبة عزت والدكتور خالد سـراج، ومكتبة الأسرة، والدكتور سـعيد توفيق، أستاذ الفلسفة وعلم الجمال، والصديق الصحافي خالد بيومي. وكذلك الدكتور طارق

النعمان على حواراته المثمرة وإضاءاته الثقافية المهمة خلال وجودنا معا فـــي مملكة البحرين، وأيضا الأصدقاء أحمـــد رمضان، وصابر أحمد، وحامد القلعاوي، من أكاديمية الفنون بمصر، والصديقين فهد الشـــيخ وماجد كامل من المملكة العربية الســـعودية، والصديق راشـــد زايد من مملكة البحرين، وأخيرا إلى أســـرتي الصغيرة على ما تحملته معي من صبر وعناء.

شاكر عبد الحميد

القاهرة - المنامة

2011 - 2009



1

حول معنى الغرابة

«في هذا الطريق يكمن الجنون»

الملك لير(1)

كان السندباد البحري في «ألف ليلة وليلة» موجودا في جزيرة ما، بعد أن غرقت سفينته، وكان متعبا خائفا، وحيدا، وفي خوفه وتعبه نام، ثم في الصباح مشى بين الأشجار، وعند ساقية وماء عين جارية رأى شيخا مليحا جالسا، رأى إنسانا مألوفا، سلم عليه فرد عليه ذلك الشيخ السلام بالإشارة ولم يتكلم، فسأله السندباد عن سبب جلوسه في هذا المكان، فلم يرد عليه، بل حرك رأسه وأشار إليه بيده طالبا منه أن يحمله من مكانه هذا إلى مكان آخر بجوار ساقية أخرى، فحمله السندباد وقال لنفسه: أعمل معروفا مع هذا الشيخ لعل صوابا يحصل لي، ثم عندما وصل إلى الساقية الأخرى طلب منه النزول فلم ينزل عن كتفي السندباد؛ بل لف رجليه على رقبته. وتستمر الحكاية: «فنظرت إلى رجليه فرأيتهما مثل جلد الجاموس في السواد

والخشـــونة، ففزعت منه وأردت أن أرميه من فـــوق كتفي، فقرط على رقبتي برجليه وخنقني بهما حتى اسودت الدنيا في وجهي، وغبت عن وجودي، ووقعت على الأرض مغشـيا عليَّ مثل الميت، فرفع ساقيه وضربني على ظهري وعلى كتفي، فحصل لي ألم شديد، فنهضت قائما به وهو راكب فوق كتفي وقد تعبت منه، فأشـار لي بيده أن ادخل بين تلك الأشـجار فدخلت إلى أطيب الفواكه، وكنت إذا خالفته يضربني برجليه ضربا أشـد من ضرب الأسـواط، ولم يزل يشير إلي بيده إلى مكان أراده وأنا أمشي به إليه، وإن توانيت أو تمهلت يضربني وأنا معه شبه أسـير، وقد دخلنا في وسط الجزيرة بين الأشجار، وصار يبول ويغـوط على كتفي ولايزال ليلا ونهارا، وإذا أراد النوم يلف رجليه على رقبتي وينام قليلا، ثم يقوم ويضربني، فأقوم مسرعا به ولا أستطيع مخالفته من شدة ما أقاسي منه، وقد لمت نفسي على ما كان مني من حمله والشفقة عليه، ولم أزل معه على هذه الحالة وأنا في أشد ما يكون من التعب، وقلت في نفسي أنا فعلت مع هذا خيرا فانقلب عليَّ شرا، والله ما بقيت أفعل مع أحد خيرا طوال عمري، وقد صرت أتمنى الموت من الله تعالى في كل وقت وكل ساعة من كثرة ما أنا فيه من التعب والمشـقة، ولم أزل على هـذه الحالة مدة من الزمان إلى أن جئـت به يوما من الأيام إلى مكان فـي الجزيرة فوجدت فيه يقطينا كثيرا ومنه شيء يابس، فأخذت منه واحدة كبيرة يابسة وفتحت رأسها وصفيتها مما فيها، وحملتها إلى شجرة العنب فملأتها وسددت رأسها ووضعتها في الشمس وتركتها مدة أيام حتى صارت خمرا صافيا، وصرت كل يوم أشرب منه لأستعين به على تعبي مع ذلك الشـيطان المريد، وكلما سكرت منها تقوى همتي، فنظر في يوم من الأيام وأنا أشرب فأشار إلي بيده ما هذا؟ فقلت له هذا شيء مليح يقوي القلب، ويشرح الخاطر، ثم إني جريت به ورقصت بين الأشجار، وحصلت لي نشوة من السـكر فصفقت وغنيت وانشرحت، فلما رآني على هذه الحالة أشـار إلي أن أناوله اليقطينة ليشـرب منها، فخفت منه وأعطيتها له، فشرب مـا كان باقيا فيها ورماها علـى الأرض، وقد حصل له طرب فصار يهتز على كتفي، ثم إنه سـكر وغرق في السـكر وقد ارتخت جميع أعضائه وفرائصه، وصار يتمايل من فوق كتفي، فلما علمت سـكره، وأنه غاب عن الوجود مددت يدي إلى رجليه وفككتهما عن رقبتي، ثم ملت به إلى الأرض وألقيته عليها، فما

صدقت أن خلصت نفسي ونجوت من الأمر الذي كنت فيه، ثم إني خفت منه أن يقوم من سكره ويؤذيني، فأخذت صخرة عظيمة من بين الأشجار وجئت إليه فضربته على رأسه وهو نائم، فاختلط لحمه بدمه، وقد قتل، فلا رحمة الله عليه»[2].

تذكرني هذه الحكاية بالقول السائر الذي أحيانا يطلقه العامة في مصر على الشخص الذي لا يكف عن الحركة والتململ والانتقال من هنا إلى هناك، مع كثرة الكلام الذي يتناثر منه، بعيدا وقريبا، فيقولون عنه «كأنه راكبه عفريت»، أو كما يقال في دول عربية أخرى كمملكة البحرين مثلا «كأنه راكبه جني»؛ مما يدل على هذه الغرابة التي تبدو أحيانا في سلوكيات بعض الناس، وبما يتجاوز المألوف إلى حد بعيد.

لقد طلب ذلك الشيخ الذي بدا، أولا، في صورة مألوفة، من السندباد أن يحمله على رقبته وينقله إلى جانب ساقية ثانية، وأراد السندباد أن يساعده، فحمله، فإذا بذلك الإنسان المألوف الضعيف الواهن المليح يتحول إلى شيطان غير مألوف، قوي عنيف قبيح، له رجلان تشبهان أرجل الجاموس، ثم إنه أرهق السندباد بمطالبه، بل إنه بدأ يضربه برجليه «ضربا أشد من ضرب السياط»، وصار يبول عليه ويمنعه من النوم ليلا، وإلى غير ذلك من الأمور القاسية. لقد أراد السندباد أن يفعل خيرا فانقلب عليه شرا، ولم يكن أمامه من وسيلة سوى أن يحتال على ذلك الشيطان المريد وأن يسكره، ثم أن يتخلص منه ويقتله - كما ورد في القصة - فمن هذا الشيطان - وما علاقته بموضوع كتابنا الحالي حول الغرابة؟

1 - قد يقول أحد التفسيرات إن الشيطان هنا دلالة ورمز لكل شيء أو إنسان، كان مألوفا بالنسبة إلينا، لكنه يصبح بعد ذلك غير مألوف، عندما نقترب منه أكثر فأكثر، عندما نطيعه، ونستجيب لرغباته، عندما نعتقد أننا نساعده، فإذا بنا نصبح نحن المحتاجين إلى المساعدة، عندما يتحول ما نقوم به من أجل مصلحتنا أو مصلحة الآخرين ضدنا، عندما يصبح الخير شرا، والمساعدة استعانة، والقوي ضعيفا - كما حدث بالنسبة إلى السندباد - والضعيف قويا - كما حدث للشيطان - وتعد آلية التحول إلى النقيض هذه من المحاور الأساسية في موضوع الغرابة.

2 – قد يقول تفسير آخر: ليس فقط أن المألوف قد أصبح غير مألوف، بل إن المألوف قد عاد من غيابه، قد عاد من كبته، إنه مألوف بالنسبة إلينا، موجود في لاشعورنا، في مخاوفنا ومتاعبنا وهواجسنا، وإنه في عزلتنا ووحشتنا وتعبنا ووحدتنا – كما كان شأن السندباد في تلك الجزيرة – قد تخرج هذه المحتويات اللاشعورية وتهيمن علينا، نجسدها في شكل أشباح وشياطين، وقد نبالغ في تجسيدنا لآخرين نكرههم ونعاني منهم في شكل أشباح وشياطين، نخلع عليهم مخاوفنا وعزلتنا وهشاشة ذواتنا، نرى أننا قد نستطيع مساعدتهم، في حين أننا نريد أن نساعد أنفسنا، نجسدهم في أشكال مخيفة، أو في كائنات تبدو كأنها تحتاج إلى مساعدتنا، أو ربما نجسدها في حكايات كما فعل السندباد، وكما يفعل الأدباء والفنانون، وإنه من خلال هذه الحكاية ومن خلال الخيال واجه السندباد شيطان عزلته، حاول أن يتجاوز شعوره بالغربة والغرابة في ذلك العالم الغريب، وقد تكون الخمر التي شربها السندباد هنا، خمرا حقيقية، وقد تكون هي خمر الخيال، خمر الحكي، خمر الإبداع، أو خمر الحيلة والاحتيال على الحياة وعلى مواقفها القاسية، إنها الخمر الفعلية أو الرمزية التي تخلص السندباد من خلالها وتحرر من ذلك الشيطان المريد وقتله، فمن خلال الخيال والإبداع نواجه الخوف، من خلالهما قد نتخلص من شعورنا بالغرابة أو الغربة.

3 – قد يقول تفسير ثالث، طرحه قبلنا الناقد المعروف الدكتور جابر عصفور، فقال إن الشيطان هنا هو سلطة التراث، أو سلطة ما هو قديم، والتي يسيطر من خلالها على الحاضر، على كل ما هو جديد، وإنه ليس هناك من خلاص من تلك الهيمنة العنيفة لذلك الجانب المخيف المعتم القاتم من التراث إلا بمزيد من إلقاء الضوء على جوانبه المضيئة المشرقة [3]، وقد كانت الخمر التي سقاها السندباد للشيطان هي ذلك الضوء، ضوء الوعي والاستنارة والمعرفة والتنقية والمواجهة لكل ما هو غامض أو مخيف أو غريب. هكذا تطرح هذه الحكاية أمامنا سؤال الغرابة، وهو السؤال الذي كرسنا من أجل الإجابة عنه صفحات هذا الكتاب كلها.

معنى الغرابة؟

وصف الفيلســوف الألماني مارتن هيدغر الغرابة بأنها ذلك «الحيز المكاني الفارغ أو الخاوي الناتج من فقدان الإيمان بالصور المقدســة. فالإنسان العاجز عن الإيمان يترك غريبا في الفراغ والعدم» [4]. ولدى الفيلســوف هيدغر أيضا «الغرابــة هي ذلك الطابع الجوهري لوجودنا في العالم؛ لأننا لســنا في بيتنا، عالمنا، بل في حالة دائمة من القلق والغرابة». ولدى الفيلســوف الألماني شيلنغ - الذي اســتمد فرويد منه أفكاره الأساسية هنا - الغرابة هي «اسم لكل شيء كان ينبغي أن يظل خفيا وســريا، لكنه - مع ذلك - يتكشــف ويتجلى ويظهر». وفي كتابه «إرادة القوة»، تحدث الفيلسوف نيتشه عن العدم الأوروبي فقال: «إن العــدم يقف على الأبواب، ومن ثم كانت تلك الغرابة من كل نوع». كذلك فســر المحلل النفسي «أوتو رانك» في دراسته حول «المقدس» كلمة «الغرابة»، في اللغة الألمانية، على أنها تشير في جوهرها، إلى حاجة الإنسان إلى أن «يجسد خوفه في أشــكال غير طبيعية» [5]. ولدى فرويد الغرابة هي: تلك المشــاعر الخاصة تجاه شيء معين، شيء لا يكون ببساطة، غامضا وعجيبا، وعلى نحو غير عادي؛ بل يكون - وعلى نحو أكثر تحديدا - مألوفا على نحو غريب. ومن معاني الغرابة لــدى فرويد أيضا: ظهور غير المألوف في ســياق مألوف، وكذلك: الغريب عن البيــت، وأيضا: تحول المألوف إلى غير مألوف؛ ومن ثم غريب. وأخيرا : الموت الذي في الحياة والحياة التي في الموت [6].

ولدى فالتر بنيامين تنشأ الغرابة عن ذلك «التراكب» - وليس التركيب - الذي يحدث بين القديم من الأفكار والصور والمباني وبين الجديد منها، فيتعايشان معا على نحو غريب يجمع بين المألوف وغير المألوف في سياق واحد [7].

وفي بحث فرويد عن معنى كلمة «الغرابة» قال إنها تشــير إلى «الغريب الأجنبــي» عن البلد، وفي اللاتينية إلى «المــكان الغريب»، وفي لغات أخرى كثيــرة ارتبط معنــى هذا المصطلح بكل ما هو مخيــف ومثير للرهبة، وبما يتجاوز مجرد الإثارة للرعب المؤقت أيضا [8].

و«الغرابــة» Das unheimliche هــو عنــوان المقال الــذي كتبه فرويد فــي العام 1919 في أثنــاء تأليفه لكتابه «فيما وراء مبــدأ اللذة»، وهذه كلمــة ذات طابع خاص في اللغة الألمانيــة، حيث تحتوي بداخلها على معانٍ

ودلالات متعارضـــة مختلفة، فالجذر الخاص بها - Heim - يعني «البيت»، أو «المنزل»، أو «الوطن»؛ ومن ثم تشير الصفة Heimliche نفسها إلى كل ما هو مألوف، يتعلق بمسقط رأس الإنســان، وبكل ما يقوم بالحماية، ويحقق الراحة والطمأنينة. لكن هذه الكلمة Heimliche نفســها تشــير أيضا إلى فنون السحر الأسود، وإلى الحسد، وكذلك ما تقوم به العين الشريرة، وإلى القيام بالمؤامرات ووضع الخطط لقتل أحد الأشخاص، أو التسبب في موته وكل ما هو ضد الألفة والبيت والأمن والوطن. هكذا تحمل هذه الكلمة هذه المعاني المتعارضة كلها، وقد يســتخدمها بعض الناس لوصف ما هو مألوف وحميم بالنسبة إليهم، في حين يطلقها آخرون . وفق السياق . لوصف ما هو غير مألوف ومخيف بالنسبة إليهم [9].

إنهــا كلمة مزدوجة الطابع، متعددة المعاني، ومن ثم فإنها هي أيضا، في جوهرها، كلمة غريبة، فهي قد تســتخدم لوصف أنحاء شــتى، من ظواهر الحيــاة، وظواهــر الفن والأدب أيضــا، ومنها تمثيلا لا حصــرا ما يظهر: عندما تبدو الدمى والآلات كأنهــا ذات أرواح تحركها، عندما تظهر الصور الشــخصية واللوحات الفنية كأنها مفعمة بحياة مخيفة، عندما يمكن قراءة أفكار الآخرين أو تكون عقولهم قادرة على تحريك الأشــياء وفعل أي شيء، عندما تتحرك أطراف أشــخاص أصحاء وتستقل عنهم وتصبح لها حياتها الخاصة، كما في قصة الأنف لدى غوغول (مثلا)، أو عندما يتحول الإنسان كله إلى حشرة (لدى كافكا مثلا)، وعندما يدفن بشر وهم مازالوا بعد أحياء، فــي هذه الحالات كلها هناك أمــور لاعقلانية، غير منطقية، تتحدى العقل الحديث المنطقي؛ ومن ثم فإنها تكون غريبة [10].

هكــذا قد تجتمع الميــول العقلانية واللاعقلانية معــا، وتتصادم ميول التقدم إلى الأمام وميول النكوص إلى الخلف معا، مثلما قد يحدث في بعض تلك الحالات المرضية التي تتنازع المريضَ فيها رغبات الشفاء والخلاص من المــرض، ثم القلق والرغبة الدائمة المتكررة في العودة إليه؛ وذلك لأن المرض قد يجتذب اهتمام الآخرين ورعايتهم إليه. وتؤكد النظرية الثقافية الحديثة ضرورة الحاجة إلى وجود إحساس ما بالتغريب، ونزع الألفة عن المألوف، من أجل التمكن من تحمل ذلك الاختلاف الذي سيقوم بدوره ببناء شكل جديد

من المجتمع ينتمي إلى ثقافة ما بعد الحداثة، هنا الاختلاف والتغريب مهمان، ليس الاتفاق والتكرار والعود الأبدي إلى نموذج قديم مغلق قد تجاوزه الزمن، هكذا تكون درجة ما من التغريب والابتعاد أو الانسلاخ بعيدا عن ثقافة المرء وتاريخه ضرورية من أجل أن يكون له موقف ما، أو موضع ما في عملية الاتصال الكونية الخاصة بالعولمة الآن كما يقول غيلروي [10].

عن المعنى اللغوي للغرابة

وفقا لما جاء في قاموس أكسفورد للغة الإنجليزية، فإن أول تسجيل للكلمة بمعنى «ليس آمنا كي تتم الثقة به» قد ظهر العام 1773، وفي العام 1785 كانت الكلمة تعني «المكان الخطير وغير الآمن». كما حدد لويس بورخس أول ظهور لهذه الكلمة في القصة والرواية في عمل كتبه وليم بيكفورد يسمى «فاتك» Vattek؛ حيث جاء فيه الحديث عن ذلك «القوطي الشرقي الغريب» العام 1784، وقد تكرر ظهور المصطلح مرات كثيرة خلال القرن التاسع عشر لدى كتاب كثيرين مرتبطا بمقابلات مع الظل أو الشيطان. وقد وُصفت قلعة «دراكيولا» في الرواية المعروفة التي كتبها «برام ستوكر» المعروفة على لسان الراوي بأنها «قلعة غريبة، بحيث سيطر الخوف عليَّ، وأخذ بتلابيبي». بل لقد ظهرت روايات بعد ذلك تحت عناوين مثل: المنزل الغريب The uncanny House لماري بندرد Mary Pendared العام 1929، وغيرها [12]. وظهرت الإشارات إلى الغرابة قبل ذلك أيضا لدى أدباء أمثال هوفمان، وماري شيللي، ولدى مفكرين أمثال ماكس شتيرنر، وماركس وغيرهما، كما سنوضح ذلك في الفصول التالية من هذا الكتاب.

وقد ذكر فرويد في بداية مقالته عن الغرابة أن القواميس لا تخبرنا شيئا محددا عن طبيعة الغريب؛ وذلك لأن اللغة - ذاتها - تصبح دائما غريبة، وإن دورنا أن نبعث الحياة في هذه الجثة، التي هي النص، محاولين أن نجعل الغريب مألوفا. ومثلما أشار ديفيد بونتر كذلك، فإنه في كل قصة نسمعها، وكل قصيدة نقرؤها، نشعر دائما بوجود حالة من الانتياب Haunting أو «الحضور» أو «السكن» أو المراودة، أي ينتابنا شعور ما بأن هذه الأعمال الفنية «مسكونة» بحضور ما، بروح ما، بشبح ما، لكنه حضور غائب، وغياب

حاضــر. وليس الغياب الموجود حاضرا - أمامنا - متعلقا بقصة محددة، أو قصيــدة محددة، أو لوحة محددة، بــل إنه متعلق بقصة أخرى ما، وقصيدة أخرى ما، ولوحة أخرى ما، نريد أن نســمعها أو نقرأها أو نشاهدها، وهي قصــة (أو قصيدة أو لوحــة .. إلخ) قد تتفق مع الحالــة الخاصة بنا، ومع رغباتنــا أيضــا. إنها قصة أكثر دقة وثباتا، حكاية تســتطيع أن تحمينا من مشاعر الخوف والفقدان أو الضياع التي نشعر بها عندما ندرك أن الصوت الذي في العمل الفني ليس صوتنا، وندرك - كذلك - أنه صوت غير مدرك أو قابل للفهم، أو أنه ليس صوتا إنسانيا على الإطلاق. إنه الصوت الحجري أو الشــبحي الخاص بنقش ما، وإن دورنا أن نبعث الحياة في هذه الأعمال التــي نراها أو نقرأها أو نســمعها، وأن نعيد الحياة والحرية إلى الأشــباح المقيدة بداخلها [13].

وهكــذا فإنه بعد أن اســتعرض فرويد ما يرتبــط بكلمة الغرابة في الألمانية، وفي اللاتينيــة، واليونانية القديمة، والإنجليزية، والفرنســية، والإســبانية، والإيطالية، بل حتى في العربية والعبرية؛ حيث يمتزج معنى الغرابة بالشــيطاني والرهيب أو المخيف والمثير للحزن، وبعد أن يستغرق فــي كل هذه اللغات القديمــة والحديثة، يذكر في صفحــات عدة تربو على عشــر العديد من معاني الكلمة، وما يرتبط بها، وجذورها اللغوية، فــي القواميس والكتب التراثية الألمانية؛ فإنــه يخلص إلى أن الكلمة قد أصبحت ثنائية الطابــع، أو ذات تناقض وجداني ومعرفي متزايد، وأنها ذات صلة كذلك بكلمة «بيت» أو «منزل»، وذات صلة كذلك بمعاني الغربة والاغتراب والغرابة والبعد عن المألوف وعن المنزل، ثم يستعرض ما قدمه ينتش قبله، وما قاله عن الالتباس الذي يسيطر علينا حين «نشك» في أن شيئا يتحرك ظاهريا هو - فعليا أو واقعيا - شيء حي، وكذلك ما إذا كان شيء فاقد الحياة قد يتحرك، وما أشار إليه ينتش كذلك عن الانطباعات التي تتوالد لدينا عندما نرى الشــخصيات المصنوعة من الشمع، والدمى المصنوعة بشــكل بارع، وكذلك الأوتوماتا Automata أو الأدوات والآلات المتحركة التي تشــبه البشــر والحيوانات، وأيضا هذه التأثيرات الغريبة التي تحدثها النوبات الصرعية والتجليات الخاصة بالجنون؛ وذلك لأنها

تستثير لدى المشاهد لها أفكارا غامضة عن بعض العمليات الأوتوماتيكية - أو الآلية - التي قد تكمن خلف هذه الصورة المألوفة للشخص الحي أو للأشياء المألوفة [14].

لقد ترجم ريتشارد هاورد R.Howard كلمة الغريب etrange في الفرنسية على أنها تعادل Uncanny في الإنجليزية، وقد حدث ذلك لأن تودوروف نفسه خلال كتابته عن النوع الخيالي، قد استحضر أيضا تصور فرويد عن غير المألوف Unheimliche أو الغريب، وقد حدث هذا على الرغم من أن تودوروف نفسه قد لاحظ أنه ليس هناك اتفاق تام بين استخدام فرويد للمصطلح واستخدامه - أي تودوروف - له [15].

في اللغة الإنجليزية يشير مصطلح الغرابة إلى نوع من الخبرات المثيرة للقلق والخوف التي يختل فيها الشعور بالأمن والاستقرار. وفي الألمانية يرتبط المصطلح بالبيت الأليف الذي يتحول تدريجيا، إلى نقيضه، غير الأليف الموحش، بل حتى المخيف. وفي العربية يرتبط هذا المفهوم بالوحشة، التي من معانيها: الوحدة والعزلة والخوف والتوحش والجوع وغيرها، وكلها أمور يهتم الأدب بتجسيدها والتعبير عنها. أما المصطلح الفرنسي inquietante etrangete الذي يترجم إلى «الغرابة المقلقة» فهو أقل وسيلية أو فاعلية في هذا السياق؛ لأنه لا يعطينا أي إلماعة أو تلميح إلى الجانب الخاص بالألفة المرتبط بالغرابة، كما تقول ديزي كانون Daisy Cannon. بل إن هناك من اعتبر هذا المصطلح: «الغرابة المقلقة»، نوعا من التحديد الشاذ، الناقص، بل المزعج الذي يصعب تضمينه في الخطاب الأدبي الخاص بالغرابة. وفي سياق التحليل النفسي، غالبا ما يترجم المصطلح إلى الغرابة أو الغريب etrange، أو يترك كما هو مستخدم في الألمانية Unheimliche. هكذا قامت هيلين سيكسو بالتعليق غير الودي على هذه الترجمة غير الملائمة، التي تعوزها الدقة، لمصطلح «الغرابة»، إلى «الغرابة المقلقة» في الفرنسية بقولها: إن هذه الترجمة بعيدة عن «روح المصطلح»، كما أنها تعزى إلى نوع من المقاومة لدى من ترجمه أو استخدمه من الفرنسيين لأي محاولة للتخلي عن بنية التفكير الديكارتية النمطية [16].

قد نفهم من دراسة فرويد للجذور اللغوية للمصطلح في اللغات الإنسانية أنه يدل على شعور الإنسان بأنه ليس في بيته في هذا العالم، أي ليس في مكانه الذي ينبغي أن يكون فيه. ومن ثم فإن الغرابة هي هكذا نوع من القلق الذي يرتبط بصور عقلية خيالية لدى المرء، وكذلك بحياته الواقعية أو الفعلية، وتهدد الغرابة استقرار الذات وتقلق راحتها. والغرابة إحساس يختل عنده الشعور بالتمايز بين ما هو مألوف وما هو غير مألوف، وهي تتعلق أيضا بوجود شيء غريب، لكنه يومئ إلينا أيضا ويذكرنا بشيء مألوف، كان قد أبعد عن الذات، كان قد كبت، نُسي، لكنه يعود الآن من جديد، ومن ثم فإن الغرابة هي مصطلح متعدد المعاني، ليس له معنى محدد، وهذا أحد جوانب غرابته أيضا؛ إنه يتعلق بالشك والالتباس العقلي، ويرتبط كذلك بعودة المكبوت، بالعلاقة بين الحياة والموت، بالموت الذي في الحياة، والحياة التي في الموت، بالتكرار والآلية والدمى، بالبشر الذين يكررون أقوالهم وأفعالهم حتى يصبحوا أمواتا مثل الدمى، بلا روح، وتماثيل شمعية، بالأفكار القديمة التي اعتقدنا أنها ماتت فإذا بها تعود وتصبح أكثر حضورا من الحياة والأحياء، بالتكنولوجيا التي تتحدث وتوجه وتراقب وتعاقب، بالقلق الذي ينتفي عنده اليقين، بتحول الأشياء إلى نقائضها، بوجود الأشياء مع نقائضها، بكل ما يبدو لنا غريبا، بعد أن كان مألوفا، بكل ما يظهر لنا موحشا، مع أنه كان لنا - من قبل - أليفا [17].

يفضل بعض الباحثين العرب ترجمة مصطلح uncanny الذي في الإنجليزية - والذي ترجمناه على أنه يقابل: «الغرابة الموحشة» في العربية - من خلال مصطلحات مثل: «الغرابة المحيرة»، كما يفضل ذلك أستاذ علم الجمال والنقد الفني التونسي محمد بن حمودة [18]. أما الناقد المغربي حسن المودن - ومعه آخرون - فيفضل استخدام مصطلح «الغرابة المقلقة»[19]، وقد فعل ذلك قبله الناقد المغربي «محمد برادة» في تقديمه لترجمة الصادق بوعلام لكتاب تودوروف عن الأدب العجائبي وترجمها بوعلام نفسه مرة بـ «الغرابة المقلقة» ومرة بـ «الغريب» ومرة أخرى بـ «الغرابة» ومرة بـ «الغرائبية»، ولكننا نظرا إلى ما أكدناه كثيرا خلال هذا الكتاب وكذلك خلال كتابنا السابق عن «الفن والغرابة»[20] فإننا نرى إمكان أن يترجم هذا المصطلح من خلال

كلمتي «الغرابة الموحشة»، مع ضرورة أن يضع القارئ في حسبانه أيضا تلك السياقات المعرفية المتنوعة للمصطلح التي تربطه بالخوف والحيرة والقلق والشك والالتباس والوحشة، فالغرابة - بطبيعتها - ليست مريحة، ولا مثيرة للشعور بالأمن والاطمئنان؛ بل محيرة ومقلقة، وربما مخيفة أيضا.

الغرابة في العربية

في الدراسات العربية القديمة والحديثة، هناك اهتمام بغريب الألفاظ، «وغريب القرآن»، وغريب الحديث، أي غريب الألفاظ، منها الحوشي والشارد والوارد. ولدى ابن منظور في «لسان العرب»: الغريب هو البعيد عن أرضه وعن ناسه، وقد قالت العرب: «قذفته نوى غربة، أي بعيدة»، وأصابه سهم غرّب، أي لا يدري راميه، واغترب فلان إذا تزوج من غير أقاربه، وقالوا: وجه كمرآة الغريبة، لأنها في غير قومها، فمرآتها أبدا مجلوة؛ لأنها ناصح لها في وجهها. وقالوا: «وخد كمرآة الغريبة»، والغريبة هنا هي المرأة التي لم تتزوج في قومها، فلا تجد في نساء ذلك الحي من يعنى بها، ويبين لها ما تحتاج إلى إصلاحه من عيب ونحوه؛ فهي محتاجة إلى مرآتها التي ترى فيها من ينكره من رآها، فمرآتها دائما مجلوة [21].

والغربة: النزوح عن الوطن والاغتراب والتغرب، وفي الحديث أن النبي، صلى الله عليه وسلم، سُئل عن الغرباء، فقال: الذين يحيون ما أمات الناس من سنتي. وفي حديث آخر: «إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء»، والمقصود: إن الإسلام كان في أول أمره كالغريب الوحيد الذي لا أهل عنده، لقلة المسلمين يومئذ، وسيعود غريبا كما كان، أي يقل المسلمون في آخر الزمان فيصيرون كالغرباء. وطوبى للغرباء أي الجنة لهم. ويقال كذلك رجل غريب: ليس من القوم، والغرباء: الأباعد. وفرس غرب: كثير العدو، وأغرب الرجل في منطقه إذا لم يُبقِ شيئا إلا تكلم به، وأغرب به: أي صنع به صنعا قبيحا. وأغرب الرجل إذا اسود وجهه من مرض أو غيره، وقال الأصمعي: أغرب الرجل إغرابا، إذا جاء بأمر غريب، والغربة: الحدة، واستغرب الدمع: سال، والإغراب: كثرة المال وحسن الحال. والغَربُ: الذهب، وأسود غرابي وغربيب: شديد السواد.

هكذا جمع معنى الغربة – في العربية – بين الحدة في النشاط والتمادي والماء والدمع الغزير واسوداد اللون، وكثرة أو اشتداد الضحك أو المرض أو الكلام، أو اللون، أسود أو أبيض أو أحمر... إلخ [22].

ومن معاني الغريب أيضا: الذهب والفضة والماء الذي يقطر بكثرة، والغرب والغياب وغروب الشمس، أو العدم، والنزوح عن الأهل، وغير ذلك من المعاني التي تشير إلى المبالغة في حدة قول أو انفعال أو حدث، وهي – في معظمها – معانٍ ترتبط بمفردات الحياة اليومية العربية القديمة كالإبل والماء والطيور والارتحال والعودة؛ وكلها معان مهمة أيضا في تفسير الغربة بالمعنى المكاني، واللغوي، وكذلك المعنى الاجتماعي المرتبط بالاستبعاد والنفي والتجاهل كما كانت الحال لدى التوحيدي مثلا، وقد تفيد كثيرا كذلك في تفسير الغرابة المرتبطة بكل ما هو غير مألوف، لكنها غير مفيدة في تفسير الاغتراب بالمعنى الفلسفي والوجودي، ولا الغرابة بالمعنى الانفعالي والجمالي الذي نقصده في كتابنا الحالي. لكن أقرب المعاني إلى «الغرابة» في العربية هو مفهوم الوحشة.

الغرابة والوحشة

فوفقا لما جاء في المعاجم العربية، وتحديدا «لسان العرب» لابن منظور، فإن كل شيء لا يستأنس بالناس هو وحشي، كما أنه: إذا أقبل الليل استأنس كل وحشي، واستوحش كل إنسي. والوحشة: الفَرَق أي الخوف من الخلوة والعزلة، ويقال: أخذته وحشةٌ، أي احتاج إلى من يستأنس به، واستوحش منه: لم يأنس به، فكان بالنسبة إليه كالوحش.

كما ارتبطت الوحشة لدى العرب كذلك بعالم السحر والجن، وبطبيعة المكان فقالوا: مكان موحش: خالٍ، وأرض وحْشة (بالتسكين): قَفْرٌ، وأوحش المكان من أهله وتوحش: خلا، وذهب عنه الناس، ويقال كذلك للمكان الذي ذهب عنه الناس: قد أوحش. وتوحشت الأرض: صارت وحِشة، أي خالية. وهكذا، فإن الوحشة ضد الأنس، ولا يكون أنس إلا بوجود البشر، وعندما يغيب البشر يصبح المكان قفرا خاليا؛ ومن ثم فإن الوحشة هي صفة للمكان الموحش، وصفة كذلك لشعور الإنسان في ذلك المكان الموحش عندما يكون وحده في عزلة.

وهناك معان أخرى للوحشة نذكر بعضها، فالوحش والموحش: الجائع من الناس، وكذلك الحيوان، لخلوه من الطعام، ويقال: توحش جوفه، أي خلا من الطعام، وبات وحْشا ووحِشا: أي جائعا، وأوحش الرجل وتوحش: جاع، وبتنا أوحاشا: أي جياعا. والوحشة كذلك: الهم، والخلوة والخوف والأرض المستوحشة الخالية، ويقال كذلك، وحش الرجل: إذا ألقى بثوبه وسلاحه، وجرى مخافة أن يُلحق به [23].

ويكون للمكان الموحش تأثيره البالغ في انفعالات الإنسان في حالات العزلة والجوع والخوف والافتقار إلى الأمن، فيبالغ في تصويره للأشياء وفي إدراكه لها، فيما سُمِّي بالتوهم، وهي حالة تحدث للإنسان والحيوان، وقد ذكرها الجاحظ في كتاب «الحيوان» في نص مهم نذكره باختصار، فقد ذكر الجاحظ في كتاب «الحيوان» ما قاله أبو إسحاق من أن أصل هذا الأمر وابتداءه، أن القوم لما نزلوا بلاد الوحش، عملت فيهم الوحشة، ومن انفرد وطال مقامه في البلاد والخلاء والبعد من الإنس استوحش، ولا سيما مع قلة الأشغال والمذاكرين. والوحدة لا تقطع أيامهم إلا بالمنى أو التفكير، والفكر ربما كان من أسباب الوسوسة.. وإذا استوحش الإنسان تمثَّل له الشيء الصغير في صورة الكبير، وارتاب، وتفرق ذهنه، وانتقصت أخلاطه، فرأى ما لا يُرى، وسمع ما لا يُسمع، وتوهم على الشيء اليسير الحقير، أنه عظيم جليل [24].

هنا يربط الجاحظ بين المكان الخالي الموحش وعمل العقل ونشاط التوهم وهيمنة الخوف وحضوره، حين تتغير أبعاد المدركات، وتتمثل الأشياء الصغيرة «للمتوحش» في صور كبيرة، فيرى «ما لا يُرى»، وقد يستسلم لخوفه ويصيبه الرعب، يزداد شعوره بالوحشة، يستوحش، وقد يصبح شاعرا، أو قد يكون بطبيعته كذابا، فيصبح «أصدق الكلام» - لديه - أكذبه»، فيصور في قصائده الغيلان والسعلاة وكل تلك الكائنات الخرافية، ويقول كيف صاحبها، أو قتلها، أو تزوجها.. إلخ؛ في محاولة منه لتحويل خوفه إلى طمأنينة، ووحشته إلى أنس وائتناس، وتوهمه إلى إبداع.

ليست الفروق بين الوحشة والغرابة حاسمة، لكن الوحشة ليست هي الغرابة، الوحشة قد تمهد الطريق لحدوث الغرابة، الوحشة حالة من الشعور

بالعزلة والخوف، قد تحدث معها الغرابة أو لا تحدث، الوحشة حالة ترتبط بالمكان الخاوي الخالي من البشر الذي يكون تربة خصبة لنمو مشاعر الخوف والتوجس والريبة والالتباس والغرابة، الغرابة خطوة تالية للوحشة، لكن الغرابة قد تحدث من دون إحساس سابق لها بالوحشة، الغرابة ترتبط بالخوف والرؤية أو السماع لغير المألوف المثير للفزع، غير الآمن، الغربة حياتية وفنية والوحشة غالبا حياتية، وقد تكون فنية أو أدبية، ليست هناك متعة جمالية خاصة في الوحشة الحياتية، في حين أن هناك مثل تلك المتعة في الغرابة الموحشة، أي في تلك الوحشة التي تتحول إلى إبداع. بعبارة أخرى، قد تمهد الوحشة لظهور الإبداع الجمالي، كما في الشعر مثلا، مثلما أشار الجاحظ - لكن الغرابة قد ترتبط أيضا بالتلقي والاستجابة - على نحو خاص - إلى أنواع معينة من الإبداع، وقد توجه من يشعر بها أيضا نحو الإبداع؛ ومن ثم فإن الترجمة الدقيقة التي نقترحها لمصطلح الغرابة Uncanny هنا، ونعتقد أنها أدق من غيرها هي: الغرابة الموحشة، حيث «الوحشة» تعلو على «الحيرة» التي اقترحها بن حمودة؛ وذلك لأن، الحيرة - بطبيعتها - معرفية أكثر منها وجدانية، ويعلو أيضا على «القلق» الذي قرن «المودن» بينه وبين الغرابة؛ وذلك لأن القلق قد يستثار من دون شعور ضروري ملازم له بالغرابة كما في حالات القلق العادية أو حتى المرتفعة التي قد نعانيها في الحياة، والوحشة إحساس وجودي مخيف، يرتبط بالفقد والفقدان والافتقاد والخوف من الموت أو الضياع أو من الإحساس المهيمن بالخوف نفسه.

وهناك مصطلحات أخرى كثيرا ما يخلط الناس - وكذلك النقاد - بينها وبين مفهوم الغرابة، ولعل أهم هذه المصطلحات ما يلي: الغربة، التغريب، الاغتراب.

الغربة والتغريب والاغتراب

«الغربة» غربة عن المكان بالسفر، أو النفي، أو الهجرة، لكنها قد تكون أيضا غربة في المكان كما كانت حال أبي حيان التوحيدي في حديثه عن الغريب بين أهله، وفي أهله، وفي وطنه [25]، أما التغريب فهو تكنيك فني

أشار إليه الشكلانيون الروس ونَظّروا حوله، كما فعل ذلك شكلوفسكي وزملاؤه، وقد استخدمه أيضا - على نحو خاص - الكاتب المسرحي الألماني المعروف برتولت بريشت كي يكسر فكرة الإيهام الأرسطي في المسرح. ثم إن الاغتراب هو تلك الحالة من فقدان السيطرة على الذات وقدراتها وملكاتها عندما يصنع الإنسان شيئا معينا: آلة مثلا، أو نظاما أو فكرة... إلخ، ثم يجد أنه بدلا من أن يسيطر على ما صنعه، يصبح ما صنعه مسيطرا عليه، وهكذا يتحول السيد إلى عبد، والعبد إلى سيد، كما أشار إلى ذلك هيغل، وماركس، وماكس شتيرنر، وماركوزه، وغيرهم.

وفي مبحثه «الفن كتكنيك»، قال الناقد الشكلاني الروسي فيكتور شكلوفسكي: إن إدراكنا، حتى للفن، يكون في البداية معتادا؛ ومن ثم آليا؛ ومن ثم فإننا «لا نرى» حقيقة الموضوعات التي نصفها؛ ولذلك فإن الغرض من الفن هو أن «يمنحنا ذلك الإحساس بالأشياء كما ندركها، وليس كما هي معروفة بالنسبة إلينا». ويكمن جوهر التكنيك في الفن في ضرورة أن يجعل الأشياء غير «مألوفة»، أن يجعل الجوانب الخاصة بها صعبة، من أجل أن يزيد من صعوبة وإطالة أمد إدراكها؛ وذلك لأن عملية الإدراك في جوهرها عملية ذات غاية جمالية في ذاتها؛ ومن ثم فإنها ينبغي أن تكون طويلة الأمد، فالفن هو طريقة للمعايشة للجوانب الجمالية من أي موضوع» [26]؛ ومن هنا فإن ذلك الجهد الشاق الذي يبذل في إنتاج قصيدة أو لوحة هو أمر ينبغي أن يشعر به القارئ أو المشاهد أيضا.

والإبعاد أو التغريب أو الانسلاخ هو التقنية التي ابتدعها برتولت بريشت كأسلوب للتمثيل ضمن أساليب المسرحة، يؤكد من خلاله الممثل على مسرحيته، نافيا أي إيهام من أي نوع، بأنه هو الشخصية الممثلة، وهي كمصطلح تعني اغتراب الاغتراب، أو نفيه وعزله، سلبه غرابته وشذوذه كحالة إنسانية عامة، وبالتحديد كوضع اقتصادي، وليس كحالة تمثيلية (أي كمفارقة) تشير فقط إلى المسافة القائمة بين الممثل والشخصية. والتغريب يسعى إلى تأكيد فصل شخصية المؤدي بوساطة سلسلة من العوائق أو الوقفات التي تثير دهشة المتفرج وتثير عقله بدلا من إثارة خوفه وشحن وجدانه، ومن هنا كانت دعوة بريشت ضد المسرح الأرسطي الاندماجي الإيهامي [27].

لقد انتقد شكلوفسكي الرؤية الخاصة للفن التي تعتبره نوعا من التقديم للمجهول في ضوء شـــروط المعلوم، وقال إن الأمر ينبغي أن يكون - بدلا من ذلك - نوعا من السعي من أجل توجيه انتباهنا إلى تلك الجوانب الغريبة في حياتنا، والتي لا نهتم بملاحظتها، وإنه بينما تشـتمل الخبرات العادية على عمليـــات خاصة بالاعتياد والألفة، تجعل عملية الإدراك للأشـــياء تتم بأقل جهد ممكن، فإن الفن والأدب، ينبغي لهما أن يطورا تكتيكات من أجل إبطاء أو إعاقة عملية التفحص أو التبين أو الإدراك للعادي، والتي تتم بشكل مريح ومألوف، وأن يتم ذلك من خلال وسائل تنزع هذه الألفة والاعتيادية والراحة عن كل ما هو مألوف، بأن تجعله غير مألوف، وربما غريبا [28].

في ضوء تعريف فرويد للغرابة، الذي ذكرناه من قبل، يكون «الغريب هو شيئا مألوفا، شـــيئا قديما راسخا في العقل»، أصبح مغتربا عنه من خلال عملية الكبت. لاحظ - أيها القارئ العزيز - الفرق، وكذلك العلاقة هنا بين غريب uncanny ومغترب alienated، ومن ثم بين الغرابة والاغتراب، فالشيء الذي أبعد عن العقل، والذي كان من نتاجاته، والذي كان موجودا معه، مألوفا له، تم إبعاده، تغريبه، كبته، لم يعد مألوفا له، لم يعد من ممتلكاته، لكنه مع ذلك يعود إليه، لأسباب عدة، مرة أخرى، يعود إليه في شكل مختلف يسيطر عليه، ومن ثم فإنه يصبح مخيفا، فنحن - مثلا - نحاول من خلال كل شيء نفعلـــه في الحياة أن نبعد عن أنفســـنا فكرة الموت، لكـــن هذه الفكرة كثيرا ما تعاود ظهورهـــا لدينا كل يوم، ثم في النهاية، يصبح هذا التكرار مهيمنا، وتصبح هذه الفكرة مخيفة، وأحيانا مرعبة.

وهـــذا هو جوهـــر فكرة الاغتـــراب أيضا كما شـــرحها هيغل وماركس وشـــيلنغ، ولكن في إطار تحليلي نفســـي، وفي تطبيق على أعمال إبداعية، وهو تطبيق ســـيفتح المجـــال لتطبيقات أخرى كثيرة في مجالات الفلســـفة والأدب والفن والسياســـة والعمارة. هكذا فإن المألوف، أو الذي كان مألوفا على مســـتوى الفرد (في طفولته خاصـــة)، أو الجماعة (في المراحل المبكرة من تطورها وتاريخها الماضي البعيد)، يعود في شـــكل غير مألوف، غامض، مخيـــف، غريب، من خلال هذه الحركة المتكررة الخاصة بالكبت ثم العودة. هكذا لا تتعلق الغرابة بعودة شيء مختلف غير الذي تم كبته أو نسيانه، لكن

بعودته هو نفسه، بألفته السابقة، فإنه يكون وبسبب الكبت الذي تم بالنسبة إليه، قد اكتسب الطبيعة المزدوجة الخاصة بشيء مألوف، لكنه مع ذلك يبدو لنا غريبا وغير مألوف، ربما بسبب الكبت، البعد الزماني، النسيان، وربما بسبب عودته بعد أن ظننا أنه لا رجوع له.

ويعد سول نيومان هذه الفكرة جوهرية في السياسة، فالسياسة هي محاولة لتكوين شيء جديد، ولكن من خلال الاستحضار أيضا للقديم، فالسياسة الأصولية مثلا مسكونة دائما بأشباح الماضي، بذلك التراث الثوري الذي مات، لكنه الذي ظل أيضا غير مدفون، لم يدفن بعد، جرى كبته أو إبعاده، لكنه يظل مصرا على العودة أيضا في أشكال مألوفة على نحو غريب.

في سياق آخر كتب فريتزمان A.J.Fritzman، عن الحنين إلى الماضي أو النوستالجيا أيضا، فقال إن نضالات الحركات العمالية وسردياتها - وكذلك التراث الخاص بالحركات الثورية - هي المكبوت الذي يظل يعود في أشكال جديدة متكررة ضد القمع، وحيث النضال ضد الظلم هو في الغالب سلوك ثوري، بمعنى أنه يشتمل على احتمالات عودة المكبوت، عودة المظلوم، عودة المكظوم، والمبعد الذي تم إقصاؤه أو نفيه (29).

هكذا قد تكون الغرابة هي المميزة أيضا لبعض الاتجاهات السياسية المحافظة، التي تعود إلى الماضي المكبوت وتبعثه بأشكال مألوفة (ملابس. كلمات. نصوص... إلخ) تبدو غريبة بمنطق العصر الذي تعود فيه. والثورات غالبا هي محاولة للعودة إلى نظام قديم، وأشكال قديمة من السلطة (الفاشية مثلا، القوميات مثلا). ويصاحب الغرابة نوع من الغموض الجوهري، ومثلما توجد حيرة معرفية تصاحب الغرابة، بالمعنى الفرويدي، فإن الغرابة السياسية هي دائما غير محددة، لا يمكن التنبؤ بها وفقا لمصطلحات دريدا؛ وذلك لأن تأثيراتها لا يمكن التنبؤ بها أيضا.

لدى هيدغر «الغرابة» - كما قلنا - هي كل ما يدفعنا ويلقي بنا بعيدا عن بيوتنا، بعيدا عن عالمنا، بعيدا عن كل ما هو مألوف ومعتاد وآمن، كما أن الغريب عن البيت unhomely غير المألوف، هو أيضا ما يعوقنا عن الوجود في بيتنا، وأن أكثر الموجودات غرابة هو الإنسان نفسه، وأن الكون نفسه

بكل كائناته غريب، وليس هناك من بين هذه الكائنات ما هو أكثر غرابة من الإنســـان. ولا يرجع ذلك فقط إلى أنه يقضي حياته وســـط كل هذه الغرابة الموجودة بهذا المعنى، أي وســـط كل ما هو غير مألوف ومخيف، ولكن أيضا لأنه هو نفسه يبعد عن كل تلك الحدود المعتادة والمألوفة الخاصة به، وكذلك لأنه أكثر الكائنات عنفا، الكائن الذي يتوجه دوما نحو الغريب، نحو السيطرة أو الهيمنة وتجاوز حدود المألوف [30].

عندما يصبح الإنســـان غريبا، بلا بيت مألـــوف، فإنه يصبح في حاجة إلى أن «يبني» مكانا آخر خاصا به، بيتا، مدينة، قانونا، كل ما يضع الأسس الراســـخة لوجوده، وهي تلك الأسس التي قد تصبح أيضا بعد ذلك، قيودا عليـــه تحاصره، ومن ثم تصبح غريبـــة عنه، ويصبح هو غريبا عنها. إنه قد يخلق مكانه الخاص، ويعلو فوق حالة فقدانه المأوى أو التشرد السابقة، لكنه قـــد يفقد أيضا طبيعته، حريته، يكتب مقدمات موته؛ ومن ثم قد يكون بيته الجديد هذا هو الشاهد الخاص الموضوع فوق قبره.

هكـــذا تكون الغرابة - في أحد معانيهـــا - نوعا من المواجهة بين الألفة الاجتماعية الحالية والغرابة القديمة المكبوتة أو الغريزية. والغرابة - هكذا - هي تلك العودة، لما كان مكبوتا داخل اللاشعور الفردي أو الجمعي، العودة التـــي هي جوهر عملية الانتياب، أو المراودة، أو تكـــرار الزيارة، العودة التي تحمل معها أشباح الماضي وظلاله، بالمعنى المخيف السلبي المهدد للاستقرار، وبالمعنى الإيجابي أيضا المرتبط بالإبداع، فقد يكون معنى الغرابة، ســـلبيا، لمن هم مستقرون اجتماعيا؛ وذلك لأنه قد يتناقض مع أفكارهم وانفعالاتهم الراهنة، وقد يكون إيجابيا - كذلك - لأنه قد يحمل معه قوة إبداعية تدفع نحو التغيير الاجتماعي للراكد، والمعتم، والمضطرب. هكذا قد يكون الغريب هـــو أيضا آخر مخيفـــا، والغرابة هي الخوفَ الناتجَ مـــن ظهور هذا الآخر المخيـــف أو المبعد وعودته - مـــرة أخرى - في البيت، والديار، أو في العقل، في الواقع، في الحياة.

هكذا يعتمد مشـــروع فرويد ومبحثه حول الغرابـــة على نوع خاص من التقريـــب للبعيد، فيـــه يحضر الماضي فـــي الحاضر، والطفولـــة في فترة الرشد، والميت داخل الحي أو معه، وفي ضوء ذلك الحضور الخاص للغائب،

والماضي، والموت، تظهر الغرابة وتتجسد وتنمو في عوالم شبحية، بينية، طيفية، لا يمكن أن نحكم عليها بقوانين الواقع المحددة، ولا أن نطرح - من خلالها - أسئلة محددة حول ذلك الواقع المادي المحدد الخاص بها.

وثمة مصطلح آخر وثيق الصلة بالغرابة، وشديد التداخل معه، وهو مفهوم «الجليل»، حيث قد تصل هذه العلاقة بينهما - في تصور البعض - إلى حد الخلط بينهما، كما فعل هارولد بلوم مثلا الذي اعتبر الغرابة هي الجليل الخاص بعصرنا.

الجليل والغريب

ظهر مفهوم الجليل Sublime في الفكر الغربي في النصف الثاني من القرن السابع عشر، عندما تُرجِمَ مبحث لونجينوس المعنون «حول الجليل» من الإغريقية إلى الإنجليزية، ثم تطور هذا المفهوم بعد ذلك من خلال كتابات إدموند بيرك، وكانط، وهما من شكلت كتاباتهما في علم الجمال جانبا مهمّا من هذا العلم في القرن الثامن عشر. فقد ميز بيرك مثلا بين الجميل والجليل، وقال: إن الفرق بينهما يشبه الفرق بين النور والظلام، حيث جوهر الظلام غياب الضوء وحضور الرهبة والخوف والرعب، وكل ما يجعل عالم العتمة والظلام ملتبسا، مخيفا، غامضا، غريبا، محيرا، غير مؤكد[31].

وقد ظهرت فكرة الجليل - كفكرة ليست بالضرورة جمالية فقط، ولكن كخبرة تتعلق بالوجود الإنساني عامة - في كتابات شيللر (حول الجليل)، ثم بعد ذلك في كتابات نيتشه، وعند نهاية القرن العشرين حدث اهتمام يشبه النهضة المفاجئة المتعلقة بهذا الموضوع، وبخاصة في أعمال ليوتار ودريدا وغيرهما من المفكرين ما بعد الحداثيين الذين أصبح هذا المفهوم - وإن بتنويعات مختلفة - مفهوما جوهريا في تفكيرهم، حيث أصبح الجليل هو القضية أو السؤال المتعلق بكل ما لا يمكن قوله أو تمثيله، لكنه الذي يكون - مع ذلك أيضا - موجودا ومتضمنا في كل تمثيل، فلدى ليوتار - مثلا - الجليل هو الحالة المطلقة أو الكلية لما لا يمكن تمثيله، والذي يوضع - داخل عملية التمثيل له - في الأعمال الفنية والأدبية أو

الفلسـفة مثلا، كعلامة على وجود «نقص في الواقـع»، و«افتقاد ما في الواقع» وهذا النقص والإحساس به ومحاولة فهمه، ومحاولة تجاوزه، هو جوهر ما بعد الحداثة في رأي ليوتار.

فـي النقد الثالث لدى كانـط - في كتابه «نقـد الحكم» (1790) - وفي قسـم بعنوان «تحليل الجليل»، مَيَّزَ هذا الفيلسـوف الكبير بين الحكم الخاص بالجميل، والذي يكون موضوعه غالبا هو غائية الشكل، تلك الغائية التي بلا غاية سـوى الرغبة في الاسـتمتاع بهذا العمـل الفني أو الطبيعي وبشـكله الجميل، ميز بينه وبين الجليل الذي لا موضوع محددا له في الفن أو الطبيعة، «فالجليل لا يمكن أن يحتوي داخل أي شـكل على حس محدد، لكنه يتعلق بأفكار العقل» .. هكذا فإن المحيط الشاسع الذي تتلاطم أمواجه بفعل عواصف عاتية لا يمكن أن يسـمى جليلا. إن منظره المرعب لا يكفي وحده لتكوين الإحساس بالجليل. إن المرء لا بد أن يكون قد امتلأ عقله فعلا حينئـذ بكل أنواع الأفكار المرتبطة بمثل تلك الحدوس حتى يناغم بينها معا في إحساس ما نسميه الجليل [32].

وهكـذا فإنه بينما يتعلق الإحسـاس بالجميل بموضوع معين، وخبرة ذاتية معينة، هـي الإحسـاس الجمالي، أو حكـم الذوق المرتبط بموضوع جميل (لوحـة . منظر طبيعي... إلخ)، فإن الموقـف مختلف - على نحو جوهـري - فيما يتعلق بالجليل، فنحن لا نسـتطيع أن نقول عن موضوع معين إنه جليل، لكننا نقول عنه إنه مخيف، أو مقبض، أو مثير لمشـاعر التهديد... إلخ. في الجميل، هناك شـيء يناسـب ذوقنا الجمالي، شيء خاص بلونه، أو شكله، أو حركاته، أو كل ما يسميه كانط الغائية الخاصة بالشـكل الموجودة في الجميل، حتى لو كانت تلـك الغائية بلا غاية، أي بلا هدف نفعي محدد. في الجليل ليسـت هنـاك هذه الغائية الخاصة بالشكل، فليسـت هناك أشكال محددة في الطبيعة أو الفن يمكن القول عنها إنها هـي الأساس الذي يمكن أن نتنبأ من خلاله بالجليل، حيث هنا وعلـى نحو واضح نقص تام في الاتفاق بين الأشـكال الطبيعية والمبادئ الموضوعية التي ترتب هذه الأشكال من «الحدوث» وتنظمها. في الجميل ثمـة نظام يمكن تحديده، أو التنبؤ به، ثمة ثبات نسـبي، أما في الجليل

فليـــس هناك مثل هذا النظام أو القابلية للتنبؤ، أو التحديد، ثمة فوضى مـــا، غموض ما، عبور للحدود ما ومن خلال ذلك كله، تســـتثير الطبيعة لدينـــا أفكارنا الخاصة بالجليل، وقد يحدث هذا أيضا في تلك الحالات التي تكون الطبيعة فيها أكثر جموحا وتخريبا وتدميرا كالزلازل والبراكين والعواصف والفيضانات وغيرها.

هكذا يتعلق الجليل بالأفكار والخبرات غير المحددة، لكنها أيضا المثيرة للقلق، الغامضة، المتعلقة باللحظة الراهنة، الخاصة بالمجرد، غير المحدد، كحالات في الطبيعة، وفي الفن أيضا (ومن هنا كانت جاذبية هذه الأفكار تلك لأنصار الاتجاهات التجريدية في الفن). والوصف العام لحالة الجليل عند كانط وصف قريب من ذلك الوصف العام للغريب كما سيلي تفسيره عند فرويد بعد ذلك، إلا في بعض الفروق التي سنذكرها في حينها.

هكذا يكون الإحساس بالجليل - وفقا لكانط - هو خبرة جمالية، لكنها خبرة غير ســـارة، غيـــر ممتعة بالمعنى المألوف لكلمة متعـــة كما هي الحال فيما يتعلق بالموضوعات الجميلة، إنها خبرة تقوم على أساس القلق والخوف وانعدام اليقين، خبرة تحدث عندما يفشـــل الخيـــال في القيام بالحدس أو الفهم المباشـــر لموضـــوع جليل. وكذلك فإنه عندما يفشـــل العقل في تكوين تمثيـــلات محددة خاصة به، هنـــا يدخل الانفعال الذي هـــو مزيج هنا من الخيال والعقل والحساسية، كي يتفهم هذه الخبرة غير المريحة، ومن خلال هذا التفهم الحدســـي لســـيطرة القوة العقلانية الخاصة بنا - على كل تلك القـــوى اللاعقلانية الخاصة بالحساســـية والانفعال - قـــد تصبح خبراتنا بالجليل في النهاية ممتعة [33].

وقـــد عـــرف فرويد الغرابة فـــي العام 1919 أيضـــا بأنها: «حالة انفعالية، إحســـاس، خبرة تتعلق، من دون شـــك بمـــا هو مخيف، بما يستثير الفزع والرعب». ووفقا لما قاله هارولد بلوم وآخرون بعد ذلك، فإن مفهوم فرويد عن الغرابة هو - على نحو جوهري - نفســـه مفهوم «الجليل»، وإن الخبرة المخيفة التي وصفها فرويد من خلال هذا المفهوم هي الخبرة نفســـها التي وصفها بيرك أو كانط أو غيرهما من خلال مفهوم الجليل أيضا[34].

على كل حال، هناك أوجه تشابه لا يمكن إنكارها بين الجليل والغريب من المشاعر والخبرات، وذلك لأنهما - كليهما - خبرات جمالية تقوم على أساس «علم نفس الخوف»، لكن ذلك الخوف في حالة الغرابة قد لا يمتزج دائما بالمتعة أو السرور، كما هي حال الشعور بالجلال لدى بيرك؛ وذلك لأن الخوف - أو على الأقل الحيرة - يكون هو المهيمن على الغرابة في الفن والأدب، وفي الحياة أيضا، حيث قد لا تنتهي تأثيرات الغرابة بانتهاء مصدرها الذي أثارها، فهي قد تكون حالة مقيمة مع الفرد تنام معه، وتصحو معه، وترتحل بارتحاله؛ وذلك لأنها ليست مجرد حالة مزاجية وجدانية انفعالية، تدرك على بعد، ومن مسافة، كما هي حال الجلال؛ بل خبرة مزاجية انفعالية ومعرفية، والجانب المعرفي فيها يشبه الجانب الانفعالي، أي أنه غير محدد، غير واضح، غير مستقر، ولا يسكن بيتا خاصا به، إنه هائم عابر للحدود، بيني، ملتبس وشكوكي، يتعلق بالحيرة وفقدان اليقين كما أشار ينتش إلى طبيعته، وقبل أن يقوم فرويد بذلك بعدة سنوات.

وهكذا فإن الجلال أو الجليل - في ضوء ما قاله بيرك وكانط - خبرة تشتمل على مواجهة بين الذات المدركة وموضوع قوي مهيمن، وكذلك على اختلاط وتداخل للحدود بين الذات والموضوع، ثم أخيرا على وصول إلى رؤية كلية ناتجة من الخلط أو التداخل أو التضبيب أو الغموض لهذه الحدود. ووفقا لبيرك، تختفي الذات لا إراديا، هنا، داخل الموضوع، في حين أن الذات - وفقا لكانط - تؤكد هنا تفوقها على الموضوع من خلال احتوائه في عقلها. وما هو مهم هنا، سواء لدى بيرك أو كانط، هو أن تلك الفروق بين الذات والموضوع تُمّحَى أو تُطْمَس بدرجة ما. وهذا المحو للحدود هو جوهر خبرة الجلال كما حددها هذان المفكران الكبيران، وجوهر خبرة الغرابة لدى فرويد أيضا.

هكذا فإن أي شيء يوحي لنا بالأفكار المخيفة المتعلقة بالألم والرعب أو الموت هو جليل، مع ملاحظة أن الذعر هنا إنما ينبعث أو يصدر من مجال أو ميدان الأفكار، وليس من المواجهات المادية الفعلية مع ما تمثله هذه الأفكار في الواقع.

ووفقا لما قاله بيرك كذلك، فإن الألم والخطر والموت ليست أمورا جليلة في ذاتها، لكن الأخطار الخاصة بها هي التي تلهمنا، وتولد لدينا الشعور بالخبرة أو المشــاعر الجليلة؛ فنحن نعلو بالخوف، نجعله عاما وكونيّا وميتافيزيقيّا، يتحــول إلى تهيب غير محــدد زمانيّا أو مكانيّا، ومن ثــم فإنه يصبح غير مصاحب لنا على نحو خاص، كما أننا نبتكر وسائل أيضا لمواجهته أو الألفة معه، بــل والحصول على مكافآت خاصة من خلاله أيضا، وفي ضوء أفكار الثواب والعقاب، وهذه تفرقة مهمة بين وجود مصادر الخوف في الواقع فعلا (الرعــب أو الخوف الحقيقي) وبين وجــود هذه المصادر على نحو تصوري، كمــا في ذلك الرعب أو الخوف المتخيل من خلال الأدب والفن خاصة [35]. وسوف نخصص قسما كبيرا من الفصل الثالث من هذا الكتاب للحديث عن انفعال الخوف وعن السرد المخيف أيضا.

وتظــل الفروق موجودة بين الجــلال والغرابة، فالجلال - بوصفه خبرة متصورة - خبــرة قد تكون أحيانا ممتعة وأحيانا مؤلمة، ليس هو ذاته خبرة الغرابة، فالغرابة - في رأينا - أوســع مدى، وأكثر عمقا من الجلال؛ وذلك لأن الجلال يرتبط بمصادر خــارج الذات، أما الغرابة فترتبط بأمور داخل هذه الذات وخارجها أيضا، وفيها عبور للحدود، واجتيازها، بشــكل يفوقه على نحو بعيد.

عن المواجهة مع الجليل الغامض المخيف عامة، والسياســي منه خاصة، ومــا يحدثه من خواء، قال ليوتار: «ليس هناك، هنا، ســوى الرعب، الرعب المتعلق بالفقدان، فقدان الضوء ورعب الظلام، فقدان الآخرين ورعب الوحدة، فقدان اللغة ورعب الصمت، فقدان الموضوعات ورعب الخواء، فقدان الحياة ورعــب الموت. ما هو مخيف هنا، هو أن ما يحدث لا يحدث، بل إنه يتوقف عن الحدوث أيضا»[36].

ولــدى ليوتــار أيضا، فإنه من أجل أن نفهم أنســاق الممارســات الفنية للنــداء الباطنــي الخاص بالجليــل، ينبغي أن يتعلق المــرء - أو يفكر - في تلك الممارســات على أنها تنشــأ أصلا نتيجة تلك الحالة الخاصة المتمثلة في عدم تكافؤ الواقع - أو تناســبه - مع مفهوم معين أو عدم كفاءة مفهوم معين، أي عجزه عن تفسير بعض جوانب الواقع أو مظاهره، وكما جاء ذلك

- ضمنـــا - في تصور كانــط للجليل. هكذا اتخذ ليوتار مفهوم الجليل لدى كانط بوصفه اســتعارة دالة على البرنامج - أو الأجندة - ما بعد الحداثية الكلية، هكذا أصبح لمفهوم كانط حول الجليل - بعد تطويره بأشــكال عدة - دور أساســي فــي الخطاب ما بعد الحداثي، حيــث رُبط بينه وبين حالة «اختلال الشــعور بالواقع» Derealization (كما سنتحدث عنها في الفصل الرابــع من هذا الكتاب)، كما أقيمت صلات بينــه وبين الطرائق الإبداعية المبتكرة الخاصة بالتجســيد أو التصور لفكرة «التمثيل لما لا يمكن تمثيله»، كما في محاولة التمثيل أو التمثل للموت أو الخوف أو الرعب أو القلق مثلا، من خلال استخدام التكنيكات التصويرية (في حالة الرسم وفن التصوير)، أو التكنيكات النصية في حالة الأدب، وهكذا فإن هناك شيئا ظاهريًا - أو غير حقيقي - يتعلق بالمستحيل الخاص بالجليل، ويتعلق كذلك بعرضه من خلال بنيات دالة وهو أمر جوهري فيما يتعلق بالغرابة أيضا [37].

فرويد ونظريته حول الغرابة

في مقالة حول «الغرابة» (1919)، طرح فرويد نظريته حول تلك الحالة الخاصــة من التفكير، التي تكون قريبة مــن الخوف والألم والرعب، ولكنها التــي يصعب أيضا تعريفها أو تحديدهــا على نحو دقيق، «إنها فئة المخيف التــي تعود بنا إلى شــيء مألوف كان مألوفا منذ وقــت طويل». وكي يعرف فرويد هذا المفهوم على نحو أكثر دقة؛ لجأ إلى المفهوم المقابل: غير المألوف، وقال إن الغرابة مفهوم ملتبــس أو مزدوج يجمع بين المألوف وغير المألوف، الآمن والمخيف، كالبيت الذي قد يكون آمنا مطمئنا مريحا، أو يكون مهجورا، مخيفــا، مثيرا للاضطراب. والغرابة هــي - هكذا - ذلك المزيج بين هاتين الحالتين، وهي أيضا تحول إحدى هاتين إلى نقيضها، أي تحول المألوف إلى غير مألوف، وتحول غير المألوف إلى مألوف، حضور الحي في الميت، والميت في الحي، حضور الماضي في الحاضر، والحاضر في المستقبل [38].

هكذا يغطي مفهوم «الغرابة» سلســلة من الفئات الدلالية؛ فمن ناحية يرتبط هذا المفهوم ببيت الإنسان، بوطنه، بمكانه، بالمجال المألوف والحميم الخــاص به، لكن، من ناحية أخــرى، يتعلق هذا المفهوم أيضا بكل ما يبعد

الإنســـان عن وطنه، عن مكانه، عن مجالـــه الحميم والمألوف والآمن؛ ومن ثم فإنه يرتبط بالسري والمراوغ الغامض، بشيء ينبغي أن يظل خفيّا، لكنه يظهر - فجأة - كشــيء غريب أو دخيل، أو أجنبي، داخل ســياق أو مناخ مألوف، أي أنـــه مفهوم متناقض معرفيّا، ووجدانيّـــا، يحتوي على الحالةً ونقيضهـــا، أي على الحالة (الألفة مثلا) التي تتحول تدريجيا إلى نقيضها (فقدان الألفة مثلا). وتكون الغرابة موجودة في أقصى درجاتها في علاقتها بالموت وأجساد الموتى، بفكرة عودة الموتى إلى الحياة، وكذلك بفكرة الأشباه والظلال والأرواح والأشباح.

إذن، الغريب شيء كان ينبغي أن يظل خفيّا، لكنه يظهر الآن - كشيء دخيل. داخل ســياق مألوف، داخل المجال الحميم المعروف، وهكذا، فإنه ووفقـــا لفرويد أيضا، فإنه «خلال الاســـتخدام لكلمة «بيت» يحدث تغير في المنظـــور المتعلق بها: تغير من حميمية «البيت» التي داخله، في اتجاه الموضع الخاص بشـــخص ما، أو شـــيء آخر خارجه، شخص أو شيء قد يجعل ذلك البيت يتحول من شيء آمن أليف إلى بيت يكون عرضة للتهديد والمؤامرات، بحيث يصبح «مســكونا» بالأســـرار المرتبطة بالخوف وليس الأمن، كما كانت حاله من قبل [39].

وقـــد يصبح هذا الانتقال من المألوف إلـــى غير المألوف والخفي، تحولا محفوفا بالأخطار عندما تصبح هذه الأسرار مرئية، أي عندما تنتج عملية تحول للمألوف إلى شـــيء ما نميزه على أنه قابل للتعرف عليه، لكنه غريب أيضا، أو شـــبح، وهكذا فإن أهم ما يميز الغرابة هو ذلك الغموض المشـــوب بالخوف نوعا ما، المصاحب له.

ويتفق هذا مع ما ذكره ينتش قبل فرويد من أن الشرط الجوهري لظهور الغرابة هو تلك الحيرة المعرفية، حالة الالتباس والشك والافتقار إلى اليقين المصاحبة لها، وهكذا فإن الغموض الملازم للغرابة إنما ينشأ أيضا عن ذلك التداخـــل بين الفئات المعرفية ودلالاتها، حيـــث غير المألوف ينبغي أن يكون النقيض المعاكس للمألوف.

ولكن، وحتى على مستوى اللغة والمعنى، فإن البيت المألوف، بيت ينبغي أن يظل خفيّا أيضا، ســـريّا أيضا، له أســـراره أيضا، غير مألوف أيضا،

لمن هم ليسوا من أصحابه، لمن هم خارجه، حيث تكون سريته الخفية هذه غير المألوفة - لمن هم خارجه - مألوفة، أو هكذا ينبغي أن تكون بالنسبة إلى أهله، لكن «غرابة الغرابة» هنا هو أن هذا البيت المألوف، قد يصبح أحيانا، وربما فجأة، غير مألوف حتى بالنسبة إلى أهله، لماذا؟ لأن هناك أسرارا خفية كان أهله قد اعتقدوا أنها اختفت أو نُسيت، ثم سرعان ما يكتشفون - فجأة - أنها قد عادت إليهم من جديد، ربما لتكرار الألفة والسرية (عوامل داخلية)، أو لظهور آخر غريب عن العائلة والبيت جاء من بعيد (عوامل خارجية)، أو ربما كان ذلك الآخر ينتمي إلى البيت من قبل، ثم تم كشف الغطاء عن بعض الأسرار الخاصة به أمام قاطني ذلك البيت، فجأة أو تدريجيّا، ومن ثم يصبح هذا البيت المألوف غير مألوف، كما أن أسراره الخفية لن تعود - هكذا - خفية؛ بل ستكون مؤججة لأحاسيس الغرابة الناتجة من هذا الكشف الخاص للأسرار، وربما حدث هذا الكشف الخاص للأسرار بفعل عوامل داخلية، أو بفعل عوامل خارجية - كما قلنا لفورنا - وأحيانا بفعل عوامل تجمع بين الداخل والخارج؛ وذلك لأن البيت في جوهره كتيمة أو وحدة معرفية أو معمارية أو جمالية، إنما يجمع في جوهره وتكوينه بين هذه الثنائية الخاصة بالداخل والخارج، الداخلي الأليف المألوف الذي يتحول إلى داخلي غير أليف ولا مألوف، والخارجي غير المألوف الذي قد يصبح تدريجيّا - أو فجأة - مألوفا، ولكنه قد لا يصبح أليفا أيضا، بل يظل هو الغريب الموجود في الداخل، وبدرجات عدة من الألفة والتآلف، وبتكوينات تشتمل على الغزاة المستعمرين، وعلى الزائرين المغادرين أو المقيمين، وعلى أشباح الأفكار والذكريات والمشاعر التي تنتاب المنازل أو البنيات المعرفية والوجدانية لأصحابها [40].

هكذا، فإنه مثلما قد تسكن الأشباح البيوت المهجورة أو المأهولة، فإنها قد تسكن أيضا الفئات المعرفية والانفعالية، قد تسكن الأفكار والتصورات والانفعالات الوجدانية والأبيات الشعرية، وكل ما يبقى بعد غياب أصحابه الأصليين، الأوائل، آهلا بهم، مثل منازل أحبة أبي الطيب المتنبي التي أقفرت منهم، لكن سكانها، أصحابها، أحبة الشاعر،

لا يزالون يسكنون قلبه، لا تزال أشباحهم تروده وتربطه بهم، وهناك علاقة ما بين البيت الذي نسكنه، والبيت الذي يؤلفه شاعر كالمتنبي، حين يقول:

لك يا منازل في القلوب منازل

أقفرتِ أنتِ وهنَّ منكِ أواهلُ

وحيث إن الغرابة إنما ترجع في جوهرها إلى أن «الغريب قد أصبح يسكن داخل المألوف»، وأنه لم يعد هناك يقين لدى المرء بخصوص كل ما يحدث له أو حوله، فإن هذا الغريب عندما يظهر داخل المجال الأليف والبيئي، وبالقدر الذي يهز عنده حالة الاستقرار واليقين، فإنه يكون مثيرا لمشاعر الخوف، وممثلا أيضا لعنصر مهدد منذر بالخطر. باختصار، الغرابة - كما يقول بعض النقاد. أمثال ديل فيلانو فيلاشيني - أشبه بالهيكل العظمي الذي يظهر ويتحرك في غرفة خاصة يخلو فيها امرؤ إلى نفسه، إنها الشبح الذي ينتاب البيت، أو العقل، فيسكن الآخر داخل الذات. ووفقا لما جاء في بعض القواميس، وذكره فرويد أيضا، فإن «غير المألوف» قد يكون هو المكان الذي تسكنه الأشباح.

تجاهل وتذكر مفاجئ

الجدير بالذكر هنا أنه بعد ذلك التجاهل الطويل لذلك المقال الذي ظهر في العام 1919، أصبح ينظر إليه على أنه أحد الأعمال المفككة لذاتها، بل المدمرة لذاتها أيضا، حيث تمت فيه المعادلة أو المساواة بين الغرابة في ذاتها والجوهر الخاص بالأدب. كما تم اعتبار الأدبية، أو جوهر الأدب، من خلاله أيضا، قوة مزعزعة، تهز الاستقرار، كان مقدرا لها أن تلحق الفشل بكل تلك المحاولات التحليلية النفسية الاختزالية لفهم الغرابة. ومنذ منتصف سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته، وفي ضوء التأثيرات المهمة لكتابات هيلين سيكسوس، وسارة هوفمان، وليز مولر، وغيرهن، بدأ النقاد يرون في ذلك المقال الذي كتبه فرويد ليس مجرد نص كتب حول موضوع يتعلق ببعض الاهتمامات السيكولوجية، بقدر ما يمثل نوعا من الخيال الأدبي (كما قالت سيكسوس)، أو حتى «الرواية النظرية» (كما قالت هوفمان)، إضافة إلى كونه

أيضا سلاحا يمكن أن يفتح الباب أمام الدراسات الجمالية عامة، والنقدية والأدبية خاصة. إن هذا النص حول الغرابة هو في ذاته نص غريب، إنه نص ينتهي به الأمر إلى أن يحاكي الموضوع الذي حاول أن يستكشفه، أو يفهمه، ويحيط به. لقد انتهى به الأمر وبصاحبه إلى أن يقعا تحت طائلة الغرابة ذاتها، وهي غرابة لا تزال تلقي بظلالها وثمارها على كثير من الدراسات الجمالية والأدبية، بل السياسية والاقتصادية والمعمارية والثقافية بشكل عام، كما عرضنا لذلك في كتابنا «الفن والغرابة» (41).

الغرابة - لدى فرويد - ليست شيئا جديدا أو أجنبيًا، لكنها شيء مألوف راسخ منذ القدم في العقل، قد غُرِّبَ أو أُبعِد، منذ وقت طويل، بفعل التربية، والحضارة، والأعراف الاجتماعية، والدين، وعمليات الكبت له على نحو خاص، لكنه يعود - مرة أخرى - إلى الحياة، يكرر حضوره وظهوره، ذلك الذي يكون غريبا على الرغم من اعتراف فرويد بأنه في بعض ميادين السرد التي يحدث فيها وقف أو تعليق مؤقت لحالة عدم التصديق (كما في الحكايات الخرافية مثلا، والفكاهة المرتجلة، وملحمة دانتي، وبعض أعمال شكسبير التراجيدية... إلخ) تكون هناك أشياء كثيرة ليست غريبة، لكنها ربما تكون كذلك غريبة، لو حدثت في الحياة الواقعية؛ وذلك لأن الأشياء تتغير لحظة أن يتظاهر الكاتب بأنه يتحرك في عالم الواقع المألوف، بحيث يكون تحركه هكذا غير مألوف؛ ومن ثم يقدم لنا السرد الخيالي فرصا كثيرة لخلق تلك الأحاسيس بالغرابة، أو تكوينها، أكثر من الفرص الممكنة الخاصة بها في الحياة الواقعية (42).

ومن المهم هنا أن ننتبه إلى أن الجانب الخاص بالآلية، بالتكرار، وكذلك التكنيك، هو جوهر الغرابة، إنه آلية، أي ميكانزم خاص بالتركيبات الميكانيكية؛ وذلك وفقا لما يقوله بونتر، أن ما يواجهنا عندما ننظر إلى الأعماق، أعماق العمل الفني، أعماق المحيط في قصيدة «الملاح القديم» لكولريدج مثلا، أيّا ما كان ما يبدو عليه ذلك العمق من تلألؤ خادع للوهلة الأولى، ليس هنا هو وفرة أو غزارة من الوحوش الآلية؛ بل سلسلة من الآلات تتدفق بنعومة تحت السطح، كما هي الحال في كثير من أعمال الخيال العلمي وقصص الرعب. وكما هي حال «السيبورغ» الكائن المهجن من إنسان وآلة، يلجأ الشاعر والفنان إلى المزج بين الميت والحي، مجموعة من الكلمات والصور والألوان

والأشكال والنغمات يربط بينها، يبث فيها الحياة بالإيقاع والوزن والموسيقى، ومن ثم فالسيبورغ موجود في جوهر الفن، ربط بين إنسان وآلة، بين حي وميت. هنا يتخلق كائن جديد، غريب، وأقرب إلى طبيعة الأشباح [43].

في مقاله عن «الغرابة»، أشار فرويد - فيما يشبه الشكوى والتعجب - إلى أن علم الجمال لم يهتم كثيرا قبله، بهذه الجوانب غير السوية أو الشاذة أو المنحرفة، وكذلك الأمور الكريهة أو البغيضة أو المنفرة (أو المتنافرة) في الأعمال الفنية.

وقد كان فرويد - من جانبه - كأنه كان يشعر بمتعة خاصة وهو يقول ذلك، وكأنه أول من انتبه إلى هذا الأمر، وكأن موضوع الغريب لم يكن له أدنى تراث قبله، ومع ذلك فقد كان فرويد مضطرا إلى أن يذكر استثناء وحيدا في هذا الشأن، وقد ذكره على مضض، وفي نوع من الاستعلاء، وقد كان ذلك الاستثناء متعلقا بإرنست ينتش E. Jentsch، وهو عالم نفس ألماني ولد في العام 1867، وكانت له اهتمامات ثقافية وسيكولوجية متعددة ظهرت في أعمال كثيرة له لا نعرف عنها في العربية شيئا، ومنها - تمثيلا لا حصرا - دراسات حول الهيستيريا، وحول الموسيقى والعصابية، وقد ظهرت هذه الدراسة الأخيرة بين عامي 1904 و1911، وأشار خلالها إلى أن هذه التأثيرات الغريبة في السلوك إنما تظهر على نحو خاص في الموسيقى، وقد ترجم ينتش كذلك بعض أعمال هافلوك إليس، ولومبروزو، إلى الألمانية، وكثيرا ما تشير الدراسات الخاصة بالغرابة إلى دراسته التي ظهرت في العام 1906 على أنها ذات أهمية ثانوية مقارنة بدراسة فرويد الشهيرة التي ظهرت في العام 1919، هذا مع أن كثيرا من الأفكار التي طرحها ينتش مبكرا قد ترددت أصداؤها لاحقا، صراحة أو ضمنا، في دراسة فرويد الشهيرة عن «الغرابة».

ووفقا لما قاله ينتش، فإن الإحساس بالغرابة هو شعور ينشأ عن خبرة معينة تتعلق بحالة من الالتباس أو عدم اليقين، أو عدم القدرة على الحسم أو التحديد، وهو تفسير اعتبره فرويد غير دقيق؛ ومن ثم فإنه قال إن غير المحدد أو الملتبس لا يمكن تحمله أو قبوله كتفسير نظري لحالة الغرابة، هذا مع أن هذه الفكرة ذاتها، قد ترددت أصداؤها مع غيرها في كتابات فرويد، إضافة إلى أفكار أخرى مهمة له [44].

وعلـــى الرغم من هذه الأفكار المهمة، فإن فرويد قال إنه غير مقتنع تماما بما قاله ينتش، لكنه اعتبر ما قدمه نقطة البداية له فقط؛ وذلك لأنه قد ذكره بكاتب آخر كان مهتمّـــا أكثر من غيره بخلق تأثيرات غرائبية لدى قارئه، وهو الألماني هوفمـــان E.T.A. Hoflmann الذي نجح في أن يجعل القارئ يتعجب ويدهش حول ما إذا كانت شـــخصية معينة شـــخصا حقيقيّا أو دمية مخلقة تتحرك، وقد كان يفعل ذلك ببراعة فنية تجعل انتباه القارئ لا يتركز على نحو مباشر على حالة اللايقين هذه. وقد استخدم هوفمان تلك المناورة السيكولوجية بنجاح كبير في كتاباته الخيالية، كما أشار ينتش قبل فرويد أيضا.

في دراسته هذه عن «الغرابة»، كرس فرويد قسما كبيرا منها للحديث عن قصة «رجل الرمال» للكاتب الألماني هوفمان، وقد ركز على الشخصية المحورية فيها، وهي شـــخصية: ناثانيل، الشاعر، وعلاقاته بتجليات عدة من صورة الأب أو شخصيته كما ظهرت في شخصية الأب الفعلي لناثانيل، وظهرت أيضا في شـــخصية المحامي وصديق العائلة المسمى كوبوليوس، وصانع عدســـات يسمى جيوسبيبي كوبولا (والذي يبدو وكأنه ليس سوى كوبوليوس، ولكن تحت قناع آخر)، ثم أستاذ يسمى سبالانزاني. ويعد والد ناثانيل الفعلي، وكذلك ســـبالانزاني، من الشخصيات الطيبة الخيرة، أما كوبوليوس/كوبولا فهما من الشـــخصيات الشـــريرة، وقد كان ناثانيل في طفولته يشعر بالرعب من مجرد ذكر اسم كوبولا، فهو «رجل الرمال»، أو «المنِّـــوم» الذي يجيء في أثناء الليل ويذر الرمال في عيون الأطفال الذين يرفضـــون النوم، فتُقتلع عيونهم من محاجرها، ويحملها معه إلى أطفاله الذين يسكنون القمر كي يطعمها لهم، وقد كانت تلك مجرد حكاية، حكاية خرافيـــة تحكيها الأمهات لأطفالهن حتى يخافوا ويســـتغرقوا في النوم، لكن خلال النوم، تتجســـد تلك الصور المخيفة في أحلامهم وكوابيسهم، ثـــم تبقى معهم حتى يفاعتهم، وعبر مراحـــل أعمارهم التالية أيضا [45]، ولســـوف نقدم ترجمة كاملة قمنا بها لهذه القصة في الفصل الثامن من هذا الكتاب، وكذلك بعض القراءات النقدية الحديثة لها ولدراسة فرويد حولها في الفصل التاسع منه.

والخلاصة أنه، في ضوء تعريف فرويد لها فإن الغرابة تنطوي على فئتين، أو أنها تأخذ شكلين هما:

1 - إما أنها تتصل بمراحل من التطور الثقافي للإنسان يفترض أنها انقضت ومضت (كما في حالة المعتقدات البدائية التي تستحضر وتؤكد مرة أخرى بسبب بعض الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كما نلاحظ ذلك في أماكن كثيرة من العالم الآن من خلال ذلك التزايد في النزعات المحافظة والأصولية).

2 - وإما أنها تتصل بمراحل ماضية سابقة من نمو الفرد السيكولوجي، كما يحدث مثلا عندما تحدث استثارة استعادة أو تذكر لبعض العقد الخاصة بمرحلة الطفولة بواسطة بعض المواقف الحالية، أو بعض الانطباعات الحسية، أو الإدراكية، فتُبعث حية من جديد لدينا.

وقد اهتم فرويد - إلى حد ما - بتلك الخبرات الغريبة التي تتعلق بالنوع الأول، المعتقدات البدائية التي يتم استحضارها، أو التي تحضر، وتظهر أمامنا، في وعينا، أو لاوعينا، والتي ترتبط - أكثر من غيرها - بعالم الروح، وعالم الأرواح، وبالقدر، والمصير، والموت، لكنه وجه اهتمامه الأكبر نحو ذلك النوع من المخاوف والخبرات الغريبة، كما أنه قام أيضا بالربط بينها كذلك وبين الخوف الجماعي، الذي ينتمي إلى الماضي البعيد للإنسان[46].

عن التكرار

إحدى الظواهر المسؤولة عن تحول المألوف والعادي إلى غير عادي وغريب، هي ذلك الحدوث المتكرر له، ذلك التكرار الذي يفرض نفسه على الذات مرة بعد أخرى، مثلا: قد يمشي شخص في مدينة صغيرة ويجد نفسه، كأنه كان - ضد إرادته - يعود إلى الشارع الضيق نفسه الذي بدأ منه، الشارع الخالي من البشر، هنا قد يصاب ذلك الشخص الحالم بصدمة يسميها فرويد: الغرابة، وخاصة عندما يجد نفسه للمرة الثالثة - كما حدث

بالنســبة إلى فرويد - في الشارع نفسه، الذي حاول جاهدا أن يبتعد عنه. إنها تلك «الإرادة الأخرى» other will التي تحول الآليات الميكانيكية للمشي إلى شيء آخر، ليس بريئا، وليس ضد إرادة المرء أيضا؛ إنه نمط من الحدوث المتكرر لســلوك ما، أو شــعور ما، أو حدث ما، يميل الفرد إلى تفسيره على أنــه ذو معنى معين، على أنه يحمل دلالة غامضة أو ســرية بالنســبة إليه. هكــذا يمكن القول إن التكرار هو ذو طبيعة متناقضة؛ وذلك لأنه يعلو حياة المرء ذاتها، يوجد وراءها، يوجد فوقها، ليس جزءا أساســيّا من طبيعتها؛ بل أشــبه بالتجريد أو القاعدة العامة لها، قاعدة تقوم على أساس التكرار، بل التكرار الإجباري أيضا، ويظهر هذا في السلوكيات البيولوجية كتناول الطعام والتنفس والنوم وضربات القلب... إلخ، كما يظهر في سلوكيات كثيرة كالمشي والتفكير والانفعال والقلق ومشاهدة التلفزيون، وغيرها من الموضوعات ذات الطبيعة المتكررة الحدوث، إنها آلية وتكرارية قد ترتبط بما هو ضد الحياة، بالمــوت على وجه خاص، الموت الناتج من تحول حركة الحياة إلى ما يشــبه حركة الآلة، تلك الحركة التي تتكرر وتتكرر من دون روح أو انفعال أو بهجة، ومن ثم فإنها - هنا - حركة الحياة، حركة تلك الحياة، التي تتحول - ذاتها - إلى حركة آلية قريبة من الموت، أو دالة عليه.

هكذا قد يكمــن التناقض الكامن في التكرار في أنه يعلو فوق الحياة، يكون مصاحبا لها، ويعمل معها، لكنه يعمل ضدها أيضا، وإلى الدرجة التي قد يظهر لدينا عندها شــعور غريب نتيجة لذلك التكرار، وهو شــعور قد يكــون دالا على حضور دافع آخر، دافع يكون موجــودا وراء دافع المتعة أو الحياة، ألا وهو دافع الموت، وهكذا وصل الأمر بجاك لاكان إلى أن يقول إن «كل دافــع في الحياة، هو بالفعل، دافع نحو الموت»، وكأنه يردد هنا مقولة شهيرة ذكرها فرويد ذات مرة، وهي: «إن هدف الحياة هو الموت»؛ وذلك لأن كل دافع إنما يجعل المرء ينهمك في التكرار حتى يحققه، كما أن كل دافع هو محاولة للذهاب إلى ما وراء مذهب اللذة، إلى ما وراء الشــعور بالاستمتاع المصحــوب بالمعاناة والألم، حيث الأقوال المتكررة لذة الكفاح، ومتعة الإرادة والمقاومة للرغبات والمغريات، حيث هناك سعي دائم إلى التخفف من هذا الألم والتحرر منه، ربما من خلال الموت ذاته [47].

ومثلمــا تكون هناك رغبة دائمة لدينــا في كل ما هو مفتقد أو غائب أو غيــر متاح لدينا، أي ذلك البعيد، الآخــر، فإنه قد تحقق هذه الرغبة أيضا على نحو متخيــل من خلال الأدب أو الفن، أو على نحو واقعي، في الحياة، بأشــكال مختلفة؛ ومن ثم فإن الصورة التي تظهر في موضع الفقد، موضع المــوت، الصور الداعمة له، البديلة لما فقــد أو من فقد، قد تكون ممتعة أو مريحة، لكنها قد تكون أيضا مثيرة للقلق أو الرعب أيضا، هكذا يكون القرين أو الظل أو الشــبح، وكذلك الأحــلام، هي البدائل لما نتمناه ونفتقده، ويكون غائبا بالنسبة إلينا ومفقودا.

هكذا ثمة بدائل تظهر، وصور تحل فجأة، لتذكرنا بأجزاء فقدناها مــن ذواتنا، أو أرواح آخرين نفكر فيهم دائما، ونحاول أن نســتعيدهم مــن خلال الذاكرة أو الأحلام، وهكــذا فإن الرغبة هنا تتعلق بالغائب، المفتقــد، ذلك الجانب الذي ينقصنا، ومن أجل أن تســتمر رغبتنا في السعي وراء ذلك الغائب، تظهر صور خاصة به، قريبة منه - على نحو مباشر - أو بعيدة عنه - على نحو غير مباشر - تظهر صور في موضع الفقد تدل على ذلك الفقد بوصفه حالة مســتمرة متعلقة بالغياب، أو على وجوده كآخر مكتمل أيضا، لا ينقصه شيء، لكنه آخر غريب أيضا، مألوف وغير مألوف، هكذا يظهر القلق ويستمر، وقد يتحول إلى خوف أو رعب أيضا[48].

كذلك أعلى لاكان من قيمة الموضوع الذي يشغل الموضع الخاص بفقد متخيل قد ييســر عملية الوحدة مع آخر، أو وحــدة موجودة في الآخر، وســيقول كذلك إن اســتعارة عودة الموتى، التي اعتبرها فرويد مصاحبة لكل جســد حي، هي الهامش الموجــود وراء الحياة، والذي يؤكد ويضمن وجــود الكائن الحي بوصفــه - في حقيقته - «كائنــا متكلما»، إنه ذلك الهامــش نفســه الذي يوضع مــن خلاله الكائن الحي فــي موضع دال، الموضع الخاص بالجســد نفسه، موضعته كذات متكلمة. إنها الآلية التي تختلس الذات من خلالها النظر، أو تنظر خلسة إلى ما يوجد خلف اللغة/ الحياة؛ ولذلك فإن عودة غير الحي أو المكبوت، هي عودة استرجاعية إلى مرحلة مفترضة موجودة على نحو ســابق علــى اللغة، مرحلة «الواقعي»

لـدى لاكان، التي هي مرحلة الغرائز، المرحلـة التي تتوقف عندها اللغة التي نعرفها. إنها موضع اللاوجود المحدد، والتي تشير إلى وجود شيء ما يتعلـق بالوظيفة الممكنة - أو المحتملة - للفن والأدب، ويتعلق بطرائقهما الخاصة في التعبير والتشكيل [49].

هكذا تكون اللغة ليست مجرد كلمات وتعبيرات وصور؛ بل لغة تعبر عن ذات متكلمـة، لغة تعبر عمّا وراء اللغـة باللغة، تعبر عن الصور والانفعالات والأفكار والغرائز التي داخل الذات المتكلمة، المتعلقة بمناطق الغياب والفقد فيهـا، بالغائب والميت، وكل غير المألـوف، ما قبل اللغة بالانفعالات والصور والغرائز والمكبوت، بغير المألوف الذي يعود من خلال اللغة والأدب والاستعارة والمجاز على نحو يبدو كأنه مألوف.

خلاصة الفصل

على الرغم ممّا قالـه فرويد من أن مصطلح «الغرابة» مصطلح غير قابل للتحديـد، أو التعريف الدقيق؛ وذلـك لأن تحديده يجعله معروفا، مألوفـا، ومن ثم ليس غريبا، على الرغم مـن ذلك فإن هناك خصائص مهمة للغرابة يشـير إليها الباحثون في هذا المجال وأشرنا إليها سابقا، ونلخصها فيما يلي:

1 - الغرابة إحسـاس حياتي، وإحسـاس جمالي أيضا، خبرة حياتية وخبرة إسـتطيقية، تتعلـق بالانفعال المترتب على وجود شيء غريب، مخيف أيضا غير مألوف، وقد تثير الرعدة والرعب، ويمكن أن يوجد في الأدب، وفي الفن، وفي غيرهما أيضا.

2 - يتـم الشـعور بالغرابة في المواقف التـي تبدو كأنها جديـدة، لكنها التي تعود بنا وتذكرنـا - مع ذلك - بمواقف سـابقة مألوفة، وهكذا تكون مواقف الغرابة أشـبه بالعودة والتكرار لمواقف أليفة قديمة، ربما تم كبتها أو نسيانها سابقا.

3 - ترتبط الغرابة كذلك بالتكرار، تكرار المواقف والمشاعر والأفـكار، ويكون التكرار الملازم لمواقف الغرابة لا إراديا، في أغلب الأحوال.

4 - يكـون الشـعور بالغرابة أكثر احتمـالا في المواقف المألوفة، والواقعية، حيث تكون القوة الحتمية القهرية المخيفة المحيطة بالوضع الواقعي أقوى، أما «خيال الغرابة» فهو خيال يحبط الرغبات، يدمرها، يعوق تدفقها ويقتلها؛ ومن ثم فإنه قد يجسد الغرابة بشكل يفوق تجسيداتها في الحياة. ومثلما قال فرويد، فإن في الأدب يكون من الأيسـر خلق التأثيرات الخاصة بالغرابة عندما نكون موجودين ضمن نطاق الواقع، وليـس خارج حـدوده، أي ليس في عالم مـا وراء الطبيعة. والكائنات الخارقة.

5 - من الممكن إثارة الإحسـاس بالغرابة أيضا من خلال بعض الموضوعات، مثل: التماثيل الشمعية المجسدة لشخصيات بشرية، وكذلك الدمى التي كُونت على نحو بارع، والأوتوماتا أو المخلوقات الآلية المحاكية للكائنات الحية، وكذلك ما يتعلق بالأشـباح والظلال والمرايا والأشـباه والمومياوات، وانعكاس الجثـث.. إلخ، ومع ذلك فإن معنـى الغرابة في الأدب، وكما سنوضح ذلك خلال الفصل الثاني من هذا الكتاب، قد أصبح يتجاوز هذه المعاني الكلاسيكية له إلى حد بعيد.

6 - كثيرا ما تجسد الغرابة أيضا من خلال فكرة أو شخصية «القرين»، حيث هنا لدينا شخصيات يمكن اعتبارها متطابقة لأنها يشبه بعضها بعضا، ويتم ذلك من خلال توحد الذات مع شخص آخر. وتؤدي آلية الإسقاط دورا مهمّا هنا، حيث تحدث عمليات ازدواج وانقسـام وتبادل وتعدد للذات. ثم هناك أيضا في الغرابة تلك العودة المتكررة للشيء ذاته، للخصائص ذاتها، أو سـمات الشـخصية ذاتها، للجرائم ذاتها، أو حتى للأسماء نفسها، ومن خلال توليدات متعددة. وقد ذكر فرويد أن الخلط بين الحي والميت ليس وحده كافيا لحدوث الغرابة؛ بل إن القلق الذي بينهما والمرتبط بالشك والالتباس واختلاط الحياة بالموت هو الذي يحدث ذلك الشعور بالغرابة [50].

كذلك ترتبط الغرابة بفكرة الذات وتعددها، وسلوكها، وقلقها، وافتقادها الألفة واليقين على المستوى الفردي، وعلى المستوى الجمعي أيضا. وثمة تجليات أخرى للغرابة في الأدب يدور حولها الآن كثير من الدراسات والحلقات البحثية العلمية والمناقشات في مجالات الأدب والعلوم الإنسانية والاجتماعية وغيرها، وقد عرضنا لها هذا الفصل من قبل، وسنعرض لها أيضا في فصول هذا الكتاب القادمة.



2

الغرابة والأدب

«لم تنبع مظاهر الفزع والخوف في قصصي من ألمانيا، التي بدأ منها هذا النوع من القصص؛ بل من داخل روحي».

إدغار آلان بو (1)

الغرابة هي، هكذا، طاقة ما، قوة ما تدفعنا إلى ما وراء الحدود الراسخة الواضحة، من كل نوع، ثم ينتهي بها الأمر إلى أن تتلبس روح كل مفسر كان - في بداية عمله - بعيدا عن الشكوك والظنون والمخاوف. وهكذا فإن فرويد - كما يشير ديفيد إليسون - واحد من صف طويل من القراء الذين حكم عليهم بأن يعيدوا الخطأ نفسه، بأن يحاولوا أن يسيطروا على، أو يتحكموا في، تلك الطبيعة الدلالية الغزيرة الوافرة، أي في تلك الطبيعة المتعددة الدلالات المميزة للأدب. وهكذا أيضا فإن كل نقاد الأدب، وربما كتابه أيضا، هم أيضا أبناء تانتالوس، في الميثولوجيا الإغريقية، ذلك الذي حكم عليه بأن يظل في حالة عطش دائم، يرتفع الماء إلى شفتيه، فإذا ما حاول أن يرشف منه غيض الماء ونزل. وهم أيضا أبناء

سيزيف، ذلك الذي يدفع الصخرة إلى أعلى فإن وصل بها إلى القمة سقطت متدحرجة، ويكون عليه أن يعيد حملها ورفعها من جديد. وفي كل هذه الأعمال تكرار ما، وفيها كلها غرابة ما، غرابة الوجود والغياب، وجود الماء وغيابه، ووجود الصخرة عند القمة ثم غيابها عند السفح أو القاع، ووجود المعنى ثم غيابه في غابة غامضة من الدلالات والمعاني المتعددة المتشابكة الجذور والأغصان [2]، التي تظهر فيها الحقائق دائما كظلال، وأشباح، وبقايا، وحالات من الغياب، حيث الغرابة ميدان الموت، والموت ميدان الغرابة، والموت مادي ومعنوي؛ الغرابة ميدان الموت الذي في الحياة، مكان شبحي، أو «لا مكان» يعبر الجانبان الجمالي والأخلاقي، من خلاله، أو عبره، الحدود الخاصة بالآخر، فيحطمان هذه الحدود، يثيران القلق والاضطراب فيها، يخلطانها معا، فلا تصبح هناك حدود فاصلة بين الجمالي والأخلاقي، وترتبط الأشباح والأشباه والظلال، وكذلك الأقنعة بالموت، موت المشاعر والأفكار والذكريات، الموت المادي والمجازي. وقد اكتشف الأدب والفن داخل تلك المنطقة الغريبة - لكنها المألوفة أيضا - الخاصة بالغرابة على نحو خاص.

هكذا وجدنا أنه لدى أدباء أمثال بروست وكافكا مثلا، لا يمكن عزل حركة السرد نفسها عن تلك الأصداء والترددات والانعكاسات الغريبة الحاضرة بقوة داخل الدال الخاص بنصوصهم؛ وذلك لأن القدرة على الكشف، ورفع الغطاء عن ذلك الاحتمال الشيطاني الكامن داخل الدال، إنما تعني التحرير للغة الأدبية، وكذلك الإطلاق لطاقة فياضة هائلة غير محدودة بداخلها. ولدى جوزيف كونراد وأندريه جيد، كانت الغرابة كامنة أسفل سطح الأشياء والأحداث، وقادرة كذلك على هز الاستقرار، أو الاتزان الخاص بذلك التعارض البسيط بين البيت (إنجلترا وفرنسا مثلا) والآخر الغريب (جنوب أفريقيا والكونغو مثلا). وهكذا تم إدراك الغرابة بالنسبة إلى هذين الكاتبين على أنها غير المألوف، المجهول، الغامض الغريب («عن» البيت)، وليس الغربي («في» البيت) فقط . هكذا تدخل الغرابة وتتعلق ليس فقط بالذات، بل أيضا - وعلى نحو خاص - بعلاقة الذات بكل ما هو «آخر»[3].

لدى فرجينيا وولف كانت الغرابة، وفي عالمها المتخيل، مرادفة لغير الشخصي، حيث يوجد «غير الأليف»، غير البيتي، وغير الحميم في تلك

التمييـــزات الغامضـــة غير المحددة، في نوع من العلامة الخاصة بالســـرد، التي تذهب إلى كل الاتجاهـــات المناقضة للتنظير المنطقي والمتعارضة معه في ذاته. هكذا تفتح النصوص الحداثية نفســـها أمام «الآخرية» otherness الجوهرية الخاصة بالغرابة، وهي «آخرية» تجيء على نحو ســـابق «وجوديا» على تلك التعارضات الثنائية الكلاســـيكية الخاصة بالذات والآخر، والبيت والغريب والطبيعة والتقنية.. إلخ (4).

لدى الكاتب المصري صنع الله إبراهيم، وخصوصا في روايات مهمة له، مثل «تلك الرائحة»، و«شرف»، و«اللجنة»، تكمن الغرابة في ذلك التكرار، في العـــدم، وفي الموت المحيط بكل شـــيء كان ينبغي أن يكون حيا، ومن ثم فإن الموت لديـــه موت الروح قبل أن يكون موتا للجســـد. وهناك تجليات أخرى للغرابـــة نجدها لدى كتاب عرب كثيرين، وهو ما قد يحتاج منا إلى أن نفرد لهم كتابا آخر حول الغرابة في أدبهم يهتم باستكشـــاف الأبعاد المتنوعة لها في أعمالهم.

في قصة الكاتب التشـــيكي فرانز كافكا الشـــهيرة «التحول» أو «المسخ»، يســـتيقظ بائع متجول - هو غريغور سامســـا - ليجد نفسه وقد تحول إلى حشـــرة كريهة تعافهـــا النفس، وقد ظل صوت غريغور سامســـا وهويته في البداية كما كانا عليه قبل التحول، لكنه تدريجيا يستسلم لشكله الجديد وقد أصابه الرعب بســـبب نهمه الشديد لأكل الفضلات المقززة التي كان جسده الجديد يحتاج إليها كحشرة، وقد قاسى غريغور الويلات بسبب ذلك التحول العميق لهويته الأصلية كرجل عادي - إلى حد ما - وأناني، وكحشـــرة، وظل يحتفظ بذكرياته كإنسان، لكنه تطور فأصبح أكثر نبلا وإيثارية على نحو لم يعرفه من قبل عندما كان إنســـانا.. وبسبب كراهيته لنفسه، وتحطم قلوب أسرته، امتنع عن تناول الطعام حتى الاقتراب من الموت، وعندما شارف على الموت بدأ يهتم كثيرا بالموسيقى ويتأثر بها، كما لو كان يكمن فيها سر تحول هويتـــه الخاص، وفي لحظـــة الذروة من القصة زحف إلـــى غرفة أمه التي كانت تعزف على آلة الكمان، واقعا في صراع بين رغبته في الاســـتماع إلى الموســـيقى، ومحاولته ألا يحدث الاشمئزاز في نفوس أسرته بسبب مظهره الغريب هذا. لقد تحول نحو الموســـيقى كمـــا لو كانت هي الطعام الحقيقي

الــذي كان يحتاج إليه، والذي كان يفتقر إليه في حياته الســابقة على هذا التحول، الطعام الذي قد يساعده على إعادة وحدة الإنسان بالعالم الطبيعي الذي فصلته الآلة عنه، وحولته إلى مسخ يقتات على النفايات [5].

وفــي رواية «المحاكمــة» أو «القضيــة» للكاتب فرانز كافــكا أيضا، يُتهم «جوزيف. ك.» بجريمة غامضة لا يعرفها، ويعرف أن هناك محاكمة ظاهرية مزعومة، وتأجيلات غير محددة لمحاكمته، وكذلك براءة متوقعة له غير محددة أيضا، تتســم بالمراوغة اللانهائية. هكذا ينقســم العالم لديه إلى قســمين: أحدهمــا زائف ظاهري مزعوم، والآخر محــدد دقيق واضح المعالم، ويعكس هذا الانقسام تلك الاحتمالات المظلمة الخاصة بالطبيعة الإنسانية، حيث هنا العالم مستعمرة للعقاب، والعدالة نوع من القسوة المرعبة، آلة مفككة مدمرة لا تعمل بشكل غير متحكم فيه، ونحن ننجذب نحو القانون، ونقترب منه، لكننا نقف على أبوابه في خوف. وعالم كافكا - عامة - هو عالم غريب ومخيف [6].

تجســد هاتان القصتان الاتجاهين الرئيســيين الخاصين بالغرابة في الأدب، وهما:

1 - غرابة غير المألوف: كما في حالات التحول والازدواج والمســخ والنسخ (وكما في تحول إنسان إلى حشرة في قصة كافكا السابقة).

2 - غرابة المألوف: هنا لا يوجد تحول أو مســخ أو نسخ؛ بل تكرار وعبث وفوضى واختلال في الشعور بالواقع والذات (كما في رواية «المحاكمة» أو «القضية» مثلا).

للغرابة ســادتها من الكتاب، ومنهم هوفمان ولوفكرافت، ودستويفسكي، وكافكا وغيرهم. لكن أبرز هؤلاء السادة ربما هو الكاتب الأمريكي إدغار آلان بو (1809 - 1849).

سيد الغرابة

في بداية قصة «القط الأســود»، للكاتــب الأمريكي إدغار آلان بو يقول الراوي في إشارة لافتة إلى جوهر الغرابة في القصة التي سيسردها: «لست أتوقع منكم، بل لست أطلب أن تصدقوا الوقائع التي أسطرها هنا لقصة هي

أغرب القصص، وإن كانت في الوقت نفسه مألوفة للغاية. لن تصدقوا ذلك؛ لأن حواسي ترفض أن تصدق ما شهدته ولمسته. غير أنني لست مجنونا، ومن المؤكد أنني لا أحلم. وإن كنت ملاقيا حتفي غدا فلا بد لي من أن أزيح هذا العبء عن روحي»[7].

هكذا يبدأ «بو» قصته بتمهيد نقدي يكاد يلخص جوهر الغرابة في الأدب، فهو لا يتوقع من القراء أن يصدقوا الوقائع التي سيسردها، لأنها من «أغرب القصص» لكنها أيضا، وعلى الرغم من ذلك «مألوفة للغاية»، وإنه وعلى الرغم أيضا من أن حواسه ترفض أن تصدق ما شهدته أو لمسته «فإنه ليس مجنونا» ولا يحلم ويريد أن يتخلص من هذا العبء الخاص بتلك الأحداث الغريبة، وهو العبء الذي يثقل روحه، ويرزح تحتها، بالحكي، بالكتابة، بالأدب، بالإبداع.

ثم يستمر الراوي متحدثا عن جوهر الغرابة في قصته، وأنه يريد أن يروي - بدقة وبلا تعليق - سلسلة من الوقائع العادية جدا، «لكنها الوقائع التي عصفت بي أهوالها»، وما بين الوقائع العادية والأهوال العاصفة يستمر السارد في رواية حكايته التي يقول عنها إنه لا يجد فيها غير الرعب الذي قد يبدو للآخرين غيره نوعا من الخيال الغرائبي المعقد.

في «القط الأسود» هناك روح هائمة أيضا، روح القط، وروح الراوي، الراوي الهائم على وجهه خارج بيته، والذي يعود إليه ليلا دوما ليجد القط يحاول تجنبه، هنا رجل شبه معزول عن الكائنات البشرية الأخرى، رجل يحيط نفسه بالحيوانات، يراها وسيلته إلى إقامة علاقات مع العالم الخارجي، لكنها علاقات تتم على أسس محدودة ومحددة، أسس لا تتضمن الحوار أو التفاعل، وحتى عندما يختار زوجه، يختارها بسيطة وساذجة، ولا تعارضه أبدا، أو تتحداه، ولكن - كما في قصص بو دائما المعبرة عن هذا الحرمان الحسي والعاطفي والاجتماعي الغريب - فإن العقل الذي تهدده دوما هذه العوامل من الجوع والولع العاطفي والاجتماعي، والذي يحاول أن يبعد نفسه عن مصادره ظاهريا، غالبا ما يعبر لا إراديا، ومن خلال التذكر والاعتراف، عن حاجته إلى الحب والتعبير عن الذات والحيوية من خلال هلاوس وتحريفات غريبة في إدراكه للواقع، وفي الوعي الخاص به،

كأن ينسب، مثلا، صفات السحر والساحرات إلى القط الأسود، أو أن يرى أشباها وأقرانا، أو يرى تجسدات وتقمصات لشخصيات بعد موتها، كما في قصة «ليجيا» مثلا، أو غير ذلك من الكائنات الطيفية والشبحية الهائمة، أو يصاب بالجنون. وما الهلاوس والخيالات والصور والأوهام إلا تجسيدات للروح الهائمة، تجسيدات للحالة الطيفية الخاصة التي تدركها الذات عندما يضطرب وعيها، وتضطرب علاقاتها مع الواقع، ومع الآخرين، ومع نفسها أيضا. وهكذا فإن الغرابة هنا هي نوع من الفوضى التي تتسلل تدريجيا داخل نظام نفسي ما حتى تتغلب عليه، قد تحدث نتيجة الشعور بالذنب أو الاكتئاب أو الروح العدمية أو الشعور بالعزلة أو اللاجدوى أو الاغتراب، تتسلل تدريجيا إلى نظام العقل والوجدان، وتحوله إلى حالة نقيضة له، حالة من اللاعقل، من الجنون أو الاضطراب الجامح في الوجدان والسلوك، حالة من الجنون أو الرغبة الجامحة في القتل وتجاوز كل ما يدل على النظام، والتكرار، والنمطية، ثم محاولة لاستعادة ذلك النظام من خلال التذكر والاعتراف والرغبة، يريد من خلالها أن يتواصل مع الآخرين، ولو في شكل عقاب له، لكن هذا التذكر - كما أشرنا - لا يكون للتفاصيل الحميمة والحيوية؛ بل للإطار العام، للحركة، للتتابع في الأحداث، للنمطية، للثبات؛ ومن ثم للآلية، هنا تقع الشخصيات مرة أخرى فريسة للاضطراب والجنون، وربما الموت.

روح الانحراف

في قصة «القط الأسود» أيضا حديث عن المزاج المختل الذي يتبدَى في غضب الراوي الجامح خلال عودته مترنحا ليلا نتيجة للشراب المُسْكِر الذي كان يتناوله في البلدة على نحو متكرر، حين خيل إليه أن القط يتجنب حضوره، تملكه - كما قال - غضب الأبالسة، فاقتلع إحدى عيني القط من محجرها، ثم انتابه في الصباح شعور هو مزيج من الرعب والندم بسبب الجريمة التي ارتكبها، ثم إنه يتحدث عن «روح الانحراف»، الذي هو لديه واحد من النوازع البدئية في القلب البشري، واحد من الملكات أو المشاعر الأصيلة التي توجه السلوك . إنها الروح التي تدفع صاحبها إلى ترك القانون،

وإلى السـقوط النهائي، وهي كذلك «رغبة النفس الدفينة لمشاكسـة ذاتها، لتحطيم طبيعتها ذاتها، لاقتراف الإثم لوجه الإثم، هذه الرغبة التي لا يسبر غورها هي التي حرضتني على مواصلة الأذى ضد الحيوان الأعزل، وأخيرا الإجهاز عليه»، ثم يتحدث عن كيف شـنقه «والدموع تتدفق من عيني، وفي قلبي تضطرم مشـاعر الندم»، وتتكرر مشاعر الإيذاء والكراهية لقط آخر يحضر، وتتكرر عملية فقـدان القط لعينه، يزداد إقبال القط على صاحبه وتمسـحه به، وتزداد كراهية هذا الصاحب له، ومعها تزداد رغبته في قتله حتـى ينجزها في النهاية، حتـى أنه يرى في البقعـة البيضاء على صدره ويتوهم ويتخيل شكل المشنقة [8].

هكذا لم يكن هذا الرعب الذي يشـعر به خوفا من شـر مادي مجسَد. «مـع ذلك أحار كيف أحدده بغير ذلك»، وقد اضطر إلى الاعتراف بأن ذلك الرعـب والهلع اللذيـن أوقعهما في نفس هذا الحيوان ازدادا حدة بسـبب من وهم لا يقبله العقل. وقد تمثل ذلك الوهم في تخيل شـكل المشـنقة في تلك البقعة البيضاء من الشـعر في صدر ذلك القط الأسـود المقلوع العين، هكذا ارتبط شـكل هذا الحيوان في عقله بالعـذاب والجرائم والموت، وفي نومه بالكوابيس المفزعة. ما الذي يجعل الإنسـان يصاب بكل هذه الكراهية الغريبة تجاه حيوان أليف هو القط؟ ما الذي يجعله يقتل زوجته لأنها حاولت الدفـاع عن القط عندما هم بقتله؟ لقد دفن الـراوي زوجته في جدار قبو منزلـه، دفن القط معها حيا دون أن يـدري، لكن القط، المدفون حيا، الذي ظن أنه قد تخلص منه، يعود من داخل الجدار، وبينما كان ذلك المجرم يدق عليه بعصاه، محاولا إقناع الشـرطة ببراءته، يعود القط، وتعود معه كل تلك الجرائم المخبوءة التي ظن صاحبها أنها اختفت.

وفي قصة عنوانها «القلب الواشـي» (كما في ترجمة طاهر البريري) أو «القلب الذي كشـف السـر» (كما في ترجمة خالدة سعيد) يقع رجل تحت وطأة فكرة مسيطرة على عقله تدفعه نحو قتل رجل آخر لأنه يكره لون عينه الزرقاء، فهذه العين تؤرقه وتصيبه بالجنون وتدفعه فعلا في النهاية إلى قتل ذلك الرجل البائس التعيس. هكذا يقول ذلك القاتل (كما في ترجمة طاهر البريري): «من المستحيل أن أقول كيف داخلتني الفكرة الأولى لأول مرة، لكني

مع ذلك متيقن أنها اقتنصتني ليل نهار. لم يكن هناك هدف. لم تكن هناك عاطفـــة. أحببت الرجل العجوز فهو لم يخطئني مرة ولم يداهمني بالتوبيخ أبدا. لم تكن لدى رغبة في ذهبه. أعتقد أنه. الذهب. كان عينه! عينه، كان هكذا، كانت إحدى عينيه تشبه عين النسر. عين زرقاء شاحبة يعتريها غشاء رقيق. ففي كل حين تقع عليَ أشعر بهروب دمي، وهكذا بالتدريج - تدريجيا جدا - عزمت على أن آخذ حياة الرجل؛ وبهذا أخلص نفسي من تلك العين للأبد» ويستمر الأمر هكذا، حتى يقتله لكنه لا يستطيع أن يتخلص أبدا من تأثيـــره، من عينه، ولا من جريمته، فذكراه وصورته وصوت قلبه، وســـاعته، تظل تعود إليه وتراوده حتى يعترف بجريمته(9).

ومعظم شـــخصيات بو، ومعظم الساردين فيها، موجودة. هكذا. بنصف وعـــي، كما لو كانت في حالة حلم أو غيـــاب مؤقت عن الوعي، موجودة في حالة ما، توجد بين اليقظة والنوم، عند عتبة الوعي، عند تلك الحدود المميزة لوعي الغرابة، عند تخوم الوعي البينية الموجودة بين الغياب والحضور، غياب إنسان أو حيوان بموته، وحضوره كفكرة أو انفعال أو أثر أو شبح، نجد هذا في قصص كثيرة لإدغار آلان بو، مثل:«الموعد»، و«ليجيا»، و«موريلا»، و«برنيس»، و«سقوط بيت أشر»، و«القط الأسود»، و«القلب الذي كشف السر»، وغيرها. وهنا الشـــخصيات لديها فهم ضعيف لمعتقداتها، وأهدافها، ومظاهر قوتها أو ضعفهـــا، وهي أمور نجدها أيضا في قصص ناثانيل هوثورن قبله خلال القرن التاســـع عشـــر، حيث عودة المكبوت، وظهور الخفي، بعد أن ظُنَ أنه نُسِيَ أو اختفي، هنا الشخصيات - كما قلنا - في حالة نصف وعي أو شبه وعي، هنا الراوي متشـــكك، يرفض أن يقبل الحقيقة، وهنا كذلك الاختلاط بين الصور والأخيلة وتدفقها مع التأثيرات المصاحبة لها، التي تنمو تدريجيا وتتحول «كروماتيا» أو لونيا من الشـــكل البسيط الواهن إلى الشكل الجليل والمخيف والغريب.

وفقا لما تقوله سيبل فولتش برنبرغ أيضا في دراستها المهمة حول «منطق الغرابة لدى بو»، هناك ثلاثة مكونات للغرابة في أعماله، هي:

أولا: تشيؤ الإنســـان أو نزع الإنسانية عنه Dehumanization، وهو أمر يرتبط بالآلية. ثانيا: جنون العظمة Megalomania.

أما المكون الثالث الذي يتردد في أعمال «بو» الرائعة فهو بارانويا الاضطهاد أو الارتياب Paranoia، وهو مكون يتفاعل مع المكونين السابقين على نحو شديد الثراء، ويتجلى في أعمال قصصية وشعرية كثيرة لدى «بو»، وحيث يؤدي التعبير المتكرر عن هذه المكونات - معا - إلى إحداث تأثيرات خاصة متعلقة بالرعب، وقد حدد بو ذلك كله بوصفه «الموضوع الأساسي المتكرر المميز لسرده الخيالي، وإنه مع هذا الرعب الناتج ينمو أيضا وعي الشخصيات بجرائمها ضد الإنسانية البسيطة»[10].

وترى «سيبل برنبرغ» أنه حتى يومنا هذا يظل «بو» سيد الغرابة، في السرد القصصي والشعر، وأن هذه الغرابة في إبداع بو هي التي أرهصت ومهدت الطريق لانشغال الفن والأدب الحديثين بالجنون واختلال النفس البشرية والفشل، وكذلك اغتراب هذه النفس وبعدها عن الصحة والجمال. لقد كان بو هو الذي قام بالتجسيد أو التشكيل الإبداعي للغرابة بوصفها خبرة إنسانية مهيمنة، والموضوع الرئيسي للأدب والفن، وبوصفها - أيضا - الدافع المتجه عكسيا، بعيدا عن الغرابة، نحو الحقيقة، والألفة، والإنسانية البسيطة، وليست المركبة أو المعقدة أو غير السوية. لقد قام بو من خلال فهمه لذلك كله، ومعايشته له، وتجسيده في أعماله، بخلق عالم جديد لنفسه وللإنسان، عالم جديد للفن والحياة[11].

لكن هل «بو» هو سيد الغرابة في الأدب فعلا؟ هذا أمر قد لا يتفق حوله النقاد، فبعضهم يقول إنه «هوفمان»، هوفمان السابق على بو، وبعضهم يقول إنه دستويفسكي، وبعضهم يقول إنه كافكا. فمن سيد الغرابة الفعلي؟ هناك - في رأينا - سادة كثيرون للغرابة . ليس هناك من سيد واحد لها في الأدب، هناك فقط رواد ومبشرون قد مهدوا لاستكشاف روح الغرابة في الأدب وروح الازدواج والانحراف ورعب الروح في المجتمعات الحديثة والمدن المعاصرة.

رعب الروح

لقد كان من أهداف بو من وراء كتابته للشعر والقصة - كما قال في «فلسفة التأليف» - أن يغرق القارئ بتأثيرات، ربما قصد منها أن يظل هو نفسه مصابا بها، ربما أراد أن يتخلص منها ويسقطها في أعماله،

ولكن مع اســتمراره في الكتابة حول «رعب الروح»؛ ذلك الذي يشــعر به مجرم مشوش الذهن، عزز «بو» بعض المخاطر الخاصة به شخصيا، تلك المخاطر الخاصة بالتوحد مع شخصياته، وهي الشخصيات التي حاول - على نحو متكرر - أن يصف أو يصور ويستخلص من داخلها ذلك الدمار المؤكد، الذي لا يمكن محوه، والذي توقعه تلك الشــخصيات على نفسها في شــكل هذاءات خاصة بالاضطهاد[12]. هكذا كانت حالات الانحراف والفساد وسوء الطبع، التي يقوم بها السارد أو القاتل وهو يذكر اعترافاته - علــى الأقل من أجل أن يفســر تلك النوبات المتكــررة من الانحرافات أو ســوء الســلوك - هي محاولات متكررة أيضا لتدمير هذه الذات، إنها تعبيرات متكررة عن غريزة الموت، غريزة تدمير الذات والآخر التي تحدث عنها فرويد وربطها بالإحساس بالغرابة، تلك الغرابة التي تمتد بجذورها فــي كل ما هو مقبض ومَرَضي واغترابي، وقــد كان بو عبقريا في إثارة هاتــين الحالتين الخاصتين: أي الوجود المقبض الكئيب والوجود المغترب الغريب أيضا [13].

ربمــا كان بو، بوصفه ســيد الغرابة - كما يقــول بعض النقاد - قد ســاعد على توجيه الانتباه إلى أعماق اللاشعور الجحيمية، وربما كان أحد المستفيدين منه هو فرويد ذاته، ذلك الذي كتب المقال الذي يحدد الخصائص الأساسية التي يمكن أن نجدها لدى بو، ونقصد بذلك مقال الغرابة «1919»، حيث أشار فيه إلى تلك الأنواع من الخوف التي تشير إلى الرعب الزاحف أو المتصاعد، وكذلك إلى تلك العناصر الغريبة التي تكون موجودة مرة فــي الفن والأدب، ومرة في الحياة، ومرة في الاثنين معا، والتي تعمل على ظهور أحاســيس الغرابة : تلك الأحداث المخيفة والمصادفات التي يبدو أنها تعكس هندســة أو نظاما شــيطانيا شريرا، وكذلك الكائنات مــا وراء الطبيعية (الأشــباح والأرواح)، التي يبدو أن مقاصدهــا - كما تبدو من تأثيراتها - موجهة نحــو التهديد والتهويم والسكن والإيذاء، ثم هناك تلك الشخصيات والأشكال الشمعية، الدمى الصناعيــة والكائنات الآليــة المخلقة أيضا، ونوبــات الصرع وتجليات الجنون أيضا.

وإنه عندما ترى هذه العناصر وتتم معايشتها في الحياة اليومية، أو في الأدب، فإنهـا توضع في «الموضع الخاص بالواقع الطبيعي»، أي ذلك الواقع الـذي لا تنتمي فيـه إلى عالم خيالي أو متخيل ؛ بل إلى عالم طبيعي، عالم واقعي، لكنه «واقعي» غريب. كما أن هذه العناصر الغريبة تعمل على استثارة مشاعر خاصة بالغرابة، ونحن نأخذها بجدية، وهي تستثير أعصابنا وتجعلنا عرضة لأن نفقد رباطة جأشـنا؛ لأنها تذكرنا بذلك الدافع الداخلي الغلاب أو القهـري الموجه نحو التكرار الموجـود في قلب وجودنا، أي جوهرنا الآلي الميكانيكي الخاص، وكذلك ذلك الاحتمال الموجود بداخلنا لأن نفقد تكاملنا الخـاص أيضا، وإضافـة إلى ذلك، فإن فرويد قد فسـر الغرابة من خلال ربطهـا بالرعب الخاص، وذلك من خلال تفعيـل أو إثارة الرغبات المحرمة بداخلنا على نحو معبر عنه صراحة في الفن والأدب.

وقد كان «بو» مولعا كذلك بالآلة والحركات، ولعل أكثر التجليات الدالة على ولع بو بالآلة شخصياته، تلك التي تعيش مثل آلات حية أو ميتة، أو آلات نصف حية ونصف ميتة، وتمثل الآلات الحية والميتة (البشـر والآلات المخلقة) هاتين الحالتين الغريبتين من التجسيد للذات المتعاظمة والذات المضطهدة البارانوية في أكثر أشـكالها تطرفا، هكذا نجد أن شـخصيات مثل «ليجيا» و«موريللا» يمكنهمـا أن يبعثا نفسـيهما أحياء من جديد، يعودان بعد الموت، ويسـتمران، على نحو بعيد الاحتمال، غير قابل للتصديق في الوجود. أما «ويلسـون» فلديه قـوى عقلية غيـر عادية تجعله يقف بديلا بارزا للشـخصيات المضادة للحالة البطولية Anti - heroic، فهو أشبه بآلة ميتة، روح هائمة هشة سهلة الانكسار تشـبه الإنسان الآلي المفكك الأجزاء، وهناك سمة مشتركة بين هذين النمطين المتعارضين من الشخصيات، ألا وهي البلادة الانفعالية، أو التبلد الانفعالي. هنا قصص يهوم فيها أبطال مخبولون مشوشون لحكايات غروتسكية grotesque، تكـون قدراتهم على فهم ذواتهم في عالمهم محدودة، أو تكون حتى في أحسـن حالاتها، مقيـدة، مضطربة، ويكون المدى الخاص بالانفعالات هنا متعلقا بتلك المخـاوف التي تمتد من الرهبة أو الخشـية المعتدلة حتـى الهلع Panic، ولعل التشابهات بين هذه الشخصيات القابلة للتصديق والآلات الحية والميتة تجعلنا نقترح أنها كلها كانت تعبيرا عن الذوات الأخرى لـ «بو» نفسه [14].

قوة الأدب وتأثيره

يمتلك كاتب القصص - كما يقول فرويد - قوة موجهة خاصة يسيطر بها علينا، وهو يمتلكها من خلال تلك الوسائل الانفعالية التي يستطيع أن يدخلنا من خلالها إلى عالمه، «إنه يستطيع أن يوجه تيار مشاعرنا، فيجعلها تتجمد في اتجاه معين، وتتدفق في اتجاه آخر. كما أنه يمكنه أن يحقق تشكيلة متنوعة من التأثيرات من خلال استخدامه مادة الكتابة نفسها. إن هذا كله ليس جديدا، كما أنه أصبح غير قابل للشك، وقد وضعه أساتذة علم الجمال في حسبانهم منذ وقت طويل» [15].

وهكذا فإنه، ووفقا لما يقوله فرويد أيضا: «يمتلك سارد القصص، تلك الحرية الإبداعية التي لا يمتلكها كثيرون في الحياة العادية؛ إنه يمتلك حرية الخيال، كما أنه يمتلك بعض الطاقة الإحيائية، أي تلك الطاقة التي تجعله يضفي الحياة على بعض من الأشياء والكائنات التي تفتقر إلى الحياة، هنا يكون القارئ مضطرا إلى أن يعلق حكمه المنطقي على الأشياء، أو يوقفه». كما أن هذا القارئ يترك أمره أيضا للكاتب لأن يوجهه كيفما شاء، هنا يصبح القارئ سلبيا، والكاتب إيجابيا، لكنَ في سلبية القارئ نوعا من الإيجابية، وفي إيجابية الكاتب نوعا من السلبية، إن القارئ يستسلم - هنا - لخيال الكاتب بإراداته، يتركه يوجهه، لكنه يتفاعل معه أيضا، كما أنه يحرك هذا التوجيه له بطريقته الخاصة أيضا، إنه يقرأ عمله بطريقته الخاصة، يفسره بطريقته الخاصة، أما الكاتب فقد يكون خاضعا أيضا لأفكاره، وأحلامه، وخيالاته، توجهه كيفما شاءت، كما أشار إلى ذلك كتاب كثيرون [16].

وقد مال كثير من النقاد إلى اعتبار مقال فرويد عن الغرابة نوعا من الأدب، وإلى اعتبار الغرابة نفسها، بكل ما تشتمل عليه من رصد وتمثيل وتجسيد للشك والازدواج والالتباس، جوهر الأدب، هكذا مال باحثون ونقاد أمثال نيل هيرتز Neil Hertz، وهارولد بلوم Harold H.Bloon مثلا إلى اعتبار الغرابة البديل أو الشبيه المعاصر لموضوع الجليل الذي كان موجودا في القرون الماضية، إنه «الجليل» الخاص بعصرنا كما قال بلوم وكما أشرنا سابقا، وإنه مثلما قد يكون من المستحيل فهم جوهر المدرسة الرومانتيكية في الفن والأدب من دون فهم فكرة الجليل، فكذلك

قد يصعب أو يستحيل فهم جوهر الحداثة وما بعد الحداثة من دون أن نفهم معنى الغرابة وتشكيلاتها المتنوعة في الأدب والفن. هكذا فإن قراءة مقال فرويد هنا لن تكون نوعا من التدريب أو المران لفهم الأدب؛ بل محاولة حذرة محفوفة بالمخاطر لفهم جوهر الأدب الحديث، وفهم طبيعته الغريبة الملازمة له أيضا [17].

هناك أبعاد كثيرة للغرابة في الأدب، وهي أبعاد يربطها النقاد الآن بأحداث الحياة كلها، وبأشكال عدة من التفاعلات البشرية والسلوك الإنساني، وهي أبعاد تتجاوز في مداها تلك التيمات التي اقترحها ينتش، وبعده فرويد، وغيرهما، للغرابة. ونبدأ أولا بالإشارة إلى أبعاد الغرابة الأدبية والفنية كما اقترحها ينتش وفرويد وغيرهما، ثم نستكمل حديثنا بالإشارة إلى أبعاد أخرى يتحدث عنها النقاد الآن بشكل كثيف.

الأبعاد العامة للغرابة في الأدب (غرابة غير المألوف) والتيمات الأساسية للغرابة في الأدب، في ضوء تحديد فرويد - وقبله ينتش - لها، هي:

1 - القلق من فقدان شيء أو شخص عزيز وحيوي؛ ويتجلى ذلك في الارتباط الوثيق بين الغرابة والخوف من الموت أو الخوف من الفقدان لأحد أعضاء الجسم مثلا.

2 - ظاهرة القرين وارتباطها بالخوف: ويتمثل ذلك في حالات تفكك الذات وانقسامها وتعددها، أفكار الظل والمرايا وغيرها (وقد خصصنا لها الفصل السادس من هذا الكتاب).

3 - الإحيائية: من حيث تحول الميت إلى حي، وبالعكس، تحول الحي إلى ميت، والجمع بين الحياة والموت في حالة واحدة، كما في حالة الدمى مثلا.

هكذا ترتبط الغرابة هنا بالآلية والتكرار والدمى، وجثث الموتى، وكذلك بالكائنات الحية، وخاصة البشرية منها، من حيث إمكان أن تجمع بين الحي والميت . وهكذا تكون الدمى في جوهرها ميتة؛ لأنها جماد لا ينطق ولا يتحرك، ولكن من خلال حيل فنية خاصة يمكن جعلها تتحرك، وعندما تكون هذه الدمى في شكل إنساني يكون إمكان إثارتها للخوف أكبر، وتجسد الدمى وصورها، ذلك التناقض الوجداني بين البشري والآلي، الحي والميت،

الجمال والقلق المرتبط بغياب الحياة داخل الجمال، وترتبط الدمى بالغرابة أيضــا لأنها تقع بين الحــي وغير الحي، الجامد والمتحــرك؛ ومن ثم فإنها تكون موجودة في منطقة الغموض واللاتحديد، وعلى الحدود؛ وتكون قادرة أيضا على إثارة مشــاعر الغرابة، كما حدث بالنسبة إلى أوليمبيا في قصة هوفمان الشــهيرة: رجل الرمال. كما تجسد الدمى والكائنات الآلية المخلقة الأخرى أيضا تلك الطبيعــة المزدوجة للأحداث والغموض الملازم للعلاقات بــين الداخل والخارج، الحي والميت، الطبيعــة المنظمة المخططة والفوضى العشوائية المفككة، البراءة المنسوبة إلى مرحلة الطفولة، والشر والجرائم التي يمكن أن تحدث وراء قناع البراءة. كيف يمكن أن يكون البريء الساذج مخيفا هكذا كما هي حال تلك الدمى القاتلة التي جسدتها بعض الأفلام الحديثة، ويتجاوز مفهوم الدمى الغريبة هنا المعنى التقليدي للدمى إلى البشــر الذين يصبحون أنفسهم، أشــبه بالدمى، يتحركون مثلها، يتكلمون مثلها، يفكرون مثلها، يصبحون أقرب إلى الموتى منهم إلى عالم الأحياء [18].

4 - التكرار : ويتجلى ذلك في عودة الشيء نفسه، ولكن في شكل غريب، مختلف ومخيف، وارتباط ذلك بمشاعر الخوف التي يشعر بها المرء عندما يتوه ويصل ويعود إلى النقطة نفسها التي تاه عندها في البداية، أو فقد عندها شــيئا أو شــخصا عزيزا، فالفقد هنا ليس فقدانا للطريق أو الاتجاه فقط؛ ولكن لمركز ثابت، لشخص كنا نعتمد عليه، لشيء كنا نتكئ عليه في شــعورنا بالألفة في الحياة (الصحة، المال، الأحباب، الأعزاء، الأصدقاء، الوظيفة.. إلخ)، هكذا نجد تكرار عودة بعض الناس - في حكاياتهم - إلى أيام مجدهم وعزهم الســابقة، فترات صعودهــم وحضورهم، التي غابت فغابوا معها، وهم يحاولون اســتعادتها بالحكي مــرة، وبالتذكر مرة أخــرى، والعودة إلى الأماكن الأولى، وبالأسى والحنين مرة ثالثة.. إلخ.

5 - كذلك فإن الأشــباح والأرواح يمكن النظر إليها هنا على أنها عملية عودة للموتى إلى الحياة، وهنا نجد - كما ذكرنا - ذلك الحديث المتكرر عن البيت المألوف، والأليف، وعن «المنزل الغريب»، و«البيت المســكون بالأرواح»،

وغيـــر ذلك من أحـــوال المنازل والبيوت، وقد يكون بيت الإنســـان هو وطنه، وقد يكون أيضا هو عقله أو وجدانه، ذلك الذي تعود إليه دوما صور أشباح الموتـــى، ذكرياتهم، أطيافهم، الذين فقدهم، حتى لو كانوا لايزالون أحياء في شكل صور وأفكار.

لقـــد حصر فرويد في نظريتـــه - إلى حد كبير - الأبعاد الأدبية للغرابة في مجموعة من الاســـتعارات والتيمات (حضور الأشباح، المنازل المسكونة، الأجســـاد المتقطعـــة الأوصال، الإصابـــة بالعمى أو فقـــدان البصر.. إلخ)، وكذلـــك في التتابع لعدد من البنيات الســـردية أو تعاقبها (التكرار، التزامن في الحدوث، عودة ما قد اعتقد أنه كُبِتَ أو جرى نسيانه أو تجاوزه)، وأيضا في ذلك الشكل النوعي الخاص المميز لها (تلك الواقعية التي تتجاوز حدود الإمكان أو الاحتمالات وتتخطاها، إنها الواقعية الغريبة). ولكن معنى الغرابة يتجاوز الآن تلك المعاني إلى حد كبير كما أشرنا إلى ذلك خلال الفصل الأول من هذا الكتاب.

فرويد والغرابة الأدبية

وكان فرويد في مقاله عن الغرابة قد قال إنه قد يمكن إحداث الغرابة، وتوليدهـــا، وتطويرها، في الأدب، مـــن خلال تلك العملية الصِرف الخاصة بتكويـــن أثر أو تأثير خاص بـــ «نص أدبي» يعمل على الإيقـــاف أو التعليق مؤقتا لذلك التمييز الذي بين الخيال والواقع، وذلك من خلال تقديمه لذلك التمييز، في شكل أو سرد غير محدد، وقد ذكر فرويد نفسه ذلك، حيث قال: «إنه يمكن إنتاج الأثر الغريب بســـهولة عندما يضطرب التمييز بين الخيال والواقع، فعندما لا نستطيع أن نميز ما إذا كنا في عالم متخيل أو في عالم واقعي، تزداد احتمالات ظهور الغرابة، بل تكون هذه بداية الغرابة نفسها»[19]، لكن هذا الشرط الخاص بالعجز عن التمييز بين وجودنا في عالم الواقع أو عالم الخيال، قد يكون شرطا ضروريا للغرابة، لكنه ليس شرطا كافيا - كما يقول المناطقة - وذلك لأن هناك شروطا أخرى للغرابة ذكرناها في مواضع متعددة من هذا الكتاب، ونؤكدها هنا فنقول كذلك إن ذلك العجز عن التمييز بين الواقع والخيال يزداد حدوثه عندما يحضر المألوف في إطار غير مألوف،

أو في مواقف الخوف واختلاط الحياة بالموت.. إلخ؛ وذلك لأن هناك أعمالا خيالية قد نعجز عـن التمييز فيها بين عالم الواقع والخيال، لكنها لا تكون غريبـة، ويمكننا توضيح ذلك على نحو أعمق عندما نتذكر ذلك التمييز بين العجيب والغريب في ضوء ما قدمه تودوروف وغيره من الباحثين.

وقد ميز فرويد بين الغرابة في الحياة اليومية العادية والغرابة في الأدب، وقال إن الأعمال الأدبية لا تتعامل كلها مع موضوعات غريبة، وإنه ليس كل ما في الحياة العادية يمكن أن يكون غريبا، حتى لو كان ذلك متعلقا بأمر خيالي، فالحكايات الخرافية - كما قال - حكايات خيالية في الحياة اليومية العادية، يحكيها الناس، وقد يعتقد البعـض صدقها، وبخاصة الأطفال والبدائيون، لكنها أيضا ليسـت غريبة، فهي لا تستثير تلك المشاعر الخاصة بالارتباك أو الاضطـراب، حيث يعلق الأفراد الحكـم المنطقي أو يوقفونه مؤقتا، وهم يستمعون إليها، كأنهم يصدقونها، يصدقون تحول الضفدع إلى أمير - مثلا - لكنهم لو تشـككوا في مصداقية ذلك، فإنهم سينتقلون من حالة الإيقاف للتصديق إلى حالة التكذيب أو الشـك فيما يشـاهدونه أو يسـمعونه، هنا يقتربون أكثر من عالم الغرابة.

لكـن ما يؤكده فرويد أكثر هو أنه عندما يفترض القارئ أن الكاتب إنما يصنع عالمه السـردي وينشئه على أسس تتعلق بالحياة الواقعية، فإنه تزداد احتمالات ظهور الغرابة لدى شخصياته، وكذلك لدى القارئ، مقارنة بتشكيل ذلك الكاتب لعالمه على أسس من الحياة الخيالية. هكذا يقدم النص الأدبي غرابة أكثر ثراء وتركيبا من الغرابة التي في الحياة، وذلك لأنه يقدم الغرابة التـي في الحياة مضافا إليهـا، ومصحوبة، أيضا بتلك الغرابة التي يقدمها السرد والخيال.

هكذا، فإنه وفي ضوء منهجيات متنوعة قامت دراسـات كثيرة بالفحص للـدور الخاص بالغرابة في الأدب، تحدث النقاد عـن الغرابة لدى مؤلفين أمثـال كافكا، وبو، وهوفمان، وغيرهم من الكتـاب الذين تبرز في أعمالهم عمليات التفتيت والتدمير للشـفرات الواقعية، والذين يستخدمون تقنيات واستراتيجيات سردية، أو يقدمون صورا وشخصيات تعمل على تهديد ذلك الاستقرار العقلي والاتزان الوجداني الخاص بالشخصيات - وكذلك القراء

- وتســـتثير الخوف، أو حتى الرعب لديهم. والنوع الأدبي المكرس على نحو خاص للغرابة قيل إنه الخيالي (الفانتاستيكي)، إنه ذلك النوع الذي يستكشف ويوظف حالات الشك والفقدان للأمن والحيرة والالتباس والخوف التي على تلك الحدود والقائمة بين الداخل والخارج، الواقعي وغير الواقعي، والأنا وما ليس بـ «أنا»، و- الغريب أو غير العادي - والعادي.

لقــد وجه فرويد جانبا كبيرا من دراســـته نحو تفنيــد اتفاق مفهومه للغرابــة مع ذلك المفهوم الذي تبناه ينتش قبله - ثــم تبناه تودوروف بعده بعشرات الســنين - والذي يربط الغرابة بحالة الشك والالتباس والحيرة المعرفيــة، هكذا قال فرويد مثلا إن الكاتــب هنا يتركنا في حالة من عدم المعرفــة أو الشــك أو المتاهة المتعلقة بمـــا إذا كان هو ككاتب، يأخذنا نحو عالــم واقعي، أو نحو عالم خيالي من إبداعه الخــاص. إن الكاتب يتركنا هنــا - ولوقت طويل - في الظلام، فيما يتعلق بالطبيعة الدقيقة الخاصة بتلك الافتراضات الأولية التي يقوم على أساسها العالم الذي يكتب حوله.. أو أنه - وبطريقة ماكرة وببراعة - يتجنب إعطاءنا أية معلومات حول هذا الجانب حتى نهاية القصة.

ويؤكد فرويد أن ذلك لا يحدث في الأغلب، وأن الغرابة لا يمكن أن تعتمد على ذلك وحده، مما يجعل ما طرحه قريبا مما أشـــار إليه تودوروف بعده، حول النوع العجائبي المحض أو الخالص، الذي يفسح طريقا لظهور العجيب والغريب في الأدب [20].

فالغرابــة، إذن، مصطلــح يرتبــط بالتــردد والتــراوح والتأرجح والمزاوجــة، بالحركة من البيت والحركة إليه، الحركة بعيدا عن الذات التي قد تكون - في جوهرها - حركة نحوها، وخلال هذه الحركة قد تكون هناك الوحشــة، والفزع والذعر، والآخرون، والوحوش. والغرابة لــدى فرويد هي الجانب المظلم المخيف من الفن والأدب الذي أهملته النظرية الجمالية.

والغرابة أيضا مراوحة وتردد وشــك والتبـــاس داخل النص الأدبي لدى الشــخصيات، ولدى القارئ أيضا كما انتبه إلى ذلك هوفمان. وقد أقام تودوروف الناقد والمفكر البلغاري المشــهور، الذي ولد العام 1939

وأقام في فرنسا معظم حياته، نظريته على أساس هذه الفكرة التي نستعرضها الآن وهي تعد من أشهر النظريات التي ربطت الأدب ومفهوم الغرابة على الرغم من تلك العيوب التي تعاني منها تلك النظرية والتي سنذكرها لاحقا.

نظرية تودوروف

فوفقا لما قاله تزفيتان تودوروف، فإن الخاصية المميزة للعجائبي (الفانتاستيك) كنوع أدبي، هي ذلك التردد Hesitaion أو الالتباس والحيرة والشك الذي يتم إنتاجه لدى القارئ (ولدى الشخصيات داخل العمل الأدبي أو الفني) فيما يتعلق بالواقع المتخيل الخاص بظواهر خارقة أو ما وراء طبيعية، وهذا النوع الذي عرف هكذا هو نوع محدد ومحدود؛ ففي العادة إما أن يُستَبعَد تفسير تلك الأحداث الخارقة؛ ومن ثم يكون هذا النوع الخيالي نوعا يتعلق بالغرابة، وإما أن تصدق هذه الأحداث مؤقتا؛ ومن ثم تصبح أحداثا عجائبية [21].

وقد أشار تودوروف أيضا إلى أنه في مثل هذا النوع من القص يحدث ذلك التردد أو الالتباس لدى القارئ عندما يواجه بموقف أو حادثة غير قابلة للتصديق، أو غير محتملة، أو مخيفة، داخل النص، كما أنه لا بد أن يكون هناك، أيضا، نوع من الغموض المؤقت غير المستقر، المصحوب بالريبة والشك، والذي يعمل على إحداث الارتباك لدى القارئ قبل أن يجري تصريف هذا الارتباك أو تبديده نهائيا، خلال السرد، وأن يُفَسَر من خلال قوانين الواقع العادية، وأن تأثير الغرابة إنما يستمر خلال تلك الفترة التي يستمر فيها هذا التردد والالتباس. وقد قال تودوروف أيضا إن الآليات النصية لحالة عدم اليقين والتردد هذه، ومن ثم الغرابة، إنما تعزى إلى عملية التكوين للنص، وكذلك الشكل الخاص به والقلق الذي هو عنصر أساسي في تكوين هذا النص في شكله ومضمونه.

ويمكن تلخيص أهم العناصر التي تقوم عليها هذه النظرية حول الأعمال الخيالية التي يسميها تودوروف العجائبية من خلال النقاط التالية:

1 - يتعلـــق الأدب العجائبـــي بنوع من القلـــق الوجودي، وكذلك الشـــعور العام بعدم الراحة. وقد حاول تودوروف أن يفهـــم تلك الطرائق التي تقوم من خلالها الأعمال العجائبية الأدبية بالإنتاج لمثل هذا الأثر.

2 - وجد تـــودوروف النواة الخاصـــة بنظريته في كتابات الناقد الروسي الذي ينتمي إلى القرن التاسع عشر فلاديمير ســـولوفيوف V. Solovyov، وخاصـــة بعض ما طرحه عن الريب والشك والتردد في الأدب، وكذلك لدى الروائي الروسي دستويفســـكي، الذي أكد عندما كان يعلق على إحدى قصص بوشكين: «إنه من المستحيل التخلص من ذلك القلق الذي أثارته تلك الأحداث التي تبدو، عنـــد نهاية القصة، وعندما تقرأها بعمق، بحيث تجعلك لا تســـتطيع أن تحدد مـــا إذا كانت تلك الرؤية التي لدى بطلها - هرمان - تنبع من داخله فعلا، أم من خلال اتصاله بعالم آخر، عالم خاص بتلك الأرواح الشـــريرة المعادية للجنس البشـــري؟». وهكذا فـــإن الخيال الحقيقي - وفقا لدستويفسكي - ينبغي ألا يكسر حالة التردد والشك التي يشعر القارئ بها والموجودة خلال تفسيره للأحداث التي تُسْرَد. هكذا تكـــون الحكايات أو القصص التـــي لا يمكن تصديقها تمامـــا، والتي لا يمكن أن تكون «واقعية» على نحو واضح، هي قصص لا تفي بهذا الغرض. هكذا رفض دستويفسكي - مثلا - قصـــة تدور «حول رجل، لا معنى لـــه»؛ وذلك لأنها تدمر أو تنتهـــك الحدود الخاصة بالاحتماليـــة، وكذلك إمكان الاتفاق بـــين القارئ والمؤلف على أن النـــص قابل للتطور، وهكذا فإن الأدب العجائبي، أو بالأحرى الغريب، لدى دستويفســـكي، هو أدب ينبغي أن يكون شديد القرب من الواقع، بحيث يمكنك أن تصدق إمكان حدوثه. وهكذا لا تقدم القصص الغريبة - عادة - تفســـيرا لغرابتها؛ ومن ثم فإن الشـــعور بالغرابة والالتباس لدى شخصياتها غالبا ما ينتقل إلى القارئ أيضا.

3 - هكـذا أيضا فإنه - ووفقا لتودوروف - ينشـئ النص العجائبـي الخالص نوعا من التردد المطلـق أو الالتباس بين الشخصية المحورية في القصة والقارئ، ولديهما أيضا، بحيث لا يسـتطيعان أن يصـلا إلى نوع من القبـول لتلك الأحداث غير المألوفـة التي توصف، أو أن يتقبلاهـا بوصفها ظواهر خارقة أو ما وراء طبيعية يتم التعامل معها من خلال ما سماه كولريدج «الإيقاف المؤقت لحالة عدم التصديق» Suspending disbelieve، أي تقبـل الأحـداث الخارقـة، مثل البسـاط السـحري، والغيلان، وتحولات الإنسـان إلى حيوان أو طائر، وبالعكس، بوصفها أعمالا خيالية لا ينبغي أن نحكم عليها من خلال العقل النقدي المنطقي، وإلا ضاعت متعة التلقي لها، وقد أطلـق تودوروف على هذا النوع الأخير من الأعمال العجائبية اسـم «العجيب» Marvelous، أما النوع الآخر، الذي قد يعمل الإنسـان فيه عقله النقدي أو خياله، فلا يفهمه، ولا يستطيع أيضا أن يفسـره، فهو الغريب uncanny، إنه النوع الذي يكون القلق فيه ليس مجرد ملمح مضموني؛ بل خاصية متضمنة في بنية العمل الأدبي فيه، وأشبه بعنصر محدد لهذه البنية أيضا.

4 - ينبغـي أن تتحقق في العمـل الأدبي العجائبي ثلاثة شروط هـي:

أ - أن يجبر النص قارئه على أن يضع في حسبانه عالم الشخصيات - الموجود داخل - بوصفه عالما من الأشخاص الأحياء، وأن يتردد ذلك القارئ ويتأرجح في تفسـيره للأحداث التي في القصة، بين التفسيرات الطبيعية والتفسـيرات الخارقة أو مـا وراء الطبيعية، وهكذا فإن الغرابة إحسـاس بالتردد والالتباس والتأرجح والشك، يقوم بين القارئ والنص الأدبي الغريب وأيضا بين الشخصية الموجودة في هذا النص والقارئ المستكشف له.

ب - أن تشـعر الشـخصيات داخل العمل الأدبي بمثل هذا التأرجح أو التردد بين التفسـيرات أيضا، ويكون القارئ متوحدا مع شخصية ما، ويتم تمثيـل هذا التردد داخل العمل، وفي الوقت نفسـه قد يجد البطل أنه من

غير الممكن أن يبعد عن نفسه تلك الأحداث، بوصفها نتيجة لعقل مريض أو محموم، وحتى على الرغم من أنه تتم الإشارة إليه - من خلال الصوت السردي - على أنه «هو»، وليس «أنا»، شخص آخر، وليس الشخصية الأساسية التي تقع عليها الأحداث، خاصة ذلك العقل الفردي الذي يُوصَف كأنه آخر، كما نجد ذلك مثلا في قصة «التحول» أو «المسخ» لفرانز كافكا، التي تُوصَف الشخصية المحورية فيها من خلال الضمير «هو»، «هو يحاول .. هو يحتاج.. هو يلاحظ .. رجلاه الصغيرتان تحاولان التوافق .. إلخ»، ويكون هذا التداخل بين «أنا» و«هو» في الصوت السردي السبب الرئيسي، والنتيجة المصاحبة لحالة الشك والالتباس داخل العمل، ومن التيمات الأساسية المتكررة فيه.

ج - ينبغي أن يتبنى القارئ اتجاها معينا فيما يتعلق بالنص، وبحيث يرفض التأويلات المجازية التي تنم عن الحكمة والموعظة الأخلاقية الحسنة أو الأمثولة «الإليغورية»، وكذلك الشعرية له [22]. وقد قال تودوروف إن الشرطين الأولين ضروريان ولازمان لتكوين هذا النوع الأدبي، أما الشرط الثاني فهو اختياري.

5 - تنتقل تلك الرؤية التفسيرية للأحداث التي يسودها الريب، ويهيمن عليها الشك وفقدان اليقين من الشخصية المحورية في القصة أو الرواية إلى القارئ، من خلال حالة التراكب conflation أو التداخل التي تحدث داخل العمل بين الراوي وبطل القصة، وهكذا تتشكل الرؤية الغامضة الضبابية للأحداث، وكذلك الجهل، الموجود لدى بطل العمل. وحيث هنا نوع من العجز عن تحديد الأشياء، أو تبينها، بوصفها قابلة للتفسير أو المعرفة، ويمتد هذا الشك والالتباس إلى الإدراك البصري بحيث لا تثق الشخصية بالأشياء والأحداث التي تراها بعينها، بل قد تخلق أحداثا غير موجودة تحت تأثير الهلاوس والخداعات الإدراكية والكوابيس والأحلام والأمراض العقلية وغير ذلك من الأسباب. وقد لا تثق الشخصية باللغة، في الحديث الذي يدلي به «الآخر»، بل

حتـــى بالكلام الذي تنطقه الأنا نفســـها. وتنتقل هذه الرؤية الإشـــكالية الخاصة بالإدراك /الإبصار/ اللغة/ المعرفة من الشخصية المحورية والسارد إلى القارئ للنص العجائبي.

في ضـــوء ذلك كله يقول تودوروف: «يســـتغرق العجائبي زمن التردد أو الريـــب، وحالما يختار المرء هذا الجـــواب أو ذاك، فإنه يغادر العجائبي كيما يدخـــل في جنس مجاور هو الغريب أو العجيب. فالعجائبي هو التردد الذي يحســـه كائن لا يعرف غير القوانين الطبيعية فيما يواجه حدثا فوق طبيعي وفق الظاهر»[23].

6 - في ضوء ذلك كله يمكن تقسيم الأعمال العجائبية إلى أقسام فرعية هي:

- العجيـــب المحـــض أو الخالـــص (Purely Marvelous)، حيث تكون الأحداث فيه خارقة، أو ما وراء طبيعية وسحرية والغريب المحض (Purely uncanny)، حيث تفهم الأحداث بوصفها غريبة؛ لأنها تخدع عقل الشخصية المحوريـــة في القصة وكذلك القارئ لها). وتشـــمل فئـــة «العجيب المحض» أنواعا ســـردية، مثل: حكايات الجنيات والجـــان الخرافية، قصص الخيال العلمي، وقصص الرومانس أو مغامرات الفرســـان العجيبة Romance، في حين تشـــمل فئة «الغريب المحض» قصـــص الرعب والخوف، ومنها قصص إدغار آلان بو مثلا.

- يأتي قريبا من فئة العجيب المحض الفئة المسماة: العجيب - العجائبي Fantastic Marvelous، والتي تشـــتمل على أعمال وقصص تقدم تأثيرات وأحداثا لا يمكن تفســـيرها في البداية، لكن تفسر - في نهاية العمل - من خلال أسباب خارقة، أو ما وراء طبيعية، أو حتى خرافية. بينما تشتمل فئة الغريـــب - العجائبـــي The Fantastic - Uncanny على أحداث غريبة غير منطقية يعتقد أن لها أسبابا ومصادر ذاتية، خاصة بالفرد.

- فـــي المنطقة التي يقترب فيها «العجيب المحض» من الغريب المحض، يظهر العجائبي المحـــض الذي تمثله - مثلا - قصة «اللولب الدوار» لهنري جيمـــس، حيث يترك القارئ في نهايـــة القصة غير قادر على تحديد ما إذا كانت الأشباح التي في القصة ذات أصل ما وراء طبيعي، أم أنها ذات حضور

طبيعي خاص بها. هكذا يوجد العجائبي المحض في تلك المنطقة المشتركة التي تقع بين الغريب - العجائبي، والعجيب - العجائبي، فهو يوجد على الحدود، أي عند خط التماس بين العجيب والغريب.

والحقيقة أن هناك صعوبة في استخدام مصطلحات متداخلة هنا، مثل «عجائبي» و«عجيب» و«محض» .. إلخ، قد يكون هذا التصنيف مفيدا في التمييز بين أنواع من الأدب العجائبي، لكن هذه القسمة ذات القطبين ما بين عجيب وغريب قد تؤدي أيضا إلى بعض الخلط - كما تشير روزماري جاكسون - وذلك لأنه كي ننظر إلى العجائبي على أنه شكل أدبي، يتطلب الأمر منا أن نُمَيزَه في ضوء مصطلحات أدبية، وتُعد مصطلحات مثل الغريب، والموحش، والمقلق.. إلخ، أي ليست كذلك، ليست فئات تصنيفية أدبية بل أدبية، في حين العجيب هو كذلك. وهناك - بالطبع - صعوبة واضحة في ترجمة كلمتي Fantastic إلى «عجائبي» في العربية، وترجمة كلمة Marvelous إلى عجيب، إلا إذا وضعنا في حسباننا - كما فعل تودوروف - أن العجائبي هو منطقة وسيطة بين العجيب والغريب، تخرج منهما وتتداخل إليهما أيضا.

لقد ميز تودوروف الغريب عن العجيب في الأدب فقال إن الظواهر الغريبة قد يمكن تفسيرها على نحو مناسب من خلال قوانين العقل، هذا مع أنها تكون - بطريقة أو بأخرى - ظواهر غير قابلة للتصديق، غير عادية، محدثة للصدمة، مخيفة، نادرة، محدثة للاضطراب، وغير متوقعة. فعندما تصبح الأسرار، الذكريات، المعلومات المكبوتة التي كان ينبغي أن تظل خفية، عندما تصبح، مع ذلك كله، واضحة، مرئية، مكشوفة، ظاهرة، تمثل، لها شكل مرئي أو مسموع.. إلخ، لكنها مفككة، منفصلة عن سياقاتها الأصلية، فإن أبطال القصص والروايات، وكذلك القراء، يشعرون بوجود عجز ما لديهم عن التجاوز أو الهروب أو العلو عن اللحظة الراهنة في ذلك الحاضر [24].

هكذا يقوم النوع العجائبي «الفانتاستيكي» لدى تودوروف على استمرار هذا التردد، أو التأرجح أو الشك والالتباس، لدى القارئ، ولدى إحدى الشخصيات ومن ثم يكون عليه - أي القارئ أو الشخصية - أن يقرر ما

إذا كان ذلك الذي يدركه مستمدا أو غير مستمد من «الواقع» الخاص بعامة الناس. كما أنه، ومع نهاية القصة، لا بد أن يتبنى القارئ قرارا، أو يصدر حكما، حتى لو لم تفعل الشخصية ذلك داخل العمل، فإذا قرر القارئ أن قوانين الواقع لا تزال سليمة، وأنها توفر تفسيرا للظواهر التي تُجسَد في القصة، إذا حدث ذلك، نقول عن هذا العمل إنه ينتمي إلى النوع الأدبي المسمى: الغريب أو الغرائبي. أما إذا كان الأمر على العكس من ذلك، وقرر القارئ أن ذلك العمل يحتاج كي يتم الاستمتاع به، وكذلك من أجل تأويل الظواهر التي فيه، إلى قوانين طبيعية جديدة وإلى تعليق أو إيقاف الحكم المنطقي النقدي على الأحداث الذي تقع فيه، فإننا ندخل هكذا إلى مجال النوع الأدبي المسمى: العجيب، ويتم الجمع بين النوعين - الغريب والعجيب - تحت مظلة عامة خاصة بالنوع الفانتاستيكي أو العجائبي، وهو نوع يوجد على تلك الحدود الخاصة بالنوعين الأدبيين السابقين وهما: العجيب والغريب، وإنه ليس نوعا مستقلا، وإن تلك الفترات العظيمة للأدب الخاص بالخوارق وما وراء الطبيعيات، وكذلك الفترات الخاصة بالرواية القوطية، هي فترات تؤكد هذا التصنيف لهذا النوع الأدبي[25].

هنا لا نجد النوع العجائبي (الفانتاستيكي) بالمعنى المحدد له، بل نجد أنواعا مجاورة له، قريبة منه، هنا - في هذا النوع - قاسمان مشتركان خاصان بموضوعين متكررين هما: التحول، أو حتى المسخ، وكذلك الحتمية الكلية، التي يتجلى من خلالهما ذلك الانهيار في الحدود بين العقل والمادة. وهنا نجد المبدأ العام الذي يمكن استخراجه من كل الموضوعات المتكررة في هذا النوع، وهو: إمكان التحول من العقل إلى المادة أو الطبيعة؛ ومن ثم هناك إمكان أيضا لحدوث التعدد في الشخصية، الازدواج فيها، وهذا الازدواج هو النتيجة المترتبة على ذلك الانتقال الممكن بين المادة والعقل، أي أننا شخصيات متعددة عقليا، ويمكن أن نصبح كذلك من الناحية الجسدية، هنا كذلك تنطمس الحدود أو تنمحي بين الذات والموضوع، فتغيب حدود الصورة الإجمالية العقلانية التي تمثل الكائن الإنساني بوصفه شخصا يدخل في علاقات مع أشخاص آخرين، أو مع الأشياء التي خارجه. هنا يقوم الأدب

العجائبـــي بإحداث الاضطراب في العلاقة بين الذات والموضوع، الإنســـان والطبيعـــة؛ ومن ثم يقطع أو يوقف حالة الانفصال بينهما، هنا تدخل الذات في علاقات متعددة غير متحكم فيها مع الموضوع، وتصبح الطبيعة موجودة داخل العقل وليس خارجه. هنا - كما يقول تودوروف - نسمع الموسيقى، لكن الآلة التي تنتج تلك الأصوات الموســيقية، لم تعــد - في هذا النوع - خارج الذات؛ بل داخلها.

نقد نظرية تودوروف

وقد انتقـــدت أفكار تودوروف هذه من حيث إنه اســـتخدم مصطلحات غامضة، وعلى نحو غير متســق، كما أن اهتمامه الخاص بالبنية الشـــكلية للعمـــل الأدبي قد أدى به إلـــى إهمال الأبعاد الاجتماعية له، والتي قد يكون لها دور كبير في الأدب الفانتاســـتيكي عامة، والغريب منه على وجه خاص، لأنه يقوم على أسس من عالم الواقع كما ذكر فرويد قبله. ومثله مثل فرويد، وقع تـــودوروف في مصيدة محاولـــة تحديد المصطلح وحصـــره في نطاق مجـــال بعينه، وهو الأدب العجائبي (الفانتاســـتيك)، ومن خلال منهج بعينه هو المنهج الشـــكلي البنيوي، لكنه لم يتقدم كثيرا نحو الاستكشاف والكشف لتلك الجوانب غير العادية وغير المألوفة في الخبرة الخاصة بالغرابة، ومن ثم محاولة التفسير لها. لقد أبعد الغرابة عن مجالها الحيوي المميز، حددها وقيدها داخل نطاق الأدب العجائبي (أو الفانتاستيكي)، ومن ثم فإنه اختزل الغرابة ونصوصها - كما تقول ديزي كانون - إلى نوع من الأثر اللاحق، الأثر المتبقي الناتج من الفانتاســـتيك، هذا مع أن تلك الظواهر الخيالية لا تكون غريبة عندما تقـــدم للمرة الأولى إلى القارئ، لكنها تصبح غريبة فقط، إذا تم تبديد حالة الالتباس من دون أن نلتمس العون، أو نلجأ إلى عالم الخوارق أو العالم العجائبي.

ويعنـــي هذا أنه مـــن أجل أن يعايش القارئ عالما خاصـــا بالغرابة، فإنه ينبغي له أن يعتقد أنه داخل ذلك العالم المتخيل قد يمكن تفســـير الأحداث الغريبة من خـــلال قانون طبيعي فقط، وليس من خـــلال قانون خيالي، أو عالم خيالي، كأن يعتقد مثلا، أن الالتباس الذي حدث في الســـرد قد جاء

نتيجة حلم، أو كابوس، أو مرض نفسـي، أو ظروف غير عادية عاشت فيها الشخصية.. إلخ، وليس نتيجة لأمور خرافية أو ميتافيزيقية، ما وراء طبيعية. لقد أنكر تودوروف ذلك الجانب الفردي، أي الخاص بالفرد من الغرابة، وحاول أن يبحث عن قانون عام لها ينطبق على جميع النصوص وجميع الأفراد، في حين أن الغرابة، مثلها مثل الخبرات الفنية والجمالية، كلها تقوم في جانب منها على أساس خبرة الفرد السابقة، وسمات شخصيته، والمجتمع الذي يعيش فيه أيضا، كما أن مصطلح الغرابة هذا هو مصطلح قد يفهم أفضل لو فكرنا في ذلك الجانب المتعلق منه بالانقطاع في الخبرات، التفكك في عمليات الإدراك والشعور والمعنى، الاضطراب والخلل والتفكك الذي يحدث في الاستمرارية التي تكون في الحياة، أو خلال عملية القراءة، وليس بوصفها ـ الغرابة ـ آلية أدبية نستطيع أن نتفق عليها جميعنا، بالغرابة تضع في حسباننا ذلك الجانب المتفرد من ذاتية القارئ، وهو الجانب الذي أهملته البنيوية، كما تجلى ذلك لدى تودوروف إلى حد كبير.

الجدير بالذكر أن بعض النقاد المتبنين لطريقة لاكان في التفكير قد ابتعدوا عما قدمه تودوروف بشدة، ومنهم - تمثيلا لا حصرا - مالدان دولار Maldan Dollar الذي قال إن تودوروف قد تمثل الغرابة وفهمها داخل المنطق الخاص بالتشويق في القصة البوليسية، أما لوسي آرمت فقد قالت إن تودوروف قد تجاهل البعد التحليلي النفسي في دراسته للغرابة، ومن ثم فإنه قد وَحَدَ بين الغريب والفانتاستيكي وهما ليسا كذلك، وإلى مثل هذا القول ذهبت روزماري جاكسون في نقدها لأعمال تودوروف، فأشارت إلى تجاهله للأبعاد الاجتماعية والتاريخية والنفسية في دراسته للغرابة وعلى حساب اهتمامه بالشكل والتحليل البنيوي للنصوص الغريبة [26].

ما بعد فرويد

لقد صاحبت عودة مقال فرويد - من غيبته - يقظة واضحة في الدراسات الموسمية المتخصصة حول «العودة إلى فرويد»، التي أسسها «لاكان»، وكذلك المفكرون والنقاد التفكيكيون، هؤلاء الذين كانوا مولعين بالنصوص الهامشية والمنسية، بدلا من ذلك الاهتمام بالأعمال الكلاسيكية العظيمة والكبيرة،

ومـن ثم فإن هناك قراءات مهمة لدراسـة فرويد مـن هذا المنطلق نجدها في أواخر سـبعينيات القرن العشرين وأوائل ثمانينياته وما بعدها، ونجدها بخاصة في كتابات هيلين سيكسوس، وسارة كوفمان، ونيل هيرتر، وغيرهم ممن سنعرض لجهودهم في هذا الكتاب. هكذا قلب مصطلح «الغرابة» تلك التراتبـات والتطورات التقليدية للمصطلحـات العلمية التي تبدأ مهمة، ثم تصبح أقل أهمية بعد ذلك، فقد حدث العكس هنا، حيث بدأ أقل أهمية ثم تزايدت أهميته، بعد ذلك، على نحو كبير حتى الآن [27].

لقد ارتبط مفهوم الغرابة في الماضي، بالصور والأشكال المتخيلة المتمثلة في تيمات مثل مصاصي الدماء والأقران والأشباه، والموتى الأحياء (الزومبي) والأديار القوطية، وما شـابه ذلك، أمـا الآن، فإن الغرابة هي ذلك الموضوع الذي يمكن أن يوجد - وعلى نحو متكرر - في كل جانب من جوانب حياتنا اليومية، وكذلك في تلك العلاقات كلها التي قد تتكون بين الإنسان وكل تلك البيئات المألوفة بالنسبة إليه أكثر من غيرها: البيت، العائلة، الصداقة، الحب، علاقات الآباء بالأبناء وبالعكس، علاقات العمل، مراكز التسـوق الحديثة، المطاعم التي تقدم الأغذية السريعة، وسائل النقل العامة، المكاتب الحكومية، الذات نفسـها من حيث تحولها إلى مـكان غريب موحش بدلا من أن يكون مألوفا وأليفا، هكذا لم تعد الغرابة، في التصور المعاصر لها، تنتمي إلى فئة العادي وغير المألوف من الأماكن والأمور والانفعالات فقط، بل إلى كل ما هو عادي أيضا، مألوف وأليف، لكنه يتحول أيضا، تدريجيا، بفعل آلية التكرار، إلى نقيضـه، غير المألوف، غير العادي، غير الأليف، بل الموحش، والغريب، والمخيف، والمهدد، والمعادي. هنا العادي، يتحول إلى غير عادي، غير عادي لا يجيء من المقابر، أو ما وراء الطبيعة، أو العالم الخارجي؛ بل من داخل الواقع وداخل الحياة، وداخل النفس البشرية في تحولاتها وتشوهاتها وتشكيلاتها الغريبـة غير المتوقعة[28]. والغرابة تعبر، أو - بالأحرى - تدمر تلك الحدود التي بين الغريب والمألوف.

لقد أعاد المحللون النفسيون والتفكيكيون، وبعض أصحاب النظريات الأدبية والسياسية والمعمارية المعاصرون النظر في مفهوم الغرابة، فأكدوا الأهمية البالغة للمكون المألوف في هذا المفهوم المزدوج الذي يجمع بين

المألوف وغير المألوف، وكذلك أكدوا تلك التحولات الخاصة التي تحدث في هذا المكون أو الجانب المألوف من خبرتنا، ويكون لها تأثير قد يفوق في غرابته غرابة الأشـــباح والوحوش والأطيـــاف والدمى الموجودة في الأدب الخيالي أو الفانتاســـتيكي الغريب الـــذي اهتم به ينتش وفرويد وتـــودوروف وغيرهم [29]. هكذا تزايـــد الاهتمام لدى هؤلاء المفكرين - وعلى نحو كبير - بالعلاقة بـــين الغرابة وكل ما هو عادي، أيديولوجي، ديني، اقتصادي، معماري، أدبي، فني، أخلاقي، يتعلق بالمعرفة بالذات، والآخر، والعالم، والوجود. هكذا أصبحت الغرابة المحيرة أو الموحشـــة التي يكون عليها بيـــت المرء، وطنه، عالمه، هي نقطة البداية لدى جوليا كريستيفا فيما يخص تلك الأخلاق المتعلقة بإدراك الآخر، وحيث المواجهة - أو الالتقاء بالغريب عن المكان - هي التي تكشـــف - أكثر من غيرها - عن تلك الميول التي داخل الذات نحو الآخر، بكل جوانبها الســـلبية أو الإيجابية. أما لدى هيلين سيكوس، فإن الغرابة مفهوم محوري في فهم السياسات الخاصة بالإبداع الأدبي، والتي تقوم على أساس التخلي عن أفكار التكامل والتماسك المتعلقة بالبيت الموحد، والتي تؤدي بدورها إلى تهميش الآخر، «بوصفه غريبا عن البيت، أو دخيلا. وبالنسبة إلى كثير مـــن المفكرين كذلك، لم تعد الغرابة مجـــرد حالة أو لحظة يتم الإدراك خلالهـــا لتفكك الواقع؛ بـــل حالة تلعب دورا ما فـــي كل بنية عقلانية، وتمثيلية، ومعرفية» [30].

وهكذا، فإنه مثلما تمثل جوهر الغرابة لدى فرويد في ذلك التحول من المألـــوف إلى غير المألوف، ومن العادي إلى غير العادي، ومن خلال عودة المكبوت، فإن الصفة الغريبة المتحركة لهذا المفهوم لا تزال تمارس تأثيرها أيضا، ولكن في الاتجاه المعاكس، فالاهتمام بالمفهوم الآن لم يعد يركز على جانبه الغريب الخيالي الخاص بالأشباح والوحوش والأطياف، كما كان في الماضي لدى ينتـــش وفرويد، وغيرهما؛ بل على كل ما هو عادي، مألوف، فـــي الحياة اليومية، والذي قد يعطينا انطباعـــا أو تأثيرا بأن عالمنا هذا عالم غريب، وأن البشر في سلوكياتهم العادية، ربما أصبحوا هم الأشباح والأطياف والوحـــوش والموتى، وكأن المكبوت هنا، هـــو ذلك الجانب غير

العادي من النفس البشـــرية والـــذي لا يظهر فقط في عالم الليل؛ بل في عالم النهـــار، لا في عالم اللاوعي؛ بل في عالم الوعي أيضا، لا في عالم الخوف فقط؛ بل حتى في تلك المواقف التي قد توحي بالألفة والطمأنينة والاستقرار، في السرديات العائلية، والسير الذاتية، والأماكن المألوفة، بل حتى الحميمة.

لقد قـــدم فرويد مصطلح «الغرابـــة» بوصفه ظلا خاصـــا للقلق، ذلك القلق الذي قد نشـــعر به في الحياة، أو في الفن والأدب، والذي قد يحدث نتيجـــة «عودة المكبوت»، أو نتيجة لذلـــك الظهور الخاص للمعتقدات الأولى أو البدائية. وهذا المصطلح نادرا ما ظهر بعد ذلك في دراساته، وقد احتاج الأمر إلى أن تمضي السنون، ونصل إلى ستينيات القرن العشرين وسبعينياته حتـــى يعاود هـــذا المقال الظهور مرة أخرى، ويدخـــل - على نحو حقيقي - ميدان المفردات الثقافية الحداثية وما بعد الحداثية.

الأنواع الجديدة من الغرابة (غرابة المألوف)

هنـــاك أيضا أنواع أخـــرى من الغرابـــة في الأدب ليســـت منضوية بالضـــرورة تحت تلك الثنائيـــة الخاصة بالذات والآخـــر، أو تلك العودة الحرفيـــة للآخـــر أو المكبوت، أو ذلك الوصف للوجـــود الخارجي للآخر والآخرين و«الآخرية»، أو تلك الهامشية الأدبية التي يتوافر لها حضورها الغريب في البيت، هكذا يمكننا أن نجد - مثلا - نماذج أدبية يمكن تطوير فهمنـــا لها بحيث يمكن أن تندرج أيضا تحت مفهـــوم الغرابة، ومن ذلك مثلا ما يســـمى بـ «نموذج الغزو» كما يســـميه فيلاشيني كوبان[31] والذي يقوم على أساس فكرة الغزو الخارجي الذي يقوم به الآخر الذي اعتقدنا أنه اختفي، ثم ذلك الغزو المضاد له من المقموعين والمحتلين الســـابقين، إنه نموذج بعيد عن ذلك الأثر غير المستقر أو المتزن الذي تُحدِثه الرهبة الغريبة. إنه نموذج يعمل على تحرير الذات أو فك أسرها من مرجعياتها المعروفة، ويدفعها نحو تأمل بعض الأبواب المفتوحة على الاختلاف الذي لا يمكن تدجينه، أو ترويضه، أو جعله مألوفا، أو بيتيا - على نحو تام - أو جعله أدبا مماثلا تماما في كل الأقاليم.

هنا لا نمتص الغريب ولا نستبعده، لا يذوب في داخلنا تماما ولا نرفضه، لا نجعلــه مكونا ذاتيا في الداخل (هــو الذات)، ولا مكونا بعيدا في الخارج (هو الآخر)، إنه موجودٌ في منزلة بين المنزلتين، بين الداخل والخارج، القرب والبعد، التقبل والرفض، حيث هناك يتمثل الآخر في داخله، سواء أكان هو آخر الأدب، أم آخر التاريخ، أم آخر الأطر المعرفية التصورية.

وفــي رواية «قلب الظلام» لـ «جوزيف كونــراد» مثلا، نجد أنه بينما كان «مارلو» يدور عبر أحراش النهر، فإنه اكتشف أن تلك الإمبراطورية الأخرى لا تجســد فقط مكانا آخر؛ بل زمانا آخر أيضا، وأنها قد نســيت منذ وقت طويل، أصبحت «قارة مجهولة»، لكنها أيضا تظل مألوفة إلى حد كبير، إلى حد أنها تســتحث وتستحضر معها لغة وصفية دالة على كل من الآخرين أو الاختــلاف الجذري، وكذلك التشــابه الغريب المثير للاهتمام، ولم تكن تلك «القــارة المجهولة» موجودة في أعماق إفريقيا فقط؛ بل في أعماق اللاوعي الإنســاني أيضا. وهكذا يتوقف تقدم الســفينة البخارية (في تلك الرواية) وهي تتخذ طريقها عبر «حافة الجنون الأســود غير المفهوم» بواســطة تلك الكثرة من عالم الدلالة الذي يصف السلوك البدائي بوصفه جنونا لا معنى له. هكذا أيضا فسر بعض النقاد رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح، على أنها رواية «غزو مضاد»، وأشبه بالمحاكاة التهكمية أو المضادة أو الهدمية لرواية «قلب الظلام»، والغزو هنا لا يتم من الغرب نحو قلب إفريقيا؛ بل على العكس من قلب إفريقيا نحو الغرب، ولا يتم بالأسلحة التقليدية، بل بالجنس والقتل [32].

الأدب والطيفية

نحــن نكتب عن أطياف، عن أشــباح، عن أشــباه، عن أشــياء غائبة وحاضــرة، أو حاضــرة وغائبة، غائبة عنــد مســتوى الإدراك والواقع، وحاضرة عند مســتوى الذاكرة والحلــم والتمني، حاضرة على الرغم من أنها كان ينبغي أن تكون غائبة، حيث أشباح الماضي وأفكاره وقيمه وتقاليده وسلوكياته تحضر وتهيمن على الحاضر والمستقبل وربما تدفعهما خطوات وخطوات إلى الوراء.

إن الذاكرة طيفية الطابع والخيال طيفي الطابع وكذلك الانفعالات والمخاوف والصور والرؤى كلها أطياف أو أشباح لخبرات أو تصورات يحاول الأدباء ابتعاثها أو تخيلها أو تذكرها أو معالجتها وتجسيدها في أعمالهم بطرائق شتى.

لقد أصبح مفهوم «الطيفية» Spectrality الذي استمده دريدا من فرويد، والذي استمد - بدوره - من شيلنغ وشتيرنر وينتش، أصبح أحد أهم أشكال المجاز في الثقافة والخطاب المعاصرين. وقد أصبح هذا المفهوم يهوم دائما على تلك الحدود المشتركة بين الأدب والتحليل النفسي والتفكير النقدي عامة. ووفقا لما قاله جاك رانسيريه J. Rancire، فإن الأدب وبالمعنى الحديث، يتعلق، في جوهره، بالتحديد والتجسيد لتلك الأشكال الخاصة من مساءلة الذات واستكشافها، عبر النصوص واللغة. والأدب هو أيضا الميدان الخاص بالغرابة بامتياز؛ لأنه يشتمل - دائما - على ذلك الجانب الخفي منه، على الجانب الخاص بالآخر، وقد يكون هذا الآخر هو الذات نفسها كما تنعكس على نفسها وتتأملها، ويكون هذا الآخر مختفيا، هناك داخل النص، ويحضر من خلاله وعبره، في أردية وأقنعة رمزية، يحضر كطيف أو شبح. هكذا تتعلق الطيفية - إلى حد كبير - بالماضي الذي يجيء في الحاضر، وبالآخر الذي يحضر من خلال الذات، تلك التي تتجسد في النص على أنحاء مختلفة، ومن خلال اللغة. هنا الماضي أو الآخر الذي يجعل الحاضر أو النص الأدبي يتردد ويضطرب؛ ومن ثم يكون الشبح الخاص بذلك الماضي أو الآخر، هو هكذا، غير ثابت دائما، يقوم بالتغيير دائما، وكما أشار إلى ذلك نيكولاس رويل [33].

وهكذا يكون ما هو طيفي أو شبحي الطابع، يكون - وعلى نحو ما - غريبا، وكل ما هو غريب، ويكون - على نحو ما - طيفيا، ويكون، كذلك، محدثا للاضطراب والاختلال والقلق، في حاضر، أو واقع، قد يبدو مستقرا، كما أنه ذلك الغريب، يكون - هو نفسه - غير مستقر، مضطربا، لا قرار له، متوترا، وعندما ترتبط تلك الأمور كلها بنصوص أدبية، تكون، هذه النصوص، نفسها، حاملة معها، ذلك الطابع نفسه المميز لـ «الطيفية» وكذلك الغرابة، أي ذلك الاضطراب، وعدم الاستقرار، والتوتر. وهكذا وصل الأمر

بجوليان وولفريز إلى أن يقول إن القصص كلها، هي تقريبا قصص أشباح وأطياف، وإن أشكال السرد، كلها، أشكال مسكونة بأشباح ما، وعلى نحو ما؛ وذلك لأن أشكال السرد كلها، والشعر أيضا، أشكال مسكونة بـ «آخر ما»، وبـ «ماض ما»، وبـ «غريب ما»، وبـ «غائب ما»، ومفتقد ما، بتوتر ما، باضطراب ما، بحلم ما، برغبة ما، في عودة ذلك الآخر، المفتقد الغائب، وربما، في عدم عودته، وهي تلك العودة التي عندما تحدث قد تكون أيضا غريبة. وهكذا تجمع الغرابة بين الشعور ونقيضه، وفي جمعها هذا بين المتناقضين يكمن جوهرها، جوهرها الذي على الأطراف، على الحدود، على الخط الفاصل أو المساحة الثالثة التي بين الحضور والغياب، الحياة والموت، الأنا والآخر، اليقظة والنوم، الماضي والحاضر. وهذه الحدود، لأنها مبهمة، غير محددة، لا تنتمي إلى أحد الأطراف من دون الآخر، تكون بيئة صالحة لتعدد الاحتمالات، لحضور الشيء ونقيضه، في منطقة التداخل الخاص بينهما هذه، وإنها منطقة الشك والغموض والالتباس، منطقة ليست هي الوعي التام، ولا اللاوعي التام؛ بل في منزلة بين المنزلتين؛ لذلك قد تكون هذه المنطقة هي البيئة المناسبة لحضور الأشباح، لأن تقوم الحالة «الطيفية» بفعلها المراود والمنتاب فيها، وعلى نحو غريب [34].

وهناك معانٍ عدة للطيفية والشبحية والمراودة Hauntology، فوفقا لما قاله نيكولاس إبراهام وماريا توروك N. Abraham & M. Torok، فإن المراودة هي عملية عابرة للأجيال، إنها تأخذ شكل «السر» الذي ينتقل داخل عائلة ما، أو مجتمع ما، أو ذات ما، من دون أن يقر له قرار؛ وذلك لأنه يرتبط، بـ «سر ما»، بـ «ذنب ما»، أو «خجل ما»، أو «كارثة ما»، أمر مكبوت ما، أو شيء نحاول الهرب منه وتحاشيه عند مستوى الوعي على نحو ما، أمر ما كان نتيجة مترتبة على «صدمة ما» لم يتم الشفاء منها أو من تأثيراتها. ولأن هذا السر يظل خفيا، لم يتم البوح به، لم يتم التحرر أو الخلاص منه، فإنه يظل موجودا داخل الذات الفردية أو الجماعية، يظل يشكل في داخلهما ما يسميه إبراهام وتوروك، شبحا ما، طيفا، ما، A.Phantom، شكلا أو تشكيلا لا شعوريا، لم يصبح قط شعوريا إلا من خلال أشكال رمزية، ويكون الأدب، والفن، وكذلك الأحلام، بعض هذه الأشكال؛ وهكذا

يوجد ذلك الشبح، أو الطيف، أو ذلك السر، الموروث أو المتواصل، لا شعوريا، في أنا الشخص، أو الجماعة، مثلما يوجد أيضا في النص الأدبي، هو، هنا، هكذا، يشبه حال السر أو الخبيئة التي في سرداب النفس البشرية، هو أعماقها الخفية، وفي داخل تلك الأعماق تظل الأسرار غير مباح بها، لكنها تظل تحدث أيضا الاضطرابات والتشوهات، في حياة الإنسان الحامل لتلك الأسرار، وتحدث الاضطرابات أيضا في النصوص، وخصوصا عندما يزداد انتياب هذه الأسرار لتلك النصوص الأدبية وحضورها إليها؛ وذلك لأن هذا الحضور إنما يحدث خلال معانٍ بديلة ورمزية وجانبية كثيرة؛ ومن ثم تكون عملية تعدد القراءات والتأويلات للنصوص الأدبية العظيمة [35].

وقد كانت النصوص القوطية مثلا، نصوصا ترودها بقايا وآثار وأسرار خفية غير محكية، بل غير معبر عنها، وخاصة بأحداث ودراما ما لم يتم البوح بها. وهكذا تكون هناك أسرار عائلية ما، وأشباح وأطياف عابرة للأجيال في النصوص القوطية أو شبه القوطية كما في رواية «مرتفعات وذرنغ» للكاتبة الإنجليزية إميلي برونتي، مثلا وكذلك في بعض النصوص الحديثة، وبخاصة فيما يسمى بـ «رواية الأجيال»، وأيضا في بعض النصوص الحداثية، وما بعد الحداثية، أيضا المرتبطة بالاتجاه المسمى بـ «الواقعية السحرية» والتي تميزت بها أعمال كتاب أمريكا اللاتينية خاصة، أمثال ماركيز، ويوسا، وبورخيس، وغيرهم، وكما نجدها أيضا في أعمال الكاتبة التشيلية إيزابيل الليندي، وبخاصة في روايتها الشهيرة «بيت الأرواح» وكذلك في رواية «محبوب» للكاتبة الأمريكية توني موريسون تمثيلا لا حصرا.

ويكون للمؤثرات الخارجية، والأسرار التي تنتقل من جيل إلى جيل، أو لدى الذات عبر مراحل متتابعة من حياتها، تأثيرها البالغ، ليس في ذاتية الفرد فقط؛ بل في الثقافة نفسها؛ وذلك لأن تلك الأسرار، والتي تعود دائما، على الرغم من محاولات إخفائها، إنما تنتقل شيئا فشيئا، فتصبح متعلقة لا بما داخل خفايا النفس البشرية الخاصة بالفرد فقط؛ بل بما يوجد في خبيئة المجتمع وخفاياه الثقافية أيضا، إنها الكلمات والأسرار السحرية التي لا تقولها الثقافة لنفسها، - كما قال إبراهام وتوروك، لكنها - أيضا - الكلمات والأسرار السحرية التي يجسدها الأدب لنا، في أشكال يحاول

الأدباء من خلالها إبطال مفعول ذلك السحر، ونزع ملكة السحر من الساحر، أسـرار المخيف وقـد تزيد هذه المحاولات أيضا - مـن جانب الأدباء بعض - السحر سـحرا، والغموض غموضا، والغرابة غرابة، لكنه قد يكون أيضا سحرا ممتعا، وغموضا جميلا، وغرابة مثيرة للخيال.

العجائبي وتطور المدينة الحديثة

في كتابه «طيف يهوّم في أوروبا: منحى اجتماعي تاريخي في فهم العجائبي A spectre is Haunting in Europe: A sociohistorical Approach to the Fantastic.. (1990) قال هوزيه مونليون Jose Monleon بضرورة الحاجة إلى وضع الإطار التاريخـي الاجتماعي في الاعتبار من أجل الفهم الكامل لطبيعة الأدب العجائبي ودلالته. كما أنه ربط بين تطور الأدب العجائبي وبين نمو المدن وتطورها في أوروبا الغربية وأمريكا الشـمالية منذ القرن الثامن عشـر وحتى القرن العشـرين. وفي ضوء نظرية مونليون هذه، نشـأ الأدب العجائبي أولا: نتيجة لنوع من السـعي المعرفي والتسـاؤل المتعلق بعدم اليقين أو الشك الذي يدور حول طبيعة الأحداث التي كانت جارية في تلك الأوقات ونشأ، ثانيا: بسبب وجود مشكلات اجتماعية ونفسية كانت تجد تعبيرا عنها من خلال بعض تلك التجسـيدات والتلفظات الدالة على الخوف، ونشأ، ثالثا: بسبب تلك الظروف الأيديولوجية والتاريخية كلها التـي جعلت الأدب العجائبي. يرتبط داخليا من خلالها على نحو عميق مع أحداث ثقافية واجتماعية أخرى جارية ترتبت على تلك الظروف.

هكذا، نشـأ الأدب العجائبـي في ضوء ما يرى مونليون نتيجة للشـك وفقـدان اليقـين الذي أحدث شـعورا بالخوف، وهما معـا، فقدان اليقين والخوف، أحدثا اضطرابا يرتبطان أيضا بالظروف الاجتماعية والتاريخية ومـا يترتب عليها كلها من نتائج وجـد الأدب العجائبي فيها بغيته حاول أن يجسدها في أعمال مميزة.

وعلى عكس ما قاله بعض النقاد والباحثين أمثال جاكسـون مثلا من أن الأدب العجائبـي أدب تقويضي هادم لكل ما هـو عقلاني وواقعي ومنظم، فـإن مونليون يطـرح وجهة أخرى من النظر يقول مـن خلالها إن مثل هذا

الأدب يقـوم بمـا هو عكس ذلك، لأنه، في رأيه، أشـبه بنوع من الدفاع عن الوضع الراهن والحفاظ على النظام الاقتصادي أيضا، وذلك لأنه من خلال تجسيده إلى ضرورة اكتشاف أسباب هذه الحالة الهدمية المضطربة ومحاولة تجاوزها وحلها، ومن ثم العودة إلى الوضع السابق عليها، أن الوضع الخاص بالاسـتقرار والاتزان والعقل وكل ما هو مرتبط والعادي والنظام، وذلك مع تباعد الظواهر العجائبية والخرافية والغريبة أو اختفائها (36).

والرأي الأقرب إلى الصواب لدينا هو أن هذا النوع من الأدب أدب هدم وبناء، هدم من أجل البناء وبناء من أجل الهدم سـعيا وراء بناء أفضل، وإنه مثلما قامت المدن الحديثة على أساس الهدم للقرى وأشكال الحياة القديمة فإنها قد هدمت أيضا تلك القيـم القديمة المرتبطة بالخرافة والخوف من المجهول والغامض سـعيا وراء العقل واليقـين والحرية، لكنها، وفي الوقت، نفسـه أبعدت الإنسان عن نفسـه أيضا جعلته مغتربا عن واقعه وعن ذاته، وأسلمته للشـك والخوف وفقدان اليقين ومن ثم كانت تلك العودة الخاصة إلى الأفكار القديمة من خلال ذلك الأدب الرومانتيكي والعجائبي أيضا.

علـى كل حال، ربما دلت هذه المحـاولات للاقتراب من الأدب العجائبي وتعريفه، والتركيز خلال معظم تلك التعريفات له على فكرة التردد والشـك والتأرجح بين الواقع والوهم وغير ذلك من الأمور على أن هذا الأمر الخاص لم يزل أيضا موضعا للشـك والتأرجح والفقدان النسبي لليقين لدى هؤلاء النقاد والمفكرين أنفسهم والذين عجزوا عن الوصول إلى تعريف جامع مانع لموضـوع هو بطبيعة، هكذا، يروغ من التعريف ويهرب من التحديد ويتجاوز الأطر التنظيرية، كي يخرج منها وينظر إليها ويحاول أن يدخل إليها، ثم ما يلبث أن يخرج منهـا، كي يكون دائما، عصيا، على التحديد والتصنيف كما قال فرويد وذلـك لأن تعريفه وتحديده، يجعله ليس، هكذا، أي ليس غريبا وغير محدد ولا ينتمي إلى مجالٍ بعينه.

الدراسات العربية حول الأدب والغرابة

على المسـتوى العربي لا بد أن نقول إن دراسات الغرابة في الأدب قليلة جدا، وشاحبة، لعل أشهرها دراسة عبد الفتاح كليطو «الأدب والغرابة»، وقد تعامـل فيها مع المفهوم العام للغرابة، الذي يربطه بغير المألوف، ولم يرد أي

ذكـــر لديه فيها لكل ما يتعلق بجوهر الغرابة من الناحية النفســـية، ولا بما يتعلق بها من دراســـات غربية مهمة من منظور نقاد أدب، أو علماء اجتماع، أو فلاسفة ...إلخ.

و«الأدب والغرابـــة.. دراســـات بنيوية في الأدب العربـــي» [37]، مجموعة دراسات حول النص الأدبي، وتصنيف الأنواع الأدبية، وقواعد السرد، ومقالات حول الحريري والزمخشري والسندباد، وغيرها، وقد خصص كليطو فصلا في كتابه للمقارنة بين أرسطو والجرجاني في ضوء مفهومي الغرابة والألفة، يعنينا منها تعريفه للغرابة في ضوء تصور أرسطو لها الذي يقوم على أساس العنصريـــن اللذين يتألف منهما النص الشـــعري: «العنصـــر الأول مرده إلى التعابير المألوفة الشائعة، والعنصر الثاني مرده التعابير الغريبة التي تستورد من مكان بعيد غير معهود، فتجتاز مســـافة طويلة ثم تســـتقر في مكان ليس من عادتها أن تكون فيه، فهي كـ «الغرباء» بين «أهل المدينة»؛ ومن هنا الشعور بالدهشة والعجب... فإن العجيبات إنما تكن من البعيدات» [38].

هكذا يبدو لنا، وفي ضوء ما ذكره كليطو عن تصور أرسطو للغرابة، وفي ضوء ما ذكره ابن رشـــد وريكور - اللذان اعتمد كليطو عليهما - أن الغرابة لديه على أساس لغوي يمايز بين التعابير المألوفة الشائعة والأخرى الغريبة المســـتوردة وكذلك اســـتقرار تلك التعابير الغريبة داخل مكان غير مألوف بالنسبة إليها داخل سياق التعابير المألوف، وحالها كحال الغريب بين «أهل المدينة» يســـتقر فيها، ويثير الدهشة والعجب، وما يحدث العجب في اللغة قد يحـــدث اللذة، هنا رؤية محددة، ولا نقول محـــدودة، للغرابة، تقصرها علـــى المعنوي اللغوي، أو حتى اللفظـــي، وتقصرها أيضا على المفهوم العام للمألـــوف والغريب، الذي قد يرتبط بالغربة عن المكان، وليســـت هناك من إشـــارة - هنا - إلى ارتباط الغرابة هنا بالخوف أو الالتباس والشـــك، كما أن ذلك الربط بين العجيب والغريب - هنا - ربط عام لا يستكشف جوهر الغرابـــة المحيرة، ولا يحيط بالمعاني والـــدلالات المتعددة الخاصة بها، هذا على الرغم مما ذكره كليطو أيضا في موضع آخر من كتابه من أن «موضوع الغرابة لا يخص الشعر والبلاغة فقط؛ بل يمكن رصده في ميادين مختلفة من الثقافة العربية» [39].

وفـي كتابـه «الغرابة بين التلقـي والدلالة في السـرد العربي القديم» (2009) يتعرض محمد بن عبد العظيم بنعزور للعلاقة بين القصة والغرابة، فيقول إنه أمكن تقسيم العالم إلى قسمين: عالم الألفة، وعالم الغرابة. وإن عالـم الألفة هو عالم الحياة العادية للنـاس، وعالم الغرابة هو الحياة غير العادية للناس حقيقة أو تخيلا وفي ضوء دراسته لقصة إبراهيم بن سليمان الذي عاش فترة انهيار سـقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، وكان هاربا فرأى أعلاما سـوداء فخافها لأنها دالة على قوة إنسـان يخافه، وهو الخليفة أبو العباس، الملقب بالسفاح [40]، يحلل بنعزوز هذه القصة في ضوء تلـك الثنائيات التي فيها، وخصوصا ثنائية التعارض والتوافق، ويسـتخرج دلالات كثيرة مهمة منها، وهو يبني تصوره للغرابة في ضوء ما قدمه كليطو من تعريف لها، وخصوصا قوله: «إن الشـعور بالغرابة هو علة التأثير الذي ينتـاب المتلقي»، وإنه «لا يجوز فصل عنصـر الخطاب وعنصر المتلقي عند الكلام عن الغرابة»، وإن «الغرابة لا تظهر إلا في إطار ما هو مألوف. الشيء الغريب هو ما يأتي من منطقة خارج منطقة الألفة، ويسترعي النظر بوجوده خارج مقره. هناك إذن علاقة جدلية بين الألفة والغرابة، وفي هذه العلاقة يكمن سر التأثير الذي يحدثه الخطاب الشعري».

ثـم يركز بنعزوز على ثلاثة عناصر بـارزة في موضوعه، وهي: الغرابة، والتلقـي، والدلالة، إن الغرابة دلالة ناتجة من التلقي، ويقسـم الدلالة إلى قسـمين كبيرين: دلالة ناتجة من التلقي العام للنص السردي، ودلالة ناتجة عن التلقي الاستغرابي – أي التلقي الخاص للنص الغريب. وهو يركز اهتمامه على قصة تراثية كما قلنا هي قصة إبراهيم بن سليمان وهروبه وخوفه من مطـاردة أعدائـه له، كما وردت في مقدمة كتاب علـي بن عبد الرحمن بن هذيل «مقالات الأدباء ومناظرات النجباء». وخلال ذلك كله يهتم بنعزوز بما أسماه الغرابة الوجودية التي شعر بها إبراهيم سليمان وهو يشهد زوال ملك آبائه وأجداده، وسقوط دولتهم، وتحوله هو نفسه من أمير مهاب الجانب إلى مطارد يخاف على نفسـه من الهلاك، ويفتقر إلى الشـعور بالأمن والأمان. لقد أصبح غريبا عن واقعه الجديد، وأصبح واقعه غريبا عنه. يقترب مفهوم الغرابة هنا – نوعا ما – من مفهوم الغرابة كما حدده فرويد، وخصوصا فيما

يتعلق بشعور الإنسان بفقدان الأمن، وافتقاد الطمأنينة، وشعوره بالحيرة في العالـم وغرابته الوجودية فيه، وهو مفهوم يرتبط كذلك بالمعنى الذي حدده كليطو للغرابة، لكنه - مثله - لا يحيط أيضا بالمعاني المتعددة لجوهر الغرابة كما أوردناها في هذا الكتاب.

وأخيرا، فإنه ربما كانت الدراسة الأقرب إلى مفهوم الغرابة كما ذكرها فرويد، وكما أوضحناها هي تلك الدراسة التي قام بها حسن المودن حول قصص الكاتب المغربي محمد غرناط، وهي بعنوان: «الكتابة والغرابة المقلقة في قصص محمد غرناط، دراسة على مجموعة داء الذئب» [41].

وفيها تحدث المودن عن تيمات أساسية للغرابة وجدها واضحة في قصص محمد غرناط، ومنها:

1 - إحياء الموتى وتكليم الحيوانات، ولو أن مسألة كلام الحيوانات هنا، وفي النماذج التي عاد إليها في قصص غرناط، لم تكن لتفترق كثيرا عن تلك النماذج التي في التراث الأدبي العربي والعالمي القديم والحديث، وهي نماذج لا تتضمن بالضرورة غرابة مقلقة أو موحشة، فقد يكون كلام الحيوانات من قبيل الأليجورة أو القصة الرمزية التي تنطق بالحكمة والموعظة الحسنة.

2 - خلق العوالم المخيفة من خلال التركيز على انفعالات الخوف والهلع.

3 - التحول والمسخ: أي التحولات الجسدية خاصة، وهي تحولات - كما يقول المودن - و«مسوخات» تأتي فجأة مرعبة، وتعمل على تغيير أهم عناصر الهوية، هوية الكائن الإنساني (الجسد، الوجه، الحركة، المشي، النطق والكلام) مما يثير الاستغراب. إن الشخصية هنا تفتقد بشكل فجائي هويتها ككائن إنساني، وتتحول - من دون أن تعرف السبب - إلى كائن جديد، بهوية مغايرة غريبة ومقلقة.

4 - الأحداث الواقعية/الأحداث اللاواقعية: حيث قد يكون الحدث المركزي لا واقعيا يصعب تصديقه، لكن القصة

تقدمه على أنه واقعي؛ ومن هنا كانت غرابته التي تزرع القلق
في النفس، كما في تحول الإنسان إلى كلب مثلا.

ويذكر المودن في هذه الدراسة أيضا أن ترجمة مصطلح الغرابة المقلقة ترجمة اقترحها وجيه أسعد في ترجمته لكتاب مارت روبير: رواية الأصول وأصول الرواية، الرواية والتحليل النفسي (1987)[42].

وهكذا، فإننا نرى أن الاهتمام بالغرابة، بالمعنى الذي قدمناه في هذا الكتاب وفي كتابنا عن «الفن والغرابة» 2010 أيضا، هو اهتمام محدود، كما أن معنى الغرابة، لدى من كتبوا حولها في العربية، وأشهرهم كليطو، معنى محدود.

الخاتمة

كثيرا ما نظر النقاد إلى هذا النوع الأدبي على أنه يتضمن نوعا من الهدم أو التقويض أو التهديد لكل ما هو معظم أو عقلاني، أو بالأحرى، واقعي، مستقر، راكد. متفق عليه ففي كتابه «العجائبي في الأدب» The Fantastic in literature (1976) نظر إريك رابكن Erick Rabkin إلى هذا النوع على أنه يمثل «قلبا مطلقا مباشرا للقواعد الأساسية للعالم السردي». وكذلك نظر بعض النقاد أمثال بيير. جورج كاستيه إلى نصوص هذا النوع الأدبي على أنها تعكس محاولة ما للهروب من الواقع المادي أو النفسي أو الاجتماعي، وإنها قد تعكس أيضا خيبة أمل جيل ما من الكتاب في واقع ما، إذ قد يجدون أنفسهم غير قادرين على التكيف أو التحمل لواقعهم، ذلك الذي أصبح، هكذا، غريبا، ومن ثم فإنهم قد يتجهون نحو عالم الخيال العجائبي في محاولة واعية منهم للفهم أو الرصد أو التجسيد أو الرفض أو التحرر نسبيا من كل ما يمثله لديهم هذا الواقع من قلق وخوف وفي محاولة أيضا للإيحاء والإيماء بما يمكن القيام به نحو تغييره وإحلال واقع آخر، أكثر حرية وكرامة، وإنسانية محله.

هكذا كان الأدب الخيالي أو العجائبي لدى روزماري جاكسون يمثل نوعا من أدب الرغبة Literature of desire، أدب يحاول على نحو مميز أن يعوض ذلك النقص الموجود لدينا والناتج من القيود والعوائق الاجتماعية والثقافية.

وفيما يشبه الاتفاق مع ما طرحه فرويد في مقاله عن الغرابة قالت جاكسون أيضا إن هذا النوع المتخيل العجائبي يكشف الغطاء من المخبوء والخفي من الأمور والمشاعر والرغبات، ومن خلال قيامه بهذا، يحدث تحولا في ذلك المألوف والذي يصبح غير مألوف وعلى نحو يثير الاضطراب [43].

وقد عرضنا في هذا الفصل للمعاني المتنوعة للغرابة في علاقتها في الأدب، وقمنا بالتركيز على نظرية تودوروف حول العجائبي وعلى نقد هذه النظرية أيضا، ثم استعرضنا بعض تلك الأفكار الموجودة في الميدان الآن حول مفاهيم مثل: الطيفية والشبحية والمراودة وغيرها.

الجدير بالذكر أن هناك علاقات قوية بين مفاهيم الغرابة والطيفية وبين انفعالات الخوف والالتباس والوحشة والجلال وغيرها، والخوف مكون مشترك بين هذه المفاهيم، وهو أساس الأدب الغرائبي وأساس الغرابة. وكما جاء في كتاب تودروف عن الأدب العجائبي، ووفقا لما أشار إليه لوفيكرافت وغيره أيضا فإن التجربة الخاصة بالقارئ في هذا النوع الأدبي لا بد أن تقوم على أساس الخوف حيث «الجو أهم شيء، لأن المعيار الحاسم لأصالة العجائبي، ليس هو بنية العقدة، ولكنه خلق انطباع نوعي... ولذلك وجب أن نحكم على الحكاية العجائبية، لا على نيات المؤلف»، وحيث يتم ذلك في ضوء الكثافة الانفعالية التي تحدثها الحكاية العجائبية، فهي تكون كذلك عندما يشعر القارئ بعمق بإحساس الخوف والرعب، وبحضور عوالم قوية غير مألوفة» [44]، فما أصل ذلك الخوف؟ وما طبيعته؟ وما علاقته بالغرابة والأدب؟ هذا هو موضوع الفصل القادم من هذا الكتاب.



3

الغرابة وسرديات الخوف والظلام

«إن هلع الـروح ليس ثمة ما هــو أشــد منه حتى ســاعة الميلاد أو ساعة الموت»

جورج لويس ستيفنسون في روايته «دكتور جيكل والمستر هايد» (1)

لقد شعر كل منا بالخوف وتأثر به، لكنه - ربمــا - لم يفهم ما الخوف. هل هو تلك الصرخــة التي تخرج من بين شــفاهنا في لحظة الصدمة؟ هل هو القلق الذي يجعلنا مستيقظين في أثناء الليل؟ هل هو الانفعال الذي نشعر به ونحن نرى وجوه الأشرار على شاشات السينما والتلفزيون، أو في الحياة؟ مــا الخوف؟ هــل نســتطيع أن نكتفي في تعريفه بما قاله الرئيس الأمريكي فرانكلين ديلانو روزفلت في خطابه الرئاســي الأول عــام 1933 من أن «الشــيء الوحيد الذي ينبغي أن نخاف منه هو الخوف نفسه؟»، أو أن نكتفي بوصفه للخوف بأنه ذلك الذعر، أو تلــك الرهبة التي تصعب تســميتها أو تفســيرها أو تبريرها، والتي تشل جهودنا لتحويل التخلف إلى تقدم؟ (2). هذه الأسئلة

وغيرهـــا، والتي طرحها علماء كثيرون حديثا، هي بعض ما نحاول أن نفهمه أو نستكشـــفه في هذا الكتاب. إننا نحتاج إلى معرفة مثل تلك الخبرة التي عبر عنها موباسان في قصته «الخوف» حين قال: «لقد سيطر عليَّ بالتدريج نـــوع من الخوف الغامض، خوف من ماذا؟ لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن ذلك. لقـــد كان من قبيل تلك الوقائع التي تهب خلالهـــا رياح الأرواح العابرة على وجهك، وتشـــعر بروحـــك ترتعد ولا تعرف لماذا يحـــدث ذلك، ويخفق قلبك بالذعر العنيف من شيء غير مرئي، ذلك الذعر الذي أشعر، أحيانا، بالأسى على انقضائه».

الخوف، ما هو؟

إن الخوف هو أحد الانفعالات الأساســـية الكبرى، والتي تشـــتمل أيضا على: السرور والغضب والحزن. ويشير الخوف - عامة - إلى أخطار واقعية مدركة أو متخيلة، وهو يختلف عن القلق، الذي يظهر بشـــكل غير متناسب مـــع التهديد أو الخطر الفعلي المتضمن في موقـــف ما. وقد يظهر الخوف نتيجـــة للتعرض لمواقف محدثـــة للصدمة، أو نتيجة ملاحظتنا أشـــخاصا آخرين يتعرضون لمواقف مخيفة ويكشفون عن مشاعرهم الخاصة بالخوف، وقد يحدث الخوف أيضـــا نتيجة تلقينا معلومات مثيرة له، ويؤدي التعرض المتكرر أو الطويل الأمد للخوف إلى حدوث اضطرابات انفعالية، وإلى ارتفاع مستويات القلق لدى الخائفين.

ويصاحب القلق - في العادة - مجموعة من التغيرات الفسيولوجية التي تحدث في الجهاز العصبي المســـتقل، وفي الغـــدد الصماء أيضا، ومن هذه التغيـــرات: زيادة ضربات القلب، زيادة ســـرعة التنفس، ارتجاف العضلات وتوترها، زيادة العرق، وجفاف الحلق، كما تتحول كميات كبيرة من الدم إلى تلك الأعضاء الجســـمية التي يكون علينا أن نستخدمها في مواجهة مصادر الخوف، وهنا تظهر استجابات المواجهة أو الهرب fight or flight، وقد يؤدي هـــذا التحويل المفاجئ للدم من قشـــرة المخ إلى تلك الأعضاء إلى الشـــعور المفاجئ بالتعب الشـــديد والإعياء، أو حتى الإغماء، وهي استجابة يقال إنها تقـــوم بدور تكيفي لدى بعـــض الحيوانات، تتمكن مـــن خلالها من مواجهة

الحيوانات الضارية الأخرى. ويظهر الخوف لدى الأطفال البشريين في الشهر السابع على نحو واضح، ويكون الخوف لديهم أكثر قوة من مثيله لدى الكبار. وهناك مخاوف يقال عنها إنها فطرية، أي يولد بها الإنسان، تظهر لدى الأطفال والكبار، ومنها: الخوف من الأصوات العالية المفاجئة، والخوف من الألم ووقوع الضرر البدني، وهناك كذلك الخوف من السقوط المفاجئ، كما يحدث مثلا عندما نحمل طفلا فوق أيدينا ونوهمه - بالحركة - أننا سنسقطه أرضا، فإذا به يرتجف ويضم يديه وقدميه في حركة انكماش واضحة، وهناك أيضا الخوف من الثعابين والحيوانات الضارية، والخوف من الظلام، وكذلك المخاوف المرضية المسماة الفوبيا Phobia، والتي لا تتناسب استجابة الخوف فيها مع الموقف أو الشيء المثير لانفعال الخوف، مثل الخوف من الأماكن المرتفعة، والخوف من الماء (كما كانت حال الشاعر ابن الرومي)، والخوف من الأماكن الضيقة، والخوف من الظلام، والخوف من مواجهة الجمهور والحديث أمامه، والذي يسمى في عالم الدراما: خشية خشبة المسرح Stage Fright، والخوف من ركوب الطائرات، كما هي حال مؤلف هذا الكتاب الذي سافر كثيرا بالطائرات، لكنه يظل في كل مرة، في حالة خوف شديد حتى تهبط الطائرة على أرض المطار، وهكذا [3].

والخوف انفعال أساسي من انفعالات مشاعر الغرابة، وهو خوف يكون مصحوبا بالافتقار إلى الشعور بالأمن والأمان، مع حالة معرفية يسودها الشك والالتباس، وربما عدم القدرة على تمثيل الموقف المخيف الغريب؛ ومن ثم فقدان اليقين. ويرتبط الخوف كذلك بمشاعر أخرى شقيقة له ومصاحبة له، مثل الفزع، أو الذعر، والرعب.

المفاهيم الشقيقة للخوف في العربية:

لقد حاولت أن أعود إلى بعض المصادر العربية من أجل أن أخرج من متاهة الغرابة التي وضعتني فيها هذه المفاهيم الشقيقة للخوف، فوجدتني أزداد غيابا ودخولا في هذه المتاهة. على أي حال، هذه محاولة خاصة لتحديد بعض الفروق التي في اللغة بين هذه المفاهيم. ونبدأ أولا بالقول إنه في ضوء المعاني اللغوية العربية للكلمات، هناك انفعالات فرعية كثيرة تتدرج

تحت فئة الخوف العامة، نذكرها فيما يلي، ثم نقدم أسباب اختيارنا لمصطلح «الذعر» Terror الذي يتكرر ظهوره في هذا الكتاب بوصفه ترجمة رأيناها مناسبة كبديل عن كلمات «الرهبة» و«الروع» و«الفزع» التي قد تظهر في مواضع أخرى في كتابنا هذا أيضا، وتظهر في سياقات مفاهيم أخرى مثل «ترويع الآمنين»، و«الإرهاب»، وغيرها.

وفيما يلي شرح مختصر لمعاني الكلمات الأساسية في عائلة الخوف هنا:

1 - القلق: هو الانزعاج والضجر، فقد يقال: بات قلقا وأقلقه غيرُه. وقد ميز فرويد بين الخوف والقلق فقال إن الخوف يكون من شيء محدد، بينما يكون القلق من شيء غير محدد أي من شيء متصور أو متوقع، أو متخيل. وتكاد تكون هذه التفرقة هي نفسها التي اعتمد عليها النقاد والمفكرون، بعد ذلك، وكما سنرى، في تمييزهم بين الرعب والذعر، حيث الذعر يكون من شيء غير محدد، بينما يكون الرعب متعلقا بشيء محدد.

2 - الذعر: هو الخوف والفزع. وفي الحديث: «لايزال الشيطان ذاعرا من المؤمن»، أي ذا ذُعر وخوف، أو هو فاعل بمعنى مفعول، أي مذعور، وامرأة ذعور، أي تُذْعر من الريبة والكلام القبيح.

3 - الفزع وأصله صحيحان أو معنيان: أحدهما: الذعر، والآخر الإغاثة، فأما الأول، يقال فزِع يَفْزَع فزعا، إذا ذُعِر، وهكذا نقول فزعنا من صوت مفاجئ مخيف في الليل. أما الأصل أو المعنى الآخر للفَزَع فهو: الإغاثة، هكذا نقول: أفزَعْتُه إذ رَعَبتُه، وأفْزعتُه، إذا أغثته وفَزِعتُ إليه فأفزَعَني، أي لجأتُ إليه فَزَعا فأغاثني.

4 - الرُّعْبُ: هو الفزع والخوف معا، وفي الحديث: «نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر»؛ حيث أوقع الله في قلوب أعداء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الخوف منه، فإذا كان بينه وبينهم مسيرةُ شهر هابوه وفَزِعُوا منه.

5 - الرَّوْعُ: الفزع، راعنـــي الأمرُ يَرُوعُني رَوْعا: أفزعني. وقالوا في المثل: أفْرخَ رَوْعُه، أي ذهب فَزَعُه وانكشف وسكن. أما الرُّوع فهو موضع الرَّوْع وهو القلب. هكذا قال ذو الرمة: جَذْلان قــد أفْرَخَتْ عن رَوعه الكُــرَبُ، أي خرجت من قلبه الأحزان فأصبح فرحا.

6 - الرهبة: رَهِبَ بالكســر، يَرْهَبُ رَهْبَــة ورُهْبة ورُهْبا، بالضـــم، ورَهَبــا، بالتحريك، أي خافَ، ورَهبَ الشـــيء رَهْبا ورَهْبة: خافه. وجاء في لسان العرب: لأن تُرْهبَ خيرٌ من أن تُرْحَمَ. وأرْهَبَه واســـتَرْهَبَه: أخافه وأفزعه واستدعى رهْبَتَه حتى رهبه الناس. وبذلك فُسِّر قوله عز وجل: «واسترهبوهم وجاءوا بســـحر عظيم»؛ أي أرْهَبُوهم. وفـــي حديث بَهْز بن حكيم: «إني لأسمع الرَّاهبة». قال ابن الأثير: هي الحالة التي تُرْهِب، أي تُفْزِعُ وتُخَوِّفُ.

7 - الهلع: الحِرْصُ، وقيل: الجَزَعُ والفزع، والهلع: الحُزْنُ والجُبْنُ والجوع، والهلوع: الحريص على الشيء [4].

وقد ذكر أبو هلال العســـكري في كتابه «الفروق في اللغة»: الخوف توقع الضرر المشكوك في وقوعه، ومن يتيقن الضرر لم يكن خائفا له، والفرق بين الخوف والرهبة، أن الرهبة طول الخوف واســـتمراره، ومن ثم قيل للراهب راهب لأنه يديم الخوف، والفرق بين الخوف والفزع والهلع، أن الفزع مفاجأة الخوف عند هجوم غارة، أو صوت مخيف، وما أشبه ذلك، وهو انزعاج القلب بتوقع مكروه عاجل، أما الهلع فهو أسوأ من الجزع، وقيل الهلوع على ما فسره الله في قوله تعالى عن الإنسان (خُلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا) ولا يسمى هلوعا حتى تجتمع فيه هذه الخصال [5].

أما الفرق بين الخوف والهول، فإن الهول مخافة الشـــيء الذي لا يمكن الإحاطــة به أو تحديــده أو التحكم فيه كهول الليل وهول البحر هكذا يكون الهول هو الشعور الناتج من التوقع أو الإدراك لشيء هائل، ضخم، غامض، كالليل أو البحر وما قد يكتنفهما أيضا؛ ومن ثم فهو أقرب إلى الرهبة، التي هي - بدورها - أقرب إلى الروع، الذي هو - بدوره - أقرب إلى الفزع، الذي

هــو - بدوره - تمهيد للذعر، الذي هــو - أيضا - حالة مصحوبة بغموض يتعلــق بمصدر هذا الخوف المهيمن المســتمر، عندمــا يتضح هذا المصدر، تتحول الحالة إلى رعب.

إذن الفزع حالة مباغتــة لا إرادية، وربما لا واعية، غريزية، في حين أن الذعر يعقب الفزع، وهو مصحوب بدرجة ما من الوعي، ومن الاستكشاف، ومن البحث عن المصدر الذي أثار مثل ذلك الخوف الشديد الأول، أي الفزع.

السرد المخيف

هكــذا يكــون الخوف هو المظلــة العامة التي تنضــوي تحتها المفاهيم الفرعية الأخرى الصغرى الشقيقة لهذا المفهوم الكبير، وتحت الخوف يأتي مفهــوم القلق الذي يعبر عن الانزعاج أو الضيــق، وقد يرتبط بالخوف أو الترقب والانتظار لشــيء يوشــك على الحدوث، ثــم يأتي بعد ذلك مفهوم الذعــر، وهو مفهوم يجمع بين الخوف والفــزع، وهو - أي الذعر - انفعال أقرب إلى الخوف الشديد والتراجع والانسحاب بالجسد إلى الوراء، يعقبه تقدم وفضول لاستكشــاف الأمر الذي سبب ذلك الذعر، ويصعب الفصل بين الفزع والذعر.

فالفزع فيه ذعر، وفيه طلب للغوث والعون والمســاعدة، ثم إن الخوف والفــزع يجتمعــان معا ليظهر الرعــب. والرعب والــروع والهول والذعر انفعالات متداخلة، لكن الرعب أشد من الرّوع والهول، ويكون الذعر العام أقرب إلى الخوف العام الشــديد الذي يستكشــف موضوعه، ويكتشفه، وعندمــا يحدده، يظهر الرعب، كما أن الرهبــة هي إحداث الخوف لدى الآخرين أو ترويعهم.

هكــذا يتعلق الرعب بشــيء محدد مخيف جدا، فــي حين يتعلق الذعر بحالة عامة شــديدة وغامضة نســبيا من الخوف والرهبة والهول والروَّع. والخوف والفزع مفاهيم متداخلة، وقد يكون ســبب الفزع أكثر وضوحا من سبب الذعر، فأنا قد أصاب بالفزع من كابوس مخيف يجعلني أنهض، على نحــو مفاجئ، مفزوعا من النوم، ثم عندما أســتيقظ أكون مذعورا من هذا الكابوس، معتقدا أن خوفي يرتبط بشــيء في الغرفة التي أنام فيها، وقد لا

أدرك أن ما عانيته هو كابوس مخيف؛ ولذلك أظل بعد يقظتي - ولفترة ما - «مذعورا»، خائفا من تلك الحالة الغامضة التي هيمنت عليّ، فأيقظتني «مفزوعا» من نومي، وأظل فترة - أيضا - خائفا من النوم، خائفا من أن يعود ذلك الكابوس، هنا فزع مفاجئ، وذعر مستمر، والانفعالان متداخلان بحيث إنه قد يصعب التمييز بينهما، لكن الفزع مفاجئ ولا إرادي ولا واعٍ، ويسبق الذعر، الذي هو أقل مفاجأة وأكثر استمرارية؛ لأنه تالٍ للفزع ويعقبه، كما أنه مصحوب بدرجة ما من الإرادة والوعي التي قد تجعل الإنسان يبتعد عن ذلك الشيء أو الموقف الذي ولد لديه الفزع أولا، ثم أصابه بالذعر ثانيا وهيمن عليه.

وفي العربية: الذعر يشبه الفزع من حيث إنهما يرتبطان - معا - بذلك الشعور الخاص بالخوف الشديد، لكن الذعر حالة تنطوي على الشعور بالخوف المهيمن على الإنسان إلى درجة أنها قد تشل قدرته على التفكير أو الفعل، أما الفزع فهو حالة مركبة تنطوي على الشعور بالخوف، ثم الرغبة في مواجهته كذلك؛ ومن ثم فربما كان مقدار الخوف الذي في الفزع أشد أثرا، لكنه أقل استمرارا من مثيله الذي في الذعر [6].

وفي الدراسات النقدية حول أدب الخوف والظلام تظهر تمييزات مماثلة أيضا، فمثلا ميز ديفيد بونتر بين انفعالي الذعر والرعب على أساس أن الذعر إنما يشير إلى نوع من الرعدة التي تصيب عتبة الوعي، إحساس ما بالترقب والانتظار، وكذلك إمكانية تورط غير محدود للذات في سلسلة من الأفعال التي لا تحمد عقباها، أما الرعب فهو نوع من التحديق التام المتخشب كالأموات، الذي يشل الحركة، والذي يزودنا بالصدمة والدهشة[7]. ووفقا لهذا النموذج، ترتبط قوى الرعب المثيرة للاضطراب، أو تتعلق بموضوعات قابلة للتحديد، بحالات تمزق أو فوضى بصرية في النظام الطبيعي تترتب عليها ردود أفعال جسمية. وهكذا يشير الجذر اللغوي لكلمة رعب Horror إلى بعد جسماني أو بدني، فالكلمة اللاتينية Horrerre تشير فعلا إلى عملية الارتعاش، أي تلك الرعشة أو الرعدة التي تصيب الجسد، وما يصاحبها من اهتزازات في بعض أعضائه، ووقوف في شعر الرأس... إلخ .

كذلك ربط نويل كارول بين خبرة الرعب ومشاعر التوتر العضلي أو انقباض العضلات وارتخائها، وإفراز العرق، والاشـمئزاز، الشلل المؤقت، التراجع إلى الخلف، الإحساس بالوخز الخفيف، التجمد الحركي... إلخ. أما الذعر فهو ذلك الاضطراب الذي يحدث نتيجة حالة عدم التحديد الخاصة به، فهو لا يتعلق بموضوع مادي محدد؛ ومن ثم فإن العوامل التي تحدده تظل تروغ دائما من التصنيف، والتسمية؛ وهكذا فإن الذعر هو توقع الأذى، وما يصاحبه من توترات، وتغيرات، وهو - في رأينا - الأقرب إلى مفهوم الغرابة، ذلك الذي لا يمكن تحديده أو تصنيفه وفقا لما قال فرويد، وقبله كانط وبعده ليوتار. وهكذا، فإنه إذا كان الرعب يجعل الناس يرتعدون، فإن الذعر يقوض دعائم عالمهم[8].

وقد وضعت المعالم العامة للتمييز بين هذين المصطلحين في أثناء القرن الثامن عشر وما قُدِّمَ خلاله من نظريات جمالية، فقد لاحظت آن رادكليف مثلا، أن الذعر يعمل على الامتداد بالروح، واتساع حدودها، ويوقظ الملكات الخاصة بها لتصل إلى درجة عالية من الحياة، أما الرعب فيجمد، ويقلص، ويوقف عمل هذه الملكات تقريبا. كذلك فإنه بينما قد تكون أسباب الذعر غير واضحة وغامضة، فإن أسباب الرعب تكون غالبا أكثر وضوحا وأقل غموضا، ونتيجة لذلك، فإن الذعر قد يميل إلى إثارة العقل والأحاسيس، في حين لا يقوم الرعب بأي شيء لاستثارة قدرات القارئ الخيالية . ووفقا لما قدمه ديفندرا فارما Devendra F. Varma عام 1988 أيضا فإن الفارق بين الذعر والرعب هو نفسه الفارق بين الإدراك التوقعي أو الاستباقي المخيف من ناحية، والتحقق المزعج من ناحية أخرى، بين التشمم لرائحة الموت من ناحية، والتعثر بجثة من ناحية أخرى. هكذا فإن الذعر قد يخلق المناخ المشعور به، المتعلق بالخوف النفسي الشديد. أما الرعب فيلجأ إلى العرض الأكثر سذاجة لعالم المقابر والجثث والموت[9].

هكذا مال كثير من النقاد والمنظرين إلى التمييز بين الذعر والرعب على أساس أن الأول متخيل الطابع، متصور الانفعال، في حين أن الثاني مادي الطابع، جسدي الانفعال، وهو تمييز قد رفضه أيضا بعض الكتاب والنقاد حديثا، من أمثال تويتشل الذي قال إن أسباب الرعب غالبا ما تكون موجودة في الأحلام، أما الأساس الذي يقوم عليه الذعر فهو الواقع نفسه، وهي فكرة

غير مقنعة - في رأينا - وذلك لأن حالة الذعر قد تتجاوز الأحلام، كما قد تحتوي حالة الرعب على الواقع والخيال أيضا، وعلى أنحاء شتى.

فعلى عكس الرعب الذي يجعل الخيال يتراجع ويرتعد ويتوقف من الخوف، فإن الذعر يومئ إلى الخوف والشر، ويفتح حيزا لحب الاستطلاع الإنساني الأساسي. إن الخوف الشديد أو الذعر وخصائصه الجليلة، وحالاته البينية المؤثرة، وإمكانية التجسيد، أي الجهد المتحقق أو الواقعي الخاص به، قد تم الاعتراف به منذ وقت طويل على أنه جوهر الاتجاه القوطي، ومركزه تلك الخبرة الانفعالية التي تعرض نفسها خارج الزمن والذات، في شكل «توتر» بين الواقعي وغير الواقعي كما قال فارما (10).

إن حالة «المابين»، وذلك التهيب أو التعليق أو الإيقاف المؤقت للواقع، تُقَدِّم - بعد ذلك - من أجل أن يستكشفها القارئ ويدرك - في قلب حالتها الذاتية الخاصة - عوالم من الخلق والتفسير. إننا نعيش - كما قالت إنجيلا كارتر - في أزمنة قوطية، وهو قول قد يصح أيضا في أيامنا هذه، فالعيش في أزمنة عنيفة لم يخفض - كما قال جوناثان ليك كرين J. Lake Crane - تذوقنا للدماء. إن الرعب، في ذاته، ليس كافيا، ولعل شعبية قصص ستيفن كنغ، وكذلك وجود الخوف كعنصر مهيمن حتى في قصص الأطفال الآن مثلا، هو دليل واضح على ما قاله ليك كرين أيضا من أن ما هو منفر في نوع الرعب، وخاصة الأفلام، ليس العنف أو الرعب في ذاتيهما؛ لكنه ذلك السياق العدمي الذي يحدث فيه هذا العنف (11).

هكذا يمكن القول إن ذلك التوق إلى الرعب، والواضح في تلك الشعبية الكبيرة لأفلام الرعب ورواياته، إنما هو غطاء سطحي يعبر عن رغبتنا المتأصلة فينا، الخاصة بالخوف الشديد من الخواء أو العدم أو الفراغ، هكذا قال كل من بودريار ودريدا وليوتار إن الشرط ما بعد الحداثي الذي نعيش فيه قد سبب تحولا جذريّا في طبيعة خيالنا الجمعي، إنه تحول موجه - وعلى نحو ملغز وغامض - نحو الخوف والفزع والرعب؛ خوف من الموت وكل ما يخيف يعمل كقوة داخلية موجهة توجد - كما تقول «ماريا بيفايل» - وراء تلك التعبيرات عن المفاهيم ما بعد الحداثية في الأدب، وتعبر عن تلك الحالة من الاستثارة والذعر التي في عقولنا أو في أرواحنا.

الذعر والرعب والغرابة

يجد بعض النقاد الآن أمثال داني كافالارو وجوها عدة من التشـــابه بين مفهومي الذعر والرعب، مـــن ناحية، ومفهوم الغرابة كما قدمه فرويد، من ناحية أخرى، حيث تظهر تلك الاســـتجابات أو التأثيرات الخاصة بالغرابة عندما تكتسب الظروف المألوفة فجأة دلالات ومعاني غير مألوفة، ومن دون أن نكون قادرين على التيقن من الطريقة والسبب اللذين جعلا هذا التحول يحدث.. فقد تظهر هذه التحولات الغريبة نتيجة الشـكوك المتعلقة بما إذا كان موضوع ما أو (شـــخص) هو حيّا فعلا، أو على العكس من ذلك، ما إذا كان موضوع (شـــخص) يفتقر إلى الحيـــاة، أو ميت، يقوم بالحركة فعلا، أو قد يحدث ذلك كله بسبب عدم القدرة على التمييز بين الصورة والواقع، أو الخيالي والواقعي من الأمور [12].

هكذا فإنه من خلال التواتر، أو التزامن في الحدوث، بين ما هو مألوف وما هو غريب أو غير مألوف، تســـتثير الغرابة انفعالات متناقضة وجدانيّا، كالاســـتثارة الانفعالية والبهجـــة والتنبه من ناحية، والارتـــداد المفاجئ إلى الخلف أو الاســـتغراب أو التقزز والخوف، من ناحية أخرى، وهكذا، فإنه - وفقا لما قاله فيكتور ســـيج، وآلان لويد سمث، وغيرهما - فإن الغرابة تعمل بوصفها أشـــبه بنوع من الفجوة الموجودة بين الشفرات الخاصة بالنصوص، نقطة يبدو عندها التمثيل نفســـه وكأنه يُخفق في التحقق أو التجســـد، أو أنه يزيح نفســـه، يمزقها أو يفككها، على أنحاء شتى». وهكذا، فإنه إذا كان الغريب - بحكم طبيعته غير المحددة - وثيق الصلة بالذعر، فإنه قد يرتبط أيضا بالرعب بالقـــدر الذي يدفعنا عنده إلى مواجهة طبيعتنا المادية. وكما أشـــار ديفيد موريس أيضا، فإن الغرابة هـي: «إحساس مهيمن يصيب المرء بالدوار أو الذهول، إحساس يحملنا على نحو عميق إلى ما وراء الأحاسيس والأجواء الإنسانية العادية، وهو إحساس ينطلق عندما نواجه الصورة الخفية المحرفة، لكنها غير المبعدة تماما، من رغباتنا المكبوتة»[13].

وكذلك يرتبط هذا التعارض بين الرعب والذعر بشكل عام بذلك التمييز بين الجميل والجليل. فالموضوع (الشيء/الشـــخص) الجميل له شكل مادي وحواف أو حدود محيطة له به واضحة، في حين أن الجليل يتحدى التحديد

أو التعريف لــه، أي يتحدى وضعه ضمن إطار محدد أو واضح، وذلك وفقا لطبيعته التــي تميل إلى تجاوز أو عبور تلك المســتويات المقبولة للحجم أو الطاقــة، هذا على الرغم من معرفتنا بأن الجليل لا يكون بالضرورة مرعبا. وقد تحدثنا عن الجليل بالتفصيل في الفصل الأول من هذا الكتاب.

الذعر والرعب في السرد

يتم توصيل حالات الذعر والفزع، والرهبة والخوف - على نحو واضح - من خلال تلك القصص التي تجسد خبرة الخوف كحالة مستمرة متواصلة لا تنقطع، ولا يعني تواصلها هنا بالضرورة، استمرارا في الوقائع المادية المرتبطة فعلا بحدوثها؛ بل اســتمرار الإحســاس بهذا الخوف، التوقع للشر الكامن، للأذى المقيم، للضرر الملازم للكارثة، أو حتى الموت، الموشك على الوقوع، هنا الخوف متخيل متوقع متصــور، أكثر منه خوفا ماديا، لكن الأحداث المادية، مثل الأصوات، المشــاهد، الغموض، الصراخ، الــدم، الكائنات غير العادية، والمفاجآت، وغيرها، تعمل أيضا على استمرار حالة الخوف هذه، ثم عندما نواجه هذا الخوف ونتجاوزه، قد نشعر بالمتعة والراحة.

هكذا يقال إننا نسعى، في الفن والأدب، وراء الخوف، نبحث عنه، نسعى إليه من أجل أن نواجهه، نحن لا نســتطيع أن نتجنبه أو نهرب منه، ومن ثم فإننا قد نبحث عنه ونســعى إليه كي نواجهه، كي نقوي من خلاله أنفســنا، وإن سعينا هذا سيكون أكثر أمنا وأقوى متعة عندما يحدث خلال تفاعلنا مع القصص والروايات، أو مشــاهدتنا أفلام السينما، أو الفن عامة، ويقال إن خوفنا من هذا النوع من الفن والأدب يزداد أيضا إذا كنا في الظلام.

تشتمل قراءة الأعمال الأدبية المخيفة على مزيج وتفاعل لانفعالات عدة ترتبــط بالألم والخوف والمتعــة، ألم القتل، وخوف الأشــباح، متعة التحرر مــن سلاســل الألم والمصائب المتكــررة هذه، هنا تركيبــات خاصة ونماذج للانفعالات المرتبطة بالرهبة والمتعة، الرعب والسرور، الالتباس الذي يحدث نتيجــة للتأمل والانغماس وفقدان الذات القارئــة في الموضوع المقروء، هنا غياب للذات ثم اكتشــاف لها، هنا الذات تســكن النص مثلما يسكن النص فيها أيضا، هنا القارئ شبح يزور النص وينتابه، كما أن النص هنا مجموعة

أشباح تزور نفس القارئ وروحه ووجدانه وتنتابها أيضا، هنا مراودة ومراودة مضادة، تحطيم للحدود وعبورها بين الذات القارئة والموضوع المقروء، وبين الواقعي والمتخيل، والممكن والمستحيل، هنا تعليق مؤقت للحكم وإيقاف لحظي للمنطق الكرونولوجي (الزمني) والمكاني، اختفاء للبنيات الفارقة والمميزة الخاصة بالحياة اليومية العادية، ومع هذا الغياب، مع هذا السقوط للحدود، تحدث حرية، ويحدث تحليق، ومعهما يحدث أيضا خوف وشعور بالغرابة، هنا الخوف الذي يتجاوز مستوى التعليق المؤقت للحكم المنطقي الذي تحدث عنه كولريدج، فيما يتعلق بالجميل والخيالي والممتع. وبالنسبة إلى الجليل والخوف علينا ألا ننسى ما قاله بيرك من أن «قوة الألم أقوى تأثيرا من المتعة، وإن الموت أكثر تأثيرا من الألم» [14]؛ ومن ثم فإن الجلال، ولأنه فكرة وتصور وتخيل، ربما كان أقل ضررا من الغرابة، أقل تأثيرا من الغرابة، فهو يختلط بالجمال والمتعة أكثر من الغرابة؛ ومن ثم فإن قوة الخوف والرهبة الملازمة له أقل تأثيرا من قوة الغرابة؛ وذلك لأن قوة الجليل متخيلة، متصورة خارجية، تتم على مسافة، مثلها مثل فكرة الإشباع البديل، في حين أن قوة الغرابة متخيلة وواقعية، غائبة وحاضرة، وفي غيابها حضورها، وفي حضورها الذي يتكرر على نحو إجباري قهري، ليلا ونهارا، مكانا وزمانا، فنا وإبداعا، وحياة وسياسة واقتصادا ووجودا، يكون تأثيرها هو الأقوى أثرا، والأكثر استمرارا. وأبرز أنواع السرد المخيف هو ما يسمى بالسرد القوطي.

السرد القوطي

يضع بعض النقاد فئة الغرابة ضمن التصور العام الخاص بالاتجاه القوطي في الأدب والفن، ويضعون معها الجليل والشبحي والذهاني والاكتئابي، وغيره من الميول والنزعات المماثلة، ويقدمون بعض الدلالات والمعاني الاجتماعية والتاريخية له، وهذا جيد - نوعا ما - لكننا نعتقد أن الغريب هو الفئة الأعم والأشمل، وأن القوطية هي إحدى فئاته أو تجلياته التاريخية.

فالأدب القوطي والذي أحيانا ما يشار إليه باسم «الرعب القوطي»، نوع من الأدب الذي يمزج بداخله عناصر من الرعب والانفعال والخيال. ويعتقد - بشكل عام - أن مبتكر هذا النوع من القص هو الكاتب الإنجليزي

«هـــوراس والبـــول»، وبخاصة مع ظهـــور روايته المعروفة «قلعـــة أوترانتو» (1764). ويرتبط القص القوطي - بشكل حميم - بتجدد النهضة القوطية فـــي العمارة التي حدثت في تلك الفترة تقريبـــا، وكذلك بالرفض للوضوح والعقلانية الخاصين بالأسلوب الكلاسيكي الجديد الذي ميز عصر التنوير (خلال القرن الثامن عشر).

ويجد الأدب القوطي نوعا من التذوق البالغ للانفعالات الجامحة المختلطة الغامضة بكل ما فيها من رعب أو بهجة، وكذلك إثارة الخوف الكبير المهيمن، والرهبة الملازمة للإحســـاس بالجليل. ويلعب الجـــو العام المقبض المخيف الغامــض المثير للأعصاب، والتوقع، وحب الاســـتطلاع، والذعر دورا مهمّا فـــي مثل هذا النوع من الأدب. وقد أثارت خرائب المباني القوطية الســـابقة تلـــك الانفعالات المتنوعة المرتبطة بها فـــي الأدب، وخصوصا ما يتعلق منها بالتدهور والتحلل والتبدد والانهيار. وقد مال الكتاب الإنجليز البارعون في هذا النوع من الأدب إلى الربط بين مباني العصور الوسطى القديمة «الخربة والمهجورة» وما اعتبروه فترة مظلمة ومخيفة في التاريخ، فترة تهيمن عليها القوانـــين القاســـية التي تُفرَض من خلال طقوس غامضـــة، وهمية، مؤلمة، وزاخرة بالخرافات.

والمكونـــات الغالبة على الأدب القوطي هي: الذعر أو الخوف الشـــديد (الســـيكولوجي والبدني)، والغموض، والكائنات ما وراء الطبيعية والأشباح، والبيوت المســـكونة، والعمارة القوطية، والظلام، والمـــوت، والتحلل، وظهور الأشـــباه أو الأقران، والجنون، والأســـرار الخفية، واللعنات الموروثة. وأبرز الشـــخصيات التي ظهرت فـــي مثل هـــذا الأدب هي: الطغاة، والأشـــرار، والمجانين، وقطاع الطرق، والرهبان، والنساء القاتلات، والسحرة، ومصاصو الدماء، والوحوش، والمســـتذئبين، والشياطين، والتنانين، والملائكة التي تنزل من السماء، والأشباح والهياكل العظمية المتحركة، وحتى الشيطان نفسه.

وهنـــاك فترات متتابعة من تاريخ القـــص القوطي يصعب أن نحيط بها هنا، ولكننا سنشـــير إليها في مواضع أخرى مـــن هذا الفصل، ونكتفي هنا بالقول إن أبـــرز كتاب هذا النوع هم: تشـــارلز ماتيورين (1782 - 1824) مؤلف روايـــة «مالموث التائه» (1820) التي تدور حـــول مالموث الـــذي يبيع

روحه للشيطان لقاء مائة وخمسين سنة زيادة في عمره يقضيها في البحث عن آخر يحمله هذه المسؤولية، ثم هناك أيضا ماري شيلي (1797 - 1851) مؤلفة «فرنكنشتين»، وستيفنسون (1850 - 1894) مؤلف «الحكاية الغريبة للدكتور جيكل والمستر هايد»، وآن رادكليف (1764 - 1823) صاحبة رواية «أسرار أدولفو»، وكذلك إدغار آلان بو (1809 - 1849)، ولوفكرافت (1890 - 1937) مؤلف رواية «عند جبال الجنون»، وبرام ستوكر (1847 - 1912) مؤلف رواية «دراكيولا»، وغيرهم. ويمتد تراث هذا القص حتى يبلغ ذروته لدى كاتب قصص الرعب الأمريكي المعاصر ستيفن كنغ».

وقد أطلق على هذا الأدب اسم «القوطي»؛ لأن أصحابه غالبا ما اتخذوا من القصور والأديار والكنائس والمباني القوطية والخرائب القديمة ميدانا تدور فيه أحداث قصصهم خلال القرن السابع عشر، وأصبح مصطلح «القوطية» Gothic يستخدم في إنجلترا للإشارة إلى كل ما هو همجي ومدمر ووحشي ومرتبط بالتراث الجرماني المتعلق بتلك القبائل التي اجتاحت الإمبراطورية الرومانية على نحو عاصف خلال القرن الخامس الميلادي ودمرتها، ثم امتد هذا المصطلح كي يطلق على أساليب العمارة الخاصة بشمال أوروبا، وفي الفترة السابقة على انبعاث الأنماط الكلاسيكية في العمارة خلال عصر النهضة. وبشكل عام، شاع الطراز القوطي في العمارة في أوروبا بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر، وقد تميزت بالأقواس والقباب المدببة أو المسننة، والسراديب المضلعة، والأكتاف أو الدعامات نصف المقنطرة، وغيرها (انظر كتابنا: الفن والغرابة، 2010 لمزيد من التفاصيل حول هذه العمارة وتاريخها).

ويقال إن تطور الأدب القوطي - وكذلك قصص الأشباح بداخله - كان يمثل جانبا من استجابة أكثر اتساعا ضد تلك النزعة العقلانية المتزايدة في عصر التنوير، وقد انعكس ذلك - بدوره - في فلسفات انطلقت لاستكشاف كيفية تشكل المعرفة داخل العقل، وكذلك الطرائق التي تنشط من خلالها العمليات الأقل أو الـ «قبل» شعورية داخل هذا العقل نفسه.

ويعكس الأدب القوطي - عامة - مستويات عدة من الإيهام داخل العمل الأدبي نفسه، بعضها تاريخي، وبعضها سيكولوجي، وبعضها أدبي وفني.

وللقوطية علاقتها بالواقعية الســحرية في السرد من حيث اهتمامهما معا بالأشباح والأشــباه والأرواح مثلا، لكن أشــباح الواقعية السحرية غالبا ما ينظــر إليها علــى أنها جزء من العالم الطبيعي الذي يعيشــه المرء؛ ومن ثم فإنها ليست مخيفة، كما هو شأن أشباح القوطية [15]، وعندما يحدث امتزاج بين القوطية والواقعية السحرية يظهر الاتجاه المسمى «كشف خفايا النفس البشــرية»، أو «الكريبتونيميا» Cryptonymy، وكمــا قام نيكولاس أبراهام وماريــا توروك بالتنظير حوله، وكما يتجلى أيضا في كتابات إدغار آلان بو، وهوفمان، ودستويفسكي، وغيرهم.

القوطية والمخاوف المعاصرة

في كتابه «الرؤية القوطية: ثلاثة قرون من الرعب والذعر والخوف» (2002) يتمســك داني كافلارو D. Cavallaro بالقول إنه من الضروري أن نعترف بأن أشكال المجاز العقلية والجسدية والاخلاقية المرتبطة بالتفكك والانفصال، والتي تم تبنيها في السرديات القوطية، إنما هي ترتبط بظروف إيديولوجية وتاريخية وسياســية خاصة. وهكذا فإنه حيثما تم الاقتراب من الخوف بوصفه ظاهرة منتشرة ومتكررة العودة والتشكل، فإنه يجب التركيز أيضا على أن هناك بنيات خاصة من الخوف قد تم إنجازها أو الوصول إليها في أزمنة وأمكنة معينة، كما أنه لا يمكن - كذلك - تفسير علاقات هذه البنيات السردية الخيالية ومتعلقاتها بوصفهــا حالات تحلق بعيدة عن الواقع الاجتماعي. هكذا فإن الذعر والرعب ليســا ضدين متعارضين، لكنهما ظاهرتان شديدتا التفاعل فيما بينهما، وهما يتفاعلان - على نحو كبير - داخل مجال السلوك المسمى الخوف بوصفه ظرفا أو شرطا منتشرا ومتخللا فيهما، وهذه القوة أو الحضور الكلى للخوف يتوازى معها أيضا، ذلك الحضور الكلي لحكايات الظلام ذات التوجه القوطى.

ووفقا لما قاله كلايف بلــوم Clive Bloom يتحدث الاتجاه القوطي عن ذلــك الجانب المظلم المعتم من القص المألــوف أو البيتي، عن ذلك الجانب «الأيروتيكي الحسي والعنيف، المنحرف، الغريب»، وهو يرتبط كذلك - على نحو متكرر شــبه مستحوذ - بالمخاوف المعاصرة، ووفقا لـ «بلوم» أيضا، فقد حدث الفراق الحاسم بين القوطية المميزة لرواية «قلعة أونترانتو» التي كتبها

«هوراس والبول»، وذلك الرعب السيكولوجي الخاص بمنتصف القرن التاسع عشر من خلال قصة «سقوط بيت أشر» (1839) للكاتب إدغار آلان بو، فقد أصبـح العالم الداخلي للروح مصدر التهديد الرئيسـي، حيث داخله توجد أيضا المطالب التي لا توصف، أو المسكوت عنها للإرادة، أو بالأحرى للغريزة.

وتُعد نهاية القرن التاسـع عشر وبداية القرن العشرين مهمة أيضا في هذا التطور التاريخي؛ وذلك لأنه حدث خلالها امتزاج بين الاتجاه القوطي وطـراز أدبي آخر، هو الواقعية الفيكتوريـة[16] Victorian Realism، مع ميل خاص يتعلق بالاستكشـاف الفلسفي لهذا المجال. وكما لاحظ ديفيد بونتـر، فإنه خلال فتـرة قصيرة لا تتعدى أحد عشـر عاما، ظهرت أهم الأساطير الأدبية وأكثرها قوة، وهي أساطير استمرت دينامياتها القوطية في الاستثارة والتنشيط لخيالنا الجمعي عبر ما يزيد على قرن من الزمن. ومن بين الأعمال الجديرة بالذكر هنا نجد «الحكاية الغريبة للدكتور جيكل ومسـتر هايد» لروبرت لويس ستيفنسـون، وكذلك «صورة دوريان غراي» لأوسكار وايلد، و«جزيرة الدكتور مورو» لـ «هـ. ج. ولز»، ثم «دراكيولا» لبرام ستوكر، وهي أعمال يرى كثيرون أنها تحتوي على سلطة أو قوة رمزية تشبه في قوتها الأعمال القوطية الأولى أو الأصلية، وطاقة قد دفعت نحو حدوث تطورات مهمة في تلك الفترة، واسـتمرت فعالة في ظهور الاتجاه القوطي مـا بعد الحداثي الحالي، فخلال هذه الحقبـة الأدبية، أصبح القوطي - بوصفه طـرازا أدبيا مميـزا، - أقل وضوحا، فالمشـهد المدني حل محل الغابة، كما أصبحت القوى الخارقة وما وراء الطبيعية المخيفة موجودة في الداخـل، فانحل أو ذاب ذلك التمييز الذي كان قائما بين الواقع والخيال، وإنـه بموازاة هذا التغير في الجماليات، حدثت طفرة قوطية كاسـتجابة للتغيرات الفلسـفية والاجتماعيـة والفنية المعاصرة لهـا. وكان أبرز تلك التحولات ظهور التحليل النفسي، كما كانت تأثيرات الداروينية والنظريات الاشـتراكية واضحة، وأصبح هناك وعي متزايد بطبيعة النفس الإنسانية والسلوك الإنساني، وهو وعي انعكس بدوره في الأدب، وهكذا يقول بوتنغ إن التحليل النفسي كان النتيجة أو الأثر الناتج من مائة وخمسين عاما من الخلق للوحوش[17].

يهتم الأدب القوطي الحديث - مثله مثل الشكل التقليدي منه - بالأطياف الشريرة، بالتجليات الطيفية الشبحية المخيفة، ولكن - وكما أشار هالبرستام Halberstam - فإنه ومنذ أواخر القرن الثامن عشر حتى القرن التاسع عشر، تحول مسار أدب الرعب القوطي من الانشغال بالخوف الناتج عن أفعال العائلات الأرستقراطية الفاسدة أو حتى رجال الدين، كما تمثل ذلك في القلاع وأديار الرهبان التي تسكنها الأشباح، إلى ذلك الخوف من الأجسام الذي يتمثل من خلال الأجساد المخيفة البشعة المنكرة.

ويركز الأدب القوطي الحديث على كل تلك الحالات والظواهر البشعة المخيفة، كما تحدث في المدينة، بالخوف المتعلق بالاقتراب من الغامض والمجهول والمسكوت عنه في الحياة اليومية العادية، وليس في عالم الليل فقط. هكذا فإن المدينة المتاهية، أو المدينة الحديثة، المتاهة التي في الخيال القوطي الحديث، هي المكان المسؤول - إلى حد كبير - عن خلق كل تلك الوحوش التي تتجول في شوارعها، وهي وحوش تخرج من أوكارها وبيوتها العشوائية القذرة التي تتألف من طوابق وشقق متعددة مزدحمة بالسكان والأسرار كي تثير الخوف [18].

هكذا ركز الأدب القوطي الحديث اهتمامه على الظواهر الشبحية البشعة والوحشية التي في المدينة، كما صُوِّرَت المدينة نفسها كوحش، وذلك في ضوء تعدداتها الجغرافية والاجتماعية وانقساماتها، وتنوع تكويناتها، وقد ظهرت الثنائية أو الازدواجية التي يكشف عنها بعض مواطني المدن، واضحة؛ كمحاولة لإبراز التعارضات بين النور والظلام، الحرية والقمع، الأمن والتهديد، الألفة المنزلية والرعب المتسلل أو الكامن.

هكذا أضاف السرد القوطي حالة الرعب إلى ذلك الإدراك الخاص بالمدن لدى الكتاب الواقعيين والطبيعيين وغيرهم؛ ومن ثم فإنه أرهص أو توقع ظهور ذلك التجسيد الخاص للمدينة غير الواقعية أو «الأرض الخراب» كما ظهرت في قصيدة ت. س. إليوت الشهيرة. وقد أخذت الحداثة معها حالات القلق والشك، ونقلتها من تسعينيات القرن التاسع عشر إلى الإبداع الأدبي الجديد الخاص بالقرن العشرين أيضا، ولكن من خلال أشكال جديدة.

وقد فتح غزو الفضاء والتطورات التكنولوجية الضخمة المجال آفاقا أخرى جديدة في الأدب عامة، وفي أدب الرعب والغرابة خاصة، وهكذا استمر خيال

العتمة يعمل وينطلق. ومثلما شهد القرن العشرون تطور أفلام سينما الرعب، فقد شهد أيضا تطور القصص المصورة (الكوميكس)، وظهور أعمال غاستون ليرو، خاصة شبح الأوبرا، وتحول كثير من الأعمال القوطية، مثل فرنكنشتين، ودراكيولا، إلى أعمال سينمائية، ومسرحية، كما دخلت هذه الأعمال وغيرها، مثل لوحة «الصرخة» لإدفاردي مونش، مجال الإعلانات والأزياء والموسيقى والرقص، وغيرها من فنون العصر، وأصبحت هناك ألعاب فيديو للصغار والكبار يكون الرعب والخوف والتوقع والغرابة عناصر أساسية فيها، كذلك توحد الأدب القوطي مع الشكل الأدبي الجديد المسمى الخيال العلمي، فظهرت أعمال الخيال العلمي المرعبة، ونحن لن نتحدث كثيرا في هذا الكتاب عن أدب الخيال العلمي؛ لأننا تحدثنا عنه ببعض التفصيل في كتابين سابقين لنا هما: «الخيال من الكهف إلى الواقع الافتراضي» (2009)، و«الفن والغرابة» (2010)، حيث تحدثنا فيهما عن الكائنات الغريبة المخلقة، مثل: السيبورغ، والاستنساخ، والآلات المخلقة، والدمى، والوحوش القادمة من الفضاء، وألعاب الكمبيوتر، وإدمان الإنترنت، والتحريك والروايات الافتراضية، وغيرها [19].

والذات هي موضع خبرة الخوف وموقعها، ويرتبط الخوف بالموت الرمزي الفردي والجماعي. هكذا يمكن اعتبار مظاهر فزع «قوطية ما بعد الحداثة» تأويلا انطباعيًا لثقافة الخوف ما بعد الحداثية، تلك التي يندفع الأفراد فيها بقوة نحو الصور المخيفة، سواء أكانت في السينما أم في الأدب، هنا تكون قراءة مثل هذا الأدب ومشاهدة مثل هذه الأفلام نوعا من المراجعة للواقع، المواجهة الرمزية من مسافة معه. كما أن هناك نوعا من الحنين أو النوستالجيا المرتبطة بالولع بمثل هذا النوع من الأدب، فنحن نتذوق المخيف والعناصر الغريبة التي فيه؛ لأننا نكون مدفوعين بواسطة دافع رومانتيكي ملازم لطبيعتنا، دافع كُبِتَ بقوة، وحُرِمْنَا تطويره في ثقافتنا الحديثة وما بعدها [20].

في قصة «هورلا» لـ «جي دي موباسان» يشعر الراوي بالأرق ويستشير الطبيب فيقدم إليه نصائحه، لكن متاعبه تتزايد وتتفاقم، ويشعر بأن جهازه العصبي مصاب بالوهن، يهيمن عليه الخوف، ويعتقد بوجود شخص آخر معه في بيته، يوجد معه في كوابيسه الليلية، ويوجد معه في يقظته خلال الليل والنهار، يغادر البيت ثم يعود إليه، فيجد أن سائقه شاحب الوجه وكأنه مريض،

وعندما يسـأله الراوي عما أصابه يقول له «يبدو يا سـيدي أن المكان لم يعد كما كان، فقد أصابني أرق شديد طوال غيبتك»، ثم إن ذلك الراوي يشعر بأن ذلك الكائن الموجود معه ليلا في غرفته يشرب الماء دوما من زجاجته، ويقلب صفحات كتبه، وتزداد لديه الهلاوس حتى يقول: «لسـت مجنونا ولا أخرف.. لقد رأيته بالتأكيد.. لقد رأيته»، وأيضا «أمضيت ليلة مقلقة.. كنت متأكدا من وجوده بجواري ينظر إليَّ، يتفحصني، يحاول الولوج داخل عقلي، والسـيطرة علـى أفكاري، وأيضا «ظللت أتظاهر بالقـراءة وأنا أعرف يقينا أنه يراقبني، حتـى تأكدت أنه يقف خلف ظهـري، وأنه يكاد يلامس أذنـي.. قمت فجأة واستدرت كأنما أحاول استرداد نشاطي، فوقع نظري على المرآة أمامي، ورغم الضوء الشـديد لم أر صورتي في المرآة!! لقد حجب جسمه الشفاف صورتي عـن المـرآة، أي إنه يقف بيني وبـين المرآة.. ظللت أنظـر مدققا حتى بدأت صورتي شـاحبة باهتة كأنما أراها من خلال زجاج معتم أو من وراء سـحاب كثيف.. لم يكن الجسـم الذي يحجبها محددا بشـكل واضح، بل كان شـكلا هلاميًا يملأ المكان كسـحابة دخان، ثم بدأ الغمام ينقشـع بالتدريج، وبدأت صورتي تظهر حتى أصبحت واضحة كلية .. لقد انصرف» (21).

هكذا تتزايد مشـاعر الراوي بالخـوف والرعب من ذلك الحضور لآخر غريب غير مفهوم مخيف معه، حتى يقرر أنه يقبل نفسه في النهاية، هذا مع أنـه يقول إنه قد قرأ في إحـدى الصحف عن وباء جنوني أصاب الناس في البرازيل في ذلك الوقت، وباء استولى على أرواح الناس، ويطاردهم، ويتحكم في حياتهم، من مخلوقات عجيبة تبدو كمصاصي الدماء، يسلبون الناس وهم نيام، ويشـربون الماء والألبان فقط، كما كان يفعل ذلك طيف هؤلاء في هذه القصة، وهو يقول أيضا إن سـفينة برازيلية قد توقفت في نهر السـين منذ وقـت قريب، وإنه وقف لتحيتها، وأن ذلك الوباء المخيف قد انتقل إليه منها. لكن لماذا أصابه وحده دون غيره؟ هذا ما لم يستطع له تفسيرا (22).

ربما كان الذي لم ينتبه إليه فرويد نفسـه هو أنه ليسـت الأشـياء التي اعتبرها مخيفة (الأشـباح - الدمـى - الموتى - الأصل المكبوت الذي يعود) فقط هي المخيفة، بل إن الخوف نفسـه - الشـعور بانعـدام الأمل وفقدان الأمـن، عدم الثقة والشـك، وما يسـتثيره ذلك كله من خـوف، هو أمر قد

يستجلب الخوف الكامن المكبوت الذي اعتقدنا أنه اختفى، فإذا به يعود ويظهر في شكل جديد من الغرابة الافتراضية: أجهزة التلفزيون داخل البيت التي تحضر الموتى من الممثلين، والبعيدين عنا من المذيعين، والأمكنة والأزمنة البعيدة، إلى داخل البيت، ولكن لا يمكن الحوار معها، إلا بشكل افتراضي.

عن الظلام

الظلام عنصر مؤجج للقلق والفزع والذعر والرعب ولانفعالات سرديات الخوف كلها. والظلام هو العنصر المكون الأساسي في القص القوطي، وفي قص الغرابة أيضا، في الأماكن القوطية وعناصرها ومكوناتها والأشياء الملحقة بها: القلاع المدمرة، والسراديب، والمقابر المخيفة المعتمة، والأبراج المحصنة، وزنازين السجون المعزولة، والأقبية الرطبة، والممرات الشديدة البرودة، وآبار السلالم التي تتردد فيها أصداء التأوهات والأنين والولولة والصراخ، والمنازل التي تحوي مقابر، وأديار الرهبان التي تغطيها نباتات اللبلاب المتسلقة، والحجرات الصغيرة السرية، والخزائن الخفية أو العواصف، والغابات الباردة المنعزلة، والمستنقعات المملوءة بالاحتمالات المخيفة [23].

وفي أوقات معينة من اليوم، خاصة الليل، ومن الفصول والسنة، تكتسب هذه الأماكن دلالاتها المخيفة الأكثر تأثيرا حسب موقعها في العالم؛ فمثلا تُعد البقاع أو الأماكن المعزولة التي تسودها فصول الشتاء في بلاد الشمال، وخاصة في هزيع الليل الأخير، هي العناصر المفضلة في مصفوفة الخوف هنا. لكنَّ هناك أوقاتا أيضا تكون هيمنة الخوف فيها أشد، بصرف النظر عن الموقع: شمال الأرض أو جنوبها؛ ألا وهي الأزمنة الانتقالية، المراحل الانتقالية في حياة الفرد، وفي حياة الأمم والشعوب، مثلا: مرحلة المراهقة وحدوث تغيرات جسمية ونفسية كثيرة لدى المراهقين، أو مرحلة الشيخوخة بوصفها فترة انتقالية بين الحياة والموت، أو فترات الاضطرابات السياسية، وانتقال المجتمعات من حالة إلى حالة أخرى أو وجودها في حالة من الشك والغموض واضطراب الرؤية الواضحة أو حتى غيابها بالنسبة إلى المستقبل وكذلك في فترات الانتقال من النهار إلى الليل، ومن الصيف إلى الشتاء، ويحدث هذا الاضطراب نتيجة للغموض، وحالة عدم التحديد، الفقدان

لليقين ووضوح الحدود أو التبين المرتبط بهذه التحولات والانتقالات؛ ومن ثم فإنها تكاد تكون الأقرب إلى حدوث حالة الانهيار في التمثيل، تلك التي تحدث عنها كانط، وبعده ليوتار، أي العجز عن تكوين المعنى المنطقي العقلاني المهم الخاص بها. إنها الأوقات التي تسود فيها حالة الفقدان للتوجه أو التبصر، وتزداد فيها أيضا حالات اختلال الشعور بالذات أو الواقع - كما سنتحدث لاحقا في هذا الكتاب - والتي هي الشرط الأساسي الممهد للغرابة.

ويضاف إلى البنيات الخاصة بالأماكن والأزمنة المثيرة للخوف أيضا تلك التكوينات النفسية الأكثر قابلية لاستثارة الخوف لديها، حيث نجد أن الأفراد الأكثر ميلا إلى الذهانية (المرض العقلي)، أو العصابية (المرض النفسي غير العقلي)، وكذلك الأكثر ميلا إلى الفصام البارانويدي (ذهان العظمة)، أو الشعور بالاضطهاد (ذهان المطاردة والملاحقة أو الارتياب)، أو الأكثر ميلا إلى العزلة والأكثر حساسية ورهافة نفسيا، والأكثر ميلا إلى الشعور بالخوف المتخيل كالأدباء والفنانين هم الأكثر ميلا للشعور بالغرابة.

هكذا تتفاعل المناظر الطبيعية والتكوينات المعمارية، والمناخ العام والطقس، والفصول والأفكار والانفعالات وسمات الشخصية في إثارة عالم من الخوف، وحيث للظلمة - كما قال مالينوفسكي - حضورها البالغ، وحيث الضوء أيضا لا يمكن اختراقه أو النفاذ منه، أو تحاشيه، مثله مثل الظلام أيضا .

في أساطير وديانات كثيرة هناك، دلالات ومعانٍ سلبية متنوعة للظلام، حيث ارتبط الظلام لديها - على نحو متكرر - بالغرائز السفلي، وبالافتقار إلى الوضوح والنظام، وبإحساس مهيمن بالخوف والغموض وتوقع الضرر. كذلك ترتبط العتمة والظلام بمفهوم العبث، بوصفه حالة خلقتها عقول عاجزة تبحث عن المعنى في عالم بلا معنى، وقد لعنت المسيحية الظلام بأن وضعت الشيطان، أمير الظلام، في موقف العدو المناوئ لمشيئة الرب. وفي الديانة الهندوسية، يرمز الظلام إلى الزمن المدمر المبدد لكل شيء، وفي الأساطير الإيرانية القديمة، يرتبط الظلام بـ «إهرمن»، سيد الأكاذيب، وفي الإسلام يرتبط الظلام بالظلم والجهل وبالطيش والحماقة [24].

وقد تساوقت هذه التقديرات المحطة أو المنقصة من شأن الظلام، أو اتفقت تاريخيا مع ربطه باللون الأسود، لون الحزن والموت، وكذلك

لون البشرة الأسود، وكثير من الأساطير الاستعمارية والبطركية (الأبوية التسلطية) قد وجهتها مقاصد تتعلق بالربط بين هذا اللون الأسود، و«شيطنته» بوصفه يرتبط بالغموض والغريزة والبدائية والتوحش؛ ومن ثم بالفوضى والعماء والتدمير.

لكن قوى الفوضى والتدمير هذه قد تم إدراك وجود جانب إيجابي ملازم لها أيضا، حيث لم تعد الظلمة تعني الوجود المهيمن الجذري للشر فقط؛ بل الحالة أو الشرط المسبق الضروري لتكوين الضوء؛ ومن ثم الخروج من الظلام إلى النور، فالجنين يتشكل في رحم الأم المظلم وتنمو النباتات في باطن الأرض المعتم، وكذلك شأن الطيور والحيوانات والأفكار الإبداعية والتطورات البشرية عامة [25].

وفي التحليل النفسي ارتبطت الظلمة بعالم الظل: الوعاء الحاوي لكل الأشياء المخيفة التي يتبرأ منها الوعي وينكرها. وفي فلسفة الأديب الأمريكي «بو»، يُعد الظل هو المستودع أو المخزن الخاص بالانفعالات التي يتجنبها المجتمع المتحضر والمستنير، أو ينأى بنفسه عنها، أما ما هو أكثر إثارة للتهديد والخطر - فيما يتعلق بالظل - فهو أنه يمتلك قوة مستقلة تميل إلى التعبير عن نفسها من خلال أكثر الأشكال بشاعة وإثارة للخوف، كذلك فإنه كلما زادت القوة التي يتم من خلالها كبت هذا الظل وطاقته؛ زادت قدرته وطاقته على التحول والظهور.

وهكذا فإنه مثلما ترتبط الظلمة بحالة ارتدادية تعود إلى الوراء، إلى الفوضوي والعبثي والوحشي والشيطاني، فإنها ترتبط أيضا بقوة تقدمية، قوة تتم من خلال القناع الذي يوضع على هذه الطاقة البدائية، هنا يكون القناع هو الوجه الاجتماعي المقبول، كما لدى يونغ، الذي يعبر عن ظل قد كُبِتَ أو مُنِعَ من الظهور في شكله الأصلي، وقد ترتبط هذه الأقنعة وتربط بطاقة حيوية؛ ومن ثم بالإبداع، وهنا لا بد من وسائل مساعدة، مثل الخيال والحدس والموهبة، وهنا نجد نقاط التقاء كثيرة بين ما قدمه يونغ وما قدمه شيلنغ قبله، وكذلك فرويد، وغيرهما، حول التكوين الخاص للتجليات الثقافية والإبداعية المقبولة من خلال الكبت الخاص للجوانب الغريزية والبدائية غير المقبولة، إن قلب العتمة والظلام من الممكن أن يكون مضيئا أيضا.

رعب الوجود

في قصة قصيدة «الأرض الخراب»، التي كتبها ت. إس. إليوت، كثير من الموضوعــات الغريبة: الظلمة، الفزع، المــوت، وتتجلى هذه الموضوعات عند مســتوى اللعب باللغة أو ألعاب اللغة، ففي بداية المقطع الأول من القصيدة نواجه تلك الموتيفات القوطية المتكررة الخاصة بالذاكرة والرغبة التي يحركها ذلك الربيع القاســي أو التدفق العنيــف، الذي يضغط على الحياة ويدفعها و«أبريل الذي هو أقسى الشهور، فهو يُنبت الزنابق من الأرض الميتة، ويمزج الذكــرى بالرغبة، ويرجع الجذور الخاملة تنبــض بأمطار الربيع» (26). هنا يطرح إليوت صلة مباشــرة بين اللغة والهوية، فأشــباح الذاكرة تتحدث هنا بلســان غريب، تذكر المتحدث بماضٍ مبهج شديد الحيوية يتناقض مع ذلك الحاضــر الميت والمجدب «لقد قــرأت - طوال الليــل - وذهبت جنوبا في الشــتاء». ولعل تقديم هذا البيــت باللغة الألمانية أن يعبــر عن ذات غريبة ومغترية، تجد وجودها في آخر، في لغة أخرى، وليس في وجودها الحقيقي، حيث تتحول اللغة الإنجليزية لدى الشاعر هنا، وفي نهاية القصيدة، إلى لغة أجنبية، حيث الذات تجد نفسها مغترية وموجودة في «غير بيتها» (27).

وإذا كان هيدغر قد قال «إن اللغة بيت العالم» فإن لغتنا هي أيضا بيتنا الذي قد نشعر فيه - ومعه - بالألفة، أو نشعر من خلاله - ومعه - بالغربة والاغتــراب؛ ومن ثم الغرابة. هكذا قد تكون اللغة مرتبطة بالفزع، بالخوف، بانعدام اليقين، أو بيقين مراوغ غير حقيقي. هكذا قد يؤدي ســقوط اللغة إلى ســقوط الذات، ويمهد خراب اللغة الطريق إلى خراب الذات، وليس ما نقصده باللغة هنا مجرد القواعد والنحو الوصفي؛ بل طريقة التفكير والفهم والتصور والتخيــل والإدراك للذات في الواقع والوجود، وأيضا ذلك الإبداع المؤكد للذات والمحقق لها، الأســلوب الذي هو الشــخص أو الذات، كما قال بوفون، ولعل هذا هــو جوهر ما قاله لاكان حول التكوين المتخيل للذات من خلال اللغة، وذكرناه في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

«ترى من عسى هذا الثالث الذي يسير إلى جوارك أن يكون؟
أنا لا أجد حين أحصي إلاك وإلاي معا
لكني حين أنظر إلى الأمام عبر الطريق الأبيض

أرى دائما شخصا آخر يسير إلى جوارك
منسلا ملتحفا وشاحا بنيا مرتديا قلنسوة
لست أدري أرجل هو أم امرأة
لكن ترى من عسى هذا الذي يسير إلى جوارك أن يكون؟» (28).

هنا الصمت ينتشـــر ويسود، هنا ينبغي أن ننظر إلى ما يوجد خلف ذلك الصمت، إلى تلك الذاكرة التي تتجاوز صمت الحاضر إلى كلام الماضي، هنا نوع من التمزق والتفكك والتكسر في الواقع، هنا البشر أشباح لأنفسهم، لقد أصبحوا حاضرين، ولكن كأشـــباح لأنفسهم، أشباح غير قادرة على الكلام، غيـــر قادرة على الرؤية، ولا على معرفة أي شـــيء، هنا ذعر خاص بفشـــل اللغة، فشلها في التمثيل لما تدركه وعجزها عن مواجهة الغريب، أو مواجهته، وغرابتهـــا التي يصاحبهـــا تتابع خاص لعمليات مـــراودة، تتابع يقدم البنية الأساسية للقصيدة، مراودة لا يمكن أن يهرب القارئ منها، أو قد يهرب منها بســـبب افتقادها الوحدة المحورية أو الصوتية، وكذلك بسبب تلك الطريقة المقلقة التي تقفز من موضوع إلى آخر، ومن صورة إلى أخرى، والتي تتحدث فيها أصوات الأشـــباح بعضها فوق بعض؛ محاولة أن تعطي تفسيرا لحياتها في مدينة لندن غير الواقعية.

في هذه القصيدة تســـتدعي الأشـــباح الصور والحكايات والأســـاطير المتنوعة، هنا الأصوات ظـــلال وأصداء، تمثيلات غير ذات أصل محدد، أو محاكاة ثانويـــة Simulacra للوجود الحقيقي، واقع خـــرابٌ، خاوٍ مثل هذه الأشباح والأصوات، واقع لا هو «وجود»، ولا هو «لا وجود»، واقع يشبه الواقع وما هو بواقع، ضوضاء وعشوائية وأصداء وظلال وخوف، وجود آلي يفتقر إلى الروح والإبـــداع، وجود يكمن جوهره في غيابه، ويكون حضورا موجودا على المستوى اللغوي فقط، على المستوى الشبحي فقط.

«يا من كنت معي على السفائن في ميلاي
أترى جثة العام الماضي التي في حديقتك زرعتها
بدأت تؤتي ثمارها؟ أتراها تينع في هذا العام؟
أم ترى الصقيع المباغت أقلق مرقدها؟
أبق الكلب بعيدا، إنه صديق البشر

وإلا نبش الجثة بمخالبه مرة أخرى

«You! Hypocrite lecteur! Mon semblable, mon frere»

أهذا أنت أيها القارئ المنافق؟ أي شبيهي أي أخي» (29).

والمقطع في القصيدة الذي يقول الراوي فيه إنه رأى أحد الأشخاص كان قد سبق أن رآه في ميلاي، وإنه قد وضع جثة في حديقته، وإنها ستحيا هذا العام، هو من المقاطع المهمة في التعبير عن الغرابة العامة التي تهيمن على القصيدة، هنا بشر جوف، ومدنية غير واقعية، تهيمن عليها أشباح شبه بشرية، لا تستطيع الكلام أو الشعور أو الحياة، حالة من الجحيم والآلية والجثث، وقد عبر إليوت في قصائد أخرى له عن ذلك فقال: «سأقول لك مرة أخرى إن الأمر غير صحيح، هنا الموت، أو الحياة، أو الحياة أو الموت، الموت هو الحياة والحياة هي الموت، هكذا ينبغي لي أن أستخدم الكلمات وأنا أتحدث إليك، لكنك لو فهمتها أو لم تفهمها، فإنها لا تعني شيئا بالنسبة إليَّ أو إليك، هكذا ينبغي لنا أن نفعل ما ينبغي لنا أن نفعله». هكذا عبر إليوت عن الموت من خلال التغيرات في الأسلوب والشكل والنغمة والموضوعات المتكررة، الحياة والموت، التراب والجثث والقبور والعظام، وغيرها. والإشارة الأخيرة في هذا المقطع الشعري تناص واقتباس مأخوذ من قصيدة «القارئ» للشاعر الفرنسي بودلير في ديوانه «أزهار الشر».

خاتمة

يرتبط مفهوم الغرابة بموضوعات متنوعة في مجال الأدب، من بينها ما يتعلق بموضوعات مثل القرين، بعمليات الشبح والظل والقناع وغيرها. كما ترتبط الغرابة أيضا بعمليات الإبداع ذاتها، وكذلك عملية القراءة والتلقي للأدب، وأيضا بعض الأفكار النقدية مثل فكرة التناص، حيث يرتبط التناص في الأدب والفن أيضا بالغرابة، بحضور الأشباح، والأشباح هنا أشباح مجازية، أي حضور الآخر في الذات، حضور أعمال الآخرين في عملي، حضور الماضي في الحاضر، وهذا هو المعنى الذي اعتمد عليه دريدا في كتابته لكتابه الشهير «أطياف ماركس» الذي استمد جوهر أفكاره من دراسة فرويد عن الغرابة 1919، وكما أشار إلى ذلك دريدا نفسه. كذلك ترتبط الغرابة - على نحو

خاص - بالانفعالات، بالاستجابات والتأثيرات، وبخاصة ما يتعلق منها بالخوف والذعــر والرعب، وكل تلك الانفعالات التي عالجنــا بعضها في هذا الفصل. هكذا فإن مفهوم «التناص» في النقد الأدبي، في جوهره شبحي الطابع، يشتمل على حضور الغائب في الحاضر، لكن أحيانا ما يكون حضور الغائب من خلال شــبحه - أي تأثيره - أقوى من النص الــذي يكتب الآن، وهنا قد نتحدث عن السرقة، أو الانتحال، أو التقليد، أو الرداءة، أو الكاتب الظل لغيره، أو غير ذلك من المصطلحات، لكنَّ كاتبا آخر قد يضمّن بعض أشباح (نصوص) الآخرين في نصــه خفية، بعض حكايات الماضي، أو الروايــات، أو الأعمال الفنية الأخرى، ويشــكل ذلك كله بطريقة إبداعية جديدة، هنا ســنعجب به، وقد نشعر بالولع الشــديد تجاهه. ليس هناك نص هو جزيــرة منعزلة كما يقول بعض أصحاب فكرة التناص، لكن بعض الكتــاب والفنانين وغيرهم قد يتجاوزون هذه المقولة فيستولون على جزر الآخرين كلها.

لم يعد معنى الغرابة في الأدب مقصورا على تلك المعاني التقليدية لها والتي أشار إليها ينتش وفرويد والتي تربط الغرابة بالأشباح والأشباه والظلال وعودة المكبــوت والموتى، وما أشــرنا إليه كله خلال فصول عدة مــن هذا الكتاب، بل أصبحت الغرابة فكرة عامة موجودة في عالم الحياة العادية في الشارع والبيت والسوق، وهي فكرة يمكن تطبيقها أيضا على أي نص أدبي تتداخل فيه الحدود بين الموت والحياة، وتحضر فيه آلية التكرار التي تحول الإنسان إلى آلة أو شيء، وهي صفة أساسية في ثقافة التكنولوجيا والاستهلاك والنسخ والتكرار والصور المحاكيــة الثانويــة الحالية والتي لم يعد فيها الفــن - وكذلك الأدب - يحاكي الحياة، بل الحياة هي التي تحاكي عالم الفن والصور والإعلان.



4

الغرابة وتفكك الذات

«كنت أسير في الطريق مع صديقين لي، ثم غربت الشمس، فشعرت بمسحة من الكآبة. ثم فجأة أصبحت السماء حمراء كالدماء، فتوقفت وانحنيت تماما، على سياج بجانب الطريق، ثم نظرت إلى السحب الملتهبة المعلقة مثل دم وسيف فوق جرف البحر الأزرق المائل إلى السواد في المدينة، وقد استمر صديقاي في سيرهما، لكني توقفت هناك، أرتعش من الخوف، ثم شعرت بصرخة عالية لا نهاية لها تخترق الطبيعة»

الفنان النرويجي إدفارد دي مونش وهو يتحدث عن المشهد الذي جعله يرسم لوحته الشهيرة «الصرخة» (1)

نحن لن نقدم في هذا الفصل تأريخا، ولا إحاطة مدرسية بتعريفات الذات كما ترددت في جنبات النظريات الفلسفية والنفسية؛ بل كل ما سنقوم به هو أن نعرض بعض التعريفات الخاصة ببعض المفكرين والعلماء، من هنا وهناك، ثم نركز على نظرية واحدة نجدها الأقرب إلى موضوع كتابنا الحالي؛ ألا وهي نظرية المحلل النفسي الفرنسي تلميذ فرويد الشهير، جاك لاكان (1901 - 1981) .

معنى الذات

الذات - في نظرية يونغ - هي نمط أولي، أو نموذج بدائي من بين أنماط كثيرة، كالحياة والموت والليل والنهار والرجل والمرأة والله والشيطان والجنة والجحيم. وتدل

هــذه الذات أيضا على ذلك الكل المتكامل الذي يوحد بين العقل الشــعوري والعقل اللاشــعوري للشــخص، وتتحقق الذات نتيجة لعمليــة التفرد، تلك العملية الدينامية التي تسعى دوما إلى إنجاز التكامل والتميز في الشخصية، ويتم تمثيل الذات لدى يونغ أيضا بواسطة دائرة أو مربع أو «الماندالا» - رمز الكمال والاكتمال في الميثولوجيا البوذية والهندوسية - ولديه أيضا مركزان للشخصية، حيث الأنا هي مركز الهوية الواعية، في حين أن الذات هي مركز الشخصية الكلية بجوانبها الشعورية واللاشعورية كافة، كما أنها تحتوي على «الأنا» أيضا.

هكذا فــإن الذات هي كلٌ ومركزٌ في الوقت نفســه، فــي حين أن الأنا دائرة صغيرة داخل الدائرة الكبرى الخاصة بـ «الذات»، الأنا تتعلق بالماضي والحاضر، في حين تتعلق الذات بالماضي والحاضر والمستقبل. هكذا تطمح الأنا وتسعى إلى أن تكون الذات، لكنها تظل - دائما - جزءا منها، وجانبا من جوانبها المتعددة. وتتسم الذات - لدى يونغ كذلك - بالاستقلال الذاتي، أي إنهــا تكون موجودة خارج الزمان والمكان، وهي مصدر الأحلام، وتظهر كقوة أو كشخصية ذات سلطة ما في الأحلام، وتوجه الفرد في حاضره، وقد تتنبأ بالمستقبل أيضا.

الذات - باختصار - هي الشــخص المفرد، من منظوره الخاص، الذات هي أنت، التي هي بالنسبة إلى الآخرين: ذلك الشخص الذي يتسم بكذا وكذا من الصفات، وقد يكون إدراك الشخص لذاته قريبا من الصورة الواقعية له التــي يدركه الآخرون عليها، وقد يكون هذا الإدراك مختلفا بالســلب (ومن ثم هيمنة المشــاعر الســلبية كالنقص والاضطهاد عليه)، أو الإيجاب (ومن ثم هيمنة أفكار العظمــة والتفوق والنبوغ عليه)، وقد تحدث تصادمات بين الصــورة المثالية والصورة الواقعية للذات؛ ومن ثم تكون عمليات الانقســام والازدواج والاضطراب التي سنتحدث عنها في هذا الكتاب.

ومثلما قــال هيغل بوجود تفاعــل ديالكتيكي بين الــذات والعالم، فقد امتد فلاســفة آخرون - أمثال نيتشــه وكيركغورد - بهذه الفكرة من خلال استكشــافهما لتلك العلاقات التي بين الوعي الإنساني والعالم الذي يعرفه ذلــك الوعي، ويرغب فيــه، ومثلما أعلى هيغل من شــأن المفاهيم والرموز

وتأثيرهـــا في الوعي الإنســـاني، فكذلـــك قلل «لاكان» من شـــأن الحتمية البيولوجية الفرويدية، المؤكدة لدور الغرائز والجنس والجوانب الجسمية في السلوك، وأعلى من شأن السياق الخاص بالدلالة الاجتماعية وتأثيره - ذلك السياق - في السلوك.

وفي ضوء ما قاله لاكان أيضا تقوم الذات بالإنشاء أو التكوين لنفسها من خلال استخدامها الخاص للغة، اللغة التي جعلت منا بشرا كما قال بافلوف (عالم الفســيولوجيا الروســي) والتي لا توجد ذات إنسانية من دونها (كما قال عالم النيورولوجي جيرالد إيدلمان) فمن أجل أن أنطق جُملا ذات معنى ينبغـــي أن أحدد موقعي الخاص كمتكلم، فلو قلت مثلا «الثلج أبيض» ينبغي أن تتوافـــر لـــديَّ أولا فكرة عامة عن معنى «الثلـــج» ومعنى «اللون الأبيض» تُستَبعَد خلالها كل الألوان الأخرى من عقلي، وكذلك أن أعرف أنني أتحدث عن شـــيء ما لا ينتمي إليّ، ليس من صفاتي، بل هو أحد موضوعات العالم التـــي قررت أن أتحدث عنها في تلك اللحظة، هكذا يحدد الكلام ذو المعنى المواضـــع الخاصة للذات المتكلمة، وكذلك تلك الأشـــياء أو الموضوعات التي يتـــم التكلم حولها، ويطلق «لاكان» على ذلك المجال أو الحقل الخاص بالدال الذي تجري خلاله عملية إعادة التشـــكيل الدائمة المستمرة للذات من خلال الكلام اسم: النظام الرمزي[5] Symbolic Order.

ذات تتشكل من خلال المعنى

هكذا تستكشف نظرية «لاكان» البنيات المختلفة للمعنى، التي بواسطتها، وداخلها، تُحدِّد الذات الإنســـانية مواقفها داخل العالم في علاقتها بالذوات الأخرى، ومثله مثل هيغل، حدد لاكان الوضع الخاص بالوعي الإنساني بأنه وعي يكون في حالة بحث دائم للوصول إلى اليقين الذاتي Self- certainity، كمـــا أنه وعي يقوم بتحويل ذاتـــه، وعالمه، خلال محاولاته الوصول إلى ذلك اليقين. ومثله مثل نيتشـــه، تبنى «لاكان» فكرة وجود ذات وهمية أو متخيلة fictional self تكون دائما على شـــفير التمزق، وعلـــى حافة التفكك، ذات ترغب دائما في التمسك بذلك الوهم الخاص بالكلية. والذي انتقده شتيرنر كما سنوضح ذلك في الفصل السابع من هذا الكتاب.

ومثلــه مثل هايدغر أيضا، تبنى لاكان القول بوجود ذات تتشــكل داخل مصفوفــة (مجموعة متفاعلة) اجتماعية من المعنى، ومن خلالها أيضا. وما أضافه لاكان إلى ذلك كله هو أنه قد أعاد قراءة فرويد قراءة لغوية، أو قراءة من منظور علم اللغة، وهي قراءة تحــدد مواضع الذوات الفردية وجذورها بالقول إنها ذوات موجودة داخل تلك المصفوفة الاجتماعية للمعاني، ومن ثم كانت ضرورة القيام كذلك باستكشاف الاستراتيجيات التي تقوم من خلالها كل ذات، ومن خلالها تنشأ، وبواسطتها تبقى وتستمر أيضا.

هذه الاســتراتيجيات في جوهرها - كما يقول لاكان - اســتراتيجيات لغوية وتمثيلية، استراتيجيات يستخدمها البشر كي يتحولوا من خلالها، إلى أشــخاص قادرين على النشاط والوجود داخل الســياق الاجتماعي الكلي. وفــي ضوء ذلك كله، لا يكــون المعنى الذي تنتجه الذات - في شــكل كلام أو كتابــة - نتاجا للخطاب الواعي الخاص بهــذه الذات فقط؛ ولكنه أيضا محصلــة لمدى كبير من السلاســل الدالة من المعاني التــي تعمل فيما وراء ذلك الوعي، أو بعيدا عنه. وإضافة إلى ذلك، فإن أي إنتاج للمعنى هو - في جوهره - أشــبه بعمليــة تكوين للذات، وإنتاج لها بشــكل جديد، مثلا عند قراءتي لنص فلســفي أو أدبي... إلخ، فإنه بالإضافة إلى استخلاصي لذلك المضمون ذي المعنى من هــذا النص، فإن عملية القراءة هذه، التفاعل، هذه المعرفة، إنما تمثل أيضا «ذاتا» ما، هي ذاتي، وهي في حالة عمل، وفي حالة نشاط، ذاتي كعملية نشيطة، ذاتي كعملية ناقدة، ذاتي كعملية تنمو وتتطور، ذاتي الدينامية، ذاتي التي ليســت اســتاتيكية، ذاتي التي تتشكل من خلال تلك العلاقات التي تتكشــف وتظهر بين صوت المؤلــف وبنيات المعنى التي يســتحضرها ذلك النص، وكذلك وجــودي معهما، مصاحبا لهما، وموجودا كذلك، كذات متطورة، على نحو ما، بعدهما [3].

لاكان والذات المتخيلة

كــي نفهم وجهة نظــر لاكان القائلة بوجود ذات منقســمة تكون غير واعية على نحو تام بذلك النشاط الدال الذي يدفع كلماتها ويحركها، أي إنها تكون شــبه واعية، أو تقف على عتبة الوعي الخاصة بها خلال ذلك

النشاط، ينبغي أن نعرف شـيئا حول مصطلحاته، وبخاصة مصطلحاته المرتبطـة بمفهوم المرآة، لمـا لهذا الموضوع من أهميـة محورية في تطور مفهوم الذات لديه.

ولقد اقترح لاكان وجود مراحل ثلاث مهمة هنا هي: مرحلة ما قبل المرآة، مرحلة المرآة، مرحلة ما بعد المرآة، وهي مراحل طرحها لاكان لوصف النمو المبكر للطفل ثم المراهق والراشد، ولتحولاته السيكولوجية والإبداعية أيضا.

1 - مرحلة ما قبل المرآة: تمتد هذه المرحلة منذ الميلاد حتى بلوغ الطفل الشهر السادس، وهنا لا تتوافر لدى ذلك الرضيع - بطبيعة الحال - هوية أو إحسـاس بالذات أو لا شـعور... إلخ؛ لكنه يستمع أيضا إلى الكلمات، ويراقب العالم حوله، هنا يكون سـلوكه موجها نحو إشباع حاجاته البيولوجية خاصة، هنا تنشأ علاقة «الجزء - الكل» بينه وبين الآخرين أيضا، هنا تكون الكلمة التي يسمعها معبرة عن قرب حضور الكل النظرة المحدقة إليه كذلك، هنا الآخر الذي يشبع حاجاته قد أصبح ممثـلا ذهنيّا لديه على هيئة صورة أو كلمات، وإنه حتى في ظل غياب الأم تظهر هذه الصورة والكلمات، وتكون موجودة في عقله كبدائل لها، لكن هذه النظرات والأصوات والكلمات، وكذلك علاقة الكل بالجزء، تكون مفككة، متناثرة، متشظية، لا يجمعها كلٌّ موحد، ولا ينتظمها إدراكٌ مستمرٌ، وتعد مرحلة ما قبل المرآة هذه، ومعها المرحلة التالية - كما يقول لاكان - مرحلتين نرجسيتين، حيث لا يميّز الطفل، فيهما، بين نفسه وأشياء العالم المحققة للذة بالنسبة إليه (4).

2 - مرحلـة المرآة: وهي مرحلة نرجسـية أيضا، لكنها مهمة جدّا في نمـو الذاتية، وهي تحدث على نحو تقريبي بين سن ستة أشهر وثمانية عشر شهرا، وتتميز بوجود بهجة ما لـدى الطفل، خاصة عندما يندمج أو يتوحد مع شـكل إنسـاني كلي يظهر أمامه في المرآة، فيحدق فيه، وقد يكون شكله هو، وعندما يحدث هذا، فإنه يستمتع بذلك الانعكاس

الخـــاص بصورته في المرآة؛ وذلك لأنه يقدم له - كما يقول «لاكان» - ويعرض أمامه «ذلك الشـــكل الكلي للجسم، الذي من خلاله تتوقع الذات، بواسطة شكل متوهم، ذلك النضج الخاص بقوتها».

هكـــذا يكون ذلك الشـــكل الكلي أو الإجمالي المنعكس في المرآة شـــكلا حافلا بالمعاني؛ وذلك لأنه هو الذي سيعمل على ميلاد الذات بعد ذلك. إنه يرمز إلى الاســـتمرارية العقلية الخاصة بـ «الأنا»، ويرهص كذلك بمصيرها المغترب، بذلك الاغتراب الذي سيلحق بها بعد ذلك كما سنوضح توا.

هكذا يواجه الطفل الصورة الكلية الخاصة بالجسم، ويواجه كذلك تلك الحركات المضطربة المســـتمرة التي تحدث للصورة في المرآة التي يشعر بها وكأنها هي التي تحركه، وليس أنه هو المحرك لها. وتطلق هذه المواجهة - أو هذا اللقاء الأول - للطفل مع انعكاســـه في المرآة، ذلك الديالكتيك الذي يتم على مستوى متخيل أو تصوري، والذي يرهص أو يتنبأ بذلك التفاعل اللاحق بين الذات والآخر.

هكذا تكون الصورة الخاصة بالشكل الكلي للجسم في المرآة أشبه بالتوقع للسيطرة اللاحقة التي سيقوم بها الطفل بعد ذلك على حركاته؛ وهنا تكون تلك النواة الأولى الدالة على وجود شيء ينتمي إليّ، شيء أستطيع أن أتحكم فيـــه وأحركه، صورتي الموجودة هناك في المرآة، ذلك الإرهاص المبكر بالأنا، وهو كذلك نوع من التخيل، التوهم، يقوم على أساس الإسقاط المبكر لشيء ما لم يحدث بعد - أو يتبلور - هو الذات.

ومـــع تظاهر الطفل، أو اتخاذه لصورة ما - لشـــكل ما - أمام المرآة، فإنه يحس بالمتعة نتيجة لشـــعوره بذاته موجودة بشـــكل كلي أمـــام المرآة، بدلا من تلك الحركات العشـــوائية المتفرقة، لكنه كي يفترض أو يتخذ أو يتظاهر بهذه الصورة من الخارج يكون عليه أن يســـتدخل - أو يدخل داخل عقله - شـــيئا يأتي من الخارج، يأتي من صورته تلك التي في المرآة، من العالم الخارجي هنا.

هنا تكون الأنا البدائيـــة الأولى صورة متوهمة، صورة تُمتَص بعد ذلك، ويُتَعَامَـــل معها على أنها مصدر ذاتي للمتعة أو الألم. هنا تنشـــأ جذور ذلك الصراع الجدلي الأولي بين «أنا فعلية» و«أنا مثالية»، وبين الذات والآخر في

مراحــل تالية من العمر. هنا المرآة هي آخر، هنــا المرأة هي «أنا آخر»، هنا المرآة رمزٌ، رمزٌ يتســع، بعد ذلك، ليحيط بكل ما هو «آخر»، آخر نحاول أن نتكامل معه ونتحد، فإذا فشــلنا ظهــرت بذور التفكك والاختلال في الذات وعلاماتهما، وكما سنوضح ذلك لاحقا.

هكذا يقول لاكان بوجود جدل أو تفاعل بين الذات والآخر، يقوم على أســاس ذلك الافتــراض الذي يتبناه الطفل - وكذلك الراشــد - بوجود صورة ما في شكل «كلية ما» تتناقض تماما مع تلك الحركات والاستجابات المفككة المتجزئة التي يشعر الطفل بوجودها لديه. هكذا يكون هناك وَهْمٌ ما، تخيلٌ ما لوجود كلية ما مستمدة من الخارج، من شكله - أي الطفل - الكلي في المرآة، وهي صورة يتوحد الطفل معها، درجة بعد درجة، خلال تماهيــه التفاعلي مع الآخر؛ ذلك الكلي، المتكامــل، لكنه الوهمي أيضا، الموجود في المرآة (5).

هنا نوع من التنافس والصراع بين ذات كلية متكاملة متخيلة، وإحساس داخلي بالتفكك والتجزؤ والتشــظي، هنا تدافع تلــك الأنا الأولى المبكرة عن نفســها بشكل عدواني ضد ذلك الشــعور بالتفكك والانقسام، وضد كل ما يستثير هذا الشــعور أيضا، ويتم هذا الدفاع من خلال التوحد مع موضــوع ما يكون غريبــا عنها، وقد كان ذلك الموضــوع موجودا ومماثلا لهــا أولا في المــرآة، لكنها، ومع إدراكها عبر العمر أنها لا يمكن أن تتوحد مع نفســها فقط كي تصل إلى تلك الصورة الكليــة المتوهمة أو المتخيلة، فإنها لا بد أن تكتشــف موضوعات أخرى خارجها، تتوحد معها، هنا قد تتوحــد هذه الأنا مع موضوعات مثــل الأب، الأم، الإخوة، المعلمين، بعض الحيوانات والدمى النســيجية، ثم تبلغ هذه العمليــة ذروتها بالتوحد مع الأعمــال الإبداعية والفنية، مع مُثُل وقيم ومبادئ وأفكار ونظريات تنتمي إلى أزمنة أو أمكنة أخرى. كما أنها عندما قد تفشل في الوصول إلى نوع مناسب وتكيفي من التوحد، قد تخلق بدائل متوهمة تتوحد معها، كالقرين والظل، والأنا الأخرى، وغيرها، وقد تعبر عن هذه البدائل وتجسدها في أعمال إبداعية، أو قد تستغرق في أحلام يقظتها أو هذيانها. وقد تقع في براثن المرض أو الجنون.

هكــذا يتم - عبر العمر - الامتداد بفكرة الآخر كي تشــمل ليس فقط الأفــراد والآخريــن الذين تتوحد معهــم الذات؛ بل أيضــا الأفكار والصور واللوحــات والأعمال الأدبية، والذات الأخرى المثالية المتوهمة المتخيلة، غير الموجودة أو المتحققة، التي يتم الســعي نحوهــا، والطموح في اتجاهها، في رحلــة متواصلة دائمــة لتحقيق الذات، رحلة قد لا تنتهــي لدى البعض إلا بالمــوت، أو بالزهد والتصــوف والعزوف عن كل أشــكال الرغبة والصراع، وقد تســتمر هذه الرحلة بصراعاتها وإحباطاتها وتوقعاتها المحيطة، فتؤدي إلى تفكك الذات وتشــظيها مرة أخرى، أو تؤدي بهــا إلى الجنون والغرابة والاغتراب. ومثلما يحتاج الطفل الصغير إلى اســتجابات ممتعة من جانب الأم، كي يشــعر بذاته ككيان مستقل قادر على الفعل والتأثير، فكذلك يكون الإنسان الراشد في حاجة إلى استجابات خاصة بالقبول والتقبل والتشجيع والإعجاب من الآخرين، وإلا ظلت ذاته قريبة من تلك المرحلة المبكرة الأولى الخاصة بالتفكك والانقســام، وهنا نتذكر مقــولات ليفيناس عن أن الذات الإنســانية إنما تتحدد في ضوء توقها الدائم إلــى الآخر [6]. هنا الذات لا تصل إلى تلك الصورة المبكرة الكلية المتخيلة لديها عن الأنا والعالم إلا بهذا الحضور الإيجابي الخاص للآخر في حالات غياب هذا الحضور الإيجابي، ثــم في حضور بدائل أخرى ســلبية وعدوانية ومحبطة لــه تُحدِث كل تلك الأشكال السلبية من التفكك للذات، والانقسام لها، في علاقتها بنفسها، وفي علاقتها بالواقع والآخرين، كما تحدثنا عنها في هذا الكتاب.

وهكذا فإن حاجة الطفل إلى أن يحصل على ذلك الاعتراف من الآخر (خاصــة الأم في البداية)، وأن يكون مرغوبا فيه، تجعله ينصاع أو يتوافق مع رغبات هذا الآخر، وتُسَجَل هذه الحاجة غير المتمايزة وتُكبَت، مع زيادة وعيــه بأنه قد أصبح موضوعا لصوت الآخر، ولنظرته المحدقة. وتدريجيّا لا تســتطيع الأم أن تلبي كل رغبــات الطفل، وتدريجيّا تقوم، خلال عملية التنشئة الاجتماعية له، بفرض مطالب عليه، بأن يُشبع بعض حاجاته بنفسه، وتدريجيّا تطالبه بإرجاء الإشباع لبعض المطالب والرغبات، وتدريجيّا يدرك أن هذه الأم غير كاملة، وغير مشــبعة، بل أحيانا محبطة، تدريجيّا يشعر بالانفصال عنها، تدريجيّا يشــعر بالاستقلال عنها، ويبحث عن بدائل لها،

تدريجيّا تتشكل ذاته في ضوء علاقات أخرى مع آخرين أو موضوعات غيرها، يظن ويعتقد أنهم قد يشبعون حاجاته ورغباته، مثلما كانت الأم تفعل في البداية.

هكذا يمر الأطفال - كما يقول لاكان - في «مرحلة المرآة» بتلك البداية الخاصة بالإحساس بالذات، وكذلك ببداية الانفصال عن الأم، ومن ثم فإنهم يبدأون في تأسيس «الأنا» الخاصة بهم من خلال عملية النظر إلى صورة الجسد في المرآة، صورة جسدهم الخاص، أو جسد الأم، أو جسد الآخرين غيرها، ويتعرف الأطفال الصورة الموجودة في المرآة على أنها تشبههم، وأنها تختلف عنهم أيضا، ومع أنه لا يكون في مقدورهم جسديّا التحكم أو الإمساك بالصورة التي في هذه المرآة، فإنهم يتخيلون أن لديهم تحكما أو سيطرة عقلية عليها. هكذا يكون فعل النظر والتخيل الذي يقوم على أساس ما يرونه أمرا حاسما في إحساسهم بالتحكم والسيطرة على الجسد الذي في الصورة. هنا يتخيل الطفل أنه يستطيع أن يتحكم في جسده الذي في الصورة الموجودة في المرآة، لكنه لا يستطيع أن يقوم بذلك فعليّا. هكذا تزود مرحلة المرآة الأطفال بإحساس ما بوجودهم كأجساد مستقلة في مواجهة أجساد أخرى متخيلة قريبة منهم، وبعيدة عنهم أيضا. هكذا يرى الأطفال أنهم هم وصور المرايا شيء واحد (توحد)، لكنهم في الوقت نفسه يرون أن هذه الصورة التي في المرآة صورة مثالية متخيلة، بعيدة عنهم، ومختلفة أيضا. (انفصال وربما تفكك أو اختلال أو جنون).

هكذا تكون مرحلة المرآة مرحلة متعلقة بالتعرف، وبسوء التعرف أيضا، وهكذا يكتشف الطفل ذاته، عبر الآخر، في المرآة أيضا، هكذا تكون البدايات الأولى لتشكل الذات؛ تلك الهوية التي سيجري تكوينها من خلال تلك الآليات الخاصة باللاشعور والرغبة واللغة وعبر العمر [7].

الموضوع الانتقالي التحولي

خلال عملية الانتقال من مرحلة الاعتماد التام على الأم إلى مرحلة الاستقلال النسبي عنها، يحدث نمو خاص للذات، فيتعلق الطفل بموضوع انتقالي (لعبة صغيرة ناعمة - دب من الفراء - بطانية - وسادة... إلخ)

تكون له الخصائص المريحة والناعمة نفسها الخاصة بالأم وملمسها. ويدرك الطفل هذا الموضوع الانتقالي على أنه يمثل جانبا أيضا من الذات (من حيث تعلقه به وعلاقته معه)، وجانبا من العالم الموضوعي أيضا، جانبا من الذات، وجانبا من الآخر، الآخر المتخيل هنا، لكنه آخر متخيل، محسوس، ملموس، يتم اللعب والحوار معه، ويمثل ذلك - كما يقول وينيكوت - تمهيدا أو وعدا بما سيقوم به الراشدون بعد ذلك من توظيف للموضوعات الثقافية المختلفة في أنماط سلوكية عدة، قد تكون هذه الموضوعات أعمالا فنية، أو ممتلكات، أو أفكارا، أو غير ذلك.

هكذا يكون هذا الموضوع الانتقالي أو التحولي قادرا على أن يقيم صلات أو روابط بين العالم الداخلي للذات والعالم الخارجي لها، وعلى إقامة نوع ما من الوحدة والتكامل بينهما. هنا نوع من التعلق أو الحب الذي يُسقَط على موضوع أو على آخر، واقعي أو متخيل، هنا تعلق بموضوع أو شخص من خلاله تنمو الذات وتتطور، أما لو ظلت متعلقة به، مثبتة عليه، فإن ذلك قد يمثل نوعا من الإعاقة لنموها وتطورها العام؛ ومن ثم صدمة وفشلا في التكيف مع التغيرات الضرورية اللاحقة الخاصة بضرورة تغيير أنماط العلاقات بين الذات والآخر والواقع في ضوء ما يحدث للفرد من نمو جسمي، وعقلي، واجتماعي. وقد تؤدي هذه الإعاقة أو الصدمة إلى ظهور بعض تلك الرغبات المكبوتة التي تنتمي إلى مراحل مبكرة من النمو، ويكون ظهورها ذلك غريبا، إنها رغبات قد تكون مألوفة، ولكنها قد كُبِتَت فعادت مرة أخرى في سياق زمني (مرحلة متقدمة من العمر) من غير المألوف أن تظهر فيه؛ ومن ثم يكون ظهورها ذلك غريبا أيضا [8].

3 - مرحلة ما بعد المرآة: يكون الانتقال من النرجسية إلى مرحلة الموضوع أو التعلق بالموضوعات، مميزا لدى لاكان بحدوث فقد ما، فقدان ما، خسارة ما، وبخاصة فقدان تلك العلاقة المبكرة بين الأم وطفلها، وخسارة كل ما كان يرتبط بها من دفء وحنان ورعاية ومواجهة مع عالم يحبط الرغبات ولا يشبعها، مع سلبية وتجاهل يواجهانه في مقابل تلك الإيجابية والاهتمام اللذين كانا، هنا لا بد - كما قلنا - من خلق بدائل، بدائل قد يسقط عليها

هو نفســـه اهتماماته ومشـــاعره ورغباته، ومن خلالها يحقق بعض التوازن لذاته، هنا يشـــعر الطفل بأنه ليس مكتفيا بذاته، وأنه في حاجة إلى بعض الموضوعات كي يكمل بها هذه الذات، لكنه يشعر أيضا بأن تلك الموضوعات غائبـــة أو مفتقدة، قابلة للفقـــد والانفصال عنه أيضا، هنا يبحث عن أرض ثابتـــة أخرى، ويجد ضالته في الأب، وفـــي اللغة، هنا يمنحه الأب والمجتمع تلـــك القوة الرمزية الخاصة باللغة والكلمات؛ وذلك لأن هذه اللغة لها القوة المميزة لها، القادرة على استحضار الغائب، ولها كذلك قدرتها على مساعدة الطفل على التعويض وإيجاد بدائل لفقدانه للأم. هنا يستطيع الطفل أيضا أن يؤجل رغباته، أن يشـــكلها كتمثيلات عقلية ورغبات يلهو بها حتى يحقق الإشباعات الفعلية؛ ومن هنا كان ذلك الحديث المتكرر لدى مفكرين كثيرين عن قوة اللغة وســـلطتها ومن هنا كان الحديث أيضا عن قوة الأدب - والفن عامة - وسلطته [9].

الإزاحة والإحلال

يقول لاكان أيضا إن الطفل خلال رغبته في أن يكون مرغوبا، يتوحد مـــع موضوع ما كان يبدو موضوعا لرغبـــة الأم؛ ألا وهو الأب، هنا أيضا يتوحد الطفل مـــع صورة متخيلة للأب، صورة تتعلـــق بقوة الأب، صورة يرى فيها ذاته في مثل قوة الأب وحضوره، صور متخيلة متوهمة لشـــيء لـــم يأت بعـــد، لذاته القوية التي لم تتحقق بعد، لكـــن هذا التوحد كثيرا ما يعاق أيضا ويعدل بواســـطة تلك القيـــود والضوابط التي تفرض على الطفـــل داخل المصفوفة الرمزية لعلاقات القرابة والعلاقات الاجتماعية التـــي تؤكد ضرورة أن يكـــون الطفل متعلقا بأمور وأشـــخاص غير التي يتعلق بها الأب، هنا يكون نوع من الصراع الديالكتيكي بين الذات الفعلية للطفل بكل جوانب القصور والنقص الخاصة بها، والتي تعجز من خلالها عن إشـــباعه رغباتهـــا من ناحية، وبين الذات المثاليـــة التي تقارن الذات الواقعية أو الفعلية نفســـها بها من ناحية أخرى، وتتوســـط هذا الصراع سلسلة متتابعة من عمليات التوحد مع آخرين داخل المصفوفة الاجتماعية للعلاقات الرمزية.

هكــذا تحدث عمليات إزاحة وإحلال فــي عمليات التوحد، لبدائل للأم والأب، فتحــدث عمليات اندماج الأطفال والمراهقين والراشــدين مع بدائل ثقافيــة أخرى، مع هوايات ومهن، مــع الأدب، والعلم، والفن، والتكنولوجيا، والألعاب الرياضية، وأبطال السينما، والمسرح، مع الأفكار الدينية والسياسية وغيرها وذلك لتعويض ذلك الفقد الذي يشعرون به، بدلا من ذلك الاندماج التلقائي الذي كانوا يقومون به خلال مرحلتي ما قبل المرآة والمرآة ذاتها.

خلال مرحلة ما بعد المرآة تكتسب الذات القدرة على ممارسة العمليات الثانوية الخاصة بالتفكير الواعي في مقابل المرحلتين السابقتين اللتين كانت تهيمــن عليهما العمليــات الأولية الغريزية على نحــو واضح. هكذا يفصل الطفل نفسه تدريجيّا عن أمه، عن ذلك الإحساس الخاص باستمرار علاقته البيولوجيــة معها، واعتماده عليها، ثم إنه يفصل ذاته أيضا عن الأنا المثالية التــي في مرحلــة المرآة، ثم إنه ينفصــل - أخيرا - عن ذاته نفســها، ذاته الواقعية؛ من أجل أن يجد لنفسه مكانا في نظام الرمزية الخاص بالمجتمع؛ وهكذا فإن تلك العملية التي تشكل الذات المتكلمة، الذات التي تجد نفسها في اللغة، وتعبر عن نفســها من خلال اللغة، الذات التي تجد لنفسها مكانا ومكانة في العالم بواســطة اللغة، هي العملية نفسها التي يتشكل اللاشعور من خلالها أيضا، وبواســطة عمليات الانفصال المتتابعة التي تشكل مراحل متطورة للذات تفصلها عن مراحل ســابقة لها أقل تطورا، مراحل تُكبَت في اللاشعور، لكنها قد تعود بعد ذلك في أشكالها وتأثيراتها الغريبة، قد تعود في الأحلام والكوابيس، في اللغة والأدب، أو في الحياة والفن بشــكل عام، وقد تكون عودتها هذه غريبة، وقد تكون أحيانا بالغة الغرابة فترتبط بالتفكك والانقسام والازدواج وحتى الجنون.

الأنا والمجتمع

كما أوضــح لاكان، فإن الذاتية دائما غير كاملة، وناقصة؛ ومن ثم فإنها تُكوِّن نفســها دائما من خلال عمليات وأفعال التوحد والتمثيل الرمزية [10]، ويــؤدي الفراغ دورا كبيرا لــدى لاكان، والفراغ معناه فقدان المعنى، الافتقار إلى المعنى، العجز عن التوحد مع رموز. ويرتبط وجود الفراغ بظهور الغرابة؛

وذلك لأن الفراغ في ذاته غريب، صدع في المعنى، مسافة بين المألوف وغير المألوف، بين العالم كما كنا نعرفه مألوفا قبل الفراغ، ثم كما أصبحنا نعرفه بعد الفراغ أو الصدمة أو الفقد.

وفقا لما قاله لاكان، يدخل الفرد في شبكة من العمليات الرمزية، نظام التداول الذي يقوم بتمثيله لدوال أخرى، وهذا النظام يفشل كلية، فتظهر فجوة بين الذات وعملية التمثيل الرمزي للعالم، هنا تصبح الذات نفسها فراغا، مفتقرة إلى المعنى، وتتشكل هوية الذات من خلال ذلك الافتقار إلى المعرفة، الافتقار إلى المعنى، النقص في التمثيل، سوء الفهم الجيد، العجز عن تعرف نفسها في الصور العقلية الخاصة بالإنسانية، شعورها بالخوف من نفسها ورعدتها، لكن هذه الخبرة لدى «لاكان» جوهرية أيضا في تكوين بنية الذات، وفي عملية التوحد؛ وذلك لأن الفرد المنقسم هكذا، الناقص هكذا، العاجز هكذا، يسعى جاهدا، هكذا، إلى الوصول إلى التعرف إلى ذاته، إلى المعرفة بذاته والعالم داخل النظام الرمزي من خلال سلسلة من عمليات التوحد، التي تكون أيضا غير كاملة في النهاية، وعندما يمثل الواقع فراغا داخل النظام الرمزي يحدث الانقسام والاضطراب، يصبح الإحساس بالواقع مفككا، وعندما نواجه هذا الفراغ نشعر بالغرابة بكل ما يصاحبها من أحاسيس (تأثيرات) مصاحبة خاصة بالاغتراب [11].

وترتبط الغرابة لدى لاكان بعملية النظر، بالنظرة المحدقة، بما يسمى التمويه والصور المموهة، بذلك الشعور بأنه في تلك اللحظة التي ينظر فيها الإنسان إلى العالم، فإن العالم ينظر إليه أيضا. وقد استخدم لاكان هنا المثال الخاص بلوحة «السفراء» التي رسمها هانز هولباين، حيث يضطرب تأملنا ونظرنا إلى الشخصيتين اللتين ترتديان ملابس فخمة تدل على العظمة - داخل اللوحة - عندما تقع عيوننا على شيء في منتصف أرضية الغرفة، شيء لا ندركه للوهلة الأولى عندما ننظر إلى اللوحة، شيء يبدو مثل «محو»، أو «ظل»، أو تحريف ثلاثي الأبعاد، جمجمة تنظر إلينا أسفل هاتين الشخصيتين المفعمتين بالفخر والقوة، موت يجثم أسفل الحياة، غرابة تحضر مع الألفة، هنا يضطرب إحساسنا الجمالي باللوحة، حيث لا يكون شعورنا الجمالي «كما ينبغي أن يكون»، وتكون الخبرة هنا غريبة؛ لأن

إحساسـنا بالعالم الخارجي الذي نسـعى إلى السيطرة عليه من خلال قوة النظرة، إحسـاس يضطرب بنوع ذلك التحريف الذي في النظام الموضوعي للعالم نفسه، حيث تمثل الجمجمة في اللوحة صدمة الموت، الشيء الذي لا يمكن السـيطرة عليه، أو ترميزه على نحو تام، الحد النهائي لوجودنا، الذي يظهر لنا لا يقين موضعنا أو ثباته في النظام الموضوعي للعالم. كما يشـير هذا التحريـف، المتمثل في الجمجمة، وفي خبرتنـا الذاتية بالعالم - مرة أخرى - إلى ذلك البعد الخاص «بالواقعي»، إلى الصدمة التي كانت مكبوتة أو خفيـة، لكنها التـي تعود أيضا - مع ذلك - كـي تحدث الاضطراب في نظامنا الرمزي. وهكذا فإن «الواقعي» - وفقا لما قاله لاكان - هو ذلك الذي يعود دائما إلى المكان نفسه، إلى المكان الذي يعتقد الفرد فيه أنه كان فيه من قبل. هنا عظمة الشـعور بالحياة كما تتجلى في حالة الزهو التي كان عليها هؤلاء السفراء، وكذلك ملابسهم الفخيمة، ثم الجمجمة التي تدل على الموت تحدق بهم وكأنها تسخر منهم، لكنها سخرية «غروتوسكية» مخيفة أيضا.



لوحة «السفراء» للفنان هانز هولباين، 1533، (زيت على بلوط، 209.5 X 207 سم)

هكذا يكــون هذا الغياب الشــبحي، الذي تقع الذات فــي براثنه، هذا الأثر المتبقى من الصدمة المكبوتة، والذي يعود دوما كي يســكن هذا النظام الموضوعــي، هــو - على نحو شــبه تــام -، جوهر خبرة التفــكك؛ ومن ثم الازدواج[12]، وهذا ما سنوضحه فيما يلي.

بدايات التفكك

عند نهاية القرن التاســع عشــر، لاحظ وليم جيمس - عالم النفس والفليســوف الأمريكي الشــهير، وأحد المؤيدين المبكريــن لفرويد في الولايــات المتحــدة - وجود علاقة قوية بين حالــة الذهول التي تحدث لبعض الناس بعد تلقيهم إحدى الصدمات العنيفة، وذلك الشــعور غير المرتبط بزمن معين، أو الذي يحدث عنده ومعه اختلال الشعور بالزمن والمكان، ذلك الإحساس المهيمن على الفرد، والذي يجعله يشعر بالغرابة. وقد استشــهد جيمس بمــا قاله أحد المرضي المقيمين في مستشــفى للأمراض العقلية، حيث قال: «إنني أشعر وكأنني أعيش في قرن آخر». وكتــب مريض آخر يقــول: «تتحرك الناس كالظــلال، وتبدو الأصوات بالنســبة إليَّ وكأنها تأتي من عالم بعيد»، في حين أشــار مريض ثالث إلى اعتقاده أن «الأمر يبدو وكأنني لا أســتطيع أن أرى أي واقع، كما لو أنني كنت في مسرح، وكما لو كان الناس ممثلين، وكل شيء أشبه بمشهد مســرحي، إنني لا أستطيع أن أجد ذاتي.. إنني أمشي، ولكن.. لماذا؟ ثم إنني أذرف دموعا كاذبة، ويداي لم تعودا حقيقيتين، والأشياء التي أراها لم تعد كذلك، أشياء حقيقية [13].

هكذا يصبح بعض الناس فرائس للدهشة العميقة - كما قال جيمس - فالغربة شيء غير مريح، واللا واقع «لا يمكن أن يكون موجودا، لكن إذا كان العالم الطبيعي ذا وجهين هكذا، وغير أليف، هكذا، فما العالم الحقيقي؟ وما الأشــياء التي يمكن أن تكون واقعية؟». وهنا استخدم عالم النفس الأمريكي (الــذي كان يعرف الألمانية بطلاقة) الصفة «غيــر أليف» Unhomlike، أو: لا يشــبه البيت الحميــم المألوف، وهي الكلمة الأقــرب إلى المصطلح الذي اســتخدمه فرويد بعد ذلك، وهــو uncanny، أي الغرابة، وذلك من أجل أن

يصف ذلك الشعور الذي يتزايد لدى المرء ويجعله يشعر بأنه يعيش في عالم غير حميم أو مألوف، يدفعه نحو التعجب والتساؤل والاستغراق في أفكار نظرية، أو ميتافيزيقية.

ولقد أُدرِكَتْ هذه الحالة على أنها نوع من الاضطراب السيكولوجي في الوعي بالذات، على أنها زملة أعراض وليست عرضا واحدا، زُملة أعراض تحتوي على شعور الفرد بأن العالم يبدو بالنسبة إليه غريبا، دخيلا، غير مألوف، أشبه بحلم، وأن الأشياء تبدو له - خلالها - أقل من حجمها أو أكبر، أو أنها مسطحة، كما تبدو الأصوات هنا وكأنها تأتي من بعيد، وتبدو الصور الخيالية آلية، والخيال صعب المنال، والانفعالات مفتعلة.

ومن بين الاستعارات الكثيرة المثيرة للحيرة التي يستخدمها هؤلاء الأفراد الذين يشعرون بالغرابة والغربة أيضا أنهم يقولون إنهم «كأنهم كانوا قد فقدوا الشعور بشخصياتهم، إنهم يحسون بأنهم كما لو كانوا يرون أنفسهم، يشاهدون فيلما، وهذا نوع من الشعور غير السار بالمشاهدة للنفس، بأن الشخص شديد الانتباه لذاته فقط» [14]، هنا انقسام بين ذات تلاحظ وذات أخرى تقوم بالفعل أو الأداء، في أبلغ صورة لماذا؟ لأن هذا الانقسام يصبح موجودا ليس داخل العقل فقط؛ ولكن خارج الجسم أيضا، خبرة تتعلق بأشياء تدور خارج الجسد، تكون صحيحة بالنسبة إلى صاحبها فقط، وليس إلى غيره من الناس؛ ومن ثم فهي تخرج من مرحلة الهذاءات والأفكار العقلية الداخلية إلى مرحلة الهلاوس التي تتجسد في أشكال وصور وحركات خارجية.

اختلال الشعور بالواقع والشخصية

في ثلاثينيات القرن العشرين، قام الطبيب النفسي الألماني فلهلم ماير غروس بمراجعة النظريات ودراسات الحالة والتأملات الخاصة بهذه الظاهرة في مقاله المعنون «حول اختلال الشعور بالشخصية»، وأوضح الفروق بين اختلال الشعور بالواقع Derealization واختلال الشعور بالذات أو الشخصية Depersonalization، وقال إنهما تجليان ظاهران لما يمكن أن يكون المرض نفسه والاضطراب نفسه، وقد أشار هذا العالم كذلك إلى

ذلك الطابع المتكرر لمثل تلك الحالة، وكذلك إلى صعوبة وصفها بالكلمات، أو مقارنتها بأية حالة نفسية أخرى، وكذلك إلى ظهورها المفاجئ لدى الفرد من حيث لا يدري، ثم اختفائها، ثم ظهورها واستمرارها فترة أطول بعد ذلك.

في كتابه «الأشكال المختلفة للخبرات الدينية»، الذي نشر عام 1902، وفي فصل عنوانه «الروح المرضية»، أعاد وليم جيمس نشر كلمات كاتب فرنسي وصف خلالها هذه الحالة عندما قال: «لقد ذهبت إلى غرفة ملابسي، وفي الغسق هبط عليّ ذلك الشيء فجأة دون إنذار مسبق، كأنه جاء من الظلام، خوف مرعب يتعلق بوجودي الخاص، وفي الوقت نفسه ظهرت في عقلي صورة مريض بالصرع كنت قد رأيته في المستشفى، شابٌّ شعر رأسه أسود أميل إلى الاخضرار، أبله تماما كما اعتاد أن يجلس طول النهار على أحد المقاعد، أو على ما يشبه الرف بجوار الجدار، وقد كان يجذب ركبتيه فتحيطان بوجنتيه، وقد كانت الملابس الداخلية الرمادية الضيقة هي الملابس الوحيدة التي يملكها». ويستطرد الكاتب في وصف حالة ذلك الشباب البائس، كما يصف كيف امتزجت صورة ذلك الشاب بصورته هو الخاصة، وخاف - على نحو مرعب - من أن يلقى مصير ذلك الشاب، أو أن يصبح مثله، ثم إن الكون قد تغير بالنسبة إليَّ كلية بعد ذلك» [15].

على كل حال، فإنه كثيرا ما يصف هؤلاء الأشخاص - الذين تصيبهم هذه الحالة - أنفسهم بأنهم «قد فقدوا روحهم، أو أن روحهم قد غادرتهم». وكما وصفهم جيمس أيضا في فصل بعنوان «واقعية غير المرئي»، «فإن الشخص الذي يعاني اختلال الشعور بالواقع وبالذات، وبأن الأشياء قد أصبحت غير واقعية، على غير حقيقتها، قد يدمره الألم، ويقوده إلى الانتحار» [16].

والمهم هنا أن فرويد قد أضاف إلى ذلك أيضا قوله إن اختلال الشعور بالشخصية يقودنا نحو حالة غريبة خاصة «بالضمير المزدوج»، وهي تلك الحالة التي يمكن وصفها على نحو دقيق بأنها «شخصية منقسمة» [17].

في دراسات أخرى تالية، ركَّز علماء آخرون على فكرة الذات أو الأنا، وقالوا إن اختلال الشعور بالشخصية هو دال على إحساس ضعيف غير متكامل بالأنا أو الذات ناتج من صراعات خاصة بعدم الكفاءة وعدم التكامل بين مكونات الذات من ناحية، وبينها وبين الواقع من ناحية أخرى. وقد

نظر علماء كثيرون إلى هذه الحالة على أنها آلية دفاعية يقوم بها المرء ضد مجموعة من المشاعر والصراعات والخبرات السلبية عندما تعجز الآليات الدفاعية التكيفية الأخرى عن القيام بدورها، أي إنها نوع من الدفاعات التي تقيمها الذات لحماية نفسها من القلق ومصادره المتنوعة.

وهناك عدد كبير من الخصائص جاء ذكره في كتب الطب النفسي الحديثة، وفيها وُصِفَت هذه الحالة بأنها «إحساس دائم ومقلق بالغرابة»، قد نعرفه على أنه اضطراب انفعالي، فيه تكون هناك مشاعر بلا واقعية الأشياء والحياة، مع فقدان الاقتناع بالهوية الخاصة للفرد، وكذلك الإحساس بالعجز عن التحكم في حركات جسد المرء الخاصة. وتنقسم أعراض تغير الواقع هذه إلى نوعين: الإحساس بالتغير في الشخصية، والإحساس بأن العالم الخارجي نفسه قد أصبح غير واقعي؛ هنا يشعر المرء بأنه لم يعد هو نفسه، لكنه قد لا يشعر بأنه قد أصبح شخصا آخر؛ ومن ثم فإن هذه الحالة ليست من قبيل تلك الحالات التي تسمى تحول الشخصية، بل إن ما يحدث هنا هو أن الخبرات تفقد معناها العاطفي أو الانفعالي، وتصطبغ بإحساس مخيف أو مرعب بالغرابة - واللاواقعية - وقد تكون بداية ظهور هذه الحالة متسمة بالحدة والفجائية، وتجيء عقب حدوث صدمة انفعالية قاسية، وقد يكون ظهورها متدرجا، ويعقب حدوث ضغوط انفعالية وجسمية طويلة وممتدة، ويتكرر ظهور هذه الحالة لدى الشخصيات المتسمة بالذكاء والحساسية ورهافة المشاعر، والميل إلى الانطواء، وكذلك لدى أصحاب النمط الخيالي من البشر.

هنا قد يقول المريض أيضا إن مشاعره متجمدة، وأفكاره غريبة، وإن هذه الأفكار تحدث له «كما لو كانت تتم من خلال حركات ميكانيكية»، و«كما لو» كان هو نفسه آلة أو إنسانا آليا automaton؛ وهنا تبدو الأشياء والبشر له غير حقيقيين، بعيدين عنه، يفتقرون إلى اللون العادي، والحيوية، وقد يشعر من يقع في مثل هذه الحالة أيضا، بأنه في حلم أو غشية من أمره، وأنه مرتبك، وفي حيرة، بسبب تلك الغرابة الخاصة بمشاعره، وبلا واقعية العالم، ثم إنه يجد صعوبة في التركيز، وقد يشكو من أن عقله قد مات، أو أنه توقف عن التفكير [18].

وهكذا فإن الشعور بالانفصال أو الانعزال والغرابة، وكذلك الوعي بهذا الانفصال، هو جوهر هذه الحالة، وعلى الرغم من كل تلك الأعراض المذكورة المصاحبة لها، فإن هناك أعراضا مهمة أخرى تؤكدها - على نحو خاص - كتيبات التشخيص الطبي الحديثة، ومنها:

1 - اختلال الشعور بالواقع، أو الشعور بأن العالم الخارجي نفسه غريب أو غير واقعي.

2 - الماكروبيزيا Macropasia والميكروبيزيا Micropasia: وهو نوع من الشعور بالتحول الغريب والتبدل في أحجام الأشياء وأشكالها بحيث تبدو أحيانا أصغر من حجمها مثلا (الميكروبيزيا)، وأحيانا أكبر (الماكروبيزيا).

3 - الآلية الشعورية: قد يشعر بعض الأفراد هنا بأن الآخرين يبدون لهم غير مألوفين، أو أنهم آليون يتحركون ويتكلمون بطريقة ميكانيكية. هناك إضافة إلى ذلك: أعراض القلق، القلق الطليق غير المحدد المصدر أو السبب، القلق الهائم، والأعراض الاكتئابية، والسلوكيات الوسواسية القهرية، والانشغالات الجسمية النفسية، والأعراض المتكررة المصاحبة لنوبات الفزع الشديد والتي تعقبها أيضا[19].

4 - الإحساس المتحول بالزمن: هنا يحدث اضطراب وتشوه لإدراك الزمن كشكوى متكررة لدى الأفراد الذين يعانون هذه الحالة. وكما وصف شورفون Shorvon هذا النوع من الاضطراب هنا، فإن هناك حالة من العجز عن استحضار الماضي على نحو جيد أو واضح، وصعوبة كذلك في التمييز بين الماضي والحاضر والمستقبل، لكن المفارقة أيضا أن هناك سرعة واضحة يتحرك من خلالها الزمن ويمر، كما لو كان يسحب أو يجر عبر مساره، فيبدو الماضي القريب هنا، بعيدا جدّا، بالإضافة إلى عجز في القدرة على الحكم على طول الزمن أو مدته، إنهم يبدون كأنهم لا تنطبق عليهم مقولة إينشتين «إن المبرر الوحيد للزمن هو ألا يحدث كل شيء في

اللحظة نفسها»، فهم يكونون غير قادرين على التمييز - على نحو جيد - بين الماضي والحاضر والمستقبل، فالزمن كله كأنه يوجد وتحدث فيه الأشياء بالنسبة إليهم كالحلم أو الكابوس، خلال لحظة واحدة، أو خلال زمن واحد.

كذلك قد يشعر هؤلاء الأشخاص بأن الأحداث القريبة التي حدثت لهم تتراجع وتصبح منتمية إلى الماضي البعيد، بل إن بعضهم يفقد القدرة على الشعور بالزمن أو الإحساس به، أو تقديره، على نحو دقيق، أو يعجز عن إدراك العلاقات المناسبة بين الماضي والحاضر والمستقبل معا، فيما يسمى «منظور الزمن»، حيث يتولد إحساس لديهم بانقطاع الصلات بين الماضي والحاضر والمستقبل. ويرى بعض العلماء أن التشوهات أو التحريفات التي تحدث في منظور الزمن، تؤدي دورا مركزيّا في اختلال الشعور بالشخصية، وكذلك اختلال الشعور بالواقع. وهذا الارتباط بين الانقطاع الزمني والشعور باللاواقع، أو عدم حقيقة الواقع، قد أكدته دراسات كثيرة.

ومنظور الزمن له ارتباطه بالمنظور المكاني، وهذان لهما ارتباطهما بالمنظور الشخصي، فالشخص بلا مكان، ولا زمان، شخص غريب، فاقد للشعور بالشخصية والواقع.

في مشهد من مجموعة وفي قصة «وردية ليل» للكاتب المصري إبراهيم أصلان من الليل الموحش، والأماكن المفتوحة والمعتمة، وعالم من البشر الذين يعملون في استقبال البرقيات وإرسالها، شخصيات منعزلة وحيدة في عالم موحش غريب، لفت نظري من بينها شخصية الحريري، ذلك الموظف صاحب الوجه النحيل الشاحب، واللحية النابتة البيضاء، والعينين الحمراوين بلون الدم، والذي يبدو وكأنه، بسبب غربته واغترابه، بسبب حياته الطويلة المرهقة الجافة في عالم الليل المتكرر الروتيني هذا، قد اختلط لديه الزمان فلم يعد يدرك الصباح من المساء، ولا الليل من النهار، فأصبح يطلق الأذان ويدعو الناس إلى الصلاة في غير مواقيتها، بعد أن ينتصف الليل بزمن، وقد كان صوته - كما يقول إبراهيم أصلان - «يتردد ضعيفا في ضوء عشرات من لمبات النيون المعلقة. وأثناء التكرار، كان يمد هذا الصوت ويمده حتى يحتبس، ويضيع، ثم ينفلت بعيدا ويأتي مسموعا مرة أخرى»، وكان يؤذن

بــكلام مبهم غير مفهوم، لكنه له نغمــة الأذان، لقد أصبح الأذان هنا، دلالة على الآلية والنمطية والتكرار والغرابة التي سقط الحريري في براثنها بفعل ونمطية حياته، وآلية عمله. لقد اختل لديه الشــعور بالزمان والمكان، وفقد إنسانيته، وصار يعمل مثل آلة، تصدر عنها نغمات لا معنى لها، ويتوجه بفعل أشياء يبدو أنها هي التي تحركه وتتحكم فيه، بدلا من أن يقوم هو بتحريكها والتحكم فيها.

هكذا أصبح الحريري يؤذن في غير مواقيت الأذان، وصار أذانه المألوف مبهما، له نغمة الأذان، لكنه غير مفهوم، مثلما كان سلوكه غير مألوف، لكن في قلــب هذه الآلية، والنمطية، واختلال الشــعور بالواقع والذات والزمن، هناك بشــر من لحم ودم، بشــر تجري الدموع من أعينهــم وتبلل وجوههم الشاحبة النحيلة، كما حدث بالنسبة إلى العم الحريري في نهاية هذه القصة، هنا إنسان وقع في براثن «الشيء» غير المألوف الذي تحدث عنه جيجيك، أي غرابة المجهول وغير المفهوم، وهنا أيضا حالة أشبه بحالة «انهيار التمثيلات» التي تحدث عنها كانط وليوتار، هنا عجز عن الفهم، لحدود الزمان والمكان، وغيــاب للذات في أفعال النمطية والتكرار، هنا الذات ليســت موجودة في داخلها، كما أنها لا تمتلك وعيها الخاص، هذه الذات قد تحولت إلى شيء، إلى شخص آخر منفصل عنها، شخص موجود في عالم الإيماءات والحركات الطقسية النمطية المتكررة التي تكشــف عن غياب الوعي، وجمود الإبداع، وضياع الإنسان وغربته واغترابه، وغرابة سلوكه في هذا العالم الغريب [20].

5 – الشعور بالغرابة البدنية: هنا قد يوجد شعور لدى الفرد بأنه لا يتحكم في حركات جسمه أو انفعالاته المترتبة عليها، أو أنه قد أصبح مثل الآلة المتحركة من دون إرادة منه، أو أن ذاته موجودة خارج حدوده الجسدية، مع شعور أحيانا بتشوه بعض أعضاء الجسم، كاليدين مثلا، أنها أصبحت أكبر أو أصغر. وقد وصف أحد المصابين بهذه الحالة نفسه فقال: «إنني أشعر كما لو أن رأســي مملوء بالقطن». وهذا الشعور بالتحول الجسمي بالانفصال قد نجده في قصص التحول، خاصة لدى كانط في «المسخ»، ولدى غوغول في «الأنف»، وغيرهما.

6 - المراقبة العالية والمستمرة للذات: هنا يتحول الشخص إلى ذات داخلية وذات خارجية، وتقوم الذات الخارجية بالمراقبة الدائمة للذات الداخلية، هنا نوع من الازدواج في الذات ناتج من انهيار الشعور بالذات والواقع، هنا نوع من الانقسام، كأن هناك شخصين أو عقلين داخل الشخص الواحد. هنا يقوم الكل بمراقبة جزء انفصل عنه. هنا يقول أحد أصحاب هذه الحالات: لقد عبرت الشارع، ومع أن ساقيَّ كانتا تتحركان معي، فإنني كنت أشعر بأن عقلي كان موجودا في مكان ما آخر يراقبني، وكنت غير قادر على معرفة هل كنت هناك معه، أو أنني كنت مع ذلك الجزء الذي يعبر الشارع.

في رواية «الغريب» للمؤلف والفيلسوف الفرنسي ألبير كامي يقتل مرسو بطل القصة أحد الأشخاص الذين لا يعرفهم في الجزائر بدم بارد، ويتعامل مع كل شيء في حياته بلا مبالاة، هكذا فعل مع موت أمه ومع حادث الشخص الذي قتله، وكذلك مع محاكمته ومحاولة الكاهن في نهاية القصة وقبل إعدامه أن يجعله يشعر بالندم أو التوبة بسبب ما اقترفته يداه. وليست هناك في هذه الرواية على عملية خاصة لاختبار الواقع، ولا توحد غامض مع وجود مطلق أو، لا نهائي، ولا استكشاف متتابع تدريجي لواقع يفقد معناه شيئا فشيئا، فالواقع قد فقد معناه، والشخص تكلست أفكاره، وتجمدت مشاعره، وأصبح شبه آلة تتحرك وتفكر، لكن دون انفعال أو شرف، إنها ليست حالة من التبلد الانفعالي فقط، بل حالة من التبلد الانفعالي والمعرفي والوجودي، لقد كان لدى ميرسو وعي كامل بأنه يعيش هذه اللحظة دون قلق أو اهتمام، وكان يعرف أن الحياة البشرية باطل وقدرية وأن اللحظة الراهنة التي نحياها قد تكون هي فقط الحقيقة، ومع ذلك فقد كانت رسالة كامي في هذه الرواية، كما يقول النقاد، هي الأمل وليس اليأس، الأمل في إنقاذ فرنسا من الهزائم التي لحقت بها والتمسك بالضوء الذي قد يأتي من نافذة صغيرة في جدار السجن [21].

7 - التحولات الوجدانية: هنا يقول معظم الأفراد الذين أصابتهم هذه الحالة إنهم شعروا بحالات من عدم الاستقرار أو الاتزان الوجداني تراوحت بين التبلد الانفعالي، واللامبالاة

والجمــود العاطفي، وإن ذلك كان يؤثر في تفكيرهم وخبراتهم بشكل عام، وإن ذلك قد يرتبط بظهور الأشياء والعالم - بالنسبة إليهم - على أنها غير حقيقية، مسطحة، باردة، بعيدة، منعزلة، هنا فقدان للشعور بالشغف، والبهجة، مع خوف وانعزال أيضا.

8 - التذكــر والتخيل: قــد يحدث اضطــراب أيضا في التذكر والتخيل، حيث تحدث اضطرابات وتداخلات في ذاكرة الأحداث الشــخصية، الذاكرة الخاصة بالحقائق والأحداث الخارجيــة. هنا قال أحد الأشــخاص: «أنا أســتطيع تذكر الأشياء، لكنها تبدو لي كأن ما أتذكره لم يحدث لي قط».

9 - خبــرة الخواء العقلــي: إضافة إلى تلك الشــكاوى الخاصــة بالذاكــرة، واضطرابها، وشــحوبها، وفراغها مما هو مناسب شــخصيًّا، وأيضا العجز عن الاستحضار ذهنيًّا للصور البصرية أو الســمعية، وكذلك تلك الخبرات الغريبة المتعلقة بالزمن، يشــكو المرضى هنا أيضا من فراغ عقولهم، من شــعورهم بأنهم ليســت لديهم أفكار في أذهانهم، وقد يرجع ذلك إلى استغراقهم القهري في فحص ذاتهم وحياتهم؛ مما قد ينجم عنه الشــعور بالفراغ فيما يتعلق بما يمكن أن يتذكروه، أو يتصوروه، أو يشعروا به، وكذلك خبراتهم الزمانية والمكانيــة، مع صعوبات واضحة لديهم في الانتباه والإدراك. وهذه كلها نتائج تحليلات ودراسات علمية حديثة.

10 - الاغتــراب عــن الواقع المحيط بهم: هنا يشــعر معظــم الأفراد بأنهم قد عزلوا عن الواقع الخاص بهم، قد انقطعت صلاتهم به، حيث الأشــياء تبدو لهم غير واقعية، وهنا تُوصَف هذه الخبرة من خلال اســتعارات بصرية مثل (إننــي وكأنني أنظر من خلال كاميرا، أو من خلال ضباب أو حجاب .. إلخ) [22].

لقــد صُكَّ مصطلح «اختلال الشــعور بالواقع» عام 1935، وقد نســبه ماير غروس إلى علماء ســابقين عليه وآخرين جاءوا بعده أيضا، وقد ظهر

بعد ذلك أن الفرق بين مصطلحي «اختلال الشعور بالشخصية»، «واختلال الشعور بالواقع»، هو فرق يعكس فقط اختلافا في الطرائق الوصفية لبعض الخبرات، وليس فرقا في الظاهرة نفسها، فكما وصف دوغا Dugas الأمر، فإن الفرد خلال حالة اختلال الشعور بالشخصية يشعر بالغرابة الخاصة بالأشياء حوله، أو أن الأشياء تبدو بالنسبة إليه غريبة. كما أن غرابة إدراكه للأشياء هذه تجعله يدرك نفسه غريبا بينها وعنها، وأن الفرق بين أعراض الغرابة المتعلقة بالجسم والانفعال والذاكرة والعقل، قد تكون انعكاسا لشعور الفرد بغرابة خاصة بذلك العالم، ذلك الذي أصبح غريبا وغير مألوف، وقد تكون تلك الحالة كذلك نوعا من الإسقاط لذلك الشعور بالغرابة على ذلك العالم الغريب من خلال غرابة جديدة مضاعفة أدركتها الذات، وقامت بتكوينها وتجسيدها خلال إدراكها لغرابتها في ذلك العالم الغريب، وإن ذلك كله إنما يرتبط بفقدانها للشعور بالبهجة؛ لأنها افتقدت الألفة، افتقدت عالمها المألوف، أصبح هذا العالم غير حقيقي، غير واقعي؛ ومن ثم أصبح مخيفا؛ ولذلك فإنها قد تفضل عبور حدوده، نحو عالم آخر، جديد، قد لا يكون غريبا أو مخيفا، وتجمع معظم الدراسات الحديثة والقديمة على ذلك الارتباط الكبير بين اختلال الشعور بالذات أو الشخصية، واختلال الشعور بالواقع، أو بواقعية ذلك الواقع. وتربط دراسات أخرى بين هاتين الحالتين والاضطراب المسمى اضطراب الشخصية الحدية، أو «التي على الحدود» التي تقع على الحدود الفاصلة بين الصحة والمرض، بين الجنون والإبداع، وكذلك اضطراب الشخصية المفككة التي تحتوي على وجود أكثر من ذات، إنها الذات المنقسمة إلى حالات، أو إلى آخرين، إضافة إلى وجود أعراض أخرى معها، كالخوف، والقلق، والشعور بالرعب والفزع، وغيرها [23].

المدن ووجه يانوس

في ضوء ما أشارت إليه دراسات حديثة متنوعة، ومنها دراسات المفكر الفرنسي ميشيل فوكو فإن الاضطرابات النفسية قد تزايدت مع تزايد القلق والتوتر وانعدام الشعور بالأمن وزيادة شعور الإنسان بالغربة والغرابة والاضطراب في المجتمعات الحديثة، وهو أمر أكده قبله أيضا المفكر

الألمانـــي فالتر بنيامين، فقد ولدت الغرابة - كما قال - نتيجة ظهور المدن الكبيرة، حيث الحشـــود والمباني غير المتجانســـة أو المتنافرة. فيها. تسبب الشعور بالاضطراب، والشـــعور بالغربة والاغتراب، وضياع الفردية. وإنه بسبب نظام العمل الروتيني الحديث، ومع تطور الصناعة والآلية والبرمجة، خضع الإنسان لآلية التكرار، ومع التكرار والنمطية، وعدم التغير، والفقدان للحريـــة، وكذلك مع إعـــادة الإنتاج للظلـــم والإحباط والقهـــر والتعذيب والحرمـــان والبطالة، قد يتحول الإنســـان إلى آلة متحركة، أو آله ســـاكنة تتحرك أو تهمد في مكانها، قد تسعى هذه الآلة إلى الخروج من النمطية والآلية بالثورة والتمرد والرفض، وقد يستســـلم صاحبها لقدره. وكل آلية ســـلوكية وفكرية تســـلم صاحبها إلى الآلية الجسدية، وكذلك فإن كل آلية جسدية تسلم صاحبها إلى آلية فكرية ووجودية، يتحول بعدها إلى ما يشبه الآلة، تلك الآلة التي تفقد الشـــعور بإنسانيتها، تفقد مشاعرها وتعاطفها مع الآخرين، تنســـحب من الواقع وتغيب عنه وتغترب، أو تقوم بأعمال قتل وســـرقة وتحايل وتدمير من دون إحساس بالذنب، ومن دون تأنيب ضمير، ومن دون شفقة إزاء الآخرين.

هكـــذا فإن الآلية النمطية الغريبة قد تـــؤدي إلى الموت الفعلي، أو موت المشـــاعر والأفكار. هنا قد يتحول الغريب المغترب نحو التدمير للآخر، نحو أفعال مضادة للمجتمع، أو العالم، كما نرى في الواقع الآن من كل الشواهد الدالـــة على التدمير للآخر، أو يتحول على نحـــو يدمر ذاته (يهمل عمله - يدمـــن المخدرات - ينام كثيـــرا -يفقد القدرة على الإبـــداع... إلخ)، وهذا صحيـــح في حالات الأفراد، وصحيح في حالة الشـــعوب أيضا، إنها أماكن مفتوحة ومغلقة دائما، خلال الوقت نفسه، إنها تشبه وجه «يانوس».

وتشبه المدن وجه يانوس؛ إله البوابات في الميثولوجيا الرومانية القديمة، ذلـــك الذي ينظر بوجهـــين: إلى الداخل وإلى الخارج، ومـــن ثم فهي. المدن . ذات هويـــات مزدوجـــة: فهناك العشـــوائيات والأماكن الفقيـــرة، وهناك المناطـــق الراقية والغنية أيضا، هناك الفقر وهناك الثراء، هناك الشـــوارع الضيقة والحارات والمتاهات، وهناك الساحات الفسيحة والميادين الواسعة والباحات، هناك الحميمية وهناك الوحشة، هناك الحضور وهناك الغياب،

هناك التعليم وهناك الجهل، هناك المقاهي الشعبية، وهناك أندية العاصمة والروتاري، هناك الصحة وهناك المرض، هناك الحضارة وهناك البدائية، هناك الحاضر وهناك الماضي، فأي ازدواجية وأي تناقض يمكن أن يكونا خارج المدن؟ وفي أي مناخ آخر يمكن أن تظهر الغرابة والتناقض؟ هناك حتى في أسماء المدن، نجد في القاهرة نفسها ـ مثلا ـ مصر القديمة ومصر الجديدة، وبولاق أبو العلا الفقيرة العشوائية تواجه الزمالك المحتشدة بالمباني التاريخية الفخمة، وقاعات عروض الفنون الراقية، بل إن الحركة في المكان يمكنها أن تحدد طبيعة المكان والطبقات التي تعيش فيه، والمزايا والأخطار التي تواجه سكانه، وقد تكون وسائل النقل والمواصلات ذاتها معبرة عن مثل هذا التناقض الذي يتجلى في بعض المدن، حيث نجد السيارات الفارهة الحديثة ومعها الدراجات البسيطة والتوك توك وعربات الكارو... إلخ.

المدن أماكن مفتوحة، المدن أماكن مغلقة، المدن أماكن مرسبة للخوف، المدن أماكن مجهزة لحضور الأطياف والأشباح، المدن ذات طبيعة مزدوجة، المدن أماكن يكثر ظهور ذوي الطبائع المزدوجة والمفككة فيها، ويكثر حضورهم إليها أيضا.

لدى «أوسكار وايلد»، في روايته «صورة دوريان غراي»، نجد غرف الرسم الخاصة بالطبقات العليا، وكذلك البيوت الريفية التي كان «دوريان غراي» يزورها، حيث أماكن الطبقات الثرية المرفهة التي كان يسمح بدخولها فقط للخدم الموثوق بهم تماما، أو رجال التجارة والمال والأعمال، وأي متطفل، متسكع، يجرؤ على دخول تلك الأماكن قد يُقْتَل، أو يكون هو نفسه مجرما يَقْتُل، فأبواب تلك الأماكن والبيوت تظل مغلقة على أصحابها، وهي ليست لها وجه يانوس بمفردها إلا بالمعنى السلبي، أو الأحادي، قد تسمح بالدخول ولا تسمح بالخروج إلا لمن يملك حق دخولها والخروج منها، لكن الشخص المتطفل، المغرور، المتباهي بنفسه، قد يفتح أي باب يرغب في الدخول منه أيضا دون استئذان.

هكذا كان الوجود المزدوج لدوريان غراي كشخص أرستقراطي ينتمي إلى مكان متميز، وأيضا كشخص مدمن للأفيون، مداوم على الذهاب إلى أوكاره في لندن، مما يوضح كيف أن ذلك الانقسام الجغرافي والاقتصادي ربما كان هو الذي يشكل الأساس، أو يمهد الحضور والظهور للانقسام في الذات أو الهوية الفردية على الشاكلة نفسها، ربما كان هايد يجد «متعة» في تلك المسرات

ومصادر الترفيه التي كان العالم السفلي في الطرف الشرقي من لندن يقدمها إليــه، أما جيكل فظل داخل ذلك البيت المتســم بالفخامــة والثراء الخاصين بالطبقة العليا في «الطرف الغربي» من المدينة.. هكذا وفرت المدينة، وأماكنها المفتوحة، والأماكن المعزولة المظلمة فيها، غرف الرسم المضيئة الجيدة التهوية فيها، وكذلك الأقبية المعبأة بالدخان، وفرت للخيال الأدبي ببيئة جغرافية، في ضوئها صُوِّرَتْ هذه الثنائية المميزة للسرد الأدبي [24].

كيــف يمكــن أن توجد كل هذه الأنــواع من الوحوش فــي غابة واحدة؟ هكذا تساءل «لورنس ديفيز» في تقديمه لكتاب «لندا دريدان» عن «القوطي الحديث والأشــباه الغريبة». وأجاب ديفيز عن سؤاله هذا بقوله: لقد حاول كتاب كثيرون - أمثال ستيفنســون، ووايلد، وويلز، وغيرهم - تجسيد مظاهر القلق وأنواعها التي جعلت كثيرين يتحدثون عن أمراض الحضارة الحديثة، وقد اســتخدم هؤلاء الكتاب الشكل القوطي في الكتابة في بعض أعمالهم، مصورين من خلالها مظاهــر الرعب التي تحدث في بعض المدن الحديثة، وقد كانت نقطة البداية لديهم هي الشــكل القوطــي المدني الذي ظهر في منتصف القرن التاســع عشــر، فاهتموا بالمشــاهد الخاصة بمدينة لندن، تحولاتها الوحشية، تشــوهاتها، وحالات الازدواج والانقسام في الشخصية التــي تحدث في ضوء هذه المدينة وأحوالها. وهكذا فإن ثمة علاقات وثيقة بين الأشكال القوطية في القص وظهور المدن الحديثة؛ ومن ثم كذلك ظهور حالات الخوف والقلق والشعور بالتهديد، ومن ثم أيضا الانقسام في الذات والازدواجية والجنون، وحدوث الغرابة وتجلياتها المتعددة [25].

ولقد أدى مفهوم البيت، بوصفه مكانا واقعيّا أو متخيلا، مرتبطا بالألفة، وكذلك الوحشــة والخوف، أدى دورا مهمّا في دراسات أدبية وثقافية متعددة تلت ظهور دراســة فرويد عن الغرابة، وأدت مفاهيم القرب من البيت والبعد عنه، دخولــه والإبعاد أو الطرد منه، إضافة إلــى التجليات والمعاني المتعددة الأخرى للبيت كالوطن مثلا، أدت دورا مهمّا في تحليلات كثيرة معاصرة.

وهكذا فــإن خبرة الفقدان للبيــت الأليف، وأن يهيم المــرء على وجهه ويتشرد، أو أن يشعر بأنه ليس في بيته، ليس في مكانه الصحيح، هي خبرة ثقافية وسيكولوجية أيضا، وهي خبرة تنتج منها كذلك رؤية مزدوجة حددها

هومي بابا ووصفها بأنها «خبرة غريبة». فتشـــرد المرء، وهيامه على وجهه، أو فقدانـــه بيته الأليـــف هو جوهر تلك الخبرة التي وصفهـــا بابا كما يلي: «إنها لحظة الوحشة أو فقدان ألفة البيت أو الوطن، لحظة تهرب أو تزحف متصاعدة لديـــك ببطء على نحو مطرد وكأنها ظلـــك». كما أنه كتب يقول أيضا: «وفي تلك اللحظة تجد نفســـك فجـــأة تتخذ الاحتياطات الضرورية المرتبطة بشعورك بأنك موجود في قلب حالة من الذعر المفعم بالشكوك أو الظنون». ويرى هومي بابا أيضا أن حالة الوحشـــة (أو الإقصاء عن البيت) هذه إنما تتطور ناشـــئة عن ذلك النمط نفسه الخاص بحالة الازدواج، وأن هذه الازدواجية هي جوهر خبرة الغرابة، كما أن الوحشـــة أيضا - أو التشرد أو التوهان - إنما تنشأ عن الجذر نفسه موضع الاهتمام في الغرابة؛ ألا وهو البيت، بوصفه المكان الذي يمكن أن يكون مألوفا تماما أو غريبا تماما [26].

هكذا يرتبـــط مصطلح فقدان البيت الأليف بتلك الســـرديات الخاصة ببناء الأمم، وبناء الإمبراطوريات، والتمرد ضد الاســـتعمار، وغيرها من الحالات التي تتراكـــم فيها حالات فقدان اليقـــين أو التأكد والحيرة فيما يتعلق بالهوية الفردية والهويـــة الجماعية، وأيضا فيما يتعلق بالقلق الفردي والقلق الجماعي، قلق الأمة والشـــعب، فيما يتعلق بالانقســـام والازدواج بمستوياته ومعانيه كلها، وكذلك فيما يتعلق بالخوف والشـــعور بالتهديد والغرابة والغربة، وفقدان الاستقرار، والتشرد، وهيام الناس على وجوههم، وفقدانهم البيت أو الوطن الأليف الحميم الخاص بهم.

هكذا تعـــج المدن وتزخر بالهائمين على وجوههم، وكذلك بالمتســـكعين، ووفقـــا لما قاله فالتر بنيامين فإن «المتســـكع» Flaneur يعتبر المدينة «مكانه الخاص»، لكنها أيضا المكان الذي قد يصبح متاهة يضيع منها المتســـكعون وغيرهم من الهائمين. وهكذا كان جيكل وهايد ودوريان غراي من المتسكعين الذي قاموا بجرائمهم في المدينة في الظلام، هكذا كانت غرابتهم الليلية غير المألوفة التي تناقضت مع ألفتهم النهارية المألوفة. هكذا ظهرت الازدواجية الخاصة بهم، هكذا قامت أشباحهم بالانتياب والسكن في ليل المدن وتركت آثارهم وأرواحهم تحلق فيها، هنا لم يعد ذلك المتسكع زائرا أو متجولا فقط، يقوم بالشراء ويراقب الجموع، كما كانت حاله لدى بودلير، أو يهتم بالعلامات المضيئة للأعمال والتجارة كما لدى بنيامين، بل أصبح روحا هائمة أو شبحا،

خلال الليل وخلال النهار أيضا، وقد يقتصر وجوده على مدينة بعينها، وقد تحلق روحه في العالم كله وتهيم مشـردة فيه على نحو كبير كما كان شأن الشاعر الفرنسي رامبو مثلا.

هكذا تعد المدن، القديمة والحديثة - وعلى نحو متكرر - رموزا دالة على الأماكن الغريبة، ويرجع ذلك - في جوهره - إلى ما تحتله تلك المدن وتمثله من طبيعة متناقضة: فهي قد بُنِيَتْ بطريقة توحي وتعزز تلك الفكرة أو الدهشة التي كان البناؤون والمخططون يحملونها في عقولهم بأنه سيمكنهم التحكم في نموها، ولكن في الوقت نفسه، فإن هذه المدن غالبا ما كانت لها طريقتها العضوية الخاصة في النمو وفقا لإيقاعاتها الخاصة، وكذلك وفقا لتلك الجيوب السرية أو المناطق المعزولة الغامضة وغير المرئية التي تتشكل فيها، وعلى أطرافها، وفي عقول بعض سكانها، حيث آليات التحايل والعشوائية والمصالح الفردية أو الجماعية والنزعة الاستهلاكية، وزيادة سكانها، وتدفق الغرباء عليها من الأماكن القريبة منها والبعيدة، وإلى غير ذلك من العوامل التي جعلت الكثير من المدن القديمة والحديثة - في صورتها الأخيرة - تبدو وكأنها مقطوعة الصلة بالصورة التي كانت عليها حينما أُنْشِئَتْ في البداية الأولى. وما علاقة ذلك بموضوع الظلمة أو العتمة؛ ومن ثم الغرابة في كتابنا هذا؟

يقال إن هذه المناطق المعزولة أو الجيوب السرية الغامضة التي تنشأ داخل المدن وعلى أطرافها، كثيرا ما ارتبطت بعقليات ليست مدنية، عقليات جمعية أو بدائية، عقليات تتجمع معا دون رابط أو نظام معماري محدد، فقراء ومهمشين، وخارجين عن القانون، ومستبعدين عن المركز والاهتمامات الخاصة بالمدينة، هنا فئات خارجة على القانون أو النظام العام للمدينة، فئات تقوم بأنشطتها الغامضة والسرية ليلا، وقد صُوِّرَ عالم الظلام في المدن النامية، بما فيه من جرائم قتل وسرقات وعبث وإيذاء للآخرين، في روايات كثيرة [27].

في التمثيلات الحديثة للمدينة، نجد أن ذلك الإحساس القديم بالعزلة الذي كان ملازما لها، والذي كان موجودا، بمعنى ما، في الأماكن القوطية التقليدية القديمة، كالكنائس، والقصور، والقلاع، والأديار، وغيرها، نجد أنه إحساس يخلي طريقه الآن لإحساس آخر جديد، فالعزلة القديمة كانت ناتجة من انعزال المباني وابتعادها بعضها عن بعض، ووقوعها عند أطراف

المدن أو هوامشها، أما العزلة الآن، فهي نتيجة التقارب والاقتراب، حيث شبكات معقدة من المباني الضخمة، والمنازل، والشوارع، والفنادق، والمطاعم، وأماكن البيع والشراء، حيث الاقتراب متواصل ومستمر، كرها أو طوعا. وقد كان ما نجم عن ذلك كله - في أغلب الأحوال - عزلة ووحشة قاتلة، تشككا، واستغراقا في الذات، وجيرانا قد لا يرى بعضهم بعضا، أو حتى لا يعرف بعضهم أسماء بعض، وقد يكون ذلك الجار القريب هو القاتل الخفي، أو اللص الغامض، أو الغريب الذي كان ينبغي أن يكون أليفا ومألوفا، إنه حتى في وجوده النهاري معتم وغامض وسري ومجهول، فما بالك بوجوده الليلي الأكثر غموضا وسرية وإعتاما ورعبا؟ هكذا أفرز الاقتراب المكاني الحديث - في حالات عدة - نوعا من الابتعاد - وحالة من التشوش والعزلة، ربما لم تكن مسبوقة - هكذا - في تاريخ الإنسان. وقد مارست الميديا الحديثة، التلفزيون والإنترنت، والفيس بوك وغيرهما، دورا واضحا في تكريس هذه العزلة عن قرب، أو العزلة على الرغم من ذلك الاقتراب والذي هو في واقع الأمر نوع من الابتعاد، لأنه اتصال من خلال وسيط هو التكنولوجيا اتصال «كأنه» اتصال، لأنه في واقع الأمر، لا يتم بالفعل، بل بشكل افتراضي وغير حقيقي، وحيث كل إنسان هنا مستغرق في ذاته، في عالمه الافتراضي، بعيد عن واقعه الحقيقي، الاجتماعي، الإنساني، الذي كان.

هكذا أصبحت الأماكن الحديثة أماكن الغياب، إنها تلك الأماكن التي بلا هوية، الأماكن التي ليست أمكنة، الأماكن التي ليست مكانة، الأماكن التي تقاوم الإغلاق، الأماكن المفتوحة دائما على المجهول، الأماكن المتاهات، الأماكن التي يكون الإنسان فيها رقما بين ملايين، يكون فيها حيّا، لكنه يكون ميتا أيضا، على نحو ما.

وهكذا فإن المدن مكان رمزي تتحقق من خلاله آمال البشر، وتتجسد مخاوفهم، وهي أيضا نتاج لخيال الإنسان الذي تجسد في الأدب والفن، وحققته العمارة. والمدن أيضا أمكنة للعيش والطموح والتعليم والعمل والصناعة والجريمة والفقر، وتفاوت الثروات، وهي أيضا مكان المركز والقيادة غالبا، وهي المكان الذي قد يضيع فيه الفرد أو يتحقق، أو يتم نسيانه وتجاهله، أو يصبح نجما، وهي كذلك المكان الذي قد يقضي الإنسان فيه حياته - كما قال ديكارت - من دون أن يكلم أحدا، أو أن يقيم علاقة حميمة واحدة، وهي أيضا المكان الحقيقي لثقافة الاستهلاك والعرض والمظهر، وهي المكان الذي تحاول القرى والريف والهوامش أن تحاكيه وتقتدي به من دون

وعي منها؛ لأنها تحسده على ما ينعم به من مزايا وهبات فيما يسميه علماء الاجتماع الآن «ترييف المدن»، «وتمدن الريف»، لكن المدن أيضا متاهات، متاهات للغياب، غياب الروح بفعل الفقر والبطالة والتهميش، وبفعل اللهاث اليومي وراء كسب العيش، أو ثقافة الاستهلاك والامتلاك، هكذا انتابت هذه الروح المدنية المتسارعة اللاهثة العنيفة المزدوجة صفحات السرد والقص والروايات، واجتاحتها خلال القرن التاسع عشر، وما بعده، وسكنت فيها، فظهرت أرواح المدن الحقيقية في روايات كتاب أمثال ستيفنسون ووايلد، وقصص إدغار آلان بو مثلا، والمدن المتخيلة (في روايات أدب الخيال العلمي لدى ويلز مثلا)، وفي كل تلك الأعمال كانت هناك إشارات ضمنية أو صريحة واضحة إلى طبيعة تلك الحياة الواقعية والإدراكات الغريبة التي تركتها المدينة على سكانها، وعلى الخيال والأدب على نحو بارز [28].

قد تكون الأماكن الخالية أماكن للغياب، وكذلك قد تكون الأماكن المزدحمة أماكن للغياب، هنا حالة اختلال الشعور بالواقع والذات، حيث المكان أساسي في إثارة الجنون، ففي أماكن الغياب (الخالية والمزدحمة) يزداد بحث الذات عن آخر، أو يزداد هروبها منه قد تظهر عمليات الانقسام والازدواج، وتظهر الأشباح والأشباه والظلال التي اهتم بها الأدب.

وهكذا فإنه عبر القرون المتعاقبة، ارتبطت العتمة المكانية - على نحو متسق - بالطبيعة «المتاهية» الخاصة بالأماكن المثيرة للاضطراب، إنها مكان للعقاب الرمزي المتعلق بالمخاوف التي لا نهاية لها، وإشارة رمزية أيضا إلى الوجود الإنساني بوصفه حالة مستمدة من التجوال، التهويم، والوقوع في الأحابيل أو الشرك. وهكذا، فإن المتاهة - مثلها مثل الخوف - قد تعمل بوصفها وظيفة للوعي. ووفقا لما قاله الأديب الإيطالي إيتالو كالفيتو فإن الإرادة الموجهة نحو مواجهة المتاهة هي شرط أولي سابق على القدرة على الصمود والاشتباك في صراع مع ذلك التعقيد الخاص بالواقع ككل، وكذلك القدرة على الإنتاج لتكوينات سردية تكون مناسبة لتجسيد هذا التعقيد الذي في ذلك الواقع، من دون أن نستسلم لتلك الرغبة الخاصة بالاكتفاء بالحلول الوسطى أو البسيطة. هكذا يكون على الأدب أن يكتشف لنا - يوما بعد يوم - مخارج مناسبة من هذه المتاهة، وليس مجرد طرق جانبية للهروب منها [29].

بيوت ذات هواجس وأخيلة

وفقا لما جاء في بعض القواميس، وذكره فرويد أيضا، فإن المألوف قد عرف بأنه «مكان يخلو من المؤثرات الشـــبحية»؛ ومن ثم فـــإن غير المألوف قد يكون هو المكان الذي تسكنه الأشـــباح. يتكرر التعبير «هذا المكان روحة ثقيلة»، وفي رواية «قدر الغرف المقبضة» للكاتب المصري عبد الحكيم قاسم، وخاصة عندما كان الراوي يوجد في أماكن ضيقة خانقة طاردة لا يحبها. وفي «ســقوط بيت أشـــر»، وهي قصة إدغار آلان بو الشـــهيـرة، يهيمن إحساس لا يمكن مقاومته منذ اللحظة الأولى على روح الراوي «شـــعور لم أستطع الخلاص منه بواسطة أي انفعال سار آخر»، هكذا كان ذلك البيت يثير هواجس وأخيلة كثيرة مخبوءة في العتمة لدى الراوي، كانت جدران المنزل الجرداء ونوافذه الشـــبيهة بالعيون الخاوية متخشبة كالأموات، وكانت مشاعر الخوف والانقباض المتعلقة به تعود في جوهرها إلى تخيلات الراوي نفسها أكثر من كونها تعود إلى تفاصيل مثيرة للقلق في ذلك المنزل نفسه، «كانت أحجار المنزل ونقوشه ومنسوجاته وكراسيه المزدانة بالرسوم والصور والتماثيل المنصوبة فيه، كلها تبدو مألوفة بدرجة غير عادية، لكن المناخ المحيط بالمنزل، رائحته الشبيهة برائحة المقبرة، التي تفوح من الأشـــجار المتحللة حوله، ومن جدرانه الرمادية، ومن البركة الصغيرة الســـاكنة بجواره، كانت كلها عوامل مؤدية إلى مشاعر وانفعالات غامضة شبيهة بالحلم، وأقـــرب إلى الكابوس. كان ذلـــك. باختصار. منزلا غريبـــا، يوحي بوجود قوة غريبة غامضة توشك أن تداهمه وتدمره، شيء يقف على نحو غير مرغوب في مواجهة العقل في ظل عادية مطلقة للموقع أو المكان، وفي غياب مصدر واضح محدد للرعب، وحضور خاص للغرابة المثيرة للاضطراب (30).

تحت المظلة 2000

في قصته «تحت المظلة 2000»، للقاص والروائي المصري إبراهيم عبد المجيد، ثمة روح شـــبحية، ثمة موتى وأشباح وغرابة، حياة في الموت، وموت في الحيـــاة، انفتاح لبوابات اللاوعي الفردي والجمعـــي، عالم من الوحدة والخوف والعزلة والجنـــون، وهنا الراوي يبدو وكأنه فقد عزيزا لديه، توأم روحه، قرينه، ظله، روحه، أصبح يعيش بين الأموات، لكنهم الأموات الأكثر

حياة وحضورا من الأحياء. هنا يقف الراوي في الشارع ليلا، والشارع خالٍ من المارة، ثم تتوالى الأحداث، فيلاحظ أن الناس يغادرون المدينة يحملون أمتعتهم ويغادرون، يودع بعضهم بعضا، ويبكون ويغادرون، والصمت يعم المكان، والوجوم يعلو الوجوه، وتخلو الشوارع شيئا فشيئا، وكان قد لاحظ أنه، في النهار، قد توقف الموظفون عن الذهاب إلى أعمالهم، ويتداخل عالم الليل مع عالم النهار، عالم الصحو مع عالم الغفو، ولا يستطيع الراوي أن يحدد ما إذا كان الزمن الذي يعيش فيه تلك الأحداث هو زمن الليل أم زمن النهار، وهل المكان الذي يوجد به هو الإسكندرية أم القاهرة. هنا يهيمن عليه الخوف، ويقول لنفسه - ولنا - «إن الخائف لا يعرف الليل من النهار، دائما هو خارج الوقت. بالضبط مثل رجل مدّ قدمه ينزل من الرصيف إلى الشارع، فنزل ولم يجد الشارع، ولم يستطع العودة إلى الرصيف»، ثم إنه يرى أناسا يقطعون رؤوسهم بأيديهم ويمشون في الشارع من دونها، ثم تعود رؤوسهم إليهم بعد ذلك. ويرى كذلك أطفالا تنبت لهم أجنحة تشبه أجنحة كيوبيد، يشتركون في مظاهرة تطالب بإنقاذ الأيتام، ثم يرى أن اللافتات التي يحملونها خالية من الكلمات والشعارات، والراوي - مثلهم - يشعر بأنه يتيم، وقد كان يتيما وحيدا، طوال حياته، ثم تفاقم لديه الشعور باليتم في تلك الساعات التي تداخل فيها الليل والنهار، الحلم والكابوس، الحياة والموت، في تلك الليلة، تحت المظلة.

ثم إنه تدريجيّا يرى الأطفال وهم يتحولون إلى كباش فرعونية صغيرة لها رؤوس الحمل الوديع وأجساد الأسود القوية، يضحكون ويبكون، يمرون من أمامه ولا يلتفتون إليه، يواصلون سيرهم في الشوارع، ثم تختفي المباني التي في أحد الشوارع، ويظهر خلفها ماء أزرق وموج، وتصعد الكباش السور الذي يفصل بين الشارع والبحر ثم تقفز في الماء، حتى تختفي جميعها، ولا يعرف الراوي هل هو في مدينة القاهرة أم في الإسكندرية، ولا أحد يسمعه، والسكون يعم الأرض والسماء، ثم ظهرت غيوم وطيور جارحة، وصوت خيول تعدو بعيدا، ويقرب صوته، ويظهر حصان أبيض ينطلق كالسهم، ويُحدث انطلاقه في الهواء احتكاكا صمّ الآذان، ومن حوله وأمامه وخلفه شرر، ثم إنه صهل في رعب، واندفع داخل الماء وغرق.

وتمتلئ شرفات المنازل بالزينات والأعلام والتلويحات، يظنها الراوي موجهة إليه، ويرى الشوارع تمتلئ بالبشر، ويعتقد أنه يوشك على الجنون، وتمتلئ الشوارع فعلا بالمجانين الذين يقتربون منه ويصافحونه بلا سبب معلوم، ثم إنه - وعلى نحو متكرر - عندما يذهب إلى بيته، ويفتح شرفته، يجد أسدا قابعا ينظر إليه، ثم يدخل بيته، ثم يعود ينظر من شرفته فيرى أن الأسد قد اختفى، ثم يجد أن هناك من يلقي بالنساء والفتيات بالعشرات من الشرفات، وتأتي عربات الإسعاف، صوتها صوت قديم، ينزل منها رجال في معاطف بيضاء، وفوق وجوههم أقنعة واقية من الغازات والتلوث، وراحوا يجمعون الجثث بعضها فوق بعض ويضعونها في عربة الإسعاف، ويمتلئ الهواء برائحة الجثث المتعفنة المنفرة، وتبدو الجثث وكأنها قديمة ربما تعود إلى أيام الحروب، ويرى على الجدران آثار دخان وقذائف، ويعرف أنه يقف وسط مدينة تعرضت للحروب المتواصلة، ويرى جنودا يأتون من نهاية الشارع، ويرى حروبا تدور وقتلى، ووجوها تنطق بألسنة أمم غريبة، ويرى المعارك والضحك والجنون، وتداخل أجناس عدة من البشر، يرى النصر ويرى الهزيمة، ويرى تداخل الأصوات والروائح والمشاهد والملامس، يرى التاريخ العام للمكان، ويرى تاريخه الخاص فيه، ويرى أنه غريب عنه على الرغم من ألفته الشديدة به، ويرى تحول البشر إلى طيور، واختفاء الكتب، واختفاء كل ما قد رآه في تلك الليلة عندما كان وحيدا، تحت المظلة، كما أنه يرى الماء الجاري والدم المنسكب والطيور المرفرفة بأجنحة حمراء وصفراء وبنية وذهبية، ويغادر المكان، ويرى في وجه سائق التاكسي وجوه الأطفال ووجوه المسنين، وجوه الرجال ووجوه النساء، وجوه القتلة ووجوه الأبرياء، وجوه الأسود ووجوه الضفادع، يرى وجهه هو، ويرى السائق بلا رأس، ويرى نفسه أيضا بلا رأس، يرى نفسه مكان السائق، يرى نفسه ضائعا في الزحام، غير مرئي، وحيدا، يتيما، غريبا، في عالم كان يبدو له، على الرغم من غرابته الكابوسية هذه، عالما شديد الألفة والتكرار، عالم يزخر بالموت والأشباح والضياع، وعودة المكبوت الفردي والجماعي، وكذلك الوحدة، التي يهيمن عليها الموت.

هكذا تتجلى الغرابة في هذه القصة في العناصر التالية:

1 - حضور الموت في الحياة، وحضور الحياة في الموت، كما يتجلى ذلك في الغياب الدائم للبشر ومغادرتهم لأماكنهم وأعمالهم، وفي عمليات القتل والحروب والدمار التي تواصلت عبر الزمان في ذلك المكان.

2 - حالة الالتباس والشك التي يعانيها الراوي، فلا يدرك، هل هو يحلم أم أنه يرى ما يراه فعلا، هل هو في وقت الليل أم النهار، هل ما يحدث أمامه يحدث له أم أنها أحلام وكوابيس ورؤى شيطانية!!

3 - ظهور أشـــباح الموتى، هؤلاء الذين قُتلوا في معارك أو حروب أو شجارات يومية لا تنتهي.

4 - التكرار الدائم للموت والاختفاء والمغادرة والعودة الدائمة للمكبوت والمختفي وغير المألوف الذي يظل دائما مألوفا.

5 - الخوف المـــلازم للراوي والمصاحب بشـــعوره الدائم بالعزلة والشك والحيرة وفقدان اليقين.

6 - تداخل عوالم البشر والطيور والحيوانات، والتحولات التي تحدث في تلك المناطق الحدودية البينية التي توجد بين هذه العوالم.

7 - حضور عوالم المجانين والمجاذيب والأشـــباه والظلال والأقران والمرايا والتشابهات الدائمة ليس بين الإنسان وأخيه الإنسان فقط؛ بل بين الإنسان والطائر والحيوانات وغير ذلك من مفردات الطبيعة، مما ينم عن نزعة إحيائية تضفي الحياة علـــى كل كائنات الوجود، وتقيم بينها صلات عجيبة وغريبة نجدها في هذه القصة، وفي قصص أخرى وروايات متميزة لإبراهيم عبد المجيد، ومنها - تمثيلا لا حصرا - «ليلة العشق والدم»، و«المســـافات»، و«البلدة الأخـــرى»، و«لا أحد ينام في الإسكندرية»، وغيرها [31].

خاتمة الفصل

ووفقا لما ذكرته جوليا كريستيفا في كتابها «غرباء عن أنفسنا»، (1991) تتعلـــق الغرابة بالقلق؛ ذلك الذي يقود المرء إلى ما قد يتجاوز الألم المبرح أو الكرب، ونحو حالة من الاختلال في الشعور بالذات.. وهكذا فإن الإحساس بالغرابـــة ينتمي إلى الفئة نفســـها التي ينتمي إليها الشـــعور بالاختلال في

الـذات. وقد لاحظ فرويد وغيره تكرار ظهور الشـعور بالغرابة في حالات المخـاوف المرضية، المخاوف غيـر العقلانية، خاصة عندما تشـعر الذات بالإجهـاد، عندما تضعف حدودها من خلال الصراع والصدام الذي يحدث بينها وبين شـيء بالغ الجودة أو بالغ السوء. إن الغرابة هي نوع من التدمير للذات، وقد تظل هذه الحالة مجرد عرض سـيكولوجي ذهاني، أو قد تفتح الطريق لمسـار جديد، يحـاول من خلاله المرء أن يتكيف مـع حالة التنافر هذه التي يواجهها بالنسـبة إلى ذاته وبالنسبة إلى الواقع؛ لأن الغرابة تتعلق بعـودة المألوف المكبوت، وهي تتطلب أيضا نوعا مـن الجهد البالغ لمواجهة كل تلك العناصـر الخارجية غير المتوقعة كلها، التـي ترتبط بالغرابة التي أشـار إليها فرويد، والتي ترتبط بحضور الصـور والأفكار الخاصة بالموت والأشباح والأقران (الأشباه)، وغير ذلك من الجوانب المتعلقة بهذا الشغف، وهذا الخوف، وذلك المخزون الانفعالي البعيد الخاص بالغرابة. هكذا تحدث الغرابة عندما تمحى الحدود بين الخيال والواقع، والذي ربما يحدث – هذا المحو – نتيجة الصراع بين الخبرات الذاتية والخبرات الأخرى الغريبة التي نظل في حالة صراع معها، لكننا قد نشـعر أيضا بالرغبة في التوحد معها، وكذلك بالخوف منها. إذن الغرابة هي أيضا تيار أساسي للتوحد مع الآخر، من خلاله يتم الإبطال أو التفعيـل للأثر الخاص باختلال الذات من خلال وسائل خاصة بالدهشة [32].

ويرتبط كل ما قلناه سـابقا حول الذات وتجلياتهـا ومعانيها وعلاقتها بالآخر، بأفكار الانقسـام والتعدد والازدواج والتفكك والمرض والجنون، في الحياة عامة، وفي الأدب والفن خاصة، وهي بعض تلك الأفكار الأساسـية التي سنعالجها في الفصل التالي من هذا الكتاب.



5

ازدواج الذات وانقسامها

«أنا شخص آخر»
الشاعر الفرنسي
جيرار دي نيرفال» (1)

في الفصل السابق من هذا الكتاب، عرفنا كيف يبدأ التفكك في الذات والشخصية، وفي هذا الفصل سوف نعرف شيئا ما عن بعض حالات تفاقم هذا التفكك التي تصل به إلى مرحلة الانقسام والازدواج.

ولنبدأ - أولا - بمقطع من رواية «الحكاية الغريبة للدكتور جيكل والمستر هايد»، للكاتب الإنجليزي روبرت لويس ستيفنسون، يجسد من خلاله ذلك الوعي بالازدواج وانقسام الشخصية الذي كان لدى جيكل ذاته. حيث يقول: «ولما بلغت من العمر سن الرشد، وطفقت أرقب ما حولي، وأتملى مسيرتي ومكانتي في العالم، كنت محكوما سلفا بازدواج عميق في الحياة. وكم من إنسان تدرّع من قبل اتقاء لمثل

هــذه المعاصي التي بت مذنبا باقترافها؛ لكني من المنظور العام الذي رفعته نصب عيني، تدبرت الأمور وأخفيتها، وإحســاس مرهق بالعار يكاد يجللني؛ ولهذا السبب، فإن الطبيعة الرهيبة لتطلعاتي، أكثر من أي انحطاط آخر في مثالبي، هي التي جعلت مني ما حدث، ومع هوة أعمق غورا مما قد تصادفه عند سواد البشر الأعظم، أجهزت في سريرتي على أقاليم الخير والشر تلك التي تقســم وتؤلف طبيعة الإنسان المزدوجة» ... ثم يضيف أنه «برغم هذا الازدواج العميق بداخلي لم أكن، ولا بأي شكل، «مرائيا»؛ فكلا الجانبين كان جادا في دأبه كل الجدية. لقد كانت الحقيقة المرعبة التي اكتشــفها جيكل، والتي أودت به إلى خراب مريع، هي أن الإنســان «ليس بشخص واحد حقا، بــل هو – في الحقيقة – شــخصان اثنان».. فمــن الجانب الأخلاقي، وفي شخصي أنا، تعلمت التعرف إلى الازدواج العميق والبدائي في الإنسان، رأيت ذلك في الطبيعتين اللتين تتآلفان في ســاحة وعيي، وحتى لو قيل عنّي إني أحدهما، فما كان ليتســنى لأحد هذا القول لو لم أكن أنا – في الصميم – الشخصين كليهما».

فكيف حدث الافتراق بينهما؟ لقد حدث من خلال وصوله مصادفة إلى ذلك المركب الكيميائي الذي يحول الشخصية الخيرة إلى شريرة، والشريرة إلى خيرة، ولا يحدث هذا التحول على المستوى الأخلاقي والعقلي فقط؛ بل على المستوى الجسدي أيضا، وهو يقول إن «هلع الروح ليس ثمة ما هو أشد منه حتى ســاعة الميلاد أو ساعة الموت». وإن عبء حياتنا ولعنتها سيظلان ملقيين على عاتق الإنسان إلى الأبد، وكلما حاولنا إزاحتهما عادا ليثقلا علينا بوطأة أشد غرابة وهوْلا» [2].

يكتب كافــكا إلى خطيبته العــام 1917 (قبل فســخ خطوبته معها) «تعرفين أن اثنين يتصارعان في داخلي. وعلى مجرى الصراع اطلعت طوال خمس ســنوات بالكلمة والصمت، وبمزيج منهما»، وينعكس هذا الازدواج الشخصي لكافكا في رســائله ويومياته وكتاباته بشكل عام، ففي رسائله يقدم كافكا نفسه – في مختلف المرات – على أنه ذو طبيعة مزدوجة (أنا – هو). هكذا يتحدث عن نفسه في إحدى رسائله إلى خطيبته نفسها في: «العزيزة فيليس، انظري، إنه يقول إنه خائف. بالمناســبة، لا أريد أن أقول

إنه حاليا غير سـعيد»، وفي هذه الحالات تقوم «أنا» بدور المسجل «هو»، أو بالإشارة إلى الجانب الحساس الذي يعاني من الشخصية، من خلال الضمير «هو» [3]. فما أصل هذا الازدواج؟

أصل الازدواج

يشتمل جسم الإنسان على كثير من الأعضاء المزدوجة أو ثنائية الطابع، فنجد: الأذنين، الشفتين، الفكين، الكليتين، اليدين، القدمين، فتحتي الأنف، جانبي الوجه والجسم...إلخ، كما أن مخ الإنسان نفسه يشتمل على شقين أو نصفين شبه كرويين هما النصف الأيمن والنصف الأيسر. ووفقا لدراسات العالم الأمريكي روجر سبيري، التي حصل من خلالها على جائزة نوبل في الطب، فإن النصف الأيسر من المخ ذو طابع متتابع متسلسل زمني، يهتم بالتفاصيل واللغة والمنطق والدقة والانضباط، أما النصف الأيمن فهو ذو طابع تزامني، يرى ما يحدث خلال لحظة بعينها، مثلما نرى لوحة فنية بشكل إجمالي أولا، ثم نرى التفاصيل التي فيها بعد ذلك، وهو - أي النصف الأيمن - مجازي الطابع، استعاري التكوين، خيالي، إبداعي، يهتم بالصور والانفعالات والحركة في المكان، وهناك خصائص أخرى مميزة لهذين النصفين تزخر بها الكتب والبحوث الحديثة في علم النفس، وعلم الفسيولوجيا، وقد أشرنا إلى بعضها بالتفصيل في علاقتها بالفن والأدب في كتابات سابقة لنا [4].

ولكن ما علاقة هذه الثنائية الخاصة بقسمي نصف المخ بموضوع الازدواج؟ عدا هذا الطابع التكويني البيولوجي والفسيولوجي المزدوج للمخ، نعتقد أن هذا التكوين الخاص بالمخ ذو علاقة وثيقة بموضوع الازدواجية والقرين، ونحن نطرحها هنا كاحتمال أو فرض عامل ربما يحتاج إلى مزيد من البحوث والدراسات للتحقق منه، وفحوى ما نطرحه هنا ما يلي: إن الذات الأولى التي تعيش حياة متتابعة متكررة، ووفق آلية التكرار القهري التي تحدث عنها فرويد، والذي يكون النظام الذي تفرضه على نفسها، والذي يفرض عليها بفعل عوامل مجتمعية (البيت - المدرسة - الوظيفة - السلطة السياسية...إلخ)، هي ذات تجد نفسها قد وقعت في أسر الآلية، والدقة، والانضباط، والتكرار، فتفقد الشعور بوجودها الإنساني الحي، هنا

كي تنّقذ، ولا بد لها، شـعوريا أو لا شـعوريا، من أن تخلـق بديلا لها، ذاتا أخـرى، حميدة أو خبيثة، هنا يجيء الدور على النصف الأيمن من المخ، هنا يدخل هذا النصف بصوره ومجازاته واستعاراته وانفعالاته وقدراته الخاصة على الحركة في المكان، قدراته على الفرح أو الحزن، على الأمن أو الرعب، على الاستثارة، بشكل عام، ويقدم إلى الذات الأولى، الذات اليسرى، الذات الواقعية، تلك الواقعة في آلية التكرار والعود الأبدي، بعض ما قد يساعدها على الخروج من أسر الرتابة والمألوف.

وحيث إننا نعرف أن نصفي المخ هذين ليسـا منفصلين أحدهما عن الآخر، ولكنهما متصلان من خلال قنطرة أو جسر أو حزمة ألياف عصبية تسـمى «الجسم الجاسـئ» أو المقرن الأعظم Corpus Callosum، فإننا نتوقـع حدوث تفاعل تبادلي متواصل بين هاتـين الذاتين، الذات الأولى الواقعيـة والذات الثانية الخيالية، وكلما كان هذا التفاعل متوازيا؛ أمكن للذات الأولى (الواقعية) أن تسـيطر على الذات الثانية (الخيالية)، لكن تلك الذات الثانية، كثيرا ما تجمح، تطلق لنفسـها العنان، أو تجد الذات الأولـى أنها غيـر قادرة على - أو لا ينبغي لها - السـيطرة عليها، وهنا تذهـب تلك الذات الثانية الخيالية المتخيلة (الأخرى) بالذات الأولى إلى عوالم الفن والإبداع، وتحقق لها، ومن خلالها، المستحيلات والغرائب، هنا تكون هذه الذات الأخرى وسـيلة لتحقيق الذات الأولى، وكذلك للإنجاز والتحقق العام والخاص. أما في حالات أخرى، فتذهب تلك الذات الثانية (البدائية الطابع غالبا) بالذات الأولى إلى عوالم الخوف والشر والجريمة والرعـب والجنون، وهذه العوالم هي التي اهتم بها الأدباء الرومانتيكيون وغيرهم، بشـكل عام، وحاولوا من خلالها، فهـم تلك الطبيعة المزدوجة للمبدع خاصة، وللإنسـان بشـكل عام، كما أنهم جسـدوها في أعمال متميزة، وربما كانوا هم أنفسـهم يشـعرون بمثل تلك الطبيعة المزدوجة لتكوينهم ونفسـيتهم وذاتهم الأخرى التي في داخلهم، وربما عبروا عنها في حالاتها القصوى من خلال أعمالهم، وربما كانت هذه الأعمال كذلك هي وسـيلتهم التي حمتهم من الوقوع في براثن المصير الذي وقعت فيه شخصياتهم: الخوف، والرعب، والجنون.

وربما - كما أشـــرنا في كتاب سابق لنا عن «الأدب والجنون» (1997) - كان الإبداع هنا هو الوسيلة التي تحمي المبدع والكاتب والفنان من الجنون، وإنـــه عندما يتوقف عن الإبداع الفعلي - لأي ســـبب من الأســـباب - يكون دخوله الفعلـــي كذات أولى واقعية، وليس كـــذات خيالية أخرى، إلى عوالم الخـــوف والرعب والجنون، أمرا محتمل الوقوع بدرجة كبيرة، كما حدث مع هولدرين، ونيتشه، وسترندبيرغ، وفرجينيا وولف، وغيرهم [5].

في بعض الحالات المرضية، وخاصة حالات العنف والعدوان الشـــديدة التـــي لا يمكن إيقافها لـــدى بعض المرضى، أو غيرها مـــن الحالات، تقّطع الاتصـــالات العصبيـــة الموجودة بين نصفي المخ بوســـاطة بعـــض العمليات الجراحية العميقة؛ وذلك لأن الاتصالات الشديدة والتناقضات في الوسائل المتبادلـــة بينهما، قد تحدث اضطرابا وفوضى في فهـــم أحدهما لما يريده الآخر؛ ومن ثم يحدث عجز النصف الأيســـر المنطقـــي عن الفهم والتحكم والتنظيم لما يرســـله النصف الأيمن من صـــور وانفعالات ورغبات، قد يؤدي بدوره إلى عدم القدرة على التحكم في الحركة والانفعالات، وهكذا يتراجع النصف الأيسر أو الذات الأولى عن القيام بدوره، ويصبح المهيمن هو النصف الأيمـــن أو الذات الأخرى البدائية الانفعالية المحلقة المهوّمة بلا ضوابط أو قيود، هنا تقّطع حزمة الأعصاب الموصلة بين نصفي المخ هذين، فماذا يحدث لهذا المريض انفعاليا؟ قد نجده ساكنا في قاع الذات الأولى الرتيبة المتكررة الحركات والتفكير، وأقرب إلى الشخصيات المتوحدة أو المنعزلة، حيث تسبب الإصابات والأمراض التي تلحق بالفرد - أو حتى المجتمع - ما يسميه العلماء الآن «تفكك الشخصية»، كما قد نجد أيضا ما يسمى بالشخصيات المنقسمة والمتعـــددة التي تظهر خـــلال حالات غياب العقل أو شـــروده، خلال هيمنة الخيـــال والانفعال والحركـــة، وتراجع دور المنطق والترتيـــب والنظام. ويعد التكامل بين هذين النصفين من المخ، ومن دون أن يطغى أحدهما على الآخر، الحالة المثالية في الحياة العادية، وليس في الأدب أو الفن.

يرجع البعض أيضا قصة القرين الحديث إلى تلك العلوم السحرية التي كانت منتشـــرة خلال القرن الثامن عشـــر، خاصة على يد أصحاب الاتجاه المسمى «المغناطيسية الحيوانية»، الذين قاموا بتجاربهم من أجل عزل الذات

الأخــرى والحديث إليها من خــلال عمليات التنويم المغناطيســي، ثم كان الرومانتيكيون في ألمانيا أيضا هم من قاموا بالخطوة الثانية المهمة في هذا الاتجاه، ولكن ليس من خلال عمليات تنويم مغناطيسي للوسيط ـ الروحاني ـ فــي تجاربهم؛ بل من خلال التنويم الواعي للخيال الإبداعي، وتركه يتحول ويتجــول في عوالم الذوات الأخــرى بكل ما تزخر به هذه العوالم من خوف واضطراب وغرابة وجنون، ثم انتقل هذا الواقع الشديد بموضوع القرين بعد ذلك من ألمانيا إلى بقية أوروبا، وكذلك إلى أمريكا أيضا، وخاصة لدى أدباء أمثال هوثورن، وبشــكل خاص لدى إدغار آلان بــو، ومن بو انتقل الاهتمام بالموضوع إلى دستويفسكي، ومن دستويفسكي إلى بلاد كثيرة في العالم، ربما كان من بينها بعض البلاد العربية، كما نجد ذلك في رواية «القرين» لسليمان فياض (من مصر) تمثيلا لا حصرا.

ويمكن أن يعود بنا اقتفاء الآثار الســابقة للازدواج في الســرد إلى زمن بعيد، ربما إلى «سفر التكوين» في العهد القديم؛ وذلك لأن سقوط الشــيطان أو طرده من الجنة، قــد اعتبر كثيرا أمــرا يتعلق بالقرين الشــرير، وهي التيمة التــي التقطها ميلتون في «الفــردوس المفقود» (1667) أيضا.

كذلك قد يمكن تحليل رواية فرنكنشتين أيضا بوصفها رواية تدور حول القرين والازدواج، حيث يخلق فيكتور فرنكنشــتين «وحشــا على صورتــه»، لكنه يتمرد عليه ويهرب ويعيث فســادا فــي الأرض، وقد وصف ذلك الوحش في الرواية على أنه فرنكنشتين «الآخر» المركب في ازدواجيته مع نفسه، الشرير القاتل الممتزج ببراءة الأطفال المتجسدة في الوحوش. هكذا يقدم فرنكنشــتين نقطة عبور مفيدة فيما بين الرواية القوطية وأدب الازدواج؛ وذلك لأنها ربما كانت من أولى الروايات التي تنتمي إلى القرن التاسع عشر، والتي كانت أكثر وضوحا في ربطها بين التيمات الخاصة بالازدواجية وتقديمها في سياق قوطي.

لقد حدد ماريو براث M. Praz الموضوع الرئيســي المتكرر في الرواية القوطيــة على أنــه يتمثل في «قلق لا يمكن الهروب منــه»[6]، وقد عكس موضــوع القرين في الســرد - عامة - ذلك القلــق الخاص الذي لا يمكن

الهروب منه من خلال ذلك التجسيد لذلك «الآخر الحاقد المملوء بالغل، الذي يهز استقرار الذات، ويحدث الاضطراب فيها»، وقد رُبط بين فرنكنشتين من خلال ثنائيات عدة، مثل الأب والابن، الخالق والمخلوق، الذات والآخر، الوجود الخاص لعناصر متناقضة داخل الفرد نفسه..إلخ، ويكون قدر فرنكنشتين وغيره من الكائنات المعبرة عن الازدواج أن يرتبط بقرينه، أن يمتزج معه بأشكال عدة، أن يتم تصفير هويتيهما معا بحيث يقتربان معا من الموت (7).

ومثلما استخدم فرنكنشتين ذلك العلم السري أو المنحرف عن غاياته لتكوين مخلوقه، فكذلك خلق جيكل مخلوقه الشرير (هايد). وبالشكل نفسه تقريبا ترتبط حياة دوريان غراي وتمتزج بتلك الصورة المخيفة التي تمتص وتعكس ذنوبه وفساده أو تحلله، وكما هي الحال في معظم قصص الأزواج، يكون المهرب الوحيد هو الموت، وتكون الحياة سلسلة من عمليات القلق الذي لا مهرب منه، ويكون التجسيد للآخر الظل / القرين / الشبه نوعا من محاولة الهروب من هذا القلق، لكنه تجسيد سرعان ما يصبح تمثلا لقلق أشد، وهروبا من خوف قد يتحول إلى رعب هائل يشل العقل والوجدان والوجود.

هكذا فإن أدب الازدواج - في جوهره - هو أدب يتعلق بالهوية، أو بالأحرى بالافتقار إلى هوية، بانقسام الهوية، بتفكك الهوية، باندياح الهوية، بضياع الهوية، بغياب الهوية، بشبحية الهوية، بعتمة الهوية، بقلق الهوية أو رعبها، هكذا يصرخ وحش فرنكنشتين: من كنت أنا؟ ماذا كنت أنا؟ من أين جئت؟ ماذا كان هدفي ومقصدي؟ لكنه يفشل في الوصول إلى إجابات، إنه - هنا - وحشٌ يطرح الأسئلة الأساسية التي تقع في قلب موضوع الهوية (8). ويصرخ «الملك لير» في مسرحية شكسبير الشهيرة: «من له أن يقول لي من أنا، واها، هذا ليس لير: أيمشي لير هكذا؟ أينطق هكذا؟ أين عيناه؟ عقله يضعف وإدراكاته يصيبها الشلل. ها. أواعٍ أنا؟ كلا: من له أن يخبرني من أنا؟» (من ترجمة جبرا إبراهيم جبرا).

وكما لاحظ غرينسليد Greenslade فإن الهوية المزدوجة أو المرآوية، التي تتشكل فيها علاقات تدل على الاضطراب بين الذات والآخر، هي من

الأمور التي ظهــرت بوفرة في الأعمال القصصية الخاصة بتلك الفترة في الأدب، كما تجلى ذلك في شــخصيات مثل: فان هلسنغ، ودراكيولا، ومارلو، وكيرتز، وغيرهم.

هكذا جســدت تلك التحولات في الهوية، وظهــور عمليات الازدواج والأقران والأشــباح وغيرها في القص القوطي الحديث، جســدت ذلك التفكك في الهوية، ذلك التشــظي في الذات، هنا الهويات التي تنقســم وتتداخــل وترتدي الأقنعة، هنا يخفي الأفراد أســرارهم الخفية المعتمة التــي تتحدث عن ذات أخرى، هي في واقــع الأمر، الذات الأولى، الأنا، نفسها، لكنها كما تتجسد في أعماقها، ومشاعرها، تتجسد في ظلامها الداخلــي، قلقها الذي لا تســتطيع الهروب منــه إلا من خلال مثل تلك التجسيدات والتشــكيلات والتحولات. هكذا مزجت الأشكال الجديدة من الازدواج بين الذكور والإناث، فظهرت أشكال متحولة بشعة، شنيعة، وأصبحت الحيوانات صورا محاكية للبشــر، وأصبح البشر كالحيوانات، وحدث امتزاج وتحول في شكل الجسد وجوهر الروح، وقد عكست هذه التحــولات والتبدلات في الهوية ذلك القلق العام الذي شــعرت به تلك الشــخصيات في المدينة، كما أن هذا القلق قد انعكس بدوره على شكل الحياة الحديثة في المدينة أيضا، وبخاصة خلال الليل والظلام، فالمدينة أيضا - هنا - فقدت تماسكها واستقرارها، أصبحت مزدوجة، متحولة، مخيفة، قلقة ومقلقة [9].

تعريف الازدواجية

وفقا لما قاله كارل ميلر في كتابه «القرين: دراســات في التاريخ الأدبي» (2008)، فــإن الازدواجية إنما تشــير إلى تلك الحيــاة المزدوجة الخاصة بالفرد، والتي يمكن ملاحظتها وتســجيلها، كما أنها تشير إلى ذلك «القرين المتخيل» doppelganger أيضا [10].

هكذا تشير الازدواجية هنا إلى ظاهرة إكلينيكية أو مرضية تتعلق بتعدد الهوية، انقســامها، تعدد مستوياتها، أو طبقاتها أو حالاتها، مع وجــود التناقض بين هذه الحالات والمســتويات، كما قد تشــير هذه

الظاهــرة أيضا إلــى ظاهرة ثقافية أيضا، تتعلــق بالتعدد في الهوية الثقافية، لكنه تعدد ينفتح - هنا - بذاته على عالم الخبرات الخاصة بالآخريــن، وتلــك الخبرات التي قــد تعزز الــذات (أو الهوية)، وقد تطمسها وتمحوها أيضا [11].

هكــذا قد يكون التعدد والازدواج على مســتوى الهويــة الفردية ظاهرة مرضيــة، في حين قد يكون التعدد والازدواج على المســتوى الثقافي ظاهرة إيجابية في حالة الانفتاح على الآخر بوعي، والاســتفادة منه بقدر معين لا يســمح بطمس الهوية الثقافية الخاصــة أو محوها، أما لو حدث ذلك، فإن ذلك التعدد أو الازدواج الثقافي ســتكون له تأثيراته السلبية، وربما المدمرة، في الهوية الثقافية الخاصة المميزة.

والازدواجية كما درسها العلماء موجودة حتى على مستوى النباتات والحشــرات والحيوانات والبشــر الذين يجمعون في تكوينهم بين ذكر وأنثى (حــالات الهيرمافروديــت مثلا) وموجودة أيضا على مســتوى التكويــن البيولوجــي والهورموني للإنســان حيث يوجــد لدى الرجل هرمونات جنسية أنثوية إضافة إلى هورموناته الذكرية والعكس صحيح بالنسبة إلى الأنثى.

وفي ضوء ما قاله المحلل النفســي السويسري الشهير كارل غوستاف يونغ فإن هناك ازدواجيه في الشخصيات الإنسانية موجودة على المستوى الخاص بالذكورة - الأنوثة وموجودة أيضا على مستوى أنماط الشخصية، كما في حالة النمط الخاص بالانطواء - الانبســاط مثلا. فعلى مســتوى الذكــورة والأنوثة قال يونغ: إن كل ذكر فــي داخله أنثى ما، قد تكون هي المرأة الحلم، أو المرأة الذاكرة أو المرأة التي يعتبرها الرجل شــقيقة روحه، ويظل يبحث عنها طوال حياته. وقد كان يونغ يسمي هذا الجانب الأنثوي من الرجل «الأنيما Anima». وعلى الشاكلة نفسها فإن هناك ذكرا ما أو رجــلا ما داخل كل أنثى، قــد يكون هو صورة الأب أو الزوج أو الحبيب أو الرجل الذي تحلم به كل أنثى، ويطلق يونغ على هذا الجانب الذكري الموجود الخاص بالأنثى اســم «الأنيموس Animus»، وفيما يتعلق بالانبســاط - الانطواء أشــار يونغ إلى أن كل إنسان انطوائي في الظاهر هــو انبساطي

في الداخل، وكل انبساطي في الظاهر هو انطوائي في الداخل، وقد يسعى الانطوائي ظاهريا إلى استعادة حالة الانبساط بداخله من خلال الأخيلة والأحلام والتهويمات وأشياء أخرى، ربما كان من بينها بعض المواد المغيرة للوعي، كالكحوليات أو المخدرات أو الوجود مع آخرين يمرحون ويضحكون مثلا.

لنعد إلى مجال الأدب، فالحديث عن أدب الازدواج يتضمن - في جوهره - «مناقشة لأدب العزلة» أيضا، والازدواجية عنصر جوهري في القص أو السرد، أيّا كان شكله؛ وذلك لأن الازدواجية غالبا ما تتعلق بالغريب والمختلف، وقد مثلت الازدواجية حضورا قويّا في السرد القصصي الخيالي خلال القرن التاسع عشر، بداية من الصعود البارز للحركة الرومانتيكية وما بعدها، وارتباطا أيضا بكل تلك المذاهب الأدبية والفكرية التي تحدثت عن ثنائية الإنسان وازدواجه، وتكونه من روح وجسد، ومن عقل وانفعال ومن أنا وآخر... إلخ، وفي ضوء ما قاله ميللر، فإن جان بول ريختر ربما كان هو من ابتكر مفهوم القرين المتخيل Doppelganger، كما أن غوته، وتايك Tieck، وكلايست، وغيرهم من الكتاب الألمان، ربما كانوا هم أول من اهتم بتجسيد هذه الظاهرة في أعمالهم. أما هوفمان فقد كان هو الذي حدد موضع القرين بوصفه «يمثل جانبا أساسيّا من الشخصية»، وإنه منذ ذلك الحين انتشر ذلك الولع بتجسيد ظاهرة القرين هذه من ألمانيا إلى أوروبا [12].

حول الازدواجية والأدب

تعني كلمة الازدواجية وجود حالتين اثنتين من شيء ما، كما أنها تعني أن يدّرك شيء واحد على وجهين، أو يتجلى مرتين، أو يدّرك مرتين، أو يدّرك مزدوجا، وقد يكون هذا الإدراك حقيقيّا، وقد يكون متوهما، وهذا المعنى الثاني هو الذي يعنينا في هذا الكتاب، وهو المعنى الذي يكون فيه الجانبان أو الوجهان أو الحالتان أو الشخصان المكونان لحالة الازدواج إما في حالة تكامل أحدهما مع الآخر، على الرغم من اختلافهما، في حالة تناقض وتنافر وعداء أحدهما مع الآخر، على الرغم

من تماثلهما، إنهما قد يكونان شــريكين، أو عدوين، قد يرحب أحدهما بالآخر، ويسعى من أجل البحث عنه والوصول إليه، وقد يخشاه ويخافه ويهرب منه، هكذا يكون موضــوع الازدواج موجودا في قلب موضوعات أخرى كثيرة ترتبط بالأدب وبالشخصية الإنسانية بشكل عام، ولعل أهم هــذه الموضوعات والتيمات - هنا - ما يمكن أن نذكره حول موضوعات مثل الهوية وازدواجها وانقسامها وتعددها وتفككها، وحول القرين والظل والذات الأخرى، وحول الأشــباح والأشــباه والهلاوس والفصام. وهكذا قد يكــون الازدواج ظاهرة صحية، وقد يكــون ظاهرة مرضية، صحية إذا اقترن بوعي الذات بنفســها، وبحثها عن ذاتها الأخرى، ذاتها القدوة، الأكثر اكتمالا، وقد يكون الازدواج دلالة على الكذب، وعلى الوهم والتوهم والخداع، والمرض النفســي والعقلي أيضا والإنســان الذي يقال عنه إنه «بوجهين» أو «منافق» أو «مراءٍ»...إلخ.

وقبل أن يتجلى الاهتمام الأدبي بظاهرة الازدواجية في أواخر القرن الثامن عشــر، ومن خلال أصحاب المدرســة الرومانتيكيــة، كان هناك اهتمام قديم بها في الفلسفة، وفي الأدب الإنساني قبل ذلك بوقت كبير، وما قامت به الرومانتيكية هي أنها جعلت ذلك الموضوع معروفا وشــائعا في الأدب.

وفي لغة الحياة اليومية - على نحو كبير - يشــير مصطلح الازدواجية إلى ذلك الخيال الذي اهتم بتجســيد وجود حالتــين عقليتين أو أكثر لدى الفرد الإنســاني الواحد، كما أنه يشــير إلــى الأوهام والحقائــق، المبادئ والممارسات، حالات العقل والوجدان، أساليب الكلام وطرائق الحياة، المظهر الخارجي والجانب الداخلي من الذات البشــرية كما جسدها الأدب. ويشير هــذا المصطلح كذلك إلى الحياة المزدوجــة، التي قد تكون قابلة للملاحظة والتســجيل. كما أنه قد يشير أيضا إلى ذلك القرين المتوهم، وقد يشير إلى الظاهرة الإكلينيكية أو المرضية الخاصة بتعدد الهوية، وأيضا إلى الظواهر الثقافية الخاصة بتعدد مســتويات الهوية وطبقاتها، تلك التي تنفتح بذاتها علــى العالم والخبرات الخاصة بالآخرين، وهي الخبرات التي قد تعزز هذه الذات أو تطمسها أو تمحوها، بشكل واضح [13].

هكذا قد تشتمل ظواهر الازدواج على جوانب إيجابية، أو جوانب سلبية، وقد تشتمل على الازدواجية النفسية والانقسام، أو على العقل المنفتح على الآخر، من ناحية أخرى، وقد يكون الجانب السلبي الخاص بالانقسام النفسي مبنيًا على الوعي؛ ومن ثم فإنه يتضمن نوعا من التطوير الدائم للذات وقدراتها وسعيها من أجل تحقيق إمكاناتها على أفضل نحو ممكن، وقد يكون الجانب الإيجابي، الخاص بالانفتاح على الآخر مشتملا على حالة من الانديــاح للحدود بين الذات والآخر بحيث تفقد الذات هويتها وتصبح نسخة متكررة من الآخر، هنا طمس هوية الذات الجماعية. أو حتى الفردية . وربما محوها أيضا.

مع المدرسة الرومانتيكية أيضا بدأ النظر إلى الفنان على أنه إنسان يعيش حياة مزدوجة، أو أن له ذاتا ثانية، أو «أنا أخرى» alter Ego، فهو يحيا حياته الإنسانية العادية، ولكنه يعيش أيضا حياة أخرى، داخل الفن، ومن خلال الفن، ومن ثم فإنه ذو وعي منقسم، أو ربما حتى صاحب وعي شقي لو استخدمنا لغة هيغل، كما أنه يسعى من أجل اكتشاف ذاته الحقيقية، لكنه خلال سعيه هذا، قد يفقد ذاته أيضا، وقد ظهرت قضايا وخلافات كثيرة حول دور الذات والإبداع، وحول ضرورة أن تظهر هذه الذات أو أن تختفي داخل العمل الإبداعي، وهكذا حتى وصلنا إلى مقولة بارت الشهيرة عن «موت المؤلف» و«قيامة القارئ»، أو إلى ما قاله دريدا عن النصوص الأدبية بوصفها - ذاتها - تجسد حالة من الفقدان لليقين، الحيرة المعرفية والوجودية الناتجة من استخدام هذه النصوص لكلمات هي ذاتها مزدوجة المعنى كما في التوريات اللفظية مثلا.

يرتبط مفهوم الازدواجية في الأدب أيضا بمفهوم التحول والتغير والنسخ والمسخ والاستمرارية والتبدلات في الزمان والمكان والحالة والشخصية والأخلاق وطرائق التفكير وتحولات الليل والنهار والخير والشر والأمل واليأس والأمن والرعب، وإلى غير ذلك من التحولات التي شغلت الأدب خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، ولا تزال تشغله خلال القرن الحادي والعشرين أيضا. كما أن المفاهيم والتيمات التي كانت تجسد حالات الازدواج

والتحول هذه كانت تتغير هي نفسها أيضا من فترة إلى أخرى، ففي العصر الفيكتوري مثلا في إنجلترا كان هناك شبه إقرار بأن الازدواجية مكون جوهري في الطبيعة البشرية، أما خلال القرن العشرين، ومن خلال أدباء أمثال جوزيف كونراد مثلا، أعِيد النظر في طبيعة الإنسان المزدوجة. كذلك كان هناك لدى دستويفسكي، وقبله لدى هوفمان، وإدغار آلان بو، ولع بالازدواجية القائمة على أساس التوهم والمرض العقلي.

على كل حال فإن مناقشة أدب الازدواج هي في جوهرها مناقشة لأدب العزلة [14]، أدب الأفراد. والجماعات. الوحيدين المنعزلين المهمشين الذين يجدون صعوبة في التكيف مع أنفسهم، أو مع الآخرين المحيطين بهم، أو مع المجتمع الذي يعيشون فيه، أو مع فكرة الحياة وجدواها بشكل عام. إنها ذوات تعاني أنها تشعر بالغربة والغرابة والاختلاف، وأن العالم الذي تعيش فيه، هو - كما قال هيغل وهو بصدد حديثه عن هاملت - «ليس كما ينبغي أن يكون» [15].

أدب البيت والألفة والازدواج

مثلما ترتبط فكرة الحياة العائلية أو الوطنية بالبدايات والنهايات، بالمغادرة والعودة والألفة، بالحياة والموت فإن أدب الازدواج يهتم كذلك بذلك الجانب النفسي والاجتماعي المتعلق بالغياب، أو الاختفاء، غياب الإنسان عن بيته، مكانه الأليف، اختفاء أو انتفاء شعوره بالأمن، رغبته في العودة إلى الجذور، خوفه من الضياع بعيدا عن بيته أو وطنه، عن أمنه الذي يظن أنه في بيته أو وطنه، لكنه ربما الذي عندما يعود إليه يجده ليس هو البيت الوطن الذي غادره، يجده ليس البيت الوطن الأليف الذي كان محتفظا به في عقله ووجدانه، يجده بيتا غريبا ووطنا غريبا، بل موحشا، وربما مخيفا، وهنا يكون الحضور أو العودة وسيلة للغياب أو الهرب، هنا قد تكون الازدواجية وتعدد الذات والأقنعة وسيلة لحماية هذه الذات من مواجهة ما تراه من تكسرات وتهشيمات في مرايا ذاتها التي كانت تظنها - من قبل ؟ جميلة، مصقولة، لامعة، صادقة.

وتشبه العائلة الجسد الإنساني، فهي تجمع ووحدة خاصة من الأعضاء والوظائف والمسؤوليات، والتشابهات والاختلافات والتعارضات، كما أنها - العائلة - تعكس بعض ثنائيات الحياة، كثنائية الزوج والزوجة، الابن والابنة. وكلمة عائلة أو أسـرة Family فـي اللغة الإنجليزية قريبة من كلمة مألوف Familiar، أى ينتمـي إلى الأسـرة، أى ليس غريبـا عنها، لكن لهذه الكلمة (Familiar) معنى آخر يشير إلى وجود روح حاضرة أليفة أو شيطانية؛ ومن ثم فإنها كلمة مزدوجة تشير إلى روح مزدوجة أيضا [16].

قد تشـير الازدواجية أيضا أو تدرك على أنها تشير إلى حالات نفسية متتابعة، ومختلفة، أو لحظات زمنية متتابعة ومختلفة، أو شخصيات داخلية منقسمة مقارنة بالشخصيات الخارجية المصاحبة لها، ومن هنا كانت فكرة يونغ عن الظل (الذات الداخلية الشريرة غالبا) والقناع (الذات الاجتماعية كما تبدو أمام الآخرين في صورة ترتدي قناع الشرف والقوة تدعى الشهامة والكرم والصدق...إلخ).

ما من غريب مثلك

حكى الكاتب الأرجنتيني الشهير جورج لويس بورخيس في أحد كتبه حكايـة رمزية عنوانها «بورخيس وأنا»، وهـي حكاية تروي قصة حياته، وتحولها إلى رواية خيالية رومانسـية يقول خلالها إنه يوجد داخل نفسه شـخصان هما الشخص نفسـه، هما بورخيس نفسـه، فهناك شخص بورخيس الكاتب المعروف والأستاذ الجامعي، الشخصية العامة، ثم هناك شـخص «أنا»، البديل أو المماثل للذات الحقيقية، الذي يحب نثر روبرت لويس ستيفنسـون (مؤلف رواية دكتور جيكل ومستر هايد)، والذي يعتبر حياته ذات معنى من خلال الكتابات التي يكتبها الكاتب - بورخيس - لكنه الذي لا يتعرف إلى نفسه إلا قليلا من خلال هذه الكتابات، في حين يجد نفسه أكثر في كتابات الآخرين، كما تحاول هذه الذات الحقيقية أن تحرر نفسـها من الذات الأخرى (ذات بورخيس الكاتـب المعروف اجتماعيا)، وهكذا فإن حياتها تكون أشبه بسلسلة من عمليات الهروب، وتنتهي هذه الحكاية الرمزية بجملة تقول: «وهكذا فإنني لا أعرف أي شخص منا قد

كتب هذه الصفحة»، ويقال كذلك إن بورخيس - كاتب تلك الصفحة - كان عندما يقابله شخص في أحد شوارع «بيونس أيرس» (عاصمة الأرجنتين) ويسـأله: « أنت بورخيـس، أليس كذلك؟»، فإنـه كان يجيب: «أحيانا ما أكونه» (17).

فـي «أنا وبورخيـس» يقول هذا الكاتـب الكبير المتسـمي «الآخر، بورخيس، أعرف من البريد عن بورخيس، وأرى اسـمه بقوائم المشاهير أو بمعاجم التراجم. مولع بالساعات الرملية، والخرائط، وطباعة القرن الثامن عشـر، وطعم القهوة، وسرد ستيفنس، أشاركه هذه التفصيلات، لكن من دون طائل، كأنها سـمات ممثل، ومن نافل القول أن بيننا علاقة عداء. فقد أدع نفسـي أحيانا تديم ليحتال بورخيـس على أدبه، وأدبه يُبررني، وأسـلم معترفا بإنجازه بضع صفحات مستنيرة، لكن مثل هذه الصفحات لا تعفيني من أن جيدها لا ينتمي إلى أحد، ولا حتى إليه»... ويستمر هكذا حتى يقول «جربت أن أحرر نفسي منه، فرحت من أساطير الضواحي، إلى اللعب مع الخلود والزمن، لكن هذا اللعب يخص بورخيس الآن، وعليّ تصور أشياء أخرى. هكذا حياتي تحليق، أخسر كل شيء، في حين أن كل شـيء ينتمي إليه أو إلى النسيان. ولا أعرف أي منا قد كتب هذه الصفحة؟» (18).

هكذا وجد بورخيس نفسـه وهو في «بيونـس أيرس» يعيش كأنه إحدى شـخصيات ستيفنسون التي تعيش في «أدنبره»، «كل شيء ولا شـيء»، كما قال شكسبير عن بروتوس، ذلك الذي كان رجلا مصريا بألـف وجه، والكاتـب كذلك يمكن أن يشـبه الحربـاء، يتلون بتلون شـخصياته وأدوارها، حيث القرين الخيالـي، البديل الخيالي، الأنا الأخـرى المتوهمة، قد تكون هي الجانب الآخـر المكمل أو المخيف أو المهدد لشخصية الكاتب المبدع لها، لا أحد غيره. قد تتعدد الشخصية، ولكنهـا تظل كما هي من حيث مظهرها الخارجي ووجودها الواقعي، وقد تتعدد الشخصية أو تزدوج في صور مختلفة، كما في حالة جيكل وهايـد، أو جوليادكين لدى دستويفسـكي، وهذه كلهـا أمور جديرة بوضعها في الحسبان.

وفي نص استلهم فيه روح شكسبير وحياته، ومن خلالهما روح الممثل عموما وحياته، وهو نص بعنوان «كل شيء ولا شيء»، كتب بورخيس يقول:

«لم يكن أحد غيره، خلف وجهه لم يكن أكثر من رجفة خفيفة، حلم إنسان فشل في الحلم، رحل إلى لندن، في عشرينياته الغريبة، اعتاد غريزيا، وحاذقا، أن يحاكي شخصا آخر، ولم يكتشف غيره أنه لم يكن أحدا. لقي - في لندن - مهنة اختير لها سلفا: أن يُمثل في المسرح شخصا آخر، مع من يمثّلون أمامه باعتباره ذلك الآخر، أسبغ عليه المسرح رضا فريدا، ربما أول ما عرفه من السطر الأخير، بعد أن يهلّلوا له وينسحب الميت من على المسرح، تعاوده نكهة الزيف البغيضة ... ثابر، طيلة عشرين عاما، على هذه الهلاوس المنظّمة. ثم ملكه الضجر ذات صباح فجأة، ففزع من كونه صار كثيرا من الملوك الطعينة بالسيف، وجَمّ عشاق يعانون في الوصل والفصل ثم يقضون نحبهم بشجو، رتّب يومها أن يبيع مسرحه، وخلال أسبوع رجع إلى قريته الأم، حيث تكشفت أمامه أنهار طفولته وأشجارها، ولم يعد يعوّل على آخرين كانت ربة الشعر تحفل بهم، مستنيرة على سراب الأسطورة وعبارات اللاتينية. لكن، عليه أن يكون أحدا، فكان مدير فرقة، ثم استقال بعد جمعه ثروة أثقلتها الديون ودعاوى القضاء مع أرباح ثانوية، أملى بشخصه إرادة جدباء ووصية نعرفها، أقصته في تروٍ عن آثار العواطف والأدب. أما زملاؤه من لندن، فكانوا يزورون مثواه، ومنهم من كان يتولى دوره كشاعر من جديد» (19).

هكذا كان شكسبير نفسه واقعا في معضلة التفكير في التشابه والاختلاف، تشابه الإنسان مع نفسه، واختلافه عن الآخرين، لكنه في قلب هذا المأرق يكتشف أيضا أنه غير مختلف عنهم، وأنه يقوم مثلهم بأدوار عدة، وأنه عندما رحل إلى لندن في عشرينيات عمره درب نفسه

على عادة التظاهر بأنه «كان شـــخصا ما»، «يمثل شخصا آخر، وباعتباره ذلك الآخر، في لنـــدن وجد ذلك المصير، والنداء، القدر الذي كتب عليه، أن يصبح ممثلا، شخصا يقف على المسرح ويلعب الدور الخاص بشخص آخـــر، وأمام جمهور ينظر إليه ويتخذه بديلا لذلك الشـــخص الآخر، إنه ليس أبدا نفســـه، إنه موجود دائما في آخر، وإنه مع الســـطر الأخير من المســـرحية، أي من الدور، من اللعب، من التمثيل، من التظاهر، يهللون له، ينســـحب الآخر الممثل من المسرح، ومعه تتبدد والمتعة، تعاوده نكهة الزيف البغيضـــة، يصبح «لا أحد من جديد»، لكـــن أبطاله يطاردونه، لا يتركونه أبـــدا، وحيـــدا، فمع من يعيش الممثل بعد غياب الجمهـــور؟ إنه يعيش مع أبطاله، ويعيشون معه وقد لا يغادرونه.

لقد وجد شكسبير سعادته في فترة من حياته في لعب أدوار الآخرين على خشبة المسرح، لكنه أدرك في النهاية أنه مع إلقائه السطر الأخير، و«عندما ينسحب آخر الموتى من فوق خشبة المسرح»، يأتي المذاق الكريه، الإحســـاس بالغرابة، وفقدان الشـــعور بالواقع يهاجمه بقوة؛ إن عليه أن يتوقف عن أن يكون فيركس أو تيمورلنك، ويعود إلى كونه «لا أحد».

هكذا، ولمدة عشـــرين عامـــا - كما يقول بورخيس - ظل شكســـبير الممثل يخلق الشـــخصيات التي يلعب أدوارها فوق خشـــبة المســـرح، ثم فجأة، ولبرهة، في لحظة ما، ألمح خفية إلى ذاته الخاصة من خلال تلك الكلمات التي عبرت عنها بعض شخصياته. لقد شعر الممثل بأنه في حيرة شـــديدة من أمره بسبب كونه كل تلك الشـــخصيات المختلفة فوق خشبة المســـرح، لكنه لم يكن قط ذاته، ذاتـــه الحقيقية، فهل ذاته الحقيقية هي ذاته الخيالية، وهل ذاته الخيالية هي القناع الاجتماعي للشـــخصية التي كان يتمنى أن يظهر من خلالها أمام الناس، وهل ذاته الواقعية هي الظل (الخفي - الحقيقي - المعتم المملوء بالغرائز والأســـرار؟) هل يوفر المســـرح لأبطالـــه فرصة التحرر من الظل، ولـــو من خلال قناع يحظى بالتصفيق والقبول، حتى لو كان متعلقا بشـــخصيات شريرة موغلة في الظلام؟ هل المهم هو فقط الإتقان والتوحد وجودة الأداء؛ هذه وغيرها أمور ينبغي أن نفكر فيها بعمق وتتأملها وتطورها لاحقا؟

في فترة من حياته، توقف شكسـبير - كما رآه بورخيس - عن الكتابة، وعـاش حياة الطبقة المرفهة في إنجلترا، اهتم بكسـب المال، باع مسـرحه ثـم غرق فـي الديون..إلخ، لكن عبقريته، تلك التي تجسـدت في كل تلك الشخصيات المزدوجة والمتعددة، كانت قد غادرته. في النهاية يقدم بورخيس الخلاصـة لحياة كانت تقوم في جوهرهـا، على كون صاحبها لا أحد، على كونه منفصلا عن ذاته الواقعية من خلال ذوات خيالية، وفي دهشـة ملغزة تلخص جوهر حالة الفقدان للذات أو الشخصية، ولكن في حالتها الإبداعية يضيف التاريخ أنه قبل موته أو بعده، اكتشـف ذاته، يقف أمام الرب، ويقول له: لقد كنت رجالا كثيرين، وحاولت بلا جدوى أن أكون واحدا، أكون نفسي، فأجابه الرب بصوت عاصف: أنا أيضا، لست أنا، لقد حلمت بالعالم مثلك، يا شكسبير، حلمت بعملك نفسه، وقد كنت أنت نفسك شكلا من أشكال عدة بين أحلامي، فأنت مثلي «وجود واحد يتجلى على أنحاء مختلفة».

ثم إننا نجد أن بورخيس نفسـه أيضا يرثي نفسـه في قصيدة أخرى، بعنـوان «مرثية بورخيـس»، ترجمها باقتدار الصديق الشـاعر محمد عيد إبراهيم، وفيما يلي نص القصيدة، التي يقول بورخيس فيها:

يا لقِسمة بورخيس،
سافر عابرا العوالم المختلفة،
أبحر في عزلته، وتوحّد في أسماء مختلفين،
كي يمثل دورا في أدنبرة، زيورخ، لِقاء فِلسين،
أو كولومبيا، وتكساس
كي يعود عند نهايات أجيال تغيرت
في أرض أسلافه الغابرين،
إلى الأندلسِ، البرتغالِ، وبلدان تعارك فيها
السكسونيون مع الدنماركيين وامتزجوا بدمائِهم،
كي يجول بمتاهة لندن الحمراءِ،
كي يشيب في عدد من المرايا،
كي يفتّش عن مرمر محدِقٍ بالتماثيلِ،
كي يستفهم من كتب الطبعاتِ الحجرية،

والأطالسِ والموسوعات،
كي يرى أشياء رآها الناس،
الموت، الشفق الهامد، الوديان، الأنجم المرهفة،
ثم لا يرى شيئا؛ أيّ شيء تقريبا
غير وجهِ فتاةٍ من بيونس آيريس،
وجهٍ لا يريدك أن تذكره
يا لقِسمةِ بورخيس،
ما مِن غريبٍ مثلك [20].

خاتمة

أشـــارت بعض الدراسات إلى أن الكتّاب الذين اهتموا بتجسيد الازدواج والتعدد في الشخصيات الأدبية كانوا هم، أنفسهم، يعيشون حياة مزدوجة، هكذا قيل مثلا إن ستيفنســـون . مؤلف جيـــكل وهايد - كان يدرس القانون ويعيش حياة عادية خـــلال النهار، لكنه كان يحيا حياة صاخبة خلال الليل، وكذلك كان دستويفسكي؛ يعيش دور الكاتب نهارا، ويلعب القمار ليلا، وكان وايلد شـــهيرا بنزواته ومغامراته...إلخ. هذه ليســـت النقطة التي تعنينا في هذا الســـياق، على الرغم من أهميتها، وقد نعود إليها في موضع لاحق من هـــذا الكتاب، وخصوصا أن هنـــاك من رفض القـــول إن ازدواجية الكاتب تنعكس أيضا في ازدواجية شـــخصياته، وإن الكتابة محاولة للهرب من هذه الازدواجية، أو تجسيدها بشكل رمزي [21].

في كتابه «المثقفون» (1998) يســـتعرض بول جونسون نماذج عديدة من كتاب ومفكرين أمثال: جان جاك روســـو وشيلي وماركس وإبسن وتولستوي وهمنغواي وبرخت ورسل وسارتر وهيلمان وغيرهم، حضرت لديهم مظاهر مختلفة وعلامات من هذه الازدواجية والغرابة والتناقض في السلوك وتجلت في أشكال غير متوقعة وأحيانا مخيفة [22].

إضافة إلى ما سبق، فإنه يقال أيضا إن هذه الازدواجية في الشخصيات. أو حتى لدى الكتاب . هي من النتائج المتعلقة بظهور المدن الحديثة وتطورها، تلك المدن التي أســـهمت في تكريس أخلاق الاستهلاك، الرغبة في الكسب

السـريع، وامتلاك الأشياء المادية بأي ثمن، ولو على حساب الذات، حساب أن تقـول غير مـا تعتقد، وأن تنافق وتداهن وتكذب وتسـرق، وتعيش حياة مزدوجة، ترتدي قناع البراءة والانضباط نهارا، وقناع الجريمة والتحرر ليلا، تنتقد القمع والتسـلط وأحادية التفكير مرة، لكنك لا تمانع في قبول منحة أو عطية من سـلطات قامعة لشعوبها مرة أخرى، كما أنها قد ترتدي هذين القناعين أيضا، خلال الوقت نفسه، ليلا ونهارا.



6

الغرابة والقرين

«في كتاباتي أتكلم عن نفسي، أبذل جهــدي كيلا أموت في صمــت. تأليف الكتب مرض يهدد من يصاب به بالجنون»

أوفيد

(من خلال كينار)[1]

كان الليل قد أرخى سدوله، والشوارع هادئة
وهنــاك، كان يقع ذلك البيت الذي عاشــت
محبوبتي فيه
طويلا كان ذلك المنزل ومرتفعا
وعلــى الرغم من أنهــا غادرته، من قبل، إلى
المدينة،
فإنه ظــل قائما في مكانه، هنــاك، كما كان
دائما
وأمامه، وقف رجل، يحدق إلى أعلى
ويعصر يديه في ألم مبرح،
وعندما رأيت وجهه، تملكني الرعب
فقد كشف ضوء القمر لي عن وجهي نفسه،
أيها القرين! يا رفيقي ذا الوجه الشاحب!
لماذا تحاكي. مرة أخرى. عذاب الحب المبرح؛
ذلك الذي عانيت منه، كثيرا، ذات ليلة ماضية
في هذا المكان؟ [2].

في هـذه القصيـدة الغنائية الموسـيقية الموجزة التـي قدمها المؤلف الموسيقي الشهير فرانز شوبرت في السنة التي توفي فيها في العام 1828، وكانت بعنوان «القرين»، يتذكر العاشق ذلك المنزل الذي عاشت فيه محبوبته التي فقدها، وعندما يعاود زيارتها في خلال تجوالاته الليلية، يجد نفسـه لايزال واقفا هناك، حيث يضيء نور القمر وجهه، ويجد ذاته الأخرى تحاكي حركاته على نحو واضح، تعتصر يديها، وتقلد العذاب المبرح نفسه الذي كان قد شـعر به . ذات ليلة . في الزمن الماضي، هناك، في المكان نفسـه، أمام ذلك المنزل.

والقرين هو ظهور أو تجلٍ شـبحي لحالة داخلية تحدث انقساما داخل الذات، وفي الوقت نفسـه تحدث التكامل الخـاص بهذه الذات، على الأقل أمام نفسها، من خلال هذا الانقسام ذاته. بأن تبعد عن نفسها ذلك الجانب السـلبي الغامض المخيف المرفوض منها، وتسـقطه على صورة أخرى لها، وتكـون هذه الصـورة الأخرى هي ذاتها، تكون قرينهـا . إنها صورة محاكية ثانوية Simulacura، أي صورة هوية تشتمل على الذات وموضوعها، الذات وهويتها الأخرى، الذات وكينونتها، الذات التي لا تتشكل إلا من خلال قرينها أو شبحها أو صورتها الخفية الأخرى كما أشار جوليان وولفريز.

في رواية عنوانها : «الآخر مثلي»، للكاتب البرتغالي «هوزيه ساراماغو»، يعيش مدرس لمادة التاريخ، وحيدا، وتنحصر حياته في عمله في مدرسـة ثانوية، وعلاقة حب ليسـت عميقة، يعاني شبه اكتئاب وكوابيس، ينصحه أحـد زملائه باسـتئجار أحد الأفلام الكوميدية للترفيه عن نفسـه، وفي الفيلم يرى نفسـه، أو بالأحرى يرى شـبيهه، في مشـهد صامت في دور ثانوي، تنقلب حياته رأسـا على عقب بعد ذلك، ويحضر الأفلام كلها التي قام شـبيهه بالتمثيل فيها، ويرى الأدوار الثانوية التي قام بها : موظف في مصـرف، ممرض في مستشـفى، بواب أمام ملهى ليلـي، ثم مدير فرقة مسـرحية... إلخ، ثم يصبح شغله الشـاغل أن يلتقي شبيهه وجها لوجه، يهاتفه ثم يلتقيه. هنا الشبيه أيضا يماثل الغريب، بل هو غريب يهز استقرار الـذات وواقعها، ويجلب إليها وقائع جديدة، هكذا لم يقلب ظهور الشـبيه حياة مدرس التاريخ الذي رأى شبيهه – الممثل الثانوي – في بعض الأفلام،

بل قلب هذا الظهور وهز تلك الحياة المستقرة نسبيًا التي كان يعيشها ذلك الممثل مع زوجته أيضا. هكذا تتطور الأحداث في الرواية بأشكال وعلاقات غريبة غير متوقعة.

ربما كان ذلك الشـــبيه قد جسد هنا، بالنسبة إلى مدرس التاريخ، نوعا من الحلم، المتخيل، المتعلق بنوع من الوجود والشـــهرة التي لم يحقق هو نفسه شيئا منها، ربما كان ذلك الشـــبيه المماثل له في الملامح والصوت والجسد، هو ذلك الجانـــب الآخر من الذات، الذي حلمت به، ورأت فيه نوعا من التحقق؛ ومن ثم الاســـتمرارية أوالخلود الذي لم يصل صاحبه إلى شـــيء منه، لكن، وكما يقال، فإنه عندما يرى المرء شبيهه أو قرينه، فإن ذلك قد يكون نذير الموت، فإن نزعة عدوانية تتلبس كل شـــخصية من هاتين الشخصيتين شيئا فشيئا، نحو الآخر، ثم إنه عندما يموت أحدهما في حادث سيارة يظهر شبيه آخر له، يطارد ذلك الشـــبيه الحي [3]. ويستمر الحكي، يســـتمر التكرار والتوالد للقرائن والأشباه مادامت الحياة باقية.

القرين وزملاؤه في الغرابة

يحمل الأشـــباه (الأقران) الخياليون تاريخا أدبيا على ظهورهم - كما يقول كولن ديفيز - وهم يحضرون إلينا مكتسين الحلة الخاصة بحياة مفعمة بالخوف والغرابـــة والتخطي أو التجاوز للحدود، وكذلك فإن العزلة والشـــعور بالوحدة الكبيرة والوحشة القاتلة هو قدرهم، حيث يكون مجرد ثلاثة منهم أشبه بالحشد أو الزحام الذي يهربون منه، أما وجود اثنين فقط فقد لا يمثل صحبة طيبة، إنهم وحدهم، وحدهم دائما، مع ذاتهم، مع قرينهم، حيث يقودهم سلوكهم الانعزالي نحو مســـارات مرعبة، تضيق على نحو متزايد، كما تقترن الأفعال الشريرة. أو الشيطانية أو المرضية. التي يقومون بها، أو تحدث لهم، وتقودهم إلى تحالفات خاصة مع زملائهم في الغرابة: الأشباح، المستأذبين، الظلال، الغيلان، ونابشي القبور والعابثين بجثث الموتى [4].

هكذا تسقط الملابس أو الأقنعة، وتنشق الشخصيات، وتتحول إلى ذوات منقسمة ذات طبيعة أخرى غير التي كانت تبدو عليها لنا في الظاهر أو في البداية. هنا تكون طبيعة القرين أو الذات الأخرى طبيعة سيكولوجية، بمعنى

أن التوجه الخاص من وراء الكتابة حولها أو تجسـيدها في الأدب، يكون ذا مقصد تحليلي نفسـي، ولكن في حالات أخرى تكون هذه الشخصيات ذات طبيعة مضادة للمجتمع، موجودة في مناخ اجتماعي يتسم بالعداوة، أو الظلم، أو الفوضى والتفكك، وهنا نجد أنفسـنا أمام ما يمكن أن نسـميه «القرين الاجتماعـي»، وبالطبع ليس هنـاك ما يمنع من أن تكون هذه الشـخصية المنقسمة نفسها ذات مستويات متعددة أيضا ومنقسمة، بعضها سيكولوجي، وبعضهـا اجتماعي، فهنـاك دائما في قصـص الازدواج نـوع من الإحالة الاجتماعيـة والنقد الاجتماعي، وكذلك الإشـارات المتكـررة إلى الضغوط الخاصة بالزمان والمكان والآخرين، التي تعانيها الشـخصيات المنقسمة في هذه الأعمال [5].

وترتبـط قصص الازدواج. بشـكل عـام. بالقصص والأعمـال الأدبية السـابقة عليها، والخاصة بعمليات التحول: تحول الإنسـان إلى حيوان أو العكس، والسـيد إلى عبد أو العكس، الإنسان إلى شيطان أو العكس، وبكل ما يرتبط بعمليات تغير الهوية وتحولها وتجاوزها للحدود الطبيعية الخاصة بها. لكـن ما يميز قصص الازدواج ورواياته عـن غيرها، هو هذا الاقتران والتلازم والتصاحب المحدد لشـخصين معا، لأسـباب نفسية أو اجتماعية، ليسـت هناك أسباب سـحرية أو عوامل ميتافيزيقية ترتبط بهذا الازدواج في الشـخصيات والانقسام في الهويات، حيث هنا هبوط من عالم السحر والميتافيزيقـي إلى عالم النفس والمجتمع والغرابة الحياتية. وحتى لو حضر عالم الميتافيزيقا هنا في صورة أرواح أو أشباح أو غيرها، فإن السبب المفسر لها غالبا ما يكون مرتبطا بخلل في البنية النفسـية أو الاجتماعية التي يقع عليها هذا الانقسـام. وإضافة إلى ذلك كلـه، فإن قصص التحولات الأولى غالبـا ما تكون مرتبطة برغبات حلمية، بأمنيات التحقيق لرغبات في عالم الخيـال لا يمكن تحقيقها واقعيّا، أما في قصـص الازدواج فالأمر مرتبط بهروب ما، خوف ما، مطاردة ما، رعب ما، اسـتحالة وعزلة، وفي الحياة لا يمكن مقاومتها إلا بمثل هذا التحول، حتى لو تمثل هذا التحول في أن يصبح الإنسـان حشرة كما حدث بالنسبة إلى غريغور سامسا في قصة التحول أو «المسـخ» الشهيرة لفرانز كافكا، التي تحول فيها جسد غريغور إلى ما يشبه

الحشـرة المخيفة، فـي حين ظلت روحه وأفكاره تنتمي إلى عالم الإنسـان، وظل توقه إلى الموسـيقى مميزا لعالمه الغريب المنقسـم بين إنسان وحشرة، بين بدائية الغريزة وفجاجتها وسـمو الروح الموسيقية. وهكذا فإن الانقسام الاجتماعي هو انقسـام داخل المجتمع، انقسـام بين طبقات المجتمع وفئاته وأفكاره وأعرافه ومستوياته، انقسام يتجسد، ويتم تركيزه عبر ذلك الانقسام أو الازدواج السيكولوجي [6].

هكـذا يوجد الانقسـام والتعدد على مسـتوى الخلية البشـرية، والمخ البشـري، والجسد البشري والحيواني، والشخصيات البشرية، والمجتمعات الإنسانية، وخلال عمليات الإبداع والقراءة أيضا... إلخ. بل إن المحلل النفسي السويسـري الشهير كارل غوسـتاف يونغ قد أقام أحد أهم جوانب نظريته المتعلقة بالسلوك الإنسـاني والأدب والفن والأساطير حول تلك الازدواجية النوعية الموجودة لدى كل إنسان حيث قال إن كل ذكرٍ توجد في داخله أنثى ما - يسميها يونغ الأنيما - وداخل كل أنثى جانب ذكري يسميه يونغ الأنيموس. وقد عالج بعـض الباحثين موضوع «القرين» بوصفه اختبارا قاسـيا يتعلق بمدى ثبات الهوية الذاتية في الأدب خلال القرن التاسـع عشـر في ألمانيا؛ وذلك لأن تجسـيد القرين في الأدب إنما يعبر أيضا عن الذات الإنسـانية عندما تنقسـم وتتمزق على نحو مَرَضي، وبدرجة قليلة أو كبيرة، فيما بين الواقـع والخيال مـن خلال تلك الحالات التي أطلق عليهـا الكاتب الألماني هوفمـان الازدواجية المزمنـة [7] Chronic Dualism. وفي ذاته، يقوم هذا الموضوع بتقدير أو قياس التحـولات في العلاقات بين الاتجاهات الواقعية والخيالية في الكتابة التي هيمنت على العصور الكلاسـيكية والرومانتيكية والواقعيـة والطبيعية والحداثية وما بعد الحداثية أيضا، وقد اسـتأثر هذا الموضوع باهتمام الأدبـاء، ولا يزال يستأثر باهتمامهم حتى الآن.

جذور القرين والغرابة

تمتد فكرة القرين بجذورها في ذلك الرعب الذي يخشـى معه الإنسان أن يُحْـرَم التواصل مع ذاته، ومـع الآخرين، وهي احتمالية تنعكس في ذلك الاضمحلال أو الاختفاء للقرين النرجسـي وتحوله إلى نذير للموت، أي إلى

حضور منفصل ومضاد للذات. ولدى الأفراد العاديين، فإن هذه القوة الغريبة (العالـم) التي تصبح متكاملة مع الذات، أو جانبا خاصا منها، تنمو وتتطور وتتحـول إلى «ملكة خاصة»، أو قدرة خاصة تعـارض الجوانب الأخرى من «الأنا»، وتقوم بمراقبة الـذات ونقدها داخل العقل، وهذا ما يتحول إلى ما يسمى «الضمير الحي».

أما في الحالات المرضية، فإن شعور المرء بأنه مراقب، أو أنه يراقب أفكاره وانفعالاته وتصرفاته، قد يجعله يعزل - لا شـعوريًا - هذا الجانب منه، يجعله مفـككا، بعيدا عن بقية ذاته، ويتم الامتـداد بتلك الحالة المرضية وتقويتها - كما يشـير بعض المفكرين - عندما يُعد هذا القرين شريرا، ومن ثم فإن المرء - وكنـوع من الدفاع عن الذات - يبتكر خطـة بديلة لمواجهته[8]. وأخيرا، فإنه عند الانتقال من الواقع إلى الفن أو الأدب، فإن تلك الدراما التي تحدث بين الخطة الشريرة أو الضارة الخاصة بالضمير القائم بالاضطهاد وخطة الذات الدفاعيـة المضادة، تكون مماثلة للحبكة الخاصة بالحكاية المتعلقة بالغرابة، بكل تلك السلاسـل المتعاقبة الغريبة والمخيفة بين الأسباب والنتائج الخاصة بها والألفة وفقدان الألفة. هكذا يمكن القول إن تلك الأشكال ما وراء الطبيعية أو الغامضة والغريبة من الحضور التي لدى شخصيات «بو»، التي تعانيها هذه الشخصيات، تكون متضمنة في حياة هذه الشخصيات ذاتها.

إن معظم شـخصيات «بو» ودستويفسـكي شـخصيات لا تتعرف تلك الحالات من الحضور (أشباهها أو أقرانها) كجزء خاص من نفسها، ونتيجة لذلك فإنها تفشل في فهم علاقاتها معها في ضوء شروط إنسانية [9]، ولعل هذا الإحسـاس غير المحدد بالذات أو العالم هو نفسه ما شعر به فرويد حين أحس بأنه موجود في متاهة من الشوارع داخل إحدى المدن الإيطالية الصغيرة، حين كان يبدأ ويعود إلى الشارع نفسه، ذلك الذي حاول ألا يعود إليه مرات عدة. وهكذا فإن الإنسـان قد يشعر بأن إرادته حرة، ولكنه في الوقت نفسه يشعر بأنه مجرد من الحيوية الإنسانية، وأنه يخضع - تدريجيّا - لقوانين التكرار الآلية، ومن ثم فإنه - بوصفه إنسـانا - قد يعتبر نفسـه نصف حي ونصف ميت، ويكون على الكثيرين تحمل مثل هذه الحالة حتى نهاية حياتهم.

هكذا فإن احتمالات شـعور الإنسـان بالفقدان للتوجه، والانفصال عن ذاته، وعـن الآخرين، وعن الواقع، والعودة إلى مراحل مبكرة وغير عقلانية من السـلوك، هو أمر مفهوم في ضوء الأدب والأعمـال الفنية والمعتقدات الدينيـة، تلك التي حاولت أن تجد معنى لحياة الإنسـان، وحاولت أيضا أن تساعده على استخلاص المعنى من حياته باللجوء إلى قوة عظمى وراء هذا الكون، وهكذا تكون أفكار وقيم الضمير والإرادة الحرة والمسـؤولية والذنب والقوانين الأخلاقية، كما عبرت عنها الشـرائع السماوية، والديانات عامة، وغيرها، مؤكدة تلك الحالة من البحث عن معنى، ومن تنمية وعي الإنسـان بأنه حر، وأن حريته محدودة، وأنه عاقل، ولكن عقله قاصر أيضا، وأنه عليه ألا يتجـاوز حدود هـذه الحرية العقلية وإلا وقع في براثن مشـاعر الذنب والخـوف والرعـب، وأحيانا الجنـون، كما أن عليه أن يسـعى إلى أن يحل صراعاتـه ضمن محاولاتـه لأن يصبح جزءا من الكل، مـن الواقع والحياة والمجتمع والوطن والعالم والكون، ألا يكون غريبا عن نفسه، أو عن الآخرين. ولكـن ماذا لو كان ذلك العالم، ذلك الواقع، ذلك الوطن، هؤلاء الآخرون هم من يستبعدونه؟ من يجعلونه غريبا عنهم؟ من يقومون بإقصائه؟ من يجعلون الواقع بالنسـبة إليه . من خلال اضطهادهم له، ومن خلال أفعالهم التي لا يستطيع تمثلها داخل نسـق الوعي الخاص به . «ليس كما ينبغي أن يكون»؟ هنا قد تكون احتمالات ظهـور الغرابة ممكنة. وليس مصدر الغرابة الواقع والآخرين فقط، فقد يكون مصدرها الذات، تلك الذات التي تدرك نفسـها أو واقعها بشـكل محرف أو مشـوه، أو قد تكون واقعة تحت براثن ضغوط وعوامـل قلق وعداء وعنف قاهرة لقدرتها على المقاومة، إنها تخلق كل تلك البدائل، وتفرز كل تلك الحالات التي تنضوي تحت المفهوم العام للغرابة، وقد تواجه هذه الغرابة بالفن والأدب والفلسفة والإبداع.

فالإنسـان عندما يُحْرَم ثقته المطلقة بذاته وواقعه، وعالمه، عندما يمثل ذلك العالم قوى السلطة المطلقة فيه تهديدا لذاته، فإنه قد يشعر بالتضاؤل والانسـحاب في حضوره. ولأنه قد يشعر بأن لديه أسراره الخاصة، ملكاته وقدراته الخاصة، وتميزه الخاص، فإنه قد يخفي هذه الأسرار عن الآخرين، «يكتمهـا» بعيدا عن الرؤية أو الظهور، كـي ينظر إليها بمتعة مألوفة خلال

خيبتــه ومرارته الخاصة به، إنه يعيش بألفة مع الشــيء الذي يخفيه ويجد ســلواه معه. ولقد كان بو يدهش قراءه كفنان غريب من خلال تلك الأفكار الكثيــرة التي دخلت عقله، وقام بحمايتها، كأنهــا موجودة في بيتها الأليف الخاص، ثم عندما أطلقها فإنها أصبحت غريبة بالنسبة إلى الآخرين.

تاريخ القرين وأنواعه

خلال العقود المبكرة من القرن التاسع عشر أثيرت أسئلة كثيرة حول موت الجسد وسرقة الروح، حول موضع الهوية وثبات الشخصية، وظهرت المحاكاة المتهكمة في عصر التنوير للحكايات الخرافية الشرقية حول الجان، وتجسد ذلك كله بعد ذلك أيضا في تلك الاختراعات الأدبية للأشــباح، ولما يشــبه الأشــباح لدى كتاب أمثال ألبرتو فون شاميسو، وهوفمان، وهانز كريستيان أندرسون، وظهرت كثير من القصص التي تقطنها الأشباح أو تنتابها كما لدى إدغار آلان بو مثلا. هكذا اجتاح «القرين» ميدان الترفيه الفني الشعبي، حيث قدم الازدواج مجموعة من الأقنعة المثيرة للاضطراب، لكنها المألوفة أيضا، إنهــا الأقنعة التي تحكي الذات من خلالها عن نفســها، حيث يحدث تغير أساســي، تبديل وتعديل، بين الذات الداخلية والذات الخارجية؛ مما يحفز ظهور حبكات قصصية سردية غريبة حول الهوية [10].

والقرين مفهوم مركب، بل ملغز أيضا، فهو قد يعني الذات الثانية، أو الوجود الفعلي الثاني، أو الممكن، خلال الزمن نفسه الذي تعيشه الذات الأولى، وأحيانا ما يكون ســابقا لها، أو لاحقــا زمنيًا، كما في الحبــكات القصصية الخاصة برحلات الروح، كما في قصص التناسخ والحلول والمسوخ، وهو قد يعني أيضا الشــبيه الذي هو توأم زائف، وقد يكون. وهو الأكثر شــيوعا. شخصا لا يشبه الذات من الناحية الخارجية، لكنه يجسد حقيقتها الداخلية العميقة، وفي ضوء هذا المعنى الأخير، فإن القرين، مع أنه لا يشــبه الشــخص الأصلي كلية. من الناحية الظاهرية. فإنه من خلال تجسيده أو تمثيله لطبيعته الداخلية الحقيقية يكون الأكثر تشابها معه، مقارنة بذلك الذي يشبهه من الناحية الخارجية فقط، والأمر هنا محير، وفي ضوئه قامت الحبكات الخاصة بروايات وقصص وأفلام سينمائية كثيرة حتى يومنا هذا.

كي يتم تكرار المرء، أي نسخه، وازدواجيته، فإنه ينبغي أن يوجد في ظل شخص آخر، هنا يكون القرين ظلا للذات الحقيقية، هنا القرين والقناع والأشباح ظلال للذات الحقيقية، محاولة لإخفائها بإظهار بديل لها، محاولة منها للتخفي، كأصل حقيقي وراء صورة محاكية ثانوية خاصة بها. وهنا قد ينطوي القرين كذلك على حالتين على الأقل.

1 - حالة يكون القرين فيها شبيها بالذات تماما من الناحية الجسمية، ويختلف عنها سيكولوجيًا، وهنا نوع من المحاكاة الحرفية التي أحيانا ما تكون مرضية، كما نجد ذلك في رواية «القرين» (أو «المثل») لدستويفسكي.

2 - حالة يكون القرين فيها مختلفا تماما من الناحية الظاهرية عن الذات، لكنه يجسد أيضا طبيعتها الداخلية الحقيقية، هنا القرين أشبه بذات أو مرآة محرفة، أو قناع أو ظل، كما نجد ذلك في روايات مثل: صورة دوريان غراي لأوسكار وايلد، وكذلك الحكاية الغريبة للدكتور جيكل ومستر هايد لروبرت لويس ستيفنسون. وهنا تبادل في الأدوار بين الحضور والغياب، حيث تغيب الذات الحقيقية، ويحضر. نيابة عنها. ظلها أو قرينها، وقد يغيب القرين وتحضر الذات في صورتها الأولى الحقيقية. وتعني فكرة القرين عموما أن هناك شخصا ما آخر يعيش معك، يعيش من خلال هويتك الخاصة، وأن تلك الهوية قد سُرِقَتْ، أو أُبعِدَتْ، أو أُخفيت.

هكذا فإن فكرة القرين فكرة مستمدة في جوهرها من تلك السلسلة من الأفكار المترابطة حول سرقة الروح وتعددها، وحول الأرواح الهائمة والموتى الأحياء، وما شابه ذلك من أفكار [11].

وتعني فكرة القرين أيضا أن الإنسان يمكنه أن يتغير ويتم إخفاؤه وحجبه في شكل آخر، أو أن القرين يمكن أن يكون كائنا غريبا موجودا في داخلك، وحشا يزعم أنه يشاركك وجودك، لكنه يشعر بأنه موجود في جسد غريب عنه، أو أنه غريب كريه قد يتوحد معك داخليًا، ويهيمن عليك، فيصبح هو الممثل لداخلك الحقيقي، وقد يحدث هذا من دون أن تعرف ذلك، أو أن

تكون على وعي به، هنا يقترب القرين من المرض والجنون، حالات لا يدرك الإنسان ما الذي يحدث في داخله معها، شياطين أو أصوات وصور وأحداث تحركه وتحوله وتجعله شخصا آخر ليس الذي نعرفه.

وقد يكون القرين ـ كذلك ـ أفكارك ومشاعرك الخفية، غير الحقيقية التي تسقطها على آخر، بديل، شخص، عمل فني، أدبي... إلخ، هنا يكون القرين ـ كما قالت إميلي ديكنسون في قصيدة لها في العام 1863 ـ هو «ذاتنا الموجودة خلف ذاتنا، وقد تم إخفاؤها». هنا لا يحتاج المرء ـ كما قالت ديكنسون أيضا ـ «إلى أن يكون غرفة حتى تروده الأشباح وتنتابه»[12].

هكذا يتجسد الشكل الأكثر ظهورا للقرين والازدواج من خلال فردين أو كائنين اثنين غير متماثلين، الذات والآخر، أو الذات الأخرى، ويعمل الشكل السردي المألوف ـ أكثر من غيره هنا ـ على تجسيد حالات من القرين الشرير الأخرى إلى الوحوش. ونجد ذلك في رواية فرنكنشتين لماري شيللي، والذكريات والاعترافات الخاصة لخاطئ يبرر خطاياه لجيمس هوغ، وكذلك الدكتور جيكل ومستر هايد وغيرها، وترتبط هذه الشخصيات الأخيرة بتلك الذات الداخلية السرية لك، وهي تعمل على الإخفاء لك، والكشف لك، الإخفاء لك أمام ذاتك فتهرب من لومك لنفسك وخوفك منها، ثم الكشف لك من خلال آخر أمام ذاتك وأمام العالم، ويكون هذا الآخر هو الموضوع الذي يخضع للوم والعقاب والتهديد، الذي تستطيع أنت ـ كما تظن ـ أن تهرب منه. وبينما يعبر القرين عن التهديد للشخصية، من خلال إمكان الكشف لجانبها السيئ من ناحية، ومن خلال وضع مصيرها في يد شخص آخر، شكل غريب عن الذات، فإنه ـ أي القرين ـ من ناحية أخرى، هو وسيلة للنجوى والبوح، وسيلة تأمل الذات أن تعبر من خلالها عن أحلامها ومخاوفها الخاصة، عن رغبتها في أن تكون مختلفة، في حين تظل هي الشخص نفسه أيضا، محاولة للهروب من قيود الذات وضوابطها، محاولة للطموح والتمتع بحريات ورغبات محروقة من إشباعها الآن، وقد يكون الإبداع هو الوسيلة المناسبة للإشباع، حيث العمل الفني أو الأدبي هو القرين المقبول الذي نقدمه إلى الآخرين، ونخفي من خلاله مساوئ أنفسنا وأنانيتنا ونرجسيتنا، ونريد أن نقول لهم من خلال مشاركتهم لنا في متعة الإبداع، إننا لسنا نرجسيين هكذا، ولا أشرارا هكذا.

منذ أواخر القرن الثامن عشـــر، عَبَّرَ القرين الغريب عن تلك العلاقات والرغبات الحميمة الحديثة الخاصة بالشـــياطين الداخلية، عن الرغبة في التعـــدد والكثرة والاختلاف، وليس التكامل والوحدة والاتفاق، كما يكشـــف الظل الخاص بالقرين. إضافة إلى ذلك كله، فإن التهديد الخاص للشخصية إنما يأتي عن طريق التلاعب بالجسد والعقل، وأيضا ذلك التهديد الرهيب الخاص «الكل في الواحد».

لقد تم نســـخ هذا الموضوع وغزله مـــع تكنولوجيا الإنتاج، أولا على نحو بصري، ثم بعد ذلك، على نحو بيولوجي، وهنا التمثيل ذاته ينشـــط بوصفه شـــكلا من أشـــكال الازدواج: التمثيل الـــذي يوجد في العلاقة الســـحرية الخاصة بالعالم القابل للإدراك، حيث يمكن للساحر أن يمارس بعض القوى والطاقات لجعل شـــيء مـــا يبدو ظاهريّا، وكأنه أصبـــح حيّا ويرتبط بذلك كله، وتأتي بعده فكرة النســـخ والاستنساخ البيولوجية، وهي الفكرة المرعبة التي تجعل الكيانات المستنســـخة تسلك وكأنها نسخ، لكنها لا تستطيع. ولن تســـتطيع. أن تصبح فردا واحدا أو كائنا واحدا تنتمي إليه هذه النسخ [13]. وأخيرا، فإن الشـــياطين والأشباح، والشـــرائح التي يتم إسقاطها، والصور الفوتوغرافيـــة، كلها مرتبطة بفكرة القرين وصورته من خلال ذلك التداعي العميق الذي يتعلق بها، والخاص بالشيطان الذي يستحضر الوهم والخداع الإدراكي، وهذه العلاقة هي ما يقوم على أساسها مبدأ الازدواج نفسه، وهي أشبه بتشكيلة ممثلة لمبدأ التناسخ والمسخ، صناعة التماثيل والآلهة القديمة، والقرابين والنســـخ والأشكال المتماثلة المجسدة لمعتقدات وآلهة ورموز تتكرر وتكثـــر صورها. هكذا ظل القرين الغريب للإبـــداع الأدبي القوطي وأتباعه ينتابون أدب القرن العشـــرين ويرودونه، لكنـــه أصبح أقل ألفة، بل ربما في بعض الأمثلة جذابا ومغريّا.

وحيـــث إن ميديا الاتصال قـــد بدأت تنقل وتوصل «الأشـــباه» والأقران هؤلاء في شكل أصوات مسجلة ووجوه مصورة فوتوغرافيّا، وعلى نحو أكثر ألفة، وواســـعة الانتشـــار، فإنها ربما لم تعد سرية، لم تعد مرتبطة بالخوف والعزلة والظلام، بل بقاعات العرض والوجود معا، والتعليق للحكم العقلاني والحضور للعرض مع آخرين.

القرين والشر

وقد تم تفسير الخيال الأدبي الخاص بالازدواجية والقرين بأنه محاولة للتعامل مع الوجود الخاص بالشر في النفس البشرية وفي العالم، وهي المحاولة التي أدت إلى تحديد الذات، ووجود دوافع تدميرية خاصة بذات أخرى، قد تطارد الخاصة بالمرء، بوصفها . تلك الذات الأخرى . شبحا يطارد المرء بسبب عدم انصياعه لنوازع تلك الذات الأخرى ورغباتها، ولعل هذا ما قد يفسر ما نجده في بعض الأعمال الأدبية من أنه بينما يُمَكّن القرين ذلك الشخص أو الذات الأصلية الأولى المنعزلة من مهاجمة أعدائها، واقعيّا أو خياليّا، فإن ذلك القرين قد يسلك أيضا مثل عدو، عدو ينطلق من الداخل ويجتاح كل دروع الذات الحصينة، يحاول أن يقمع نوازع الذات، في الوقت نفسه الذي يتم إشباعها فيه، وخلال ذلك يكون القرين، الذي يتلبسها ويقمعها، مغويا لها في الوقت نفسه، حاميا لها، أبا، شيطانا، طاغية. وبينما يوجه القرين عدوانه وانتقامه وخداعه نحو الذات، فإن الذات تكون هي التي تقوم . في واقع الأمر. بكل هذه السلوكيات نحو نفسها .

هكذا كانت الأشباه (الأقران) في الأدب، غالبا عدوانية، انتقامية، توجه عدوانها وانتقامها غالبا نحو الذات الأولى، هذا على الرغم من وجود بعضها الآخر المتسم بكونه لطيف المعشر، يقظ الضمير، ودودا، وفي الحالات التي كان القرين فيها كذلك فإنه غالبا ما يطلق عليها الاسم نفسه الخاص بالذات الأولى، في حين يكون اسم «الذات الأخرى» محايدا، ولو أن هذا ليس هو القاعدة، فقد وجدنا قرين دستويفسكي . الذي كان عدوانيا مزعجا . له الاسم نفسه الخاص بالشخصية الأولى (جوليادكين).

في التراث الأدبي الرومانتيكي ارتبط الازدواج بالغش والخداع وغياب الأمن والأمانة، وكان ظهور القرين غالبا نذيرا بشر يوشك على الوقوع، وإرهاصا، أيضا، بالموت. وفي التراث الأدبي عموما، ارتبط هذا الموضوع بفقدان الإنسان . أو حتى المجتمع . لروحه، وهيمنة الشيطان والشر والخوف عليه، ومن ثم امتلاء روحه بالعتمة والظلام، ومن ثم كانت أيضا تلك الصعوبة وربما العجز عن الابتعاد عن التفكير أو التوقف عن الإنتاج عقليّا للكائنات الطيفية المخيفة كالأشباح، والعفاريت، وغيرها بوصفها تجليات قد تخارجت من الروح وتجسدت خارجها كـ «أنا» أخرى لها، غالبا مخيفة. إنها تجسيدات غريبة خاصة بالآخر الغريب

الغامض الذي قد يكون جزءا من الذات، وقد تجسد في صور مختلفة خارجها، وقد يكون هو الآخر الفعلي الذي تخشاه الذات، أو تحاول أن تتجنبه أو حتى أن تحيده، أو حتى أن تتحالف معه، ومن ثم كانت المقولات الشائعة حول التحالف مع الشيطان، أو حول من باع روحه للشيطان (فاوست مثلا)، وكانت أيضا كل المقولات الحديثة التي قد تنظر إلى الآخر على أنه شيطاني أو شرير في ذلك العالم الذي انتشرت فيه مزاعم مختلفة حول محاور الشر، ومحاور الخير [14].

وهكذا فإنه مثلما تكون الذات الأولى في أدب الازدواج والقرين غريبة، تسعى إلى البحث عن آخر، تنتج آخر، تحاول أن تحمي من خلاله ذاتها، أو تحقق من وراء قناعه، نوازعها ورغباتها، ثم تكتشف أن هذا الآخر هو الذي يسعى وراءها، وبدلا من أن يحقق لها رغباتها، يطمسها أو يمحوها، فكذلك يكون الآخر أيّا كان. غريبا، سواء أكان هذا الآخر، ذاتا أخرى أنتجتها الذات، أم كان آخر فعليّا موجودا في ذلك المجتمع، الذي نعيش فيه، أو العالم الذي نوجد به جميعا، أم كان موجودا، متصورا، متذكرا، مستحضرا من عوالم ما وراء الطبيعة والغيبيات؛ ومن هنا فإن ارتباط موضوع القرين بالغرابة والغريب ارتباط واضح وحقيقي لا يمكن نكرانه في هذا السياق.

مُسَلَّمات حول القرين

في كتابه عن «القرين: الرؤى المزدوجة في الأدب الألماني» (2003) يطرح أندرو ويبر تسع مُسَلَّمات يعدها ضرورية حتى نفهم جوهر فكرة القرين والازدواجية في الأدب والسينما وغيرهما من فنون الإبداع، ونحن نجمل هذه المسلمات فيما يلي:

1 - التكرار البصري: وذلك لأن القرين، هو. أولا وقبل كل شيء. شكل بصري Visual من أشكال التكرار الإجباري أو القهري. فكثير من النصوص التي تعاملت مع هذا الموضوع قد تعاملت مع الخصائص البصرية المميزة له؛ ومن ثم فإن هناك بصرية خاصة أيضا مميزة لهذه النصوص. وهكذا أيضا فإن الشخص هنا وهو يرى ذاته قد يشاهد ذاته الأخرى، بوصفها ذاتا أخرى، أو شيئا آخر موجودا على نحو بديل.

2 - الكلام المـزدوج: إذا كانت الرؤيـة البصرية المزدوجة Double Vision التـي يـرى من خلالها المرء نفسـه وقرينه هي المجسدة للافتراض الأول لدى ويبر، فإن الافتراض الثاني لديـه يقول إن الكلام المـزدوج Double Talk أيضا، أي تلك الحالة من الـكلام المتكرر المضطرب للذات، هي التي تلخص الشـرط الثاني المصاحب لظاهرة القريـن لديه. فالقرين لا ينشـط بصريًا فقط؛ بـل لغويًا أيضا، إنـه لا يخلق نوعا من الاضطـراب في الرؤيـة البصرية؛ بل نوعا مـن الاضطرب فـي اللغة والكلام أيضـا، هنا تكون اضطرابـات اللغة لديه (كظاهرة فردية وجماعية) متجسـدة لديه، من خلال ترديده للكلمات والأفكار، وكذلك تكرارها وتشـويهها ومحاكاتها، هنا يقوم الشـخص المزدوج بالترديد الأعمى للكلمات، بتكرارها، بتحريفها، بمحاكاتها على نحو جاد أو ساخر.

3 - اضطـراب الأداء: ويترتب على هـذا الاضطراب الذي يحدث في الجانبين البصري واللغوي من الهوية أن يظهر نوع ثالث من الاضطراب، ألا وهو اضطراب الأداء performance، فالقرين شـخص متخيل يقوم بالأداء، إنه يمكـن أن يمثل الطابع الأدائي المميز للذات، فهنا جانب خاص من أنشطة الذات وأفعالها، وقد توسـطتها . أو تداخلت معها . شـخصية أخرى، هنا يظهر أداء القرين الخـاص بالتكرار والازدواج والتعدد، هنا أداء مزدوج يتم مرتين بالنسـبة إلى شخص واحد، ويحدث عند مستويات كثيرة من إعادة البناء والتكوين للذات، والواقع، والزمن، والمكان.

4 - الفضول الجنسي والمعرفي: أما المسلمة الرابعة فهي افتراض مزدوج، وهو يقول إن مقاومة القرين أو تحديه لتلقي الأفكار أو التأكيـدات الخاصة حول الهوية ينقلب أو يتحول إلى نـوع من الازدواج المـلازم الموجود فيما بـين المعلومات الجسـدية والمعلومات المعرفية الفكرية العقلية، حيث تجسد هـذه الازدواجية الملازمة هنا حجر الزاوية المشـترك، حيث

ثمة جانب معرفي متعلق بالجنس، وثمة جانب جنسي يتعلق بالمعرفة، هنا ازدواجية تظهر تربط الجسد بالذات والذات بالبصر. ومثلما هناك صراع يتعلق بالقرين في عمليات الإبصار واللغة، والأداء، هكذا يدخل القرين (المزدوج الطيف... إلخ) في نوع من التلصص البصري واختلاس النظر، وحالات أيضا من التلميح والغمز والتعريض بالآخر، داخل تلك العملية الخاصة التي تسعى الذات من خلالها إلى الوصول إلى المعنى أو إلى الإحساس البصري واللغوي الخاص بها. إذن هناك نوع من الفضول شبه الجنسي، والتلصص، والرغبة في الرؤية البصرية والإدراك، يكون ملازما للقرين.

5 - قوة اللعب: يعد الجانبان المعرفي والجنسي أشبه بالشكلين المهيمنين على المبدأ الخامس المميز للقرين، أي تلك القوة الخاصة باللعب أو سلطة اللعب Play - power، حيث تتمثل السلطة الخاصة بالقرين، في القدرة على التغير، ألا يصبح مهيمنا عليه، ومسيطرا عليه، أبدا، بواسطة الذات، أو الآخر، أو الذات الأخرى؛ ومن ثم فإنه يقوم دائما بالتحول والتغير، فيما بينهما، كما أنه يبدل حالاته دوما.

6 - الإبدال والإحلال والإزاحة: ترتبط المسلمة السادسة لدى ويبر بالافتراض الخامس لديه؛ وذلك لأن القرين إنما ينشط من خلال نوع أو شكل من أشكال الإبدال والإحلال أو (الإزاحة) displacement، فهو . وعلى نحو مميز . يظهر من خارج المكان out of place، من أجل أن يزيح الذات - أو مضيفه - عن مكانه، أن يحل محلها . وهنا إقرار بوجود هوية ظل shadow identity، أو هوية مزاحة displaced identity تحل وتدخل منطقة ما، أو بيتا، أو وطنا، وتزيح أصحابه خارجه، أو تهز استقرار بيتهم على الأقل. هكذا يكون القرين منتميا أصلا إلى ما هو خارج المكان، إنه يأتي من الخارج، يحل

على بيت أو وطن، ويسعى من أجل إزاحة أصحابه خارجه، وقد يكون القرين متعلقا أيضا بما هــو خارج الزمان، إنه يأتي من زمــن آخر، من الماضي غالبا، ويحــل على الحاضر، إنه يظهر في الوقت الخاطئ، وزمانه ليس مناســبا للمكان، ومكانه ليس المكان، وهو الأساس أو الامتداد الزمني الممتد للكارنفال، بكل ما يرتبط به من تعليق أو إيقاف مؤقت للأعراف الاجتماعية، هو المشهد المفضل لهذا القرين، وهذا الغريب.

7 - التكــرار والعــودة القهرية: أما المســلمة الســابعة للقريــن فهي تتعلق بالعودة والتكرار، فالقرين يعود على نحو قهــري إجباري متكــرر داخل الســياقات الخاصة بمضيفه (من يســتضيفه)، وكذلك في عملية التنــاص والتضاد التي تتــم بينهما، أي بين القرين ومســتضيفه، حيث تكرر أداءاته الخاصة أداءات مضيفه، وكذلك المظاهر الســابقة الخاصة بأداءات هذه الــذات؛ ومن ثم فإنه يؤدي دورا تكوينيّا خاصا في تكوين وبناء الســياقات الخاصة بــه، وبهذه الأفعال، من خــلال أدائها، ثم تكرار هــذا الأداء على نحو متتابع، ويمكن قراءة هذه الوظيفة الخاصة بالعودة والتكرار الآلي على أنها «غرابة» بالمعنى الفرويدي.

8 - نوع القرين: على نحو بَدَهي، فإن مســتضيف القرين وزائره (أي القرين نفسه) هما - غالبا - من نوع الذكور، وكثيرا ما تتم الإشــارة إليه من خلال الضمير «هو»، وعندما يظهر قرين أنثــى فإنها غالبا ما تكون نوعا من التجســد القطبي المضاد، لذات ذكرية. وتعمل فكرة القرين في بعض الحالات على هدم فكرة النوع الاجتماعي أو الجنسي؛ لأنه - أي النوع - هو التحديد الأكثر جوهرية للفكرة الأساسية الخاصة بالهوية.

9 - البيــت غيــر الأليف على نحو نمطــي: كثيرا ما يكون القرين نتاجا لبيت مدمر، بيت محطم، وطن مهزوم أو منهوك، إنه يمثل حالة اختلال الوطن في خيال الأسرة وتخيلاتها المتعلقة

بحسن الحال والاستقرار والتماسك، ومن ثم فإن فكرة القرين وما يرتبط بها من أفكار تقدم لنا البيت (الوطن) بوصفه الموقع الأصلي لحدوث الغرابة وانتفاء الألفة أيضا [15].

هكذا يختلف القرين عن غيره من الأبطال الأكثر تقليدية في السرد القصصي والروائي والدراما والشعر من حيث كونه يقوم بالتفعيل، وعلى عتبة الموت، أو في النزع الأخير، لحالة أكثر عمومية خاصة بانقسام الهوية وتصدعها، وهو يدفع هذا الانفصال الخاص بالذات إلى أقصى حدوده.

هكذا يقوم القرين. وعلى نحو متكرر. بالتبعية والسيطرة، في الوقت نفسه، على الذات المستضيفة له، وفي أمثلة أدبية كثيرة، تظهر علاقات الخضوع والسيطرة هذه على نحو تبادلي أو متعاقب، بحيث يمكن القول إن تيمة القرين إنما تعكس أيضا خضوع الذات لنوع من التلاعب، أو لعب القوة، أو قوة اللعب، وبما يتفق مع نموذج هيغل الخاص بـ «ديالكتيك» السيد/ العبد [16].

الذات والانعكاس

وقد كان مبدأ الانعكاس هو الذي منح الثقافة الرومانتيكية الألمانية شكلها الجمالي والفكري المميز؛ وذلك لأن الأفكار الخاصة بالذاتية، وكذلك الخاصة بالإنتاج الجمالي لها، هي أفكار تتوسطها عمليات مشهدية خاصة بإعادة الإنتاج، عمليات تقوم على أساس عمليات التأمل والانعكاس التي تقوم بها الذات، في علاقتها بذلك العالم الذي تعيش فيه، وهي عمليات تكون قابلة دوما لأن تدفع وتحث وتتحول إلى عالم عجائبي دُواري قُلَّب خاص بقاعة من المرايا متبادلة الصور والعلاقات، ولعل هذا أن يكون أيضا ساحة مشهدية للتخيلات الرومانتيكية المتعلقة بتحقيق الذات، لكنها أيضا الساحة والتخيلات التي تسقط أيضا فريسة للتحريفات والتشويهات، حيث تتشظى فيها صورة الذات، وتصبح متكسرة وهاربة وغامضة، أو تدور في حلقة مفرغة.

والقرين إذن رمز أو علامة، أو مرآة، تتجسد فيها الذات التي تسعى نحو الخلود، وتقاوم كل ما يتهددها بالموت أو الفناء. والأدب والإبداع عامة وسيلة لمقاومــة الموت، بمعناه المادي الروحي، ووســيلة لحماية ذاته من الصراعات المرتبطة بجانبها الناقص، أو وســيلة لاستشــراف عالم الخلود، يكون الفن والإبداع الأدبي قرينها الذي قد يوصلها إلى ذلك.

والقرين جزء من الذات انفصل عنها، خلقته الذات كي تحقق من خلاله خلودها واســتمرارها، وكي تبعد - من خلالــه - مخاوفها. والقرين قد يكون متفقا مع الذات، متشــابها نوعا ما، لكــن القرين قد يكون هو ذلك الجانب من الذات الذي تشــن عليه هذه الذات حروبها، حين تراه في مرآة محرفة، فالتشابه غالبا ما يكون ظاهريّا، من حيث المظهر العام فقط، حيث يختلف جوهــر القرين في الأغلب مع الــذات، يعمل ضدها ويهددها؛ ومن ثم تكون محاولتها الدائمة لإبعاده وتشــكيله فــي أعمال مقبولة، وثمة تجليات كثيرة لفكرة القرين أو الشبيه في الأدب والفن والحضارة.

وفــي قصص القرين يمكننــا أن نجد مثل هذا الحكي المزدوج أو الســرد المزدوج، الذي يقول شيئا ويعني شيئا آخر، يظهر شيئا ويحجب شيئا آخر، هذه الآلية الخاصة بالتمويه والإخفاء آلية أساسية في الأحلام والأساطير والإبداع الفني والأدبي، وكذلك قصص البدلاء القرناء والأشباه الأشباح، حيث نجد تلك الفجوات والتكرارات والتناقضات في نسيج هذه القصص كلها.

عن القرين الاجتماعي

هنــاك - دائما - فــي قصــص الازدواج والقرين عنصر مــا من الإحالة الاجتماعية، الإشارات الاجتماعية، والنقد الاجتماعي، هكذا تهكم دستويفسكي فــي «قرينه» من كل تلك المظاهر الكاذبة والنفاق والتصلب والجمود المنتشــرة في ســان بطرسبرغ. كذلك انتقد هوغ Hogg السلطة السياسية والدينية التي كانت في أســكتلندا في أواخر القرن السابع عشر، والتي لم تكن مختلفة كثيرا عن أمثالها من الســلطات في أوائل القرن التاســع عشر. أما في نهاية القرن التاسع عشر فقد أصبح القرين الاجتماعي أكثر هيمنة مقارنة بالقرين المتخيل أو الســيكولوجي، ولم يكن هــذا متضمنا تجديدا كثيرا، فمــا تغير هو فقط،

ذلك الفهم للعوامل المكونة للانتهاك للهوية، لاختلاطها وعبور حدودها، لمحوها وتغييبها، وكذلك نوع من الهجوم على تلك الفئات الإنسانية المحددة الخاصة بالطبقة والنوع والسلالة وغيرها، ومع الوعي العلماني للمجتمع تولد إحساس قوي متزايد بأن القيود الاجتماعية لا تنطوي فقط على ظلم وافتقار إلى العدالة، لكنها أيضا قابلة للاختراق، للنفاذ منها، لتحطيمها أو لتغييرها [17].

ونستعرض فيما يلي بعضا من أشهر الأمثلة المجسدة لفكرة القرين في الأدب: وسنركز هنا بشكل خاص على فكرة القرين كما تجلت في بعض أعمال إدغار آلان بو (الأمريكي)، ودستويفسكي (الروسي)، وستيفنسون (البريطاني)، وهوزيف كونراد (البريطاني من أصل بولندي)، وسليمان فياض (المصري)، وجوزيه ساراماغو (البرتغالي) على نحو خاص.

وليم ويلسون وقرينه

«وليم ويلسون» هو عنوان قصة معروفة كتبها إدغار آلان بو، وهو شخص عادي، ليس مستغرقا في أحلامه ككثير من شخصيات بو المنعزلة، بل هو شخص يتفاعل، على نحو واضح، مع الآخرين، لكن ما نعرفه تدريجيًا أن هذه الشخصية شخصية مركبة، شخصية قد دُمِّرَتْ بفعل قرينها أو شبيهها الآخر. كما أن هناك مطاردة لها تتم من خلال ضميرها، ولا يتضح مثل هذا التعقيد إلا في نهاية القصة: «لقد انتصرت، وخسرتُ أنا. لكن من الآن فصاعدا أنت أيضا ميت. ميت في العالم، في السماء، وفي الرجاء! كنت موجودا فيَّ. فانظر في موتي. انظر من خلال هذه الصورة التي هي صورتك كيف قضيت نهائيًا على نفسك بنفسك». وهو يتحدث عن نفسه على أنه قد نُزعت عنه كل فضيلة في دقيقة واحدة، وأنه شخص فاسد يرتكب المعاصي والشرور، وأنه تحدر من سلالة تميزت بمزاج «سريع التخيل سهل الإثارة»، وأنه كلما تقدم في السن «برزت هذه الطباع بشكل أقوى»، وأنه الآن في مرحلة الاعتراف، «مرحلة التذكر، مرحلة السكينة، حيث الموت يتقدم، والظل الذي يسبقه ألقى في روعه السكينة».

ثم يصف شخصيته وطبيعته الحادة الحماسية المتغطرسة، كيف كان يتفوق على جميع أقرانه باستثناء تلميذ واحد كان يحمل اسمه نفسه، واسم عائلته، وولد يوم ولادته، ومن دون أي قرابة بينهما، وأنه ذهب معه إلى المدرسة نفسها

حتى اعتقد الطلاب أنهما أخوان توأم، وقد كان سـميه وحده الذي يجرؤ على أن ينافسه في الفصل واللعب والمشاكسات، ويناوئ تسلطه على الآخرين في كل مناسـبة، وقد كان الراوي على الرغم من محاولاته الإسـاءة إلى منافسه علنا، يخافـه في باطنه، وقـد كان ذلك المنافس يمزج إهاناته ووقاحته ومعاكسـاته للـراوي ببعض مظاهر المودة التي كانت تغيظ صاحبنا، وتجعله غير قادر على فهم هذا السـلوك الغريب إلا بوصفه نوعا من «ادعاء الحماية والرعاية بشكل مبتذل»، وقد كان هذان الشخصان يتخاصمان يوميًا تقريبا [18].

وقد كانت مشـاعر الراوي تجاه منافسـه مزيجا من الكراهية الحادة. لكنها لم تتحول بعد إلى حقد. والاحترام والخوف والفضول والقلق الذي بلا حدود، وقد كانا نادرا ما يفترقان، لكن من دون صداقة، وكان النقص الوحيد الذي يعانيه ذلك المنافس هو انخفاض صوته، فلا يستطيع الحديث إلا فيما يشبه الوشوشة المنخفضة التي يوجه من خلالها نصائحه غير المباشرة، هنا بدأت الماعات في القصة توحي بأن ذلك السـيد الشبيه الآخر هو الضمير والقرين الذي يلاحق صاحبنا الراوي في حله وترحاله.

وقد كان ذلك الشـبيه (وليم ويلسـون الآخر) يشبه الراوي في طول قامته، ومظهره وملامحه، وكان يقلده في كلامه وحركاته، ويلعب دوره بصورة مدهشة، ويقلد لباسه ومشيته وسلوكه العام دونما صعوبة تذكر، ثم إن صوته، على الرغم مـن انخفاضه، قد أصبح هـو الصدى الكامل لصوت الـراوي، وقد كان ذلك التقليد يعذب الراوي، لكنَّ عزاءه الوحيد هو أن أحدا غيره لم يكن يلاحظ مثل ذلك التقليد والسـخرية التي يوجهها وليم ويلسـون (الثاني) إلى وليم ويلسون (الأول). ومثلما يراقب الثاني الأول، فإن الأول يراقبه أيضا، كما أنه يتخيل من ملاحظتـه لملامحه ومظهره ونبرة صوته، ومن رؤى غامضة من طفولته أعادت إليه «ذكريات غريبة ومشوشـة» أنه ربما كان قد عرف هذا الشخص من فترة قديمة جدًا، موغلة في القدم، ثم تتبدد هذه الفكرة وتنقشـع، ويتوالى الوصف في القصة للبيت. المدرسة، لمتاهات الغرف والمهاجع والممرات الضيقة، وعندما يتسـلل إلى غرفة نومه ليلا، ويرى قسـمات وجهه على ضوء المصباح يصاب بالذهول ويرتجف كالمحموم، لقد رأى فيها شيئا مختلفا عن ذلك الذي كان يراه خلال ساعات اليقظة، خلال التقليد والمحاكاة (التكرار)، الاسم نفسه، الملامح

نفســها، دخول المدرسة في اليوم ذاته، تقليد المشية والصوت واللباس والحركة «هذا التقليد الشرس الذي لا يفسر، هل كان في حدود الممكن الإنساني أن ما أراه الآن هو مجرد نتيجة لهذه العادة من التقليد الساخر؟».

ويغادر الراوي المدرســة ولا يعود إليها أبدا بعــد ذلك، ثم تتواصل حياته وتمضي أيامه، ويجد نفسه طالبا في كلية إيتون، ويزداد ولعه بالشر والحماقة والمجــون، والقمار، وخلال إحدى ســهراته يبلغه الخادم بأن شــخصا يطلب التحدث إليه في الرواق، يخرج مترنحا، وعلى ضوء نور الفجر الضعيف يرى شابا بقامته تقريبا، يرتدي ملابسه نفسها، ومن قسمات وجهه يعرف أنه وليم ويلســون الآخر وقد عاد إليه من جديد بعــد أن فارقه ردحا من الزمن، وقد اســتمر يوبخه من خلال كلام غريب ثم اختفــى، لكنه يعود مرات أخرى بعد ذلك، يكرر ظهوره ويقوم بأفعال كثيرة من شــأنها توبيخ الراوي، وكشف سوء طويته وشرور أعماله؛ مما يوقعه في حرج دائم، حتى أنه عندما يغادر إنجلترا ويذهب إلى فرنســا يلاحقه هناك ويطارده، ويكشــفه، ويفســد مخططاته الشــريرة، يصبح بالنسبة إليه أشــبه بالجلاد، بل يصبح جلادا فعليّا يتعقبه، حتــى بعد أن يغادر فرنســا إلى برلين، ثم نابولي، ثــم مصر، ويصبح الراوي «جبانا أمام سلطانه الآمر»، على الرغم من محاولاته الدائمة للتمرد والمقاومة.

وفي روما ينشب عراك عنيف بينهما، ويقتل خلاله الراوي غريمه، يقتل ضميره، يقتل نفسه، وعندما ينظر إلى قتيله، ضحيته، كانت هناك مرآة واسعة تنتصب فجأة، حيث لم يكن هناك أثر لها من قبل. وبينما كان يتقدم نحوها مذعورا رأى صورته فيها، وبوجه شاحب وملطخ بالدماء تقدمت نحوه بخطى واهنــة مترنحة، وقد كان خصمه. كما قال. هو الذي يقف أمامه محتضرا، كان قناعه ومعطفه يرقدان على الخشــب حيث رماهما، وكان الشبه بينهما تاما، وهنا يعتقد الراوي أنه كان يكلم نفســه، وذلك عندما اســتمع لكلمات خصمه، شــبيهه قرينه، ضميره الآخر الذي يعترف فيها بهزيمته، لكنه ينبه وليم ويلســون أيضا إلى أنه الآن ميت في الأرض والسماء والأمل والرجاء، وأن ذاته الحقيقية كانت موجودة خلال وجود ضميره، قرينه، خصمه، صوته الخفي، الذي ربما كان واهنا، ضعيفا، غير مســموع، صدى، مرآة، لكنه كان المعنى الحقيقي لوجوده، المعنى الذي قضى عليه وليم ويلسون الراوي.

هكذا جسـدت هذه القصة ذلك التناقض الموجود داخل الإنسـان، الإنسان الذي يكافح من أجل البقاء على قيد الحياة، وفي الوقت نفسـه يسعى من أجل تدمير نفسـه، أي من أجل الموت، وهذا مثـال آخر على الغرابة في الحياة التي يجسدها الأدب، فسعي الإنسان من أجل البقاء على قيد الحياة أمر مألوف، أما غير المألوف والغريب فهو قيامه خلال الوقت نفسـه بتدمير ذاته، بأفعال تقربه من الموت والدمار بكل ما يناقض ذلك الدافع الأول الإيجابي الخاص به، وهكذا فإن الغرابة صراع واجتماع لغريزتي الحياة والموت في وقت واحد، وبالقوة نفسها في «وليم ويلسون»، يقتل الإنسان ضميره كي يبقى حيّا، ولكن أي حياة هذه بلا ضمير الأخلاق، وأي شخصية تلك التي تميت ضميرها وتقتل الآخرين وتعذبهم!

لقد أدرك ويلسـون، تدريجيّا، الدلالة النفسـية والروحية لقرينه: إنه نصفه المدفون والمؤكد لذاته والإيجابي، والذي يسـتجيب بعمـق لكل ما هو جليل، وقد أسقط عليه ويلسون موهبة المحاكاة له ولسلوكه، وقدرته البارعة في إطلاق النكات والتقليد، وكأنه يريد أن ينسب إليه بعض المزايا التي برع فيها ويلسون نفسه أولا، ولكن من خلال نسبتها في الوقت نفسه إليه - أي إلى ويلسون الأول. أيضا.

إن شـعور الراوي بأنه يعيش في فراغ حتى عندما يوجد مع الآخرين، ومع شعوره بالافتقار إلى الواقعية الخاصة بهؤلاء الآخرين كأنهم دمى أو أشباح أو عرائس أو أشياء، وكأنه هو الوحيد الواعي أو المسيطر أو المتحكم في الأحداث، ولكنه يشـعر في الوقت نفسه، أن ذلك الآخر، القرين الشبيه، يطارده ويسخر منه، ويحاكيه، وينغص عليه حياته، هو مزيج من «الميغالومانيا» أو ذهان الشعور بالعظمة، والبارانويا الخاصة بالشعور بالاضطهاد. إنه متفوق وناقص، مسيطر ومسيطر عليه، شجاع وجبان، مألوف بالنسبة إلى نفسه، لكنه يعيش في حياة غير مألوفة سـببها ما يقوم به الآخرون، هؤلاء الذين لا يكونون في العادة إلا القسم الخاص المنعكس، المرآوي المعكوس من نفسه، القسم الذي اغترب عنه، وأصبح يشكل قرينه الذي يطارده، أو ضميره الذي يؤرقه.

«الدكتور جيكل والمستر هايد»

اسـتخدم ستيفنسون الموضوعات الرئيسـية المتكررة والتيمات الخاصة بالتحول والرعب، والتي جعلت روايته هذه التي ظهرت في العام 1886 حكاية مثيرة للخوف الرهيب، فهناك جرعة الدواء التي تحدث التحول لدى جيكل،

وكذلك ذلك الحضور الخاص الغريب بـ «هايد» في تلك الغرفة المنقسمة أو المشطورة التي تتحول إلى معمل في الجانب الخلفي من المنزل، وأكثر من ذلك كله، ذلك الجو العام من السرية والغموض وقوى الظلام التي تهيمن على الرواية [19]، وهناك أيضا العاطفة التي تعارض العقل، وهي خاصية مميزة للأدب القوطي، وكذلك تلك القوى الظلامية التي تتجول داخل النص، وذلك الحس بوجود مسافة تاريخية بعيدة لهذه الأحداث التي تربطها نبرات الرواية القوطية القديمة، إضافة إلى تلك «المسرات» و«المتع» الخفية أو المسكوت عنها، الحسية والجنسية خاصة، والتي ينهمك فيها «جيكل» «وهايد».

هكذا يتحول جيكل إلى هايد، إلى قزم يتغير صوته، ويطول شعره، ويرتدي قناعا، ويصاب بالذعر، ويتناول دواء معينا يقوم بعملية التحول. وذات مرة عندما اقتحم محامي جيكل وصديقه المعمل الذي كان يُجري فيه تجاربه وجدا جثة هايد مسجاة هامدة على الأرض، وثمة نار موقدة فوقها إبريق يغلي، كان فيه الدواء. ولاحقا، عندما فتشا الغرفة من جديد وصلا إلى المرآة ذات الإطار «وفي عمقها حَدَّقا وبهما رعب خارج عن إرادتهما، وكانت قد أديرت كي لا تكشف لهما شيئا غير الوهج الوردي يتلاعب على السقف، ومئات الشرارات تنبثق من النار تكرارا، وتنعكس على امتداد الواجهة المتألقة للقوارير، وسحنتيهما الشاحبتين والمذعورتين اللتين تتحودبان لتحدقا».

عندما فتح الدكتور لانيون خزانة جيكل عثر فيها على أشياء كثيرة: ملح متبلر أبيض، وقارورة مملوءة حتى منتصفها بسائل أحمر كالدم، وكراسة عادية بها سلسلة من التواريخ، وملاحظات مقتضبة هنا وهناك مذيلة بتاريخ ما، ولا تتجاوز عادة الكلمة الواحدة : «القرين»، ربما تكررت ست مرات في مجمل اليوميات التي تربو على بضع مئات.

كان هايد أقصر قامة من جيكل، وأرشق حركة، وأصغر سنا، والشر مكتوب على وجهه. كان الممثل للشر الخالص وقد رآه متجسدا أمامه في المرآة، بعد أن حدث التحول الأول له بفعل الدواء الجديد، فكتب يقول: «عندما وقع ناظراي على ذلك الوثن الدميم في المرآة لم يساورني أي اشمئزاز وخلجات مرحبة. هذا الوثن أيضا، كان أنانيا، بدا طبيعيا وإنسانيا، وفي عيني متمتعا بصورة أجلى للروح، في صدقها وفرادتها تفوق الهيئة المنقسمة والمحكومة بالنقصان التي درجت - وحتى الآن - على ادعائها لنفسي».

هكذا فإن إدوارد هايد كان كلي الشـــر، أما هنري جيكل فظل هو «ذلك المزيج المتنافر الذي يئس صاحبه من إصلاحه وتحســينه»، وهو يرجع ســـر تحوله إلى نفوره من جفاف الحياة الدراسية حيث «كنت ما أزال أبتهج بالتحول والاستغراق في الملذات، أحيانا، لكنه مع التقدم في العمر أصبح الأمر مدعاة إلى مزيد من النفور».

جيـــكل هو القناع الخارجي، وهايد هـــو الظل الداخلي، جيكل هو الذي يحظـــى بالاحترام والتبجيل بين الآخريـــن، وهايد هو الذي يرتكب الجرائم والمعاصي، ويحظـــى باللعنات والمطاردات، هايد هـــو المذنب، وجيكل يرتاح ضميره ويغفو متحررا من تأنيب الضمير، ومن خلال تلك الآليات والتبريرات لا يكون هو من يرتكب المعاصي والشـــرور؛ بـــل قرينه الخفي غير الخاضع لإرادته، فهما، في النهاية شخص واحد.

وقد قيل في بعض الدراسات النقدية إن الازدواج في هذه الرواية ازدواج يجسد صراعا بين الخير والشر، أو بين الأخلاق والغريزة، الالتزام بالقانون وانتهاكه، السلوك القويم والسلوك المنحرف... إلخ. كما أنه أحيانا نُظِر إلى هذه الثنائيات بشكل تتابعي، أو من خلال التجانس، فجُمعَ بين الخير والأنا الأعلى أو الضمير والهو والشـــر أو الغريزة، ثـــم نُظر إليها بطريقة تراتبية (هيراركيـــة) تضع الالتزام بالقانون في المجتمع في مرتبة الالتزام بالقوانين الميتافيزيقية أو المثل العليا الدينية... إلخ.

دوريان غراي

ظهرت هذه الرواية بعد خمس سنوات من ظهور رواية «الحكاية الغريبة» للدكتور جيكل والمستر هايد - أي ظهرت العام 1891 - وهي رواية تدور حول تلك «المتعة المخيفة الخاصة بالحياة المزدوجة»، إنها رواية حول الذات الثانية، أو نظرية تعدد الشـــخصيات، حيث يبدو دوريان أليفا وغريبا خلال الوقت نفســـه، حيث في الرواية تصوير لأعراف وعادات الطبقة الإنجليزية العليا المرفهة الغارقة في ملذاتها، وتجسيد لحياة وايلد نفسه بكل تناقضاتها، نوع من اللعب بالتناقضات بين الحياة العليا والحياة الدنيا، الشباب والشيخوخة، الجمـــال والقبح، الفضيلة والرذيلة، الجســـد والروح، وحيـــث تنمو اللوحة

(البورتريه) المرســـومة لـ «غراي» فتصبح متقدمة في السن، تحمل علامات متزايدة على تحلله وانحلاله، وانتهاكه للأعراف والقيم. بينما يشـــع دوريان نفسه بكامل قوته وجماله وشبابه، تصبح لوحته أكثر شيخوخة وقبحا، وهذا واحد من تلك الوفرة من الأسرار التي تزخر بها هذه الرواية.

كان دوريان غراي أشـــبه بـ «نرجس» يتعشـــق صورته في المرآة، الصورة الحسية الجميلة، ويكره صورته كما تتجسد في اللوحة، اللوحة التي تعكس تحولات روحه وشـــرورها، حيث الفن أصدق هنا من الحياة، الفن لا يكذب، أما الحياة فيمكنها أن تتجمل، وأن تكذب. هكذا وجدنا دوريان غراي يمسك بالمصبـــاح ثانية، و«طفق يتفحص الصورة من جديد، فوجد أن ســـطحها لم يتغير قط، وأن مخايل الدنس والإجرام تطل عليه من داخل الصورة، فعرف أن قوة باطنية قد جعلت آثار الخطيئة تفتك بالوجه الجميل شـــيئا فشـــيئا، ورأى الصورة جيفة حية دونها الرمم التي تبلى في بطون القبور» [20].

هكذا كان دوريان غراي. مثله مثل جيكل. يطارد نفســـه، وهكذا وجدناه في طريقه، بعد أن قتل صديقه الرســـام، إلى المكان الذي كان يتعاطى فيه الأفيـــون. وحيث يصف أوســـكار وايلد الطريق الذي كان يبـــدو له «كأنه لا ينتهي، والشوارع المظلمة المتشعبة كأنها نسيج عنكبوت وضاق بالرحلة المملة، ورأى الضبـــاب يتكاثف من حوله فأحس بالخـــوف، ثم مر بمحارق الطوب، ورأى النيران تتصاعد منها، وســـمع كلبا ينبح، وطائرا يزعق، وكبا الحصان في حفرة ثم أسرع في الركض، ثم خرجت العربة من الطريق الريفي، وبدأت عجلاتها تجلجل على طريق معبد موحش، وكانت أكثر النوافذ مظلمة، ولكن من وقت إلى آخر انبعث النور من غرفة مضاءة وظهرت على ستائرها أشباح عجيبة. وطفق دوريان غراي يتأمل هذه الأشباح في فضول، فوجدها تتحرك كدمى الأراجوز، وتشـــير بأيديها كما يشير الأحياء. وانقبضت نفسه لما رأى ذلـــك، وامتلأ قلبه بغضب مكتوم... يقولـــون إن الانفعال يجعل العقل يفكر بطريقة دائرية وهذا ما حدث لدوريان غراي».

بـــل إنه وجد «أن القبح هو الحقيقة الوحيدة في الحياة، فالألفاظ النابية التي يسمعها في كل شجار، والبؤر النكراء، وفظاظة الحياة المضطربة وقسوتها، ووحشة اللصوص، وضعة الأوباش المنبوذين، كل هذه بدت له أصدق تعبيرا عن

الحياة الواقعية من النماذج النبيلة التي يختلقها الفن اختلاقا، والظلال الحالمة التي تملأ قريض الشعراء، وإذا كانت الحقيقة مرة شائهة فهو في حاجة إلى مراراتها وجوهرها الشـــائه، فهما يلهمانه النسيان». ثم توقف الحوذي فجأة عنـــد مبدأ زقاق مظلم، فارتجت العربة، ورأى دوريان غراي صواري الســـفن ترتفع ســـوداء من وراء سطوح المنازل الصغيرة ومن وراء مدافنها. وفي الميناء رأى قطـــع الضباب الأبيض تحوم في كل مكان كأنها قلوع خرافية، ثم بعد أن صرف الحوذي، وانعطف إلى اليسار، وأسرع في المسير، كان يلتفت إلى الوراء بين لحظة وأخرى ليرى من يقتفي أثره فلم يجد أحدا. وبعد ســـبع دقائق أو يزيد بلغ بيتا حقيرا محشـــورا بين مصنعين ضيقين. ورأى مصباحا منيرا في إحدى النوافذ العليا، فتوقف، ثم طرق الباب طرقا غير مألوف».

ثـــم يأتي، بعد ذلك، وصف للبيت من الداخل بكل ما عليه من أوحال وقـــذارة وتعاطي مخدرات وهلاوس، حيث «الســـيقان المنتخفة، والأفواه المفغورة، والعيون المنطفئة الشـــاخصة وسحر مرآها». كان يظنهم أسعد منه حالا، كان يعلم ما يشـــقون به من أحلام ذهبية، وما يســـعدون به من نيران الجحيم»، وكان يظن نفســـه أكثر شقاء لأنه حبيس سجين ذكرياته، «ذكرياته التي تلتهم روحه كالمرض الخبيث»، ثم يمشـــي بعد أن يخرج من مكان إلى مكان، ويدخل بعض البواكي المظلمة، ثم تتصاعد الأحداث حتى نجد أن دوريان، ذلك الذي يشعر بثقل خطاياه ووخز ضميره، يحطم المرآة التـــي أهداها اللورد هنري إياه، يقذف بها على الأرض ويدوســـها بقدمه ويهشمها، ثم ينظر إلى اللوحة ويجد صورته متجسدة فيها «مسخا حيّا»، وعلـــى يدها بقعة حمراء من الدم كانت قد ظهـــرت من قبل عندما قتل صديقه الرسام وجعل صديقه العالم يذيب الجثة في المحاليل الكيمائية، ثم يتزايد حضور الدماء في اللوحة، على اليدين والقدمين وغيرهما، ثم إنه عندما يمســـك بالمدية التي قتل بها صديقه الرســـام ويطعن اللوحة، تتحـــول اللوحة إلى وجه جميل، في حـــين يتحول الوجه الجميل لدوريان إلى وجه كريه الملامح، رجل يابس الجسد، حاول أن يطعن اللوحة فطعن نفســـه، مات الإنســـان بقبحه الذي حاول أن يخفيـــه، وبقي الفن بقبحه الروحي والأخلاقي الذي حـــاول أن يخفيه وراء قناع مادي جميل، وبقي

الفن حافظا روح الإنسان الجميلة وحقيقته الخالدة المعتمة كأنه يقول لنا إنه لا قضاء على الشـــر إلا بقتل تلك الازدواجية الشنيعة التي بين خارج جميل براق وداخل قبيح شرير.

الشريك الخفي

غالبا ما تكون قصص الأشـــباه والأقران قصصا مرعبة، تستثير الرعدة الخاصة بالغرابة، وتستحضر معها ذلك الرعب البدائي الأولي، ومع ذلك، فإن حضور القرين قد يكون مشتملا أيضا على نوع من العلاقة الحميمة والتواصل والتخفف من التوتر، كما نجد ذلك مثلا في قصة «الشريك الخفي» لجوزيف كونراد، حيث يواجه قبطان بحري فيها قرينه الذي تجســد في شكل سجين هارب من العقوبة التي حكم عليه بها بســبب جريمة قتل ارتكبها وهو يحاول إنقاذ سفينته القديمة خلال عاصفة. المثير للدهشة هنا أن ذلك القبطان قد قام بحماية ذلك الغريب العاري، وتقاسم معه ملابسه وأسراره «لقد استغاث بــي كما لو كانت تجاربنا واحدة مثل ملابســنا، لم يكن يشــبهني تماما، ومع ذلك فقد وقفنا مائلين أعلى موضع نومي، يهمس أحدنا إلى الآخر، وبرأسينا الغارقين في العتمة كنا قريبين أحدنا من الآخر، مستندين بظهرينا إلى الباب، بحيث إن أي إنســان كانت ســتتوافر لديه الشجاعة لفتح ذلك الباب، خلسة، كانت ســتصيبه الدهشة من ذلك المشهد الغريب الخاص ببحار بديل منهمك في الحديث سرا إلى ذاته الأخرى»، وقد أخذ هذا الاكتشاف للقرين والوقوع تحت ســطوته ذلك القبطان «نحو مشارف الجنون، وبشكل يفوق ما قد يمكن أن يحدث لأي إنسان لم يقم فعلا باجتياز تلك الحدود» [(21)].

ولم يُنقذ ذلك القبطــان إلا من خلال إيماءة مفعمة بالود من ذاته الثانية، لقــد تآمرا على أن ينظما طريقة هــروب ذلك القرين، مرة أخرى، وهكذا قام القبطان بالاحتضان الأخير لذاته الأخرى، ذلك الذي همس إليه قائلا: «لطالما كنت أعرف أنك تفهم، وأنت بالطبع كذلك، فمن أعظم حالات الرضا أن يجد المرء شخصا آخر يفهمه، ويبدو أنك كنت موجودا دائما كلما سعيت إليك، ومن خلال الهمس نفسه، كما لو كنا عندما يتكلم الآخر أشياء غير التي نرغب في أن يسمعها العالم المحيط بنا»، ثم إنه أضاف: «إن ذلك لأمر مدهش تماما».

لقد تطلب هروب ذلك الشريك الخفي أن يعرض الكابتن سفينته لمخاطر جمة، وعندما ألقى نظرة خاطفة على القبعة التي منحها لشريكه وهي تطفو فوق سطح الماء، أدرك القبطان أن ذلك كان أشبه بإنقاذ لسفينته، كان نوعا من العلامة التي ساعدته على الخروج من جهله السابق بغرابته، غرابته التي كادت تقضي على سفينته، وقد كانت تلك هي اللحظة التي رأى القبطان فيها ذاته الثانية «رجلا حرا يسبح بقوة متجها بقوة نحو مصير جديد»، هكذا دخل كل رجل من هذين الرجلين عالما جديدا، أو بالأحرى دخله ذلك الرجل الوحيد المنعزل، القبطان من خلال تخيله لذلك الشريك الخفي الذي تبادل معه الحوار والملابس والطعام، وشعر من خلاله بإنسانيته ووجوده وطبيعته الحرة الجديدة.

دستويفسكي والقرين

في روايته «القرين» (أو «المثل») صور دستويفسكي تلك الرؤية المظلمة للعالم، حيث «جوليادكين» الموظف العصبي البسيط، يسير متتبعا شخصا ما غريبا، ثم يتعرف إليه في النهاية على أنه قرينه، ذلك الذي يذهب إلى بيت جوليادكين ويسكن فيه، ويحضر دائما معه إلى عمله، وفي البداية اعتقد جوليادكين أن ما يحدث له إنما هو مجرد حلم أو كابوس أو نكتة شنيعة، لكنه، شيئا فشيئا، بدأ يشك في وجوده هو ذاته، وفي أحيان أخرى كان يفقد قدرته على التفكير والتذكر. لم يبدُ على زملاء جوليادكين في العمل أنهم لاحظوا ذلك، لكن أحدهم قال له إنهما - هو وقرينه - يبدوان مثل القطط التوائم السيامية، وتدريجيا بدأ جوليادكين الأكبر (كما أطلق دستويفسكي على الشخص الأصلي، الموظف المتواضع البسيط)، يجري حوارات مع جوليادكين الأصغر (كما أطلق عليه دستويفسكي ذلك أيضا) الذي ظهر فجأة وبدأ يطارده، والذي كان يبدو أكثر مكرا وشرا من جوليادكين الأصلي أو الأكبر، وتدريجيّا بدأ جوليادكين الأكبر يدعو جوليادكين الأصغر إلى الطعام والشراب، وأصبحت العلاقة بينهما أقل توترا، بل إنه دعاه إلى أن يبقى معه ضيفا في بيته في الصباح التالي، وقد كانا يتبادلان هويتهما على نحو غامض بحيث ظن الخادم أن الأكبر هو الأصغر والعكس بالعكس، وعبر ساعات اليوم بدأ الأصغر يتسلل إلى مكان عمل الأكبر، يأخذ مكانه، ويحظى

بالتقدير والثناء من رؤسائه لو أجاد بعض مهام ذلك العمل. تدريجيا أيضا قرر الأكبر أنه لن يستطيع الاستمرار في تحمل أن يعامل مثل «خرقة بالية». وفي سلسلة من المشاهد الليلية تبدأ المطاردات بينهما، بل إن الأكبر يرى أنه لم يعد هناك قرين واحد له، بل عدد كبير من «الجوليادكينات»، الذين يطاردونه في الشوارع، بحيث امتلأت المدينة كلها بهم.

في النهاية يأخذ «الأصغر» كل ما كان يخص الأكبر من امتيازات وممتلكات وعلاقات، في حين يوضع «الأكبر» في مستشفى للأمراض العقلية، وعبر هذه الرواية لا تعرف ما إذا كان جوليادكين الأكبر ضحية لجنون من النوع المتفاقم، أو من النوع الذي يتزايد على نحو تدريجي كل يوم، أو أنه ضحية لقرينه المشؤوم الشرير، وحيث إن الذهان غالبا ما يشتمل على تفكك في الهوية، فإن هذين الاحتمالين قد يكونان صحيحين كما يقول بيتر بيسيك [22] P. Pesic.

وهكذا فإن عبور حدود الهوية قد يؤدي بصاحبها إلى دخول عالم غريب مثير للقلق والاضطراب، عالم قد يحتوي على الحقيقة أو العقل، وكذلك الجنون.

لقد كانت الأحلام المرعبة والكوابيس والهلاوس والخداعات الحسية والإدراكية والهذاءات والمخاوف القاتلة هي التي استأثرت باهتمام دستويفسكي أكثر من غيرها، وقد كان هذا هو ما جعل البعض يطلق عليه لقب «شكسبير المصحات العقلية». ومنذ أعماله الأولى كان دستويفسكي شديد الاهتمام بحالات الاضطراب الانفعالي، فكتب العام 1846 رواية «المثل» أو «القرين» The Double، وهي تمثيل كبير لهذا الاهتمام [23].

وقد كان دستويفسكي يعد هذه الرواية تحفة أعماله، ويعدها أيضا عملا بالغ «الجودة»، وفكرتها «ممتازة»، ونحاول فيما يلي أن نقدم تحليلا لشخصية جوليادكين، وهي الشخصية المحورية في رواية «المثل». ففي هذه الرواية هناك علامات قادرة على استثارة مشاعر الغرابة لدينا، كما أنها كانت متجسدة لدى الشخصية المحورية في هذه الرواية، وقد تفاقمت هذه المظاهر والعلامات حتى بلغت مرحلة الفصام أو الجنون، ونذكر منها ما يلي:

1 - الترديد الأعمى والتكرار الآلي للكلام: Ecolalia وهو سلوك يقوم في جوهره على تلك الآلية الأساسية المميزة للغرابة؛ ألا وهي التكرار، فهنا يقوم المريض بتكرار وترجيع الكلمات التي

يسمعها من دون فهم كامل لمعناها، وقد حدث - مثلا . في أثناء لقاء جوليادكين مع الطبيب أن دار الحوار التالي بينهما :

الطبيب: قل لي من فضلك : أين تسكن الآن؟

. أين أسكن الآن يا كريستيان إيفانوفتش؟

. نعم.. أريد أن أعرف .. أظن أنك كنت في الماضي تعيش.

. صحيح يا كريستيان إيفانوفتش، كنت أعيش، نعم كنت في الماضي أعيش، هذا واقع، كنت أعيش.

كان السيد جوليادكين يجيب بذلك مرفقا كلماته بضحكة نحيلة، ولاح أن جوابه قد بث القلق والاضطراب في نفس محدثه.

قال الطبيب:

. لا .. لقد أسأت فهم سؤالي... أردت أن أقول إنني من جهتي.

. أنا أيضا أردت أن أقول يا كريستيان إيفانوفتش إنني من جهتي.

إن هذا الحوار بين جوليادكين والطبيب يكون أساسا من أمثلة هذه الاضطرابات المعرفية التي تمثلت في شكل أفكار متطايرة، وعدم فهم للأسئلة، وخروج من موضوع إلى آخر من دون ترابط، ومحاكاة صوتية من دون فهم لكلام الطبيب، مع إسهاب وتفصيل واستطراد من دون مبرر أو ضرورة، مع آلية مفرطة في الحوار والاستجابة للأسئلة، وكلها علامات واضحة على هذه الغرابة التي وقع جوليادكين في براثنها.

2 - تكرار حدوث ظاهرة «سبق أن»، أو سبقت الرؤية dega vu، وهي وهم أو خداع إدراكي يتعلق بالألفة بشيء ما، وليس بسوء التفسير له، وهذه الحالة قد تحدث خلال اليقظة الكاملة لدى الأشخاص الأصحاء، ولكنها تحدث عادة أكثر في أثناء الأزمات النفسية، وحالات الوعي والخبرات الهلوسية، وفي أثناء الإفاقة من النوبات الصرعية، وهي ظاهرة ترتبط أيضا بآلية التكرار: تكرار الأحداث والأفكار، أو الاعتقاد بأنها تتكرر، وقد ذكرها فرويد وغيره في دراساتهم عن الغرابة. ومر جوليادكين بها أيضا، حيث عبر دستويفسكي عنها قائلا: «ومن تمام المصيبة أن الجو كان

رهيبا، فالثلج يتساقط أسناخا كبيرة، ويتسرب إلى داخل معطف صاحبنا، ولم يكن في وسع المرء أن يعرف الشارع الذي تجري فيه العربة سريعة سرعة شديدة، وفجأة شعر السيد جوليادكين بذلك الشعور الذي يحس صاحبه أنه «سبق له أن رأى ما يراه الآن»، فظل بضع لحظات يحاول أن يتذكر. تُرى ألم يوجس هذا كله في الليلة البارحة، في الحلم مثلا؟.. وأخذ قلقه يزداد شدة بغير انقطاع، هو الآن في دورة القلق، إنه يحتضر. أراد أن يصرخ وهو متشبث بعدوه الذي لا يرحم. ولكن صرخته فنيت على شفتيه، ثم جاءت لحظة نسيان كامل. شعر السيد جوليادكين شعورا غامضا بأن كل ما يقع له أمر لا سبيل إلى فهمه.. أمر لا فائدة منه.. أمر لا طائل من ورائه. أمر لا شأن به. باطل، وسخف أن يحتج».

3 - غلق الأفكار Thought Blockage أو فراغات التفكير: وتتمثل هذه الحالة في حدوث توقف مفاجئ في تيار التفكير، توقف يترك فراغا، وقد تبدأ فكرة جديدة، وقد كان دستويفسكي واعيا بنمو هذه الحالة وآثارها. في حالة جوليادكين.

4 - الأفكار العدمية: بالإضافة إلى أفكار الاضطهاد والإحالة، وشعوره بكابوسية العالم، تنتاب جوليادكين كثير من الأفكار العدمية، فيتمنى أن يكون ميتا، ويشعر بعدم حقيقة العالم أو وجوده، هذه الهذاءات العدمية Nihilistic delusions يسميها الأطباء الفرنسيون بهذاءات النفي negation؛ لأن المريض ينكر وجود جسمه وعقله، ومن يحبونه، والعالم المحيط به، وقد يؤكد أنه ليس لديه عقل ولا ذكاء، أو أن جسمه أو أجزاء منه ليست موجودة، وقد ينكر وجوده كشخص، أو أنه قد مات، فالعالم قد توقف، وكل شخص آخر قد مات.

5 - الوعي المنقسم: لقد تذبذب رأي جوليادكين في نفسه وفي الآخر، قرينه، ففي الليل يكون الآخر أقرب إلى الوداعة، ويحاول التقرب إلى جوليادكين، ويحاول مساعدته على إشباع بعض رغباته المحبطة، أما في النهار فيكون شرسا محبطا

عدوانيا مرواغا، ومن ثم يتفاوت رأي جوليادكين في قرينه، فهو أحيانا طيب وأحيانا شــرير، أحيانا جدير بالإعجاب وأحيانا بالاحتقار، لكن الصورة تزداد قتامتها شيئا فشيئا، وتتحول إلى شـــر واحتقار وشراســـة وعدوان، ومن خلال الصور الهلوسية النهارية والليلية يكشـــف دستويفســـكي عن أعماق جوليادكين وطموحاته ومخاوفه، إنه خاضع لسيطرة رؤسائه، يشعر بالذلة والهوان كلما تعامل معهم، إنه يخلق بداخله شخصا آخر يشبهه، لكنه يحســـن التعامل مع رؤسائه، إنه يحقق من خلاله ما عجز عـــن تحقيقه في الواقع، إنه يحاول إعـــادة الاتزان إلى فوضى النفس الداخلية من خلال التهويمات والهلاوس والأحلام.

6 - روح هائمة في الطرقات: لم تكن هذه الخبرة الهلوسية خبرة جيدة مشبعة بالنسبة إلى جوليادكين، وربما كانت كذلك في البداية، لكنها ســـرعان ما أصبحت خبرة كابوســـية قاتمة شـــديدة القدرة على إحداث الرعب والفوضـــى العقلية، مما جعلـــه دائما يهيم على وجهه في الطرقات وفي الشـــوارع، في حين تصفعه هبـــات العاصفة، وتغرقه الأمطـــار، وخلال هذا الجو المرعب يظهر له قرينه دائما ويطارده، ومع تزايد الخوف والرعب والمطاردة يزداد انشـــطار النفس وانقســـامها، ويزداد تصدع العقل وانشقاقه، ويختلط عالم الحلم بعالم الواقع، «إنه يركض الآن قدما على غيـــر هدى، لا يدري أين يذهب، ولكنه كلمـــا خطا خطوة، وكلما قرعت قدمه أســـفلت الرصيف مرة، انبجـــس إلى جانبه عدو جديد كأنـــه يخرج من باطن الأرض، انبجس جوليادكين جديد، انبجس ذلك الدجال نفســـه رهيبا حقيرا باعثا على التقزز والاشـــمئزاز كمـــا كان، ويأخذ هؤلاء الأشـــخاص المتشـــابهون جميعا يركضون، الواحد وراء الآخر، فكأنهم ســـرب من الإوز يطارد بطلنـــا ويلاحقه، أصبح بطلنا لا يعـــرف إلى أين يهرب، أصبح لا يعرف كيف ينجو من هؤلاء «الجوليادكينات» الذين يجرون وراءه حتى تقطعت أنفاس بطلنا المسكين، وســـرعان ما حاصره هؤلاء الأشـــخاص المتشابهون

مـــن كل جهة، إنهم ألـــوف، إنهم مبثوثون فـــي كل مكان. إنهم يجتاحون جميع شوارع العاصمة. وهذا رجل من رجال الشرطة يرى نفســـه مضطرا أمام هذا التراكم الفاضح إلى أن يمسك بتلابيبهم، فيقبض عليهم ويحبسهم في مركز مجاور من مراكز الشـــرطة. واســـتيقظ بطلنا وقد تجمد من الخـــوف والذعر وتخدرت أعضـــاؤه... فإذا هو يـــرى أن الواقع ليس خيرا من المنام. إن هذا الحلم الســـحري العجيب هو مركز الرواية، كما يقول «ديمتري تشيزيفســـكي»، وفيه يكمن جواب السؤال عن «مكان الإنسان» بشكل واضح. إن جوليادكين (وهنا يكمن مغزاه النموذجي أو مغزاه الاجتماعي كما يقول دستويفســـكي) ليس لـــه مكان خـــاص به، ولم يكن قد أحرز مكانـــا قط في حياته، فليس له «مجال» في حياته باســـتثناء الزاوية التي توجد خلف الخزانة أو الموقد، حيث يختفي من اضطهاد أعدائه الوهميين، وفي هذا الصدد نجد جوليادكين شبيها بشخصيات أخرى لدى دستويفسكي: الحلم في «ليال بيضاء»، و«قصة من بطرسبرغ»، وأبطال «قلب ضعيف»، والســـيد بروخاركين ومارميلادوف في «الجريمة والعقاب»، إن هناك شيئا ما غير بشري، شيئا متشيئا في انعدام وجود مكان للشخص خاص به [24].

7 - وعـــي في فوضى: يتخيـــل جوليادكين رؤية أشـــياء وأشخاص وحيوانات وظواهر ليست موجودة، ويعاني ضعف الذاكرة، على الرغم من فيضانات التداعيات غير المحدودة، وتتجمع لديه الأفكار وتتفـــرق، وتتقارب وتتباعد، يعاني من الآخر الذي يحصل على كل شيء، في حين أن الأنا لا تحصل على أي شـــيء، ذلك الآخر الذي يظهـــر دائما «مرحا فرحا نشـــيطا على عادته، كثير الحركة، متواثب الخطى، ســـافر اللهجة، شـــديد التملق، حاضـــر البديهة، ســـريع الجواب، خفيف الساقين، يسلم عليه الجميع، ويرحبون به، ويفرحون بمقدمه»، هذا في حين يعاني جوليادكين الحقيقي الاكتئاب

والحزن والخمول، واضطراب الحركة، وتفكك الكلام والتفكير، والاصطدام بالآخرين وتجاهلهم له، ويكثر من النظر إلى المرآة والتحديق في ملامحه، وهو يشعر بغرابة كل الأشياء حوله، ويتخيل حدوث أشياء لم تحدث، فيعتقد أن الرسائل التي يكتبها تسرق منه، في حين أن واقع الأمر هو أن هذه الوسائل لم تسرق قط لأنها لم تكتب أصلا.

8 - اختلال الشعور بالشخصية depersonalization وبالواقع derealization: وقد تحدثنا عن هذه المشاعر أو الاضطراب في مواضع أخرى من هذا الكتاب، وهنا يفقد الشخص صلاته بالآخرين، ويشعر بأنه أصبح يشبه الآلة، ويقوم بأنشطته بطريقة ميكانيكية مملة ورتيبة، وترتبط هذه الحالة عادة بحالة اختلال الشعور بالواقع، حيث تبدو البيئة للفرد غريبة، غير واقعية، أو خالية من كل المعاني العاطفية، وتتفاقم هذه الاضطرابات في حالات الفصام والاكتئاب الحاد والهستيريا، وفي حالات القلق. إن هذه الأفكار غالبا ما تكون هذائية، وأحيانا ما يعرف المريض شذوذها، ويشكو من الاضطراب الذي تسببه له.

يقول جوليادكين لنفسه: «أنا، أنا، أنا، ما أنا، لا شيء، يمينا لست أنا، لست أنا حتما»، معبرا عن اختلال شعوره بذاته، وإحساسه بغرابة نفسه وتصرفاته، وفي أحيان كثيرة. كما كان جوليادكين أيضا. «لا يعلم علم اليقين، أكل ما يراه حوله هو جزء من العالم الواقعي أم هو امتداد الرؤى المضطربة التي رآها في حلم؟».

9 - الإحساس بالحضور The sense of presense:

ومن الصعب تصنيف الإحساس بالحضور، حيث هنا يشعر الشخص بأنه في حضور شخص ما، أو أن شخصا ما يوجد معه، على الرغم من عدم الوجود الفعلي لهذا الشخص الثاني، وهو ليس حالة من الخداع الإدراكي، ومعظم الناس العاديين يكون لديهم الشعور بوجود شخص آخر معهم حينما يكونون في حالة وحدة، أو عندما يسيرون في الشوارع المظلمة، أو يصعدون قفزا سلما شاحب الإضاءة لأحد المنازل في الليل،

ففي أثناء ذلك يشعرون بأن شخصا ما يقف أو يمشي أو يجري خلفهم، وبداخلهم يحاولون السخرية من هذا الشعور، لكنهم في الواقع يتلفتون حولهم وخلفهم، بين الفينة والفينة، للتأكد من عدم وجود هذا الشخص، كما أن بعض المرضى قد يشعرون بأن هناك شخصا ما موجودا، لكنهم لا يستطيعون رؤيته، وقد لا يعرفون من هو، وقد تحدث هذه الحالة نتيجة نقص النوم، أو الجوع، أو حالات اضطراب الوعي والوجدان، كما أنها تحدث في الحالات العضوية في المخ، وفي الفصام، والهستيريا، كما أنها ترتبط بالحس الشبحي والأشباح، في مخاوف الوحدة والظلام. وقد كان جوليادكين في «القرين» يشعر بمثل هذا الإحساس، فقد كان يشعر في البداية بحضور شخص ما يوجد معه دائما، يتعقبه، لكنه لا يراه، يقترب منه بطريقة شبحية مبهمة، ثم يبتعد عنه، يحضر متلفعا بالضباب ومتسربلا بالظلام والجليد، لكنه لا يدركه، ثم تفاقمت الحالة فلم تعد مجرد شعور بالحضور؛ بل صارت إحساسا إدراكيا هلوسيا بوجوده ومشاهدته وسماعه والهرب منه.

لقد ظلت مشكلة الازدواجية والثنائية في الطبيعة البشرية تؤرق دستويفسكي، وتشكل المعالم البارزة لكثير من أعماله. وقد تردد موضوع الشخص الثاني لديه مرة أخرى في رواية «الممسوسون» (1872 - 1873)، وفي رواية «الشباب الغض» (1875)، وفي رواية «الإخوة كارامازوف» (1879 - 1880)، لكن أيا ما كانت تجليات هذه الفكرة، وأيا ما كان شكل ترددها وتكرارها في هذه الأعمال، فإن رواية «المثل» أو «القرين» تظل هي الدرة المتفردة في عقد دستويفسكي الفريد في هذا الشأن.

قرين سليمان فياض

وقرين سليمان فياض شبيه بقرين دستويفسكي، تقع عيناه عليه أولا في مرآة موجودة في غرفة نومه، يحاكي حركاته ويتابعه في كل مكان، كان ذلك القرين، هو «ذلك الآخر الموجود الواقف بمقابلي في المرآة»، ثم أصبح ذلك الآخر يضايقه ويتدخل في قراءاته، وفي تفكيره، وفي لغته، حتى يشعر بالإرهاق نتيجة مطاردته له [25].

«أحسســت بالإرهاق منه، حدثت نفســي بأنني أكرهه، ذلك الآخر الذي يلازمني، أغفل عنه، فإذا به ينبهني إلى وجوده، أنســاه تماما، فيصر على أن يذكرنــي. أجلس وحيدا أفكر بعقل وروية، فإذا به يعبث بكل أفكاري، يبددها، ويشــتتها ويحيلها أحلام يقظة». هكذا تســتمر عمليات المطــاردة والمراقبة والتدخــل التي يقــوم بها ذلك الآخر، فــي حياة الراوي، فــي يقظته ونومه، فــي أفكاره وانفعالاته، وهو يصفه مرة بأنــه «آخر»، ومرة بأنه «حيوان الغابة الغريــزي»، الجانب الداخلي البدائي منه، المخيف المدمر منه، المقابل لـ «الهو» الغريــزي، عند فرويد. وعندما يصف الراوي ذلك الآخر بأنه إنســان الغابة الغريزي، فإن ذلك الآخر يصفه بأنه «مهرج يرتدي قناعا»، هنا يرد في أذهاننا على الفور تمييز يونغ بين القناع الاجتماعي والظل الغريزي، هنا القرين ظل غريزي للقناع الاجتماعي.

وتــردد هنا حوارات كثيرة بين الراوي وقرينه حول الخير والشــر والنور والظلام والظاهر والباطن وتســتمر المطاردات، ويســتمر القرين. كما قال الراوي. «يخلو إليَّ إذا خلوت، هامســا، وموسوســا، وموشوشا، ومتنقلا من موضوع إلــى موضوع، وفجأة، داعيا إلــى كل الخواطر المقبضة، والمحزنة، والمتشائمة، والعدوانية، من دون أي رحمة».

ويشكو الراوي إلى زوجته من هذه المعاناة والمطاردة، فتطلب منه أن يكتب عنه قصة، فيفكر فيه ويكتشــف أنه أغرب شخص التقاه في حياته، وأنه «أكثر من عرفت خفاء وتخفيا، وجودا وعدما، ولأن أجدادي القدماء الذين حدثتنــي عنهم أحجارهم عرفوه، وخافوه، وتــوددوا إليه بالصورة والرمز، والنقوش والتماثيل، والأدعية والمواكب، والأحجبة والتعاويذ، والأطعمة في المقابر، في انتظار عودته، وحلوله بعد الموت، ولأنه على ما وعيت منه اليوم، ملاك وشــيطان، وصعلوك وشــريف، في وقت واحد، وبصورة لم يعهدها أحد بعد، ســوى لحظات حدس عابرة، وربما ســوى المجانين، والعباقرة، والأنبياء، وقــادة الجيوش، وعلماء النفس والفنانــين، والزعماء المصابين بجنون العظمة... إلخ، ولأنه نموذج فريد للغريزة والضمير معا، فقد آثرت أن أدعها، تلك التي إلى جواري (زوجته) آمنة وادعة، وأدع نفســي إلى حد ما، في دفء أمنها، ودعتها».

هنا يكتسب القرين - لدى سليمان فياض - بعدا تاريخيا ثقافيا دينيا إنسانيا، فهو يدرك أن من يطارده هو طبيعته البشرية، هو غريزته، هو ضميره، هو ظله الداخلي الموجود خلف القناع، وهو أيضا الغريب الموجود خلف هذه الواجهة المألوفة للشخصية، وهو أيضا الغريب الملازم له المرتبط، مرة بالموت، ومرة بالخلود، وتستمر المطاردة، ويدرك الراوي تدريجيا أن قرينه يشبهه جسدا، وصوتا وحركة، وفكرا، وأنه - أي الراوي - ليس إلا شخصية منشطرة منقسمة إلى قسمين يطارد أحدهما الآخر، ويتذكر طفولته وصباه، وينسب كل ما قام به من أفعال شريرة إلى قرينه، وكل ما قام به من أفعال خيرة إلى نفسه، ثم يزداد يقينه بأن «ذلك القرين الذي هو غريب عني، أكثر ما تكون الغربة، قريب مني أكثر ما يكون القرب»، وأنه مثل شيطان الجزيرة الذي ورد ذكره في قصص ألف ليلة وليلة، يركب فوق كتفه، وتستمر المطاردات، وتستمر المعاناة، ويناديه في سره، «يا غريبي، في كل مكان من البيت، والشارع والمدرسة، في النهار، أشعر بالحياة تدب في الأشياء حولي، وأرى مواكب الناس تتحرك، محدقة فيما حولها ولا تراه، متأملة في داخلها ولا تفهمه. من بينهم أرى أصدقائي وحيدين، ومغتربين مثلي. تزحف عليهم الأشياء، تتحرك وتسعى، تحاصرهم بأكف غير منظورة، مملوءة بالمغريات والمحاذير، وهم يتكلمون بلا صوت، أفواه منفرجة تثير الضحك، يتساقط منها الكلام بلا حروف، ولا معان، وجوه تحمل عيونا، وأنفا، وفما، وأذنين، وليس من يد لأحدها» [26].

هنا يكون قرين سليمان فياض، هو غريبه، هو وحيده، الإنسان الذي هو أكثر الكائنات غرابة في الحياة كما قال هيدغر، هنا الحياة تستمر، واللامعنى يحضر، والمواكب تتدافع، ويظل الإنسان غريبا، غريبا بالنسبة إلى نفسه، وبالنسبة إلى الآخرين، وإنه عندما يدرك طبيعته المزدوجة، عندما يدرك أنه ليس خالدا كما يرجو، بل إن الموت والعبث يحاصرانه في كل لحظة، وأن الإنسان أكثر الكائنات وحدة وغرابة في هذا الكون، عندما يحضر الموت في الحياة، ويكون الأصدقاء كما قال على حافة الجنون، فإنه يقرر أن يتحد بـ «قرينه»، يصبح مثله، يسلم نفسه إليه، لا يقاومه، لا يعاني ازدواجية الداخل (الغريزة) والخارج (القناع)، بل يترك نفسه يفعل ما يحب ويرغب، ويقول ما يفكر فيه، لا أن يغلفه بتبريرات وأكاذيب، يتخلص من غرابته، لكنه يشعر مع ذلك أيضا «بالفجيعة التي تحولت إلى وحدة موحشة،

ورعب حقيقي، حيث فتحت عيني وامتلأ فمي بمرارة لم تفارقني، وأنا أجهد لأزيح عن صدري كابوسا مفزعا». لقد أدرك أنه لا مهرب له من قرينه، وأن ازدواجيته قارة، وانقسامه مقيم ما بقي حيا، وأن محاولته للهروب من قرينه قد أسلمته إلى الهروب إليه، وأن وجود قرينه الخاص كـ «ظل»، كـ «آخر»، لن يكون ممكنا، لن يكون محتملا، لن يكون قائما، إلا من خلال وجوده هو الخاص أيضا كـ «أنا»، و«ذات»، و«عقل»، و«قناع»، وواجهة، وتظاهر أيضا.

أشباه أخرى وأقران

في رواية «عام وفاة ريكاردوريس»، للكاتب البرتغالي هوزيه ساراماغو (1984)، نجد أن الشخصية الرئيسية فيها هي قرين الشاعر البرتغالي المعروف فرناندو بيسوا، وقد كان - بيسوا - يكتب أعماله تحت ثلاثة أسماء مستعارة، كل منها أشبه بقرين له. هنا يعود القرين إلى البرتغال، قادما من البرازيل، بعد وفاة بيسوا، وينسج ساراماغو روايته - كما يشير فخري صالح - «بأسلوب الواقعية السحرية، مذكرا القارئ بأجواء ماركيز، وخورخي لويس بورخيس، حيث يتردد شبح فرناندو بيسوا الميت على الشخصية الرئيسية في الرواية، ونحن نعلم من سياق السرد أن شخصية الرواية الرئيسية على نفسها من بين اختلافات الشاعر الميت فرناندو بيسوا، ومع ذلك، فإن شبح الشاعر وقرينه الشخصي يتبادلان في صفحات هذا العمل، تأمل الوجود وشروطه» [27]. إن ساراماغو - هنا - يدعونا لكي نتأمل في البرتغال والعالم في أثناء الثلاثينيات المائجة بالاضطراب من خلال عيني ريكاردوريس الذي هو الاسم المستعار لفرناندو بيسوا، الشاعر الشهير الذي يعود كشبح ويتردد على الشخصية المحورية في الزاوية، ريكاردوريس، وإن كان أحد الأسماء الثلاثة لـ «بيسوا الشاعر»، نفسه، في حياته، وقد أشار بيسوا أيضا إلى أن أسماءه هذه لم تكن مجرد أسماء مستعارة؛ بل دليل على شخصيات متعددة نمتلكها نحن جميعا، فهي بمنزلة أوجه ومظاهر لا تحصى لأنفسنا [28].

وفي قصة أخرى عن القرين هي «ذكرى رجل غير مهم»، للكاتب الإسباني خوسيه مياس، يرى أولغادو نفسه يساوم بالفرنسية التي ليست لغته الأصلية، إحدى بنات الليل على ناصية شارع لا يعرف، وتدريجيا يشعر بأن له ذاتا

أخرى موازية لحياته، لا تعيش معه في وطنه؛ بل تعيش في أرض بديلة غريبة. هكذا يتأرجح أولغادو - كما يشير فوزي فهمي - بين ثنائية وجود الشخصين في مكانين مختلفين، متماديا في العيش في وطنين بهويتين يتعامل في ظلهما مع النقيض معا. وينطلق أولغادو في الملذات مع أصدقاء صاخبين، ويرتاد أماكن المتعة الليلية التي لا يجرؤ أولغادو على الذهاب أبدا إليها، ويزداد انفصال هذه الذات الأخرى عن صاحبها، فيرى نفسه يخنق زوجته الفرنسية، ثم يسقط مريضا ملازما الفراش، يحاول الخلاص من ذاته الفرنسية، لكن تتابه المخاوف الشديدة جدا، والرعب أيضا من الموت مثلما ماتت ذاته الأخرى [29]، وتستمر لديه المخاوف والهلاوس واضطرابات الوعي والوجدان.

رانك والقرين

كان المظهر الخاص برجل الرمال في قصة هوفمان عنه، بوصفه استجابة للقلق الجنسي والخوف من الخصاء لدى ناثانيل، هو ما جعل فرويد، متابعا في ذلك المحلل النفسي الشهير أوتو رانك، يطلق عليه لقب «القرين»، بوصفه نوعا من الإسقاط الخارجي للصور والصراعات الداخلية الخاصة بالذات - وهي هنا ناثانيل - على شخص أو صورة متجسدة في الخارج، ومثل هذا الازدواج كما قال رانك، يجلب نوعا من التحرر الداخلي، نوعا من التخفف من العبء بإسقاطه أو نسبته إلى شخص موجود خارج الذات يصبح هو المسؤول عن هذه الصور والدوافع المسببة للقلق والخوف والرعب، إنه نوع من التحرر والحرية من خلال التكرار، التكرار لمشاعر الذنب أو الرغبات، أو القلق، التي تخفف المرء منها وجسدها في الخارج من خلال نسبتها إلى آخر، قرين، أو شبح، أو ظل، أو عمل إبداعي أو صورة أخرى من الذات.

في كتابه عن «القرين» تتبع رانك جذور هذه الفكرة في التراث الشعبي أو الفولكلور الإنساني والسينما والأدب والتجليات الأنثروبولوجية للازدواج وغيرها، وكما يظهر ذلك في الأفكار الخاصة بالظلال Shades والانعكاسات والأشقاء والتوائم وغيرها. حيث توجد لدى بعض المجتمعات البدائية بعض الأفكار التقليدية والخرافية عن الظلال، والعلاقات بين الظل والروح، ففي جزر سليمان، مثلا يحكم على أي شخص يخطو فوق ظل الملك بالموت، وفي

مجتمعات أخرى يكون أمرا بالغ الخطورة أن تجعل ظلك يسقط فوق جثة ميت، وأي شخص لا ظل له يمكن أن يموت في الحال أو يصبح عاجزا جنسيا، وفي الفولكلور الألماني من يرى ظله أو قرينه فإنه يرى موته [30].

لا تحدق في صورتك .. لا تحدق في المرآة

تعتقد بعض القبائل في أمريكا الشمالية والوسطى أن الصور تسرق الروح وهي الفكرة التي كان يعتقد فيها الروائي الفرنسي الشهير بلزاك أيضا، حيث كان يعتقد أن كل إنسان يتكون جسده من عدة طبقات روحية، وأن في كل عملية تصوير فوتوغرافي لهذا الجسد تُسرق طبقة من طبقات الروح هذه وتبدد في الفضاء، ومع استمرار التصوير، ومع تكراره، تتكرر عملية السرقة للروح حتى يصبح الإنسان في النهاية بلا روح.

تكمن أرواح الموتى، كما تعتقد بعض الشعوب وكما أشار رانك، في المرايا، ومن هنا كانت تلك العادة التي ماتزال باقية لدى بعض الشعوب الأوروبية حتى الآن لتغطية المرايا الموجودة في المنزل الذي يموت فيه أحد الأشخاص حتى لا تظل روحه موجودة باقية داخل المنزل تسكن هذه المرايا.

وتعمل الصورة الخاصة بالظل أو المرآة هنا، كنوع من القرين أو الشبيه الذي يحمي ويدافع ضد الانقسام والفقد، من خلال تكرار صورة المرء، جسده، روحه، التكرار الذي قد يعني الاستمرار والخلود والمقاومة للفناء، لكن هذا التكرار الذي يتمثل في القرين أو الظل أو المرآة أو الصور.. إلخ قد يمثل أيضا نوعا من التهديد، حالة من التنبؤ بالموت، فأن تحدق في انعكاسك/روحك/صورتك لوقت طويل، قد تفقد هذه الروح كما حدث بالنسبة إلى نرسيس (أو نرجس) حيث تصبح الصورة المنعكسة المتكررة هي البديل للأصل، ويصبح الأصل، الذات، مختفيا خلف الصورة، أو ربما ميتا بداخلها.

القرين إذن حالة مزدوجة تتضمن محاولة للبقاء والخلود من خلال ذات أخرى، صورة أخرى، ظل آخر، مرآة أخرى، إبداع آخر، لكنها حالة قد تتضمن أيضا نوعا من الخوف من الموت، التهديد به، من خلال هذا التكرار الدائم للصور الذي يسرق الروح مثلما يظهر التكرار في النرجسية بين أصل وصورة منعكسة في مرآة أو مياه، فإن استغراق هذا الأصل في صورته، غيابه فيها، عشقه لها ينتهي بتبدد الأصل وموته أيضا. ولدى لاكان يحدث الازدواج خلال مرحلة المرآة عندما يخطيء الطفل في التعرف على نفسه على أنه ذات واحدة، ويتعرفها على أنها منقسمة،

موجودة هنا وهنا، تفتقر إلى الوحدة، موجودة كأصل وظل، تفتقر إلى وحدة ذات أشكال ومظاهر عدة، تعود بعد ذلك عبر الحياة وتكشف عن التشظي والانقسام وعملية الإبدال والإحلال لصور وأشياء عدة من الذات لا تنتهي.

هكذا يكون القرين حالة معبرة أيضا عن آليات «اللاحسم» والفقد لليقين والتردد، يؤكد الخلود والاستمرار، وخلال هذا التأكيد، يكون أيضا نذيرا غريبا بالموت والفناء.

كذلك حال الأشباح، تؤكد حدوث الموت لكنها ترفضه أيضا فتعود إلى الحياة، ومن ثم فهو نوع من التجلي لفكرة القرين والازدواج والتردد أيضا والشبح لدى سيكسو هو الخيال السردي الخاص بعلاقتنا مع الموت، و«الأشباح» «والطيفية» مصطلحان منتشران في النظرية ما بعد البنيوية وكما أوضحنا ذلك في مواضع عدة من هذا الكتاب، ومفهوم الطيف لدى دريدا مفهوم محوري في تحليله التفكيكي للعلاقات المتنوعة الخاصة بالحضور والغياب، الماضي والحاضر، والحياة والموت، والذات والآخر، بل والآخر داخل الذات وحيث كل شيء لديه، مثل: الحقيقة والقانون، والروح القدس، يعود كي يهوّم أو يرود ويسكن كل شيء من خلال أطيافه الخاصة مثلما تعود أطياف ماركس أي أفكاره لتهوّم في أوروبا وتسكنها ليس في الحاضر فقط بل في المستقبل أيضا.

ومثلما يحدث اختلال في الشعور بالواقع وبالذات خلال عملية الحركة المتكررة في المكان، كما حدث لدى فرويد وذكرناه في الفصل السابع من هذا الكتاب، فكذلك تقوم الأشباح والأطياف بإحداث وتمزيق وعبور للحدود الزمانية والمكانية فيكون تأثيرها البالغ، فتحدث اضطرابا في النفس وفي الدلالة المعنوية والأدبية أيضا وهو اضطراب أطلق عليه دريدا اسم «الأسبقية الطيفية» التي تسبق أو تلازم كل فعل أو جريمة أو تراجيديا وحيث كل دافع إنساني يروده دافع أو فكرة طيفية سابقة عليه.

مثلما قام طيف الملك، والد هاملت في مسرحية شكسبير المشهورة، بالإيحاء بحل اللغز المتعلق بحالة التردد والعجز عن الفعل أو اللاحسم، التي وقع هاملت فيها، لكنه لم يحل هذا اللغز، فإن طيف ذلك الملك كان يعود، مرة بعد أخرى، كي يحدث الاضطراب في تلك التصورات الأولى أو الأصلية التي كانت موجودة لدى هاملت عن الحب والموت والحياة والإخلاص وغيرها. وتردد هاملت هو - في رأينا - نموذج موضح لحالات اللاحسم والفقدان لليقين، وذلك لأن تردده كان يقوم ليس بين «أن يكون أو لا يكون فقط»، في الحياة بل بين أن يكون موجودا

في عالم الواقع مرة وفي عالم الخيال مرة أخرى، وفيهما معا مرة ثالثة أيضا.

وإنه كما قال دريدا أيضا، فإن الطيف هو دائما «عائد بعد غياب»، لا يمكن للمرء أن يتحكم في مجيئه أو غيابه، والتكرار لدى دريدا هنا ليس عودة لاحقة للأصل، أو تالية لوجوده، لكنه أمر ملازم له أيضا، وبمصطلحات «لاكان»، فإنه قد يمكن النظر إلى الشبح أيضا على أنه تمثيل لخفوت الذات من خلال اغترابها في خطاب الآخر [31].

خاتمة الفصل

في قصص القرين ورواياته التي استعرضناها سابقا، يمكننا أن نرى مصداقية خاصة لتلك المسلمات التي طرحها أندرو ويبر والتي استعرضناها في هذا الفصل عن فكرة القرين. ففي هذه القصص والروايات هناك حضور خاص للتكرار البصري والازدواج، حيث القرين، ذاته، نوع من التكرار المرئي للذات، تدركه هذه الذات وقد تهرب منه، أو تسعى وراءه وتلاحقه. وهناك أيضا حضور واضح لمسلمة «الكلام المزدوج»، حيث اضطراب اللغة وتشوهها وتكرارها فيما يشبه الترديد الأعمى للكلمات والجمل والأسئلة والأجوبة، أحيانا على نحو ساخر، وأحيانا على نحو جاد. وقل الأمر نفسه عن مسلمات الاضطراب الحركي، والفضول الجسدي والمعرفي، وقوة اللعب، والإبدال، والإزاحة، والعودة القهرية للصور والكلمات والحركات والأفكار. كذلك كانت معظم أمثلة القرين التي استعرضناها من الذكور أيضا وبما يتفق مع ما ذكره ويبر من مسلمات. كما أن هذه النماذج من القرين كانت غالبا نتاجات لبيوت غير مألوفة وغير مستقرة، ولأوطان مضطربة وأحيانا مدمرة. ولا تحضر هذه المسلمات جميعها في القصص والروايات التي استعرضناها بدرجة واحدة من الحضور فقد يحضر بعضها ويغيب البعض الآخر لدى هذا الكاتب أو ذاك، لكن تزايد حضور العدد الأكبر منها يكشف عن عمق هذه الفكرة وروعة تجليها كما وجدنا ذلك عند دستويفسكي، تمثيلا لا حصرا.

هكذا تجسد فكرة القرين الخوف من الوحش الذي في الداخل، مثلما تجسد أيضا فكرة الوحش الذي في الخارج، وقد يكتشف الإنسان في النهاية - كما حدث في رواية «قلب الظلام» - أن ذلك الوحش الذي ظنه موجودا في الخارج كان - في واقع الأمر - موجودا في الداخل، وأن رحلته من أجل قتل الوحش الموجود في الخارج إنما أوصلته إلى معرفة الوحش الذي في داخله

هو، وأن ذلك الوحش الموجود في الخارج، ليس وحشا، بل إنسان، وربما أقل وحشية وأكثر إنسانية منه؛ ومن ثم فإنه قد يتوحد معه، وقد تتحول رقته الظاهرية إلى وحشية حقيقية مضاعفة.

ولعل ما اهتم به باحثون في هذا المجال مثل ويبر. على نحو خاص. هو القرين كشخصية تتعلق بالإزاحة والإحلال، شخصية تلازم البيئة، وتُحدِث الاضطراب فيها بوصفها جزءا منها. إنها تمثل ذلك الاعتماد المتبادل الوثيق بين عوالم الواقع والخيال، من خلال تمثيلهما معا بوصفهما قابلين للحضور معا، للمثول معا في ذلك الموقع الذي تتم خلاله المواجهة مع القرين. واعتمادا على ما قدمه فرويد، قد يكون القرين هو الغريب أو الغرابة النماذجية البدائية النمطية، صورة أولية قديمة خاصة بالغريب والغرابة، كما توجد ملازمة للبيت، ومن ثم فإنه قد يجسد ذلك الانقسام التكويني، البيتي الأليف في الحالة الخاصة بالذات، أو أنه تجسيد للرغبة الدائمة لدى الذات، لأن يكون المرء في بيته، وليس مجرد زائر له، حيث يرتبط القرين بالهوية المزدوجة، حيث يوجد الشخص ونقيضه، الجانب الأليف الحميم من الشخصية والجانب المنفر البغيض منها، الذات المرتبطة بالألفة والبيت، والمرتبطة بانتفاء الألفة والوحشة والغربة والغرابة، وحيث البيت - كما قلنا - مفهوم مزدوج هنا أيضا، مفهوم يجمع بين الألفة التي قد تتحول إلى عدم ألفة أو وحشة، وعدم الألفة التي قد تتحول إلى ألفة واطمئنان. هكذا فإن البيت هو أيضا مفهوم ديالتيكي يجمع بين جانبين أحدهما إيجابي والآخر سلبي، حيث المفهوم الإيجابي يدل - من بين ما يدل عليه - على الحياة السرية الغامضة الموجودة في الداخل والملازمة للألفة، والتي تحاول أن تحافظ عليها، ولكنها التي تعاني أيضا مخاوف مستمرة من قدوم آخر غريب دخيل خارجي يهز استقرار البيت، ويقلب الألفة إلى وحشة [32].

هذا الانقسام الذي يحدث داخل الذات وفي النظام الخاص بالواقع يتم الامتداد به وإسقاطه على شخص خارجي يُتَخَيَّل وجوده، هنا وهناك، قد يقال إن القرين - وفيما يشبه المفارقة - يهدم المبدأ الجمالي الخاص بالتشكيل أو المجاز أو التشبيه، ذلك العمل البارع الخاص بالمحاكاة، أي تكرار الواقع وازدواجه من خلال شيء أو شخص غير واقعي. ثم إن ذلك الشبح الخاص بالذات، الذي خلقته الذات، سرعان ما يصبح مصدر تهديد لها، ومن ثم فإنه يقوض تلك المزاعم الموضوعية الخاصة بالواقعية، إنه

يحـــوي بعض التأثيرات المماثلة أو الخاصة بالصور الفوتوغرافية الســـلبية (النيجاتيف أو العفريتة كما تسمى في اللغة الدارجة في مصر مثلا) وكتابه يتكئون على تخيلات مكبوتة، أو على مصدر من الشعور بعدم الأمن والأمان العميــق، أو أنهم يحاولون - من خـــلال إبداعهم - أن يحددوا مقدار الأمان الذي فيه ويؤكدوه.

وهذا الانقســـام بين فردين كانا في البداية شـــخصا واحدا، أو ممثلين كتوائم، سواء كانوا من التوائم الحقيقيين، أو من المماثلين للتوائم، هو خاصية مميزة للأساطير أيضا في كثير من قارات العالم، وكما أشار إلى ذلك عالم الأنثروبولوجيا الفرنسي الشهير كلود ليفي شتراوس على نحو خاص، حيث أشار إلى ارتباط فكرة التوائم والقرين بثنائية الخير والشر، والنور والظلام، وبالقوى التي تقوم بالوســـاطة بينهما، كما تمثلها الأرانب مشـــقوقة الشفاه وغيرها من الرموز التي أشار إليها هذا العالم [33].

هكـــذا يقاوم القرين التحديد الأدبي التاريخي التصنيفي، ومثله مثل كل الأشـــباح، يكون خلال الوقت نفسه، شخصية تاريخية، تعيد عرض الأزمنة الماضيـــة المنقضية، لكنه أيضا ظاهرة غير تاريخيـــة، إنه حالة من المقاومة للتغير الزمني، من خلال خطوة خارج الزمن، ثم عودته إليه، مرة أخرى، كنوع مـــن العودة الانتقامية للغائب، إنه يعود كي يقطع التطور الســـردي الخطي لمضيفه؛ ومن ثم فإنه يحدث الحيرة والارتباط والتشـــوش في أي سرد أدبي تاريخي مباشر[34]، ومن ثم فإن السرد المتعاقب كثيرا ما تُقطع روابطه وتُمَزَّق من خلال تلك اللحظات المتجمدة من المواجهة مع القرين.

وهكذا فإن في قصص القرين ورواياته، يمكننا أن نجد مثل هذا الحكي المزدوج، أو الســـرد المزدوج، الذي يقول شـــيئا ويعني شيئا آخر، يظهر شيئا ويحجب شـــيئا آخر، وهـــذه الآلية الخاصة بالتمويه والإخفاء، ثم الكشـــف والإظهار، آلية أساســـية في الأحلام والأســـاطير والإبـــداع الفني والأدبي، وكذلك في القصص المجســـدة لتفكك الذات وانقســـامها، وكما هي الحال - على نحو خاص - في قصص الأقران والأشباه والأشباح والظلال.



7

روح هائمة في المكان

«ستلاحقك المدينة وستهيم
في الشوارع ذاتها
ستدركك الشيخوخة في هذه
الأحياء بعينها
وفي البيوت ذاتها سيدب
الشيب في رأسك
ستصل على الدوام إلى هذه
المدينة
لا تأمل في بقاع أخرى
ما من سفن من أجلك
وما من سبيل
ومادامت قد خربت حياتك
هنا،
في هذا الركن الصغير
فهي خراب أينما كنت في
الوجود».

(قصيدة «المدينة»
للشاعر اليوناني
كفافيس، ترجمة نعيم عطية)

تحدثنا في الفصول السابقة، عن حالات التفكك والانقسام والازدواج التي تحدث للذات البشرية، والتي قام الأدباء بتجسيدها على نحو بارع. ونحاول في الفصل الحالي أن نستكشف أيضا بعض تجسيدات هذا الازدواج أيضا، ولكن على مستوى المكان على نحو خاص، فالأماكن الحديثة، وخصوصا المدن، أماكن تسكنها روح خاصة، روح قلقة، وربما مريضة، كذلك تعد الثقافة الحديثة أيضا ثقافة مزدوجة، ثقافة قد تدفع المرء لأن يقول شيئا ويسلك عكسه، وكذلك لأن تقول الأمم شيئا وتسلك عكسه، تدعي الديموقراطية، وتمارس القمع، تدعي الدفاع عن حقوق الإنسان وتنتهك هذه الحقوق إذا تعارضت مع مصالحها. هذه محاولة لاستكشاف روح الازدواج والازدواجية وجذورها في الثقافة الحديثة، ولكن من خلال بعض النماذج الأدبية والنقدية الحداثية وما بعد الحداثية.

الحركة الغريبة في المكان

خــلال الحركة في المكان، في الأعمــال العجائبية والغرائبية قد يدور المرء في متاهة لا يعرف خلالها متى يخرج منها، إنه يقع ويقع قارئه معه، أســير التكرار، هنا قد يكون المكان واقعيا ثم إنه يصبح، فجأة، أو تدريجيا غيــر واقعي، مثلما هي الحال في أعمال كافكا مثلا. هنا حركة من المكان الواقعي إلى المكان غير الواقعي، هنا دخول إلى العالم الحلمي والكابوسي والغريب، هنا تردد بين الواقع واللاواقع، تردد متكرر بينهما قد تفقد معه الذات، وفيه، شــعورها بحدود الزمان والمــكان، هنا يحدث أيضا اختلال الشعور بالواقع واختلال الشعور بالذات.

فرويد تائها

في دراســته حول الغرابة يقول فرويد إنه كان يمشي، ذات صيف حار، في فترة بعد الظهيرة في شــوارع شبه خالية من المارة في مدينة إيطالية، وقد كانت تلك المدينة مجهولة بالنســبة إليه ثم إنه وجد نفســه فجأة في مكان من المدينة، لم يستطع أن يظل في حالة شك بشأنه لوقت طويل. لم يكن هناك ما يرى سوى نساء قد وضعن الأصباغ على وجوههن يظهرن في النوافذ الصغيرة للبيوت، ثم إنه أسرع يحث الخطى كي يترك ذلك الشارع الضيق متجها نحو المنعطف التالي، لكنه بعد أن تجول قليلا لفترة من دون أن يسأل أحدا عن طريقه وجد نفسه يعود إلى ذلك الشارع الضيق نفسه، هنا بدأ حضوره يلفت أنظار الناس هناك، فيقول: «وأســرعت مبتعدا مرة أخرى، ثم وجدت نفسي، ومن خلال انعطافة أخرى أعود إلى المكان نفسه، لكن للمرة الثالثة، على كل حال، غمرني شــعور ما، لا أســتطيع أن أصفه إلا بأنه غريب».

في المكان الغريب، يتحرك الإنسان في البداية عبر تلك المحاور الخاصة بالخبرة الإنســانية المكانية كما وصفها كانط حيث المكان والزمان هويات ثابتة تنظيمية مفروضة على الوعي، وحيث الأماكن ذات أبعاد ومســافات وزوايــا ومعالــم محددة للبعيــد والغريب والمعروف والمجهــول والمنخفض والمرتفع والواسع والضيق من الأمكنة، لكن هذه المعالم المميزة للمكان والتي

تقوم على أســاس تصورات وحدود مفاهيم عقلية شبة محددة، أحيانا ما تضطــرب وتتداخل حدودها، وفيهــا يجد المرء أنه وبدلا من أن يتجه على نحو متتابع مســتقيم يجد نفسه يعود إلى المكان نفسه الذي بدأ منه سيره أو حركته، ومع هذه العودة لا يصبح ذلك المكان الأول أو السابق أو القديم أو المألوف هو المكان نفســه الذي كان، بل يصبــح مكانا آخر، غريبا، غير مألــوف، إنه قد يخرج منه، ويعــود إليه، يظنه مألوفا فإذا به غير مألوف، هنا يجد نفسه في متاهة وعود أبدي، وتكرار لا يتوقف أو ينقطع، ومع هذه المتاهة والتكرار تحدث حالات اختلال الشعور بالواقع وبالذات وبهما معا.

هكــذا، فإنه وفي الســرد الواقعي العــادي يقوم التماســك المنطقي Cohesion الخــاص بالذات على أســاس حركتها الغرضيــة الهادفة عبر الزمــان والمكان، ويؤدي اصطفاف أو انتظام أو التزام الشــخصيات داخل هذه المحاور الموجهة المنظمة والتزامها بها إلى تأســيس هويتها المتماسكة المميزة، وتكشف عن طبيعتها مباشرة للقارئ.

في الأعمال المميزة والمهمة من السرد الحداثي وما بعد الحداثي تصبح حركة الذات وتوجهها عبر الزمان والمكان حركة غريبة ســواء بالنسبة إلى الشخصية المحورية أو بالنســبة إلى القارئ أيضا، هنا تجد الذات نفسها تدريجيــا، أو فجأة، داخــل - أو في مواجهة - مشــهد آخر، هنا لا تقول الــذات: «أنا هنا» بل: «أين أنا؟» ويتزايد ابتعاد الإنســان عن حدود المكان والزمان ومعالمها في السرد ما بعد الحداثي مقارنة بالسرد الحداثي.

التكرار والعودة بعد غياب

لدى فرويد التكرار هو السبب الرئيسي في حدوث الشعور بالغرابة، وليس التكرار مجرد محاكاة أو نســخ، ليس معناه أن النسخة الثانية تكرر الأصل، قد يكون معناه إعادة إنتاج لشيء جديد يخرج من الجسد أو النسخة الأصلية. في التكرار تشابه واختلاف، قد يتضمن نوعا من الهدم أو نوعا من البناء.

لكن التكرار الكامل يعني الموت، فمع التكرار أو المحاكاة ينبغي أن تكون هناك إزاحة ما، انزياح ما، اختلاف ما، بين الأصل والصورة التي تكرره.

في الموسيقى قد يكون تكرار النغمات والحركات تمهيدا للحركة الأخرى

الجديدة القادمة، وفي الأدب قد يكون تكرار بعض المقاطع والعبارات والصور تعبيرا عن ثيمات أسطورية، تؤكد دائرية الواقع والحياة والعود الأبدي لهما بشكل مغلق متكرر لا يتغير ولا ينقطع.

في التكرار استعادة Recall وتذكر لشيء ما من الماضي، شيء سبق أن حدث، شيء سبق أن كان مألوفا، ومع الاستعادة يوجد التعرف Recognition الذي يتبين جوانب التشابه كذلك والاختلاف بين الشيء المستعاد بجوانبه المألوفة وغير المألوفة، وقد يكون غير المألوف هنا هو ذلك الشعور المصاحب لهذه الخبرة بأنه لا شيء قد تغير، وأن القديم يعود كما كان في جوهره، وإن اكتسى بعض المظاهر والقشور والدعاوى الخارجية التي يزعم، من خلالها، أنه يجدد نفسه.

ويقف دافع الموت وراء التكرار، والتكرار الكامل كما قال فرويد في «ما وراء مذهب اللذة» يعني الموت، يعني شيئا وراء الحياة، وراء السرد، وراء الإبداع وذلك لأنه تتم خلاله إزالة المسافة بين النموذج الأصلي والصورة، مما قد يؤدي إلى انهيار الاثنين معا وضياع هويتهما غير المتجددة وإلى محو التفرد الذي كان ينبغي أن يكون لهما. فيصبح الحاضر صورة من الماضي، ويصبح المستقبل صورة من الحاضر والماضي أيضا، صورة تتكرر على نحو لا يتغير ولا يتجدد ولا يزدهر.

قد يكون التكرار غاية في ذاته، قد يكون إرجاء للفقد، وفي الوقت نفسه، فإن التكرار قد يكون محاولة لاستعادة الحب المفقود، الأصل المفقود، المكان المفقود، الوطن، البيت، الذي بدونه يكون الإنسان غريبا، ويسعى أيضا بغرابة في عالمه. وقد يكون التكرار أيضا هو الماضي المفقود، الفردوس المفقود، المحبوب المفقود، لأن الأنا، هكذا، بدونه، الآن وهنا تكون ناقصة، ومن خلاله، وبه، تكتمل، هكذا قد يكون التكرار أيضا محاولة لمجابهة الغياب، لمواجهة الموت والفقد ومحاولة تجاوزهما، هكذا يكون التكرار مزدوج المعنى أيضا، ثنائي الطابع ويجمع ما بين الحياة والموت، محاولة لاستعادة الغائب، المفقود - الذي مات أو غاب أو اختفى - بإحيائه مرة أخرى، بتكراره مرة أخرى، وقد ينطوي هذا الإحياء والتكرار على نسخ ومحاكاة ومطابقة شكلية مخيفة لما سبق أن فُقد وغاب وانقضى،

ومـــن هنا ومن ثم يكون هذا التكرار مخيفا، وغريبا، لأنه يعود في صورته القديمـــة المألوفة في عقولنا التي اعتقدنا أنها انطوت واختفت بفعل تغير الظـــروف والحياة. هنا عودة يغلب عليها المظهر أو الشـــكل العام للأصل من أجل تأكيد جوهره، لكن هذه العودة قد تتضمن أيضا تجديدا وإضافة وشكلا جديدا ليس هو المظهر التقليدي القديم، هنا قد تكون هذه العودة غريبة لكنها ليســت مخيفة أو مرعبـــة كما هو الأمر في النمط الأول من العودة، هكذا قد يكون التكرار، كما قلنا، هو قرين الموضوع الغائب، عودة للموضوع الأول في شـــكل جديد، طرحا لتســـاؤلات حول التفرد الخاص للأصل أو الصورة، ومتضمنا الإشـــارة أيضا إلى أن الفقد أو الغياب ليس أمرا يتعذر تغييره [1].

عن البيت والوطن

كما رأينا، خلال الفصول السابقة، فقد كانت شخصيات إدغار آلان بو أشبه بروح هائمـــة فـــي أماكـــن عـــدة مـــن أوروبا وأمريكا. وكذلك كان دوريان غراي أشـــبه بروح شـــاردة هائمة في أرصفة ميناء لندن وأماكنها الخفية الســـرية، وكان جيكـــل أشـــبـــه بروح هائمة أيضا في ليـــل لندن الضبابي، وكذلك كان غوليادكين بطل رواية «المثل» أو «القرين» لدستويفسكي، روحا هائمـــة في المكان والزمان، في ليل بطرســـبرغ ونهارها، روح طُرِدَتْ خارج المـــكان، لكنها - أيضـــا - روح تعـــود دائمـــا إلى المـــكان، روح تحوم حول المـــكان، روح ترود المـــكان، روح تنتاب المكان، روح شـــبحية تحاول أن تقيم صلـــة بين الزمـــان والمكان، أو بين هذا الزمان وذلـــك الزمان الذي مضى، وهذا المكان وذلك المكان الذي كان، لكنه الذي لايزال في أعماقها كما كان، ونجد الأمر ذاته في بعض أعمال الروائي المصري «صنع الله إبراهيم» كما فـــي روايته «تلك الرائحة»، حيث يتكرر الواقع اليومي والتجســـيد الذهني للواقع بشـــكل دائم، وحيث الشخصية المحورية تدور دائما في دائرة مغلقة من الأســـى واليأس والإحباط، دائرة تشـــبه الطـــوق المحكم الذي يفرضه واقع شديد القسوة وسلطة شديدة الشراسة قامت بسجن الراوي وعذبته ثم وجد نفســـه بعد أن خرج من الســـجن وكأنه لم يخـــرج منه، لقد خرج

من ســجن صغير إلى ســجن كبير وفيما بينهما كانت الذات تدور وتتفكك وتكرر أفعالها وكلماتها وحركاتها بشكل دائم، وكأنها وقعت في دائرة الموت الذي يتجســد في كل ملمح مــن ملامح الحياة. ونجد أمــرا مماثلا يدل على هذا التكرار الذي ينجم عن توالي الانتهاك لإنســانية الإنسان بحيث يتحــول إلى قبول ما كان يرفضه في رواية أخرى لصنع الله إبراهيم وهي رواية «شــرف». حيث الذات التي كانت تواجه الانتهاك الجســدي لها قد استسلمت للواقع وأصبحت تتقبل هذا الانتهاك، بل وتسعى إليه.

وقــد كان المنــزل أو البيت فــي عالم الأدب، أحيانا، موقعا أو ســاحة للاضطرابات الغريبة، بألفته الظاهرة، وبحفظه لتاريخ العائلات، وبالحنين المتعلق به، وبالقلوب المتعلقة به، والملتفة حوله، بدوره كالملاذ الأخير والآمن والأكثــر حميمية وراحة وارتباطا بالحياة. لكــن ذلك كله يصبح أكثر حدة وقسوة وعنفا وتنبها من خلال ذلك الانفعال المتمثل في الرعب الناجم عن غزو أرواح أو أجناس غريبة.

ومثلما تكون هناك طبيعة مزدوجة للروح الهائمة وللشــبح، ذلك الذي يجيء ويذهب، يظهر ويختفي، ليس حيّا تماما ولا ميتا تماما، فكذلك يكون القرين، حالة مزدوجة تجمع بين الذات ونقيضها، ويكون المكان أيضا حالة مزدوجــة تجمع بين القديم والجديد، الحاضر والماضي، الإدراك والتذكر، ومن ثم فإنه يكون أيضا مكانا ذا روح خاصة، روحه كمكان كان يعج بالبشر والذكريات والآثار التي مُحيت ولكنها تركت وراءها روحا خاصة، روحا قد تظل تحوم في المكان، تهوم في المكان، تجيء دوما إلى المكان، ولو بعد حين، ولو بعد غياب.

المصطلحات والمفاهيم الشبحية

لم يعد مفهوم الشــبح متعلقا فقــط بتلك الكائنات الليلية المخيفة التي ترتاد بعض الأماكن القديمة الغامضة، لقد اتســع نطاق المفهوم والتصور، وأصبــح متعلقا أيضــا، بتلك الأفكار التــي تنتمي إلى الماضــي، ثم ترود الحاضر أو تزوره، تنتابه، تحل فيه، تســكنه، وربما تفعل ذلك بالنسبة إلى المســتقبل أيضا، وكما أشــار دريدا في حديثه عن ماركس. ومثلما يجيء

الشـــبح ويذهـب، يظهر ويختفي، فكذلك شأن الأفكار والتصورات والرؤى، يمكنهـــا أن تعود، وتهيم في العقول، والمعتقـــدات والتصورات، هنا العقول الفرديـــة أو الجماعية، أشـــبه أيضا بأماكن تحضر إليهـــا تلك الأفكار، أو الأشـــباح، تهوّم فيها، تزورها، تنتابها، تسكنها، هنا الأفكار والرؤى أشباح هائمـــة في المكان وعبر الزمان أيضا. هـــذه إطلالة على بعض التصورات والتطورات الحديثة المتعلقة بمفاهيم الشبح والطيف والروح الهائمة.

لم تعد المصطلحات والمفاهيم المألوفة مثل: الشـــبح، والطيف، والروح، وغيرها، تستخدم بالمعنى القديم المألوف نفسه، بل أصبحت هناك دلالات ثقافية ونقدية جديدة لها، وهناك عموما ثلاثة مصطلحات أساســـية هنا، غالبا ما يحدث خلط بينها لدى الباحثين والنقاد، هي مصطلحات: الشبح والطيف والعائد بعد غياب، ونحاول فيما يلي توضيح بعض الفروق بينها:

1 - الشـــبح Ghost: هـــو روح الشـــخص الميت (أو روح السلف أو الأســـلاف)، غالبا ما اعتبر أنه يسكن عالما غير مرئي (الســـفلي)، وأنه كثيرا مـــا يهرب منه ويعود إلى عالم الأحيـــاء (العالم العلـــوي)، أو أنه روح ميـــت تتجلى وتُظْهِر نفسها كي يراها الأحياء كصورة ظلية غامضة غير واضحة المعالم؛ ومن ثم فإنها تكون صورة مرئية وسمعية... إلخ.

2 - الطيـــف : spectre: الأصـــل اللاتيني للكلمة وهو Specere، أي «أن تنظـــر إلى»، ويعرف الطيف هنا على أنه شيء يظهر، وله طابع غامض مخيف.

كذلـــك يمكن ترجمة كلمة Phantom على أنها طيف، أو شـــبح، أو وهم، أو سراب، أو خيال... إلخ وفق السياق. وهو مصطلح يشـــير إلى شـــيء ما أو شخص ما، يظهر للعين أو غيرها من الحواس، ولكن من دون قوام مادي، أي شـــخص ما أو شيء ما له اسمه، ويظهر قوة التأثير الخاصة به، لكن دون طبيعة مادية خاصة به [(2)].

3 - العائد بعد غياب Revenant: هو شبح مرئي أو جثة متحركة يعتقد أنها عادت مـــن موتها أو خرجت من قبرها

كــي تثير الرعب في نفوس الأحيــاء، وكلمة Revenant في الإنجليزية مشــتقة من كلمة Revenans في اللاتينية التي تعني «العودة» (من الفعل Revinre) ويعتقد أن فكرة الخوف من ذلك الميت الحي، أو العائد بعد موته فكرة أكثر قدما في العقل الإنساني من ذلك الذي كتب عنها في الأدب القديم، ففي التراث الأكادي يرد التهديد التالي على لسان عشتار، إلهة الحب والحرب والجنس والخصوبة وعلى لسان أختها آرشكيغال (إلهة الموت والعالم السفلي) مرتين:

«سأجعل الموتى ينهضون من موتهم وسيأكلون الأحياء
وسأجعل الموتى يفوقون الأحياء عددا» (3)

ترتبــط فكرة العودة من الموت عامة، بفكرة البعث والخلود، لكن العودة هنــا تتم خلال الحياة الدنيا وليس في عالــم الآخرة. والاعتقاد في عودة الموتــى إلى الحيــاة اعتقاد موجــود وراء العديد من طقوس الاســترضاء للموتى والتضحيــة من أجل الحفاظ عليهم أو حفظهم والإبقاء عليهم في أماكنهم الأصلية. وفي كثير من حكايات عودة الموتى في القرون الوســطى فــي أوروبا، كانت تلك العودة تحدث من اجل الإيذاء والانتقام من عائلات هــؤلاء الموتــى أو جيرانهم أو كل من ألحقوا الضــرر بهم أو قتلوهم، وتعد تلك التصورات الخاصة بالأشــباح ومصاصــي الدماء والزومبي (الأموات الأحياء) وغيرها - وكما تجســدت في الأدب - تنويعات على فكرة العودة بعد الموت، العودة بعــد غياب هذه. ومن الممكن لنا أن نضع كذلك الأفكار الخاصة بالغرابة والطيفية وغيرها ضمن هذا الإطار القديم والذي يظهر ويعود في أثواب جديدة دائما.

وفي الحقيقة، هناك صعوبة شديدة في الفصل التام بين هذه المفاهيم السائدة في مجال الدراسات النقدية الآن، حيث كثيرا ما يستخدم الباحثون كلمتين مختلفتين للإشــارة إلى شــيء واحد، وبمعــانٍ مختلفة أيضا، فقد اســتخدم باحثون أمثال غيربر كلمة «شبح» Ghost للإشارة إلى شبح والد هاملت الذي يظهر في مســرحية شكسبير الشهيرة، أما الفيلسوف دريدا فقد اســتخدم كلمة Spectre التي تعني «طيف» للإشارة إلى ذلك الشكل

الشبحي المتجسد ذاته، ولأنه كان معنيّا أكثر بالبعد الفلسفي والفكري لهذا الشبح أكثر من وجوده المادي أو المدرك حسيّا، كما فعل بعض النقاد؛ ومن ثم فإنه فضل استخدام كلمة «طيف» للإشارة إلى هذا التجلي والحضور الخاص لذلك الشبح.

وقد حدث الأمر نفسه أيضا، فيما يتعلق بكلمة Phantom في الإنجليزية، والتي تقابلها Phantome في الفرنسية، حيث يستخدمها بعض الباحثين بمعنى «الطيف»، ويستخدمونها كذلك للإشارة إلى الشيء ذي الطابع الغامض الذي لا يتجلى على نحو عياني أكثر تحديدا كما هي حال الشبح، في حين استخدمها البعض الآخر على أنها ترادف «الشبح»، ومن ذلك مثلا تلك الإشارة التي ترد كثيرا إلى تلك الشخصية الشبحية الإنسانية، الغامضة، «إيريك» التي تظهر وتختفي وتحدث الاضطراب في «أوبرا باريس» في رواية «شبح الأوبرا» الشهيرة للمؤلف الفرنسي غاستون ليرو، والتي أخرجت للسينما مرات عدة، كان آخرها للمخرج المعروف جويل شوماخر، وعن موسيقى أندرو ولبرت رايت.

على كل حال، يمكننا أن نقول هنا إنه من الأفضل لنا استخدام كلمة «شبح» للإشارة إلى ذلك المعنى المتعلق بالتجسد العياني وشبه المادي أو الجسمي وشبه الإنساني لتلك الكائنات الغامضة والمخيفة التي نسميها الأشباح، واستخدام كلمة «طيف» للإشارة إلى التجلي الخاص الذي يفتقر إلى القوام المحدد، وتكون له قوة التأثير الخاص على المكان والإنسان، كالطيف الخاص بالضوء، مثلا، وألوان الطيف، والحضور الطيفي للأشياء والأشخاص، وأيضا - وعلى نحو أكثر تحديدا - حضور أفكار الماضي وتصوراته ومعتقداته وأشكال سلوكه في الحاضر والمستقبل، على نحو طيفي، على نحو يشبه الزيارات المتكررة والانتياب والمراودة، وهذا هو المعنى الذي يفضل دريدا وأتباعه من التفكيكيين استخدامه في هذا السياق، ونفضله معهم أيضا.

ونحن نعتقد أن هذا التمييز بين مفهومي «الشبح» و«الطيف» صالح أيضا للتمييز بين نسق قديم من التفكير ونسق جديد منه، وصالح للتمييز أيضا بين مفهومي الحداثة وما بعد الحداثة، فالحداثة تؤمن

بأهميـــة العقل والنظام والتحديد الأقرب إلى العلم والواقع؛ ومن ثم فهي الأقرب إلى النســق المغلق، إلى الأشياء المجسدة المتعلقة بالعلم الوضعي والإدراك البصــري المحدد، في حين تؤمـــن ما بعد الحداثة باللاتحديد، وانعدام الثبات، والتغير الدائم، وجوهرية الخيال؛ ومن ثم فهي أقرب إلى النســق المنفتح، هكذا يكون الشــبح محددا أقرب إلى الشكل الإنساني، ويمكـــن تمييزه، كما تكون الأماكن التي يقيـــم فيها محددة (البيوت)، في حـــين أن الطيف لا شـــكل له، أقرب إلـــى عالم الأفـــكار، وموطنه العقل والأفـــكار، وهو الأقرب إلى الروح الهائمـــة بين الأزمنة والأمكنة أكثر من الشبح إلى حد كبير.

الأشباح في الأدب

يقوم الشـــبح الذي يهيم في المكان بوظيفـــة التذكير، بوجود أزمة فـــي التمثيل، «تذكرني»، أي أن دوره هنا قريب من دور «الجليل»، ذلك الذي ينشـــأ عن انهيار التمثيلات لدى كانط. هكذا يظهر الشـــبح كي يذكرنا بوجود أزمة في التمثيل أو التصور للأشياء والأفكار؛ وذلك لأن أي نـــص أو أي عمل إبداعي ينبغي ألا يحاكي الواقع بطريقة حرفية، لكنه قد يكون لديـــه هدف خاص متعلق بإعادة بناء هذا الواقع أيضا بطريقة جديدة قد يصعب تمثلها، وتمثيلها، في البداية خاصة عندما «يضطرب الزمن» ويصبح كل شـــيء «ليس كمـــا ينبغي أن يكون» كما أشار هيغل.

هكـــذا يكون جانـــب كبير من قوة إحـــداث الاضطـــراب - المتمثلة في الأشباح - مســـتمدا من حقيقة أنها تنشط عند المستوى ما قبل الشعوري، الخـــاص بالنصـــوص، أي عنـــد ذلك المســـتوى الموجود بـــين الوعي وعدم الوعـــي، الأنا والآخر... إلخ، تلك المنطقـــة البينية الخاصة، الموجودة، وبين الحضـــور والغياب، التجلي والخفاء، أو قد يمكن النظر إلى هذه الأشـــباح على أنها مهمة في ضوء المســـتوى الخاص بســـيميوطيقا اللغة - كما لدى جوليا كريستيفا. وحيث اللغة تؤثر بقوة في الرؤية للواقع، وكذلك في البناء للثقافـــة، ومن ثم البنـــاء للهوية، وفي الخطاب المميز للـــذات، إيجابيّا كان

أو ســلبيّا، أدبيّــا كان أو سياســيّا... إلخ. ولا تكون بنيــة اللغة في الغالب بنيــة عقلانية؛ وذلك لأنها - بدورها - كثيرا ما تســكنها قوى ما، تهدف إلى تدمير بنيتها، أو تقويضها، ويُظهر الجسد الترقيعي للشبح - كنص - هذين الجانبين، جانب البناء وجانب الهدم المتمثلين في اللغة. حيث تحضر الروح الشــبحية على نحو خاص في تلك المنطقة المتداخلة التي تقع ما بين الهدم والبناء أو تلك المســاحة الثالثة The Third Space، كما يقول بعض النقاد، وحيــث تتحرك أشــباح كثيرة ما بين الواقع والنــص وبالعكس. هكذا يعود مفهوم «روح النص» القديم، ولكن في شــكل جديد، شــكل يكون له فيه من خلاله، مادية قد تفوق ماديته السابقة.

لقــد كان الموقع المفضل للأشــباح، في الأدب التقليــدي، هو المنازل، وقد نقل الإنتاج الأدبي المعاصر «المنزل المســكون بالأشــباح» وحَوَّله إلى «بنية» عامة، بنية يمكن تطبيقها على أي ســياقات اجتماعية أو تاريخية أو ثقافيــة أو أدبيــة، وهكذا أصبحت الأشــباح - بالمعنى الحديث - لها المعنــى التقليدي الخاص بالأشــباح المخيفة المرتبطــة بالماضي والموتى، وعالم الظــلام والغياب، ولها أيضا المعنى الحديث الخاص بكل ما يتعلق بالماضي والموتى - جســديّا فقط - من الأفكار أو المفكرين أو الأدباء أو الفتــرات التاريخية، لكنه ذلك الماضي الذي يظل أيضا برغم غيابه، يعود ويســكن البيوت/ الأفكار/ الأنظمة الاجتماعيــة الجديدة؛ ومن ثم تظل هذه الأفكار الأشــباح مخيفة، لأنه في ذلك الوقــت الذي نظن فيه أنها نُســيت أو كُبِتَتْ، نجدها قد عادت وسكنت البيت، وأصبح وجودها، ربما مخيفا وغريبا.

هكــذا قد تكون البنية العامة الخاصــة بالغرابة، من حيث جمعها بين المألــوف وغير المألــوف، ومن حيث ارتباطها بالبيــوت، ومن حيث عودتها المتكررة بعــد الغياب، هي البنية العامة المميزة للأشــباح أيضا، تلك التي تجمــع بين الغيــاب والحضور، المــوت والحياة، كذلك من حيث ســكناها المنــازل، من حيث تكــرار ظهورها، مــن حيث تهديدها الدائــم للمألوف والأليف والمســتقر، من حيث إمــكان أن تصبح مألوفة مــرة أخرى، على الرغم من غرابتها، غير المألوفة هذه.

هكــذا يكون الشــبح هنا - وفي ضوء الدراســات النقديــة والثقافية الحديثة - ليس ببســاطة شــخصا ميتا أو مفقودا يعود إلى الحياة؛ ولكنه صورة اجتماعية، رمز اجتماعي، علاقة، فكرة، يمكن - من خلال فحصها - أن تقودنــا نحو ذلــك الموقع المفعم بالدلالات، والــذي يقوم فيه التاريخ والذات بصناعة الحياة الاجتماعية وصياغتها.

وغالبا ما تكون الأشــباح في الأدب ذات أشــكال مخيفة، غرباء ينبغي في النهاية طردهم، من أجل أن يحافظ المجتمع على نظامه ومجموعة قيمه، ويرجع جانــب من الاضطراب الذي تقوم به هذه الأشــباح إلــى طبيعتها «البينية»، أو الحدية، أو المزدوجة، فهي أشبه بحالة وسطى ما بين الحياة والموت، وهي تسكن حيزا مكانيّا يقع بين مكانين (الداخل والخارج)، أو زمانين (الحاضر والماضي)، أو حالتــين انفعاليتــين، أو حالتين اجتماعيتين (الاســتقرار والاضطراب)، أو عمليتين معرفيتين عامتين (الشــك واليقــين)، إنها انتقاليــة الطابع، «بينية» الحضور (الأمن والخوف). ومن خلال وضعها الخاص هذا، تســتطيع الأشباح أن تطرح التســاؤلات، أو تدفع الآخرين إلى طرحهــا. وفقا لما قاله دريدا، فإن الطيف أو الشــبح - بطبيعته - غالبا ما يتســم بأنه «يعاود الظهور دائما بعد غياب»، وإنه من خلال عودته المتكررة هذه يؤسس نوعا من الموازاة الافتراضية بين الماضي والحاضر، من خلالها تكون تلك العلاقة بينهما شــبحية وخلافية، ويحدث هذا إلى ذلك الحد الذي تكون عنده حالات وتجليات متنوعة ومختلفة تنتمي إلى الماضي متعايشــة معا، داخل هذا الحاضر، كما قد يتم إسقاط تلك العلاقات الإشــكالية بين الماضي والحاضر على المستقبل أيضا[4]. هكذا يزور الشــبح ذلك المكان الخاص الموجود بين أزمنة مختلفــة: الماضي والحاضر، أو الحاضر والمســتقبل، ويزور أيضا الأماكــن الخاصة بهذه الأزمنة أيضا، وحيث لا انفصال بين الزمان والمكان في ضوء ما علمناه من باختين وقبله أينشتين.

أماكن ترودها الأشباح

وليســت الأماكن المعزولة والبيوت المهجورة والمقابر والأديار الصامتة هي فقط الأماكن المســكونة بالأشباح، حيث يمكن اعتبار المدن الحديثة أماكن مســكونة أيضا، أماكن ترودها الأرواح والأشــباح، أماكن يزورها

الآخر ويسكنها، أماكن ليست أليفة على الرغم من كل مظاهر الألفة الموجودة فيها، وعلى الرغم من كل تلك الطرق الممهدة المألوفة منها، لكنها التي تفاجئنا بحوادثها غير المألوفة، وكذلك كل تلك الإضاءة المألوفة فيها، لكنها التي تنقطع أحيانا وتختفي في بعض الأماكن أحيانا أخرى فتصبح غير مألوفة، حيث وجود رجال أمن ومسؤولين ينبغي أن يحققوا الأمن والأمان للسكان، فإذا بهم أحيانا يصبحون أحيانا فاسدين؛ ومن ثم يصبحون مسؤولين عن حدوث التهديد والاضطراب وغياب الأمن والأمان.

وتكون الهوية غير المستقرة أو المتزنة - خلال هذا النوع من الأدب - شديدة الصلة بفكرة المتاهة الخاصة بالمدنية وسكانها المحتشدين المزدحمين، هنا نجد حالات الازدواج والثنائية، وانقسام الشخصيات وتعددها، هنا نجد التحولات الجسدية، وحالات اضطرابات الهوية، والأقران، والأشباه، ونجد كذلك تجليات هذه الحالات في تلك الانقسامات والتصدعات والشقوق المعمارية والجغرافية والاجتماعية في المدن. هنا نجد انفعالات الخوف والقلق والشعور بالتهديد والرعب والغرابة وروح الانحراف التي اهتم بها إدغار آلان بو على نحو خاص.

في قصة «ليجيا»، للكاتب إدغار آلان بو[5]، نجد أن الراوي بعد موت زوجته يشتري ديرا قديما في أحد الأماكن الغريبة النائية في إنجلترا، ويحسّنه من الداخل، لكنه يتركه من الخارج على حاله، ويدمن الأفيون، ويتزوج مرة أخرى، ثم يتساءل: كيف سمح أهل تلك العروس الجديدة لها - نتيجة طمعهم في ماله - بأن تزف في مكان كهذا، في غرفة أعلى الدير، ليس بها أي نظام، تقع في برج الدير العالي المبني على طراز القلاع، المخمسة الزوايا، الفسيحة الأضلاع، «في الجهة الجنوبية هناك نافذة وحيدة، تتكون من لوح كبير من بلور فينسيا غير القابل للكسر، لونه رصاصي، عندما تنفذ منه أشعة الشمس أو القمر تلون الأشياء بلون شاحب أصفر. وفوق النافذة تمتد عريشة قديمة تتسلق جدران البرج الضخمة، وكان سقف الغرفة من السنديان القاتم اللون، مرتفعا جدا، وعلى هيئة قبة، منقوشا بأغرب أنواع النقوش التي تشبه النقوش القوطية

والغاليَّـة، ومن قمة هذه القبة تتدلى سلسـلة ذهبية تنتهي بمبخرة ذهبية ضخمة من الطراز الإسلامي، لها عدة ثقوب مرتبة بشكل يخيل للرائي أن نارا متعددة تندلع منها وهي تتلوى كالأفعى».

ثـم يسـتغرق الراوي فـي وصف مـا تحويـه الغرفة مـن أرائك وشـمعدانات ذهبية وسـرير من الأبنوس الصلب يرتفع فوقه سـرادق أشـبه بأغطية الموتى. «وفي كل زاوية من الزوايـا يجثم ناووس ضخم من الجرانيت الأسود، من قبور الفراعنة في الأقصر، بأغطيتها الأثرية المـلأى بالنقوش التذكارية». ثم يصف جدران الغرفة وسـتائر نافذتها، ويتوقف أمام الغرابة الخاصة بهذه السـتائر، حيث كانت تلك السـتائر «تبدو لمن يجتاز العتبة ذات مظهر قائم بشـع، ليس إلا، لكن هذا المظهر يأخذ بالتلاشـي تدريجيّا بعـد كل خطوة، وكيفما تحـرك الناظر في أنحاء الغرفة تطل عليه بشـكل جديد، حتى يجد نفسـه محاطا بتتابع أشكال مرعبة مسـتوحاة من خرافات النورمانديين، أو بصور الرهبان المحكومين بالنوم الأبدي. ويزيد هذه الأشـكال رهبـة، ويجعلها تتموج وتتغير بسـرعة، مرور تيار هوائي خلف الستائر، مما يخلق جوّا مرعبا مزعجا في الغرفة كلها».

هكذا يصف بو تفاصيل الغرفة التي أمضى فيها الراوي الشـهر الأول من زواجه، ونحن نلاحظ أن وصفه ينتقل تدريجيّا من المكان الخارجي إلى المـكان الداخلي، ثم في انتقاله إلى المكان الداخلي يصف بعض التفاصيل العاديـة فيه، والمألوفة، على نحو محايـد، ثم ينتقل تدريجيّا إلى تفاصيل الأثاث المرعبة، وهي تفاصيل مسـتمدة من عالم الموت والخوف، كما في إشارته إلى النواويس الفرعونية، وأيضا السـتائر المتغيرة الألوان والأشكال المرعبة. ثم إن الراوي يصف أحيانا تلك السـاعات السيئة المشؤومة التي قضاها مع زوجتـه الجديدة على الرغم من جمالهـا الخارجي الواضح، ثم يسـرد كيف أصبح عدوانيّا شـرس المزاج إزاءها، حتى صارت تخشاه وتتجنبه، وكيف كرهها - كما قال - «كُرها» يمت إلى الشـياطين أكثر مما ينتمي إلى عواطف البشـر، إنها الكراهية نفسـها التي عبر عنها الراوي تجاه الحيوان الأليف في قصة «القط الأسـود»، حيث لا يستطيع الراوي

فـــي القصتـــين أن يألف من يألفه، ثم إنه يتذكر كثيـــرا زوجته القديمة - ليجيا - ويســـتغرق في تعاطي الأفيـــون، ويناديها خلال الليل، كأنما يريد إعادتها إلى الحياة.

ثم تمرض الزوجة الجديدة، وخلال لياليها القلقة نتيجة الحمى وارتفاع درجـــة حرارة جســـدها، تتحدث - وهي بين اليقظـــة والنوم - عن أصوات وحـــركات في البـــرج، ويعزو الراوي ذلك إلى تشـــوش عقلها، وكذلك تأثير الغرفة وأشباحها المتغيرة في ستائرها، ثم تشفى هذه الزوجة، لكنها تصاب بالمـــرض من جديد، وفي هذه المرة يكون المرض شـــديدا وطويلا، كما أنها تتحدث أيضا عن أصوات سمعتها، وحركات رأتها، وخلال محاولة نفيه تلك الأمور يشعر بمرور شيء خفاق غير منظور بخفة وسرعة بجواره، ثم «وعلى الســـجادة الذهبية تحت ضوء المجرة الســـاطع رأيت ظلا، ظلا شفافا غير محدد، في هيئة ملائكية، وكأنه ظل لظل. لكني كنت فريســـة جرعة أفيون مضاعفة، فلم أمنح هذه الحوادث اهتماما كبيرا، ولم أحدث عنها». وتسقط قطـــرات حمراء كالياقوت أو الدم في كأس كانت الزوجة المريضة تشـــرب منها، ثم تتدهور صحتها ســـريعا بعد ذلك وتموت، وخلال الليلة الســـابقة على دفنها يســـتمع الراوي لصوت ضعيف يصدر عن الســـرير الأبنوســـي، ســـرير المـــوت كما قال، ثم يرى حمرة خفيفة قد علـــت خدي زوجته الميتة، وتسري في عروق جفنيها، ويتجمد الراوي من الرعب، ويعتقد أنهم أسرعوا في إعدادها للدفن، وأنها لاتزال حية، يتجمد في مكانه، لا يستطيع مغادرة الغرفة طلبا لمســـاعدة من الخدم؛ ومن ثم فإنه عزم على أن يحاول بنفســـه «مســـاعدة الروح التي لاتزال تحوم»، لكن خلال لحظات «اختفى اللون من الخدين، وعاد وجهها أكثر شـــحوبا من الرخـــام، وعاد إليه جمود الجثث». ثم بعد ساعة، عادت الحياة إلى الجثة المسجاة، انفرجت شفتاها عن صف من الأســـنان اللؤلئية، تورد خداها وعنقها، وغمرت الحرارة جسدها، وبدأ القلـــب يخفق، وأراد أن يســـاعدها، لكن فجأة - مرة أخرى، وفيما يشـــبه إجبار التكرار - تغلب الموت على الحياة، ســـكن الجســـد وهمد، ثم تكررت عودته إلى الحياة، ثم موته، وقد كانت «كل عودة ســـريعة إلى الحياة تتبدل بموت أكثر جمودا وبشـــاعة، وكان كل نزع جديد يشـــبه الصراع ضد خصم

لا مرئي، ويعقب كل صراع تغير في الشكل»، ثم تدب الحياة بقوة في الجثة الميتة فتتحرك، وتغادر سريرها، وتتقدم نحوه كشبح، قام الراوي بالتحديق فيه.. كانت قامة الشبح أطول من قامة زوجته الثانية. هنا يتقدم هو نحوها، ويزيح الكفن الذي يغطيها، وهنا ينهمر في فضاء الغرفة شلال غزير من الشعر الطويل المشوّش. كان أكثر سوادا من أجنحة الليل حين ينبت ريش الغراب! حينئذ رأيت الوجه الذي كان قبالتي يفتح عينيه شيئا فشيئا. هنا يرى العينين السوداوين الواسعتين، عيني ليجيا، زوجته الأولى، حبه الضائع القديم، وقد عاد مرة أخرى إلى الحياة، ولكن في هيئة شبح[6]، مثلما عادت شقيقة الراوي في قصة «سقوط بيت أشر» على هيئة شبح أيضا، وفي الحالتين كان وصف المكان دافعا ومحفزا لإثارة مشاعر الخوف في النفوس؛ ومن ثم تمهيدها لاستقبال تلك الأشباح الليلية المخيفة.

لقد تمتع إدغار آلان بو - كما قال بودلير - «بتلك العبقرية التي لا مثيل لها، وهذا المزاج الفريد الذي أتاح له أن يصور بطريقة فائقة، آسرة، مرعبة، كل ما هو غريب واستثنائي في نظام الحياة والفكر». وقال عنه أيضا: «وكثيرا ما تفاجئنا فلتات رائعة من الكلام والضوء واللون فيما يقدمه لنا، ونلمح بغتة مدنا شرقية وهندسات تظهر في أقاصي آفاقه، ضبابية على البعد، حيث الشمس تمطر الذهب، وحيث الغرابة جزء من الجميل لا يتجزأ»[7]. وقد كانت لدى بو نزعة إحيائية واضحة تجعله يقيم علاقات دائمة بين عالمي الموت والحياة، فالمرأة في قصة «اللوحة البيضاوية» أكثر حيوية وحياة من تلك المرأة خارجها والتي أصبحت جثة هامدة، و«ليجيا» تعود من الموت إلى الحياة، و«القط الأسود» يعود كذلك إلى الحياة بعد دفنه، وتعود أخت الراوي في «سقوط بيت أشر» في نهاية القصة إلى الحياة أيضا، ولكن في صورة شبح واهن مرعب.

الروح الهائمة الحديثة

بعد اللقاء الأول الذي حدث بين هاملت وشبح أبيه المقتول غدرا، قال هاملت إن الزمن الذي يعيش فيه «قد اضطرب»، وهذا الشبح وذلك التعبير مهمان جدّا في تفسير ما يريد النقاد قوله هنا حول تلك الطبيعة

الفكرية والأدبية للأشـــباح، وكذلك حول ما يتعلـــق بمفهوم الهوية، والأنا، والآخـــر، والازدواجية، والمركز، والهامش، والوافـــد والغريب، وغيرها من المصطلحات والمفاهيم المستخدمة الآن في النظريات الثقافية المعاصرة.

ووفقا لما قاله دريدا في «أطياف ماركس»، فإنه تتجلى لدى هاملت فعلا علامـــات «الوعي القلـــق» بأن الزمن مضطرب، أو أنـــه ليس كما ينبغي أن يكون، كما قال هيغل، «حيث الطيفي قد يحل بنفسه كحركة تاريخية خاصة به، بل إن مراودة الأشباح والأطياف أو حلولها قد تكون هي المميزة أكثر من غيرها لوجود أوروبا نفسه». إن مأساة الأمير الدنماركي، هاملت، قد تتعلق . في جوهرها . بوجوده داخل ذلك الشـــعور باســـتحالة حل تلك الصراعات التي خلقها طيف والده في عقله، حيث لا يوجد حل في المسرحية، لا يوجد حل نهائي تم الوصول إليه، بل إنه ربما كان ما حدث هو أن أعيد تأســـيس النظام أو ترسيخه من خلال ذلك الأثر التطهيري الخاص بمحاولة الهزيمة للشـــر، ومن خـــلال عمليات المـــراودة والتردد والشـــبحية وتداخل الأزمنة والأمكنة والأفكار وغيرها التي تظهر في المسرحية.

في المشهد الخامس من مسرحية «هاملت» يخاطب الشبح هاملت قائلا:

«أنا روح أبيك، وقد حكم عليّ بأن
أطوف في الليل زمنا وفي النهار،
بأن أتضور جوعا في اللهب
إلى أن يحترق ما اقترفته في حياتي الدنيا من آثام،
فأطهر منها
ولوم يخطر علي إفشاء أسرار سجني؛
سردت على مسامعك قصة،
أخف لفظة فيها تعذب نفسك وتجمد دمك الفتي»
ثم يطالب شبح الأب ابنه هاملت بالانتقام قائلا
«وداعا، وداعا، ياهاملت، لا تنسني» (8)

وفي ترجمة أخرى يقول الشبح لهاملت: «هاملت، تذكرني، لا تنسني».
هكـــذا يقول الشـــبح لهاملت. ولماذا يركز الشـــبح علـــى التذكر، وعلى الذاكرة؟ يتســـاءل دريـــدا، ويجيب بأنه من دون التذكـــر والذاكرة لن تكون

هناك أشـباح؛ لأنه مـن خلال التذكر والذاكرة تحضر الأشـباح، لأنه من خلال التذكر، للأب، للآخر، للغائب، أيّا ما كان، أو الحاجة لتذكره، التصور لتذكره، أو تذكره في ضوء آليات الذاكرة التي تحدثنا عنها، تحضر الأشباح، تحضـر في ضوء ما نريده منها أن تحضـره إلينا معها في ضوء ما غاب، كذلك ما نحاوله من خلالها، ما نسعى إليه كي تعيد التوازن والاتزان لذلك الزمـن الذي اضطرب، ولذلك الواقع أصبح «ليـس كما ينبغي أن يكون»، ما يغيب عنا ونتمناه. وهكذا فإن اسـتحضار الأشباح والأطياف من خلال الذاكرة يتضمن أيضا نوعا من إعادة التعريف للمعرفة والثقافة، وبأشكال خاصة جديدة.

عندمـا تأمل دريدا فكـرة الطيف، وجد أنه لا يمكـن التفكير في أي نسق أخلاقي أو فكري أو سياسي... إلخ، سواء أكان ثوريا، أم لم يكن، من دون أن نـرى داخله، في جوهره، تلك التأثيرات الخاصة بالآخرين، هؤلاء الذيـن، ربما، لم يعودوا موجودين الآن، هنـا أو هناك، حيث إن تأثيراتهم قـد تحدث الآن، في الأحياء، وربما في الذين لم يولدوا بعد أيضا. وهكذا ووفقـا لما قاله دريدا فـإن بعض أفكار ماركس، التـي اعتقد البعض أنها قد مارسـت تأثيرها ثم فشـلت، أفكار قد تعود في المسـتقبل، وبأشكال جديدة أكثر ديموقراطية، ربما لم يفكر فيها ماركس نفسـه، هنا لا تصبح الغرابـة أداة للرعب والقلق؛ بل أداة للتفكير - كما قال مارتن جي - وذلك من خـلال الابتعاد عن تلك الرؤى الطيفية الغامضة المتعددة. وهنا تصبح الغرابة ليست مجرد تخييلات نرجسية، بل تغدو نوعا من الاستعادة للبيت والإنقاذ له [9].

وهكـذا لم تعد الغرابة في النقـد الحداثي وما بعد الحداثي، كما قالوا توا، معنية أكثر بفكرة الشـبح أو الـروح الهائمة بالمعنى القديم، الذي يتعلق بأشـباح الموتى الفعليين وأرواحهم التي تغادر قبورها وأماكن رقودها وتعود لتهوِّم وتطوف وتحوِّم وتسـكن البيـوت والأديار والقصور والحقول وغيرها، كمـا أنها لم تعد معنية كثيرا بفكرة المتسـكع؛ كما اهتم بهـا بودلير وفالتر بنيامين. لا، ليست هذه الأشباح الغامضة هي جوهر الاهتمام النقدي الآن؛ بل الأشـباح والأطيـاف والأرواح بالمعنى الثقافي والفكري والسـيكولوجي،

وخاصة كما تجلى هذا المعنى لدى إبراهام وتوروك في دراستهما عن حكاية «الرجل الذئب» التي وردت لدى فرويد، ثم كما تجلى لدى دريدا والمدرسة التفكيكية بعد ذلك، وكما أوضحناه في هذا الفصل على نحو خاص.

وليس المهم في الأشباح، هنا - كما تقول أفيري غوردون - الجانب المرئي منها؛ بل الأثر الذي تتركه، ليس المهم شكلها المادي؛ بل الجوهر الخاص بها والدلالة، قدرة الشبح . أو الفكرة . على أن يكون له حضور واقعي في الحياة، أن يلفت الانتباه إليه. ما هو مهم هنا هو أن عملية المراودة أو الانتياب أو حلول الأشباح في محل ما، مكان ما، عملية تدل على أن ما تم كبته أو إخفاؤه، أو جعله سريا أو بعيدا عن الرؤية والإدراك، قد أصبح الآن مفعما بالحياة وحاضرا، ومتداخلا، وربما مشتبكا مع كل تلك الأشكال غير الكاملة للاحتواء والكبت والقمع الموجهة . على نحو مستمر . نحو الإنسان [10]. هنا يكون الانتياب ميدانا للاضطراب وتأجج المشاعر، خاصة عندما يشعر الفرد/ الأفراد بأن كل شيء ليس في مكانه الصحيح، عندما تظهر الجروح والقروح والشقوق والفراغات والفجوات في الواقع الاجتماعي، وتتجلى مرئية، هنا وهناك، عندما يظهر الأفراد/ الجماعات الذين قصد في الماضي أن يصبحوا غير مرئيين، عندما يظهرون ويتجلون من دون أي علامة على أنهم ينوون المغادرة، عندما يصبح من الصعب أو المستحيل إبعاد المشاعر المضطربة، عندما يظهر شيء آخر ما، شيء مختلف عما كان موجودا من قبل، ويرغب في أن يحل محله. هكذا قد يشير الانتياب إلى حالة اجتماعية ونفسية [11]، مفيدة في تفسير كثير من الظواهر الاجتماعية والسياسية والأدبية والفنية على حد سواء.

الأصول الفلسفية لفكرة المراودة

لا بد لنا أن نعود هنا إلى بعض الأفكار المهمة المتعلقة بفكرة الروح الهائمة، وروح العالم، وروح المكان، التي تعود دائما وتهوم وتحوم في مكانها، كما وردت هذه الأفكار، على نحو خاص، لدى المفكر الألماني ماكس شتيرنر (1806 - 1856).

إن المعنى الأصلي للانتياب، الزيارة، المراودة هو أن يحصل المرء، أو الشبح، على بيت، أن يدخل بيتا، بيتا يخصه، أو بيتا يحضر فيه كضيف أو زائر، أو بيتا يقتحمه كدخيل أو لص أو غازٍ... إلخ. ومثلما نقول كذلك «روح العصر»، ونعني بها الطابع الفكري والفلسفي والفني والثقافي عامة السائد في عصر ما، فكذلك هنا «الروح» أشبه بشبح مهيمن على العصر، بحيث إنك قد تجد تجليات لهذه الروح في الفن والفلسفة والأدب مثلا، لكنك لن ترى هذه الروح نفسها؛ لأنها بطبيعتها شبحية الطابع، تذهب وتجيء، تسكن وتغادر، تحضر وتختفي.

كان ماكس شتيرنر أكثر المفكرين الهيغليين الشباب راديكالية، وقد كان يشعر بالاضطراب على نحو كبير من الأشباح، حيث نظر شتيرنر إلى الوعي المعاصر على أنه وعي تزوره الأشباح والأرواح، وتسكنه، وتقوم بتغريبه أيضا. وقد كانت هذه الأشباح - في رأيه - هي الأفكار الثابتة الجامدة، التجريدات الميتافيزيقية، مثل: «الجوهر الإنساني»، و«العقلانية»، و«الأخلاقية»، والتي تم رفعها - كأفكار - إلى المستوى المطلق الخاص «بالمقدس». فالأفكار الثابتة الجامدة هي تكوينات فرضية، مفاهيم، تصورات، تتحكم في التفكير، وهي أنماط من الخطاب المغلق والنماذج المطلقة التي تنكر الاختلاف والتعدد، إنها تعميمات تصورية تحاول أن «تمثل» الفرد أو تتحدث بالنسبة إليه أو بالإنابة عنه، ومن ثم فإنها تقوم بتغريبه، بإبعاده، تصغير شأنه وإنكار فرديته وتفرده في مقابل الدور الأكبر المنسوب إلى تلك الأفكار المطلقة. هكذا أُحبط الإنسان المعاصر - كما يقول شتيرنر - وتم تغريبه، تم جعله مغتربا، بوساطة ذلك العالم الشبحي الخاص بالأفكار الجامدة الثابتة، الذي قام الإنسان نفسه بابتكاره، وخلقه حتى يتكيف من خلاله، ويسيطر بوساطته على حياته، فإذا به يجد أن تلك المفاهيم قد أصبحت تسيطر عليه وتبعده، وتنفي تفرده. وهكذا - كما قال شتيرنر - فإن كل شيء يبدو في شكل صورة متوهمة خاصة بروح تسكنه، هو «طيف» شبحي، هكذا يكون العالم بالنسبة إليك هو «عالم من المظاهر، التي تتجول الأشباح خلفها» (12).

وما الروح التي تسكن وتتجول خلف العالم المادي، وتحول كل شيء إلى مظاهر، أو تمثيلات لشيء ما أكثر جوهرية؟ يقول شتيرنر في أن هذه الروح هي «الجوهر»، أي ذلك التعارف أو الاتفاق على أن الإنسانية ينبغي أن يكون

لها «جوهر واحد»، مركز واحد، مبادئ أخلاقية أساسية، وعقلانية أساسية تعكس، ذلك، الوجود العام للإنسان. إن هذا هو ذاته ما يجعل الإنسان غريبا ومغتربا في رأي شتيرنر، لماذا؟ لأن الجوهر الأخلاقي وكذلك العقلاني، إنما، يطرح هنا كأنه مثال مقدس، شيء ينبغي أن يسعى الإنسان دائما إلى الوصول إليه، لكن ذلك الإنسان لا يستطيع غالبا أن يصل إلى هذا المثال؛ ومن ثم فإنه يتفكك وينقسم إلى: ذات واقعية تسعى، وذات مثالية يُسعى إليها، ذات عيانية محبطة ومزدوجة في الواقع، وذات أخرى أشبه بالمستحيلات. وهكذا تتحول المثل الأخلاقية والعقلية إلى أشباح أيديولوجية يخضع لها الفرد، وإليها يسعى، لكنه لا يستطيع أبدا، أن يصل إليها، ومن ثم فإنه يشعر دائما بأنه مقموع، منقسم مزدوج، وأنه قد اغترب عن ذاته.

هكذا يكون لهذا العالم الذي نعيش فيه طابع الغرابة، إنه عالم مسكون بالأشباح التي تسكنه وتتحول فيه، وتتجول على نحو أعمق فأعمق، عالم زاخر بالأشباح التي تحركه وعلى نحو يشبه عالم فرويد الغريب، وأشبه كذلك بتلك الصورة التي قدمها عن أعضاء الجسم وأوصاله المتقطعة، والتي تظل أيضا – على الرغم من ذلك – تتحرك وترقص (من الألم)، كأنما تحركها قوة داخلية غير مرئية. هكذا، «فإن القداسة أيا ما كانت تكون غريبة، ففي أي شيء مقدس هناك جانب من الغرابة التي لا نشعر معها بالألفة التامة أو بأننا في «بيتنا»، كما أشار إلى ذلك شتيرنر، وبعده هيدغر أيضا، ومن ثم يكون الإحساس الغالب علينا هو القلق».

وما ذلك الإحساس الخاص بالقلق الذي شعر به شتيرنر؟ وما تلك الحالة من انعدام الألفة التي تكمن في المألوف؟ إنها شيء خاص بتلك الغرابة الملازمة للعالم، بأنه يشبه شيئا آخر، شيئا اعتقدنا أنه قد اختفى، مات، أو نُسِيَ، إنه شيء يتعلق بالشعور بأنه «كأن» هذا العالم قد أصبح مسكونا بقرين غريب له، شيء يعود من الماضي ويسكنه، شيء غير مألوف ولا مبالٍ، لكنه، مع ذلك كله، شيء مألوف أيضا، شيء يتكرر، شيء يكرر ذاته على نحو غريب.

وهكذا ربط شتيرنر ـ على نحو محدد ـ بين الأشباح التي تسكن العالم، أطيافه، التي تعود دائما إليه وتسكنه، والآثار المتبقية من المسيحية، والتي تعود في أشكال أو أقنعة جديدة، حيث وجد داخل ما سمي بالفكر

الرومانتيكي أشباح الأفكار الدينية الخاصة بغموض الكون وخفائه، وجدها تعود في شكل خاص بعقلانية عصر التنوير والنزعات الإنسانية، أي من خلال أشكال الخطاب نفسها التي كان يُفترض منها أن تستبعد تلك الأفكار القديمة. بمعنى آخر، إن أشباح النزعة الإنسانية أشباح غريبة، وذلك لأنها مَثَّلَتْ عودة إلى المثالية المسيحية، تلك التي كُبِتَتْ أو أُبْعِدَتْ أو حتى نُسيت في أوروبا كما قال. وهكذا فإن شبح «الجوهر الإنساني» غريب جدا بالنسبة إلى شتيرنر، لأنه غير مألوف، ولكنه مع ذلك، مألوف أيضا، إنها الأفكار الدينية ذاتها، ولكن في شكل إنساني متجدد، وتكون آلية إحلال القديم محل الجديد، واستبداله به، الإحلال والاستبدال هنا، هي الآلية التي تحدث من خلالها الغرابة.

لقد دخلت الأفكار القديمة - هكذا - داخل الإنسان، لم تعد موجودة، خارجه، في عالم ما وراء الطبيعة، لقد أصبحت موجودة داخله، وهكذا أصبح هذا الإنسان نفسه شبحا، أو على الأقل مكانا تسكنه الأشباح، لم تعد الأشباح الخارجية هي التي تخيفه فقط، بل أصبحت تصيبه الرعدة من أفكاره هو، من أشباحه هو، لقد أصبح هو نفسه يخيف نفسه. هكذا أصبح الإنسان قرينا غريبا لذاته، ففيه يتجسد المطلق والمحدود، الكلي والفردي، هكذا أصبح الإنسان يتصرف كأنه المتحكم في كل شيء، القادر على كل شيء، لقد اجتاز الحدود واغترب، وفقد ذاته الأولى الأصلية، أصبح غريبا حتى عن نفسه، وأصبح روحا تهوِّم داخل ذاته، مثلما تهوِّم داخل هذا العالم، ويهوِّم بداخلها أيضا.

وكان لأفكار شتيرنر هذه تأثيرها الواضح في تفكير ماركس، فجعلته يعيد النظر في تلك الافتراضات المسبقة المثالية في كتاباته المبكرة حول الجوهر والجنس البشري والتي كان قد استمدها من فويرباخ. ومثلما انتقد شتيرنر أفكار ماركس، فقد انتقده ماركس بشدة أيضا، حيث أشار - ومعه إنغلز - في «المثالية الألمانية» إلى أن النقد الفلسفي الألماني منذ شتراوس حتى شتيرنر قد شغل نفسه كثيرا بنقد المفاهيم الدينية، وأهمل الاهتمام بالمادية الملموسة المحسوسة الخاصة بالعالم؛ وأنهم بشغل أنفسهم بنقد الأفكار فقط، يصبحون هم أنفسهم من أصحاب الأفكار فقط، يصبحون

مثالين جديرين بالنقد أيضا. هكذا صنع شتيرنر نفسه ـ كما قال ماركس ـ عالما من الأشباح خاصا به، ونظر إلى العالم على أنه أشبه فقط بصراع يدور بين الأشباح.

وفي كتابه عن «الأنا وكينونتها The Ego and its Own» يقول شتيرنر: انظر هنا وهناك، في ذلك العالم، وتساءل: ألا توجد روح في كل شيء حولك تحدق فيك! ففي كل زهرة صغيرة تتحدث إليك، هناك روح الخالق الذي شكلها على نحو جميل، كذلك تومئ النجوم وتشي بالروح التي توجد وراء ذلك النظام كله، ومن قمم الجبال تهبط روح الجلال إلى الأرض، ومن المياه تصعد روح توافة إلى الخرير، ومن أعماق البشر تتحدث ملايين الأرواح، قد تغرق الجبال، وتشحب الزهور، وتسقط نجوم العالم وتتحطم، ويموت الإنسان. فماذا يبقى خلف حطام كل هذه الأجسام المرئية؟ إنها الروح، تلك الروح غير المرئية، التي تسكن الخلود! نعم، العالم كله مسكون بالأرواح! مسكون فقط؟! مسكون فقط بالأرواح؟! إنه نفسه عالم يمشي ويتجول كالأرواح، إنه عالم غريب، وطبقة وراء طبقة، يزداد غرابة، وما الجسد الخاص بتلك الروح الذي يبدو شبه متجول ومتحرك؟ إنه شبح، وما الذي يمكن أن يكون عليه شبح ما ـ إذن ـ غير ذلك الجسد الظاهر لنا؟ وهل هو روح حقيقية؟ إن العالم خاوٍ، خالٍ، إنه عدم، إنه مجرد مظهر خارجي مشابه مثير للحيرة، وحقيقته الوحيدة هي الروح فقط، هكذا فإن العالم هو ذلك البدن الظاهر للروح. «انظر حولك، هنا وهناك، ستجد عالما شبحيا يحيط بك في كل مكان، وستكون لديك دائما أطياف ورؤى، فكل شيء يظهر لك هو مجرد أطياف لروح تسكن العالم، إنه التجلي الشبحي للروح فقط الذي يظهر لك، والعالم بالنسبة إليك هو مجرد مظاهر، تتجول الروح خلفها، وما تراه هو الأرواح فقط» [13].

ومتحدثا عن الغرابة والقداسة يقول شتيرنر: إنه في كل شيء مقدس يكمن شيء غريب محير، شيء غريب، شيء لا نكون على ألفة تامة به، لا نكون مطمئنين تماما. وقد كان التوق الغلاب من أجل الفهم للأشباح، أو لإدراك غير المدرك في الحياة، هو ما جعل الناس يتصورون وجود شبح ذي جسد، شبح له جسد حقيقي، شبح متجسد يكمن دائما خلف تلك الثنائية الخاصة بالطبيعتين اللتين يفكر من خلالهما معظم البشر،

حيث هناك ازدواجية أو ثنائية: الإلهي والإنساني، الشبحي والحسي، وهناك دائما أيضا، ذلك الشبح المتجول، الشيء الذي لا يشبه الأشياء التي نعرفها، لكنه القادر أيضا على القيام بأشياء وأفعال لا نعرفها، ولا نتوقعها. ويضيف شتيرنر: «إن كل شيء تشعر نحوه بالاحترام أو الخوف يستحق اسم المقدس. وسوف تقول لنفسك إنك ستشعر بخوف مقدس عندما تقترب منه. حتى لو كان مقترنا بالجرائم والمذابح، إنك قد تشعر بالرعب منه؛ لأن في داخله شيئا غريبا، شيئا غير مألوف بالنسبة إليك». كذلك وردت الإشارة إلى البيت المألوف والعالم الغريب لدى شتيرنر أيضا في حديثه عن علاقة الإنسان بالمقدس، وخاصة عندما يتوهم الإنسان أنه قادر على كل شيء، وأنه قد أصبح في بيته وليس غريبا في العالم [14].

لماذا اهتممنا بوضع هذه النصوص المطولة هنا من شتيرنر؟ لأنه فيما يبدو لنا، كان من أوائل الفلاسفة الذين اهتموا بفكرة الغرابة وربطها بالأشباح والخوف. ومثلما تجاهل فرويد ما قدمه نيتشه من أفكار مهمة حول الغرابة، فتعامل معها باستهانة، فإنه لم يكلف نفسه أيضا حتى مشقة الإشارة العابرة إلى ما قدمه شتيرنر من أفكار مهمة، على الرغم من أنه ينتمي إلى الثقافة الألمانية نفسها التي ينتمي إليها فرويد، النمسوي، ويكتب باللغة نفسها كذلك. كما يمكننا أن نلاحظ أيضا أن كثيرا من الأفكار التي طرحها دريدا بعد ذلك عن نقد فكرة المركزية الخاصة بالمركز الواحد أو اللوغوس الذي يدور حوله العالم، هي أمر قريب إلى حد بعيد من نقد شتيرنر لفكرة «الجوهر». هكذا انتحل دريدا فكرة نقد المركزية اللوغوس أو المركز الواحد شتيرنر مثلما انتحل فكرة المراودة والطيفية من فكرة الغرابة عند فرويد الذي انتحلها بدوره من شيلنغ وشتيرنر ونيتشه، وكي ندرك هذا التطور الحديث وما بعد الحديث، الذي طرأ على تلك الأفكار الخاصة بالأشباح، والأطياف، والطيفية، وروح العالم.

الطيفية والغرابة

يدين مفهوم المراودة أو نظرية عودة الأطياف Hauntology لدى دريدا كما قلنا، بالكثير لفرويد وما كتبه عن الغرابة (1919)، وكذلك لفكرته عن «الغريب عن البيت»، حيث إن إحدى الخصائص المميزة للشبح هي قدرته

علـــى العودة بعد ذهاب، فكذلك يقوم مفهوم الغرابة لدى فرويد على فكرة «عـــودة المكبوت»، عودة الخوف والمخيف الذي كُبِت، كما أن تعليقات فرويد عن «عودة الموتى» تشكل نقطة البداية التي يمكن من خلالها تحليل إسهام دريدا الجوهري في النظريات المتعلقة بالمراودة والشبحية.

كذلك يشـــترك فرويد ودريدا ـ معا ـ في انشغالهما واهتمامهما بالأشباح والأشـــباه (الأقران)، والعائدين بعد غياب أو موت، وأيضا الأطياف، وقد أكد ذلك نيكولاس رويل أيضا حين قال بوجود تشـــابهات عدة بين فكرة التفكيكية Deconstructionism التي يقوم على أساسها تفكير دريدا كله، وفكرة الغرابة لـــدى فرويد. وقال رويل أيضـــا إن التفكيكية تجعل النصوص المألوفة والأكثر وضوحـــا، نصوصا غريبة، وذلك من خلال اســـتمرارية أو اتســـاق معين في التحليـــل للنصوص، من الممكن أن يكون هو نفســـه غريبـــا. لكن دريدا أيضا، وبـــدلا من أن يظهـــر اهتماما بالوجود الفعلي الخاص المحدد للأشـــباح ـ كما فعل فرويد ـ فإنه اهتم بمنزلتها أو مكانتها البينية، من حيث إنها تهوّم وتحلق بـــين عالم الأحياء وعالم الأموات، من حيث تجســـيدها لفكرة الطيفية ذاتها، ولقدرتهـــا علـــى المرواغة أيضا، وذلـــك من أجل وصف قدرة تلك الأشـــباح، أي الأفـــكار التي تنتمي إلى الموتى والماضي، علـــى تفكيك أو تذويب الحدود والحواجز الخاصة بالزمن المتتابع خطيا أو تقليديا. وكما ذكر كولن ديفيز فإن فرويد قد اعترف بفكرة الأشـــباح من أجل أن ينزع الغموض عنها فيما يتعلق بمعتقداتنـــا حولهـــا، أما دريدا، فأراد أن يضع موضع المســـاءلة، ذلك التراث الفكـــري كله، الذي ينتمي إليه فرويد، وكذلك ماركس وغيرهما؛ ومن ثم يتيح الفرصة التي يمكن أن يتحدث، من خلالها، ذلك الآخر الشبحي إلينا[15].

فـــي كتابه «أطيـــاف ماركـــس» (1993) عاد «غريـــب» فرويد بوصفه القرين لتلك الحالة المؤقتة أو الزمنية التي أطلق عليها دريدا اسم الطيفية Spectrality، التي هي وثيقة الصلة بالغرابة، فهي مثلها تنتمي إلى الماضي، وتعود أيضا وتظهر فجأة أو خفية، وتزور الماضي، وربما المســـتقبل. مثلها مثل تلك الأرواح الهائمة في المكان. هكذا يمكن فهم الغرابة:

1 - من الناحية البصرية: تظهر الغرابة بوصفها إشكالية خاصة بالمعرفة الطيفية، أي المعرفة التي تظهر - مثل والد هاملت - على هيئة شبح.

2 – وزمانيا: تظهر الغرابة أو تنبثق في تلك اللحظة التي يتصل فيها الماضي بالحاضر، إنها لحظة غير محددة زمنيا، غير مؤقتة زمانيا، لكنها شكل يستمر على نحو ما.

3 – وأخيرا، ومكانيا: فإنه يترتب على الغرابة، أن تحدث أو تؤسس نسخة أو صورة من ذلك الاندماج الذاتي المحصن أو المنيع ووفقا لمصطلحات دريدا، حيث يتسلل من خلالها «خارج معين» إلى «داخل معين». وتشير هذه المناعة الذاتية إلى تلك العملية التي يحدث من خلالها أن تقوم مفاهيم مثل العدالة والتسامح أو الديموقراطية، أو تتخطى القواعد القانونية والسياسية، ولكنها – مع ذلك – من الداخل والخارج، تظل متصلة بهذه القواعد على نحو متماسك أيضا»[16].

وهكذا، فإنه بينما قال دريدا في «أطياف ماركس» عن فرويد إنه كان «يصطاد الأشباح» ويدخلها مملكته التفسيرية الخاصة بالتكوين النفسي ما قبل التاريخي، وبينما نُظِر إلى ماركس أيضا على أنه كان «يصطاد الأشباح» الخاصة بالأشكال الحية الخاصة «بالرأسمالية»، فإنه – أي دريدا نفسه – قد أوحى بفكرة «الطيف» ذاته، واقترحه بوصفه المحرك الخاص بالمعرفة والبحث، وكذلك الدافع للتاريخ والفكر، وهي فكرة ترددت، على نحو ما، لدى ماكس شتيرنر قبله، كما أشرنا منذ قليل.

هكذا تخيل دريدا أفكار ماركس وهي تأتي (من الماضي) إلى المستقبل في شكل تلك الديموقراطية القادمة التي لم يتعرفها ماركس قط، لكنها المتضمنة داخل المنطق النصي الطيفي الموجود في كتابه «رأس المال». وكما اعترف دريدا في خلاصة كتابه، فإنه كان يريد تسميته: «ماركس ـ الغريب» Marx- das unheimliche، في اعتراف منه بفضل فرويد ودراسته عن الغرابة عليه، وفي إشارة منه أيضا إلى تلك العلاقة التي تربط التفكيكية – منهجه في التفكير والتحليل – بالتحليل النفسي أو السياسة واللاشعور. وكما قال أيضا، فإنه من «أجل أداء هذه المهمة فإن المنطق الطيفي هو أمر لا يمكن الاستغناء عنه أبدا»[17].

في كتابــه «أطياف ماركس» عرف دريدا «الطيــف» بأنه ذلك «الكائن الذي بلا جســد»، الذي لا يمكن الهروب منه، والذي يرود الشيء أو المكان من داخله ومن خارجه [18]، وربما قد يكون هذا الشيء الميت ـ الحي شبيها ببعض المخلوقات الأدبية القوطية، مثل فرنكنشـــتين مثلا، وكذلك كثير من الأطيــاف التي خلقها الخيال، والتي ترود الحاضر بحثا عن حضور خاص لها، كي تكون لها قيمة رمزية جديدة أيضا.

تتحــدث نظرية «المراودة» لدى دريدا عن بعض أطياف الماركســية التي ترود أوروبا، أو تزورها، وكذلك عن الطبيعة المراوِدة المتعلقة بالأدب نفسه، كما تجلت من خلال شبح هاملت لدى شكسبير على نحو خاص. كما لاحظ دريدا في بداية كتابه «أطياف ماركس» فإن بيان الحزب الشيوعي (1848) يبدأ بإشــارة إلى مفهوم الطيفية، حيث جاء فيه: «هناك شــبح ما يهوّم في أوروبا، هو شبح الشيوعية»، وهذا الشبح هو ـ في الحقيقة، كما قال ـ غائب يعود، طيف يرجع ويتجلى ويُحدث اضطرابا في التسلســل الزمني المتتابع. وبهــذا المعنى فــإن مراودة الأشــباح، أي ذهابها وحضورهــا، هي العلامة المميزة للوجود في أوروبا، وإن الهيمنة الرأسمالية، أيا ما كانت، على الرغم من تأثيراتها، لا يمكنها أن تطرد كل أشــباح الماركسية، لا يمكنها الاستبعاد تماما لأفكارها التي تعود، أي لذلك الوجود الشبحي لها في العالم الغربي، وهذه فكــرة طورها دريدا لاحقا على أنحاء مختلفة تضمنت في جوهرها، نوعا من الاعتراف بقوة الأدب، وبطبيعته الطيفية الخاصة التي مثلها على نحو بارز طيف والد هاملت في مسرحية شكسبير المعروفة [19].

في نقده لكتاب دريدا «أطياف ماركس»، قال جون فليتشر J.Fletcher إن دريدا قد أســاء تفســير مصطلح «الغرابة»، فبالرغم من أن دريدا قد زعم أن العنوان البديل لكتابه كان ســيكون هو «ماركس ـ الغريب»، - Marx Das unheimliche فإنه لم يتعامل مع مصطلح «الغرابة» كما هو مســتمد مــن فرويد، بعمق كبير، ومن ثم فإنه قد ســلبه أو نزع عنه قوته النظرية. لقد اكتشف دريدا بعدا طيفيا في تفكير ماركس، أو نظرية شبحية مضادة للوجود حاول أن يتحاشــاها، لكنها ظلت تؤكد نفسها عند كل محاولة منه لطردها[20]، فلم يســتطع ماركس أن يدحض فكر شتيرنر الذي اتهمه في

كتابــه - كتاب ماركــس - «الأيديولوجيا الألمانية» بالمثالية، لم يســتطع أن يدحض ذلك الفكر من دون أن يشير إلى تلك الأرواح والأطياف - المثالية - التي حاول هو نفســه أن يطردها من فكره الخاص؛ لم يستطع ماركس أن يطردها إلا من خلال اســتحضاره لها في كل خطوة. وقد استخدم دريدا المثال الخاص بشــبح والد هاملت - الذي يعود إلى التجوال أو يسكن عقل ذلك الأمير الشاب المضطرب - من أجل أن يحدد البعد الشبحي في عالم ماركس. وحيث إن «الزمن» كان «قد اضطرب»، والعالم تعمه الفوضى وكل شــيء فيه؛ فإن النقص في البنيات المعرفية الممثلة للعالم، النقص في فهم العالم، وفي إدراكه، كان الهم الرئيسي لدى ماركس [21].

لقد انتحل دريــدا فكرة الغرابة من فرويد، وفســرها في ضوء البنية العامة لفكرة حلول الأشــباح، وســاوى بــين الغرابة لــدى فرويد، وفكرة الأشباح والأطياف، وحلولها، محلا ما، وسكنها فيه لديه.

عودة الموتى

ترتبط فكرة الأشباح والأطياف العائدة بأفكار المراودة والعودة من الموت والغرابة وغيرها، وبالنســبة إلى دريدا، تقوم نظرية المراودة Hauntology على أســاس منطق حركة الحضور الطيفي لـ «طيف» الماركسية في أوروبا، وكذلك تلك الطبيعة الطيفية للأدب التي يجســدها طيف والد هاملت في مســرحية شكســبير الشــهيرة. هذا الطيف، هو، في الحقيقة «عائد بعد غياب» Revenant شــبح يعود من الماضي كي يحدث الاضطراب في تلك الاستمرارية الخطية النمطية المتواصلة في الزمن، ومثلما أشار بيتر بوس Peter Buse وأندرو ســتوت Andrew Statt، فــإن حالة العودة بعد غياب هذه حالة تلخــص على نحو موجز بعض الاهتمامــات التفكيكية المتعلقة باســتحالة تجميــد الماضي أو الزمن تصوريا أو معرفيــا. لقد حبذ دريدا الفكــرة الخاصة بالطيف بوصفه عائدا بعد غياب، يعود كي يفكك كل تلك الأشــكال التاريخية التي تقوم على أساس إحســاس، ومثلما يعود الطيف بعد غيــاب، تعود بعض أفكار الماضي إلى الحاضــر، وتعود بعض الأفكار والانفعــالات والصور والرؤى التي كُبِتَتْ فــي الماضي، وتكون عودتها هذه

غريبـــة، فهكذا تكون ثمة قرابة معرفية بين مفاهيم «الطيف» و«العائد بعد غيـــاب» والغرابـــة والقرين، وقد ألمح دريدا نفســـه إلى ذلـــك - كما ذكرنا سابقا - عندما قال إنه كان يود أن يغير عنوان كتابه من «أطياف ماركس» إلـــى «ماركس ذلك الغريب» Marx - Das - unheimliche دريدا (1994)، ومـــن ثم يربط بين مفهوم فرويد عن «الغرابـــة» ومفهومه هو الخاص عن «الطيـــف»، ذلك المفهوم البينـــي، الموجود على العتبـــة، عتبة الوعي، عتبة الزمـــن، عتبة التاريخ، خارج الزمن، مُـــزَّاح، مضطرب مفكك. وهكذا فإن «طيـــف» دريـــدا هذا، ليس حاضـــرا، ولا غائبا، الحيـــاة والموت، الحضور والغياب، ويقوم بجعل الروائح اليقينية تتأرجح وتهتز، وربما تسقط أيضا.

هكـــذا يســـمح لنا مفهوم الطيف لـــدى دريدا بأن نتحـــدث مع الموتى، وتسمح لهم بأن يتحدثوا إلينا، بل وتسمح أيضا لهم بالحضور، وتسمح لنا بمساءلتهم، ويتيح لنا الفرصة لفتح آفاق خاصة باحتمالات وبدائل جديدة للمعنى والحياة تتعلق بالحاضر وبالمستقبل أيضا.

أما مفهوم «الشـــبح» لدى نيكـــولاس إبراهام وماريا تـــوروك فيتعلق أيضا بالعودة من الماضي، لعودة الموتى، بالسر الذي لا يمكن الإفصاح عنه مباشرة إلا من خلال الكلمات، بحالة مراودة تحمل شهادة خاصة على وجود الميت المدفون داخل الآخـــر أو داخل الذات والمتعلق بآخر ولدى إبراهام وتوروك اهتمام كبير بالماضي، بجروحه، بآلامه، بصدماته، بأسراره وليس هنا اهتمام يذكر لديهما، بالمستقبل ومن ثم فإن مفهوم الطيف لدى دريدا مفهوم أكثر دينامية، وقل الأمر نفسه أيضا عن مفهوم الغرابة لدى فرويد ولكن في ضوء ما طرأ.

إن الأشباح، والموتى وغير الموتى، يمشون بيننا الآن - كما يقول ديفيز - كما كانوا يفعلون ذلك من قبل. إنهم يوجدون على شاشـــات التلفزيون، وفي قاعات الســـينما - في أفلام كثيرة، مثل «الشبح»، «مقابلة مع مصاصي الدماء»، «فان هلسنغ»، «الحاسة السادسة»... إلخ. وقد اقترح «جيجيك» أن عودة الموتى الأحياء تمكن تسميتها «الخيال الجوهري لوسائل الاتصال الجماهيري المعاصرة»[22].

وقد قال «لاكان» ردا على الســـؤال: لماذا يعـــود الموتى؟ بقوله: لأنهم لم يُدْفَنوا على نحو مناســـب، أي لأن شـــيئا قد حدث على نحو خاطئ فيما يتعلق بمواراتهم الثرى؛ فعودة الموتى هي علامة على اضطراب ما حدث في

الطقس، ذلك الطقس الرمــزي الخاص بدفنهم. ويعود الموتى كي يجمعوا بعــض الديــون الرمزية التي لم تُدفَــع بعد. هكذا تعود الأشــباح، ويكون ظهورها علامة على اضطــراب أو خلل في النظام الرمزي، أو الأخلاقي، أو المعرفي، وعندما يُصَحَّح هذا الخلل أو الاضطراب فإن الأشباح سترحل مرة أخرى، وقد لا تعود. ولماذا يعود الموتى؟

يعود الموتى والأشباح للأسباب التالية:

1 - لأن طقــوس دفــن بعض الموتى والحــزن عليهم لم تكتمل بعد.

2 - أو لأنها أشباح شريرة؛ وينبغي طردها.

3 - أو لأنها. مثل شبح والد هاملت. تعرف بعض الأسرار التي ينبغي كشــفها، أو تعرف خطأ ما ينبغي تصحيحه، أو ظلما شاع وانتشر، أو أمرا جللا قادرا على الإتيان بالعجائب ينبغي الخشية منه.

إن الأشباح هنا - هكذا - تُسلّم رسالة، أو تنجز مهمة، أو تُحدِث اضطرابا ما ينبغي تصحيحه. هكذا تصور قصص الأشباح اضطرابا وتدخلا وانقطاعا مؤقتا في نسيج الواقع، خللا في نظام ما، من أجل استعادة النظام الأخلاقي والمعرفي للأشــياء والواقع. هكذا قد نشــعر بغضب وبحــزن لأن الموتى قد فارقونا، لكننا قد نخاف لأنهم قد يعودون أيضا[23].

لا تظهر الحالة الشــبحية فقط - كما قال بعض النقاد - في الشــكل السردي الخاص بها؛ ولكنها تظهر أيضا في نظريات النقد الأدبي، والتحليل الثقافــي، بل حتى في علم الاجتماع. ووفقا لما قالته عالمة الاجتماع آفيري غوردون Avery Gordon، فإن زيارة الأشــباح وســكناها محلا ما، ليست خرافة تنتمي إلى ما قبل العصر الحديث، ولا هي نوع من الذهان الفردي، إنهــا ظاهرة اجتماعية عامة ذات مغــزى كبير، فمن أجل أن ندرك الحياة الاجتماعية ينبغي أن ندرك الجوانب الشبحية فيها، وتتطلب هذه المواجهة نوعا من التغيير الأساســي في الطريقة التي نعرف ونفكر من خلالها، أو نتعرف الأفكار والمعلومات، وكذلك في طريقة إنتاجها. إن صورة «الشــبح» فــي ضوء هذا المنظور، تجعل العلاقات التاريخية أكثر شــفافية، وتجعلها

قــادرة أيضا على أن تمارس دورا متســما بالغمــوض فيما بين الأضداد، كالحيــاة والموت، القابلية للرؤية والظهــور والقابلية للاختفاء، وباختصار، يلعب الشبح دور التفعيل المؤثر أو حتى الدرامي للحضور الخاص بالغياب، فيجعل ما كان خفيًا، يبدو ويتجلى ويظهر على أنحاء مختلفة[24].

في كتابها «التفاوض مع الموتــى» Negotiating with the dead، قالت الكاتبــة الكندية «مرغريت أتوود» إن كل أنواع الســرد - بل ربما كل أنواع الكتابــة - يدفعها نوع من القلق أو الخوف الخفي، وولع ما بطبيعة الموت، رغبــة ما في القيام برحلة ما نحو العالم الســفلي، لإحضار شــيء ما، أو شــخص ما من بين عالم الأموات. وهكــذا فإن العلاقة بين الكتابة والموت - وفقــا لمــا قالته آتــوود أيضا - إنما تكمــن في تلك الرغبــة في القيام بالإحياء، والإبقاء حيًا، للأعماق الســفلى العميقة الخاصة بالنســيان من أجل استحضارها ووضعها داخل العالم الخاص بالحاضر. وهكذا فإنه في كل أنواع الســرد، وربما كل أنواع الكتابة، يمكننا أيضا أن نشــعر أو ندرك وجود طبيعة شــبحية أو طيفية، وبالقدر الذي تستطيع عنده هذه الكتابة أن تجعل الأموات أحياء مرة أخرى[25].

هنا يتم الإحياء من خلال التذكر، ومن خلال الكتابة، هنا والاستحضار الماضي وعوالم النسيان، هنا يكون ما يتم استحضاره غائبا لأنه ينتمي إلى عالــم الماضي والموت، ولأنه أصبح موجــودا بفعل التذكر والكتابة، ومن ثم منتميا إلى عالم الحاضر. هنا نجد الحضور البيني. للماضي في الحاضر، وللنســيان من خــلال التذكر، ولما انقضــى من خلال الكتابة، وبواســطة الكتابة، وهذه ليست عملية آلية تستحضر الماضي كما كان موجودا، أو كما هــو محفوظ في متون الكتب والتراث والذاكرة الجماعية؛ بل نســتحضره من خلال الذاكرة الإبداعية التي تضيف وتحذف وتتخيل وتتصور... إلخ.

وكما علمتنا دروس بارتليت وتجاربه في علم النفس حول الذاكرة فإن القصة التي يرويها شخص آخر لا تكون هي القصة نفسها التي يرويها الشخص الثاني للشخص الثالث، أو التي يرويها الثالث للرابع، وهكذا، فهناك دائما آليات تحويل وتعديل وإضافة وحذف في شــكل القصة ومحتوياتها وبداية ســردها ونهايته، حتــى أنه في بعــض هذه التجارب وجد بارتليت أنه لــم تكن هناك إلا صلات

واهية بين القصة في صورتها الأولى والصورة كما حُكِيَتْ أو سُرِدَتْ في صورتها الأخيـرة، ففـي كل مرة كان يتم تغيير ما يتم تذكره فـي ضوء ما يضفيه عليه الشخص الراوي من انفعالاته وأمنياته وأحلامه الخاصة، في ضوء ما تبقى في عقله ووجدانه من ترسيبات شبحية متعلقة بالقصة التي سمعها أو قرأها أول مرة، هكذا يكون ما نتذكره وما يعود إلينا، ليس هو الشخص الذي كنا قد عرفناه أول مرة، وليست هي الفكرة التي كانت موجودة في البداية، بل الفكرة ومعها كل ما تحمله من مخاوف وأمنيات وأحلام وغرابة وهي فكرة قد تعود أيضا ويعود معها بعض الأشخاص بعد غياب.

العائدون بعد غياب

تعـد «أوديب». وغيرها من الأعمال المسـرحية، كتلك التي كتبها توفيق الحكيـم أو علي أحمد باكثير، أو فوزي فهمي خاصة في مسـرحيته «عودة الغائب» [26] نموذجا لأشـخاص عادوا على نحو واقعي، وليس كأشـباح بعد غياب، وكان حضورهم غريبا، فهز الاستقرار الظاهري للمدينة، وقلب أمنها رعبـا. والعائدون بعد غياب هم أرواح هائمة فـي المكان، أرواح قد غادرت المكان، لكنها تحن دوما للعودة إلى المكان، أرواح، أشـباح، أطياف، خيالات، أفكار، وصور، وتصورات تظل في حالة اتصال على أنحاء مختلفة في المكان.

كتب المؤلف الألماني فولفغانغ بورشرت (1921 - 1947) في العام 1946 مسـرحية عنوانها «قطعة لا يريد مسـرح أن يمثلها ولا جمهور أن يشهدها» يحكـي فيها عن رجل من كثيرين غابوا عن ألمانيا وطالت غيبتهم، فلما رجعوا خاوية بطونهم، حافية أقدامهم إلى دورهم، تبينوا أنهم لم يرجعوا إلى دورهم؛ لأن دورهـم لم يعد لها وجود، وأصبح مأواهم هناك «في الخارج أمام الباب، وأن هناك في الخارج أمام الباب كانت ألمانيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية، كان وطنهم في الليل الدامس، تحت المطر، على قارعة الطريق» [27].

فـي مسـرحية «زيارة السـيدة العجـوز»، للكاتـب الألمانـي «فريدريش دورينمـات»، تعود كلارا التي غادرت البلدة فقيرة مطعونة في شـرفها، تعود فاحشـة الثراء، تعود لتنتقم من كل من أسـاء إليها، في حين ظن أهل البلدة أنهـا قد عـادت من أجل أن تسـاعدهم. وقد بدأت حياتهـم تتغير تدريجيًا

في «جوللين» بلدتهم، بدأوا يشترون طعاما أجود، وشرابا أحسن، ويقتنون السيارات، ويجددون العمران؛ على أمل أن جانبا من ثروة تلك السيدة العجوز سيعود عليهم - يقينا - في المستقبل، وفي سبيل تحقيق هذا الأمل يقتلون أحد مواطنيهم (آل)، ذلك الذي كان قد سبق له أن خدع تلك السيدة في شبابها. وهي قد عادت متقدمة في السن بيد صناعية، وساق صناعية، تتحرك مثل الآلة الفاقدة للروح، إلا روح الانتقام التي تقوم بدفع أهالي تلك البلدة إلى القيام بعملية قتل مشترك بينهم لحبيبها الخائن القديم [28].

كذلك تبدو مسرحية «مهاجر برسبان» للكاتب المصري الذي يكتب بالفرنسية جورج شحادة وكأنها تنويعة أخرى على مسرحية «زيارة السيدة العجوز»، حيث هناك غريب يأتي إلى بلدة ما ومعه ثروة، وتتغير حياة البلدة وتنقلب رأسا على عقب بعد مجيئه، صحيح أنه جاء ميتا، أو قتل داخل البلدة، لكنه جاء بثروته مثل كلارا في زيارة السيدة العجوز، وقد كانت له علاقة قديمة بإحدى نساء القرية، مثلما كانت لـ «كلارا» علاقة قديمة حميمة بأحد رجالها، ثم إن انقلاب أحوال البلدتين في المسرحيتين يكاد يكون واحدا. صحيح أن دورينمات كتب مسرحيته قبل جورج شحادة، كتبها بالألمانية، في حين كتبها شحادة بالفرنسية، لكن العوالم المشتركة بين المسرحيتين من الأمور اللافتة للانتباه على نحو واضح، كما أن الغريبين في المسرحيتين قد جاءا بعد أن كان الزمن قد اضطرب في البلدتين، ثم إنه قد ازداد اضطرابا وهياجا بعد حضورهما، حضورهما بعد غياب، وقد كانا مألوفين في الماضي ثم غابا، ثم جاءا وقد كان مجيئهما غريبا جدّا[29].

لكن ما الشيء الحقيقي الذي حرك القرية بكاملها؟ يتساءل الشاعر أدونيس - مترجم المسرحية إلى العربية - ويجيب قائلا «إن الذي تحرك هو ذلك الشطر السحري في الإنسان، أعني التوقع والتطلع إلى الغريب الجديد الغامض، هو الشوق إلى نسق جديد للحركة، إلى الحركة بعيدا عن «الطريق العام» الذي شكل حدود القرية، الشوق الذي دفع بالمهاجر المجهول إلى قارة جديدة بعيدة ليعود محملا بالذهب» [30]. هنا الغريب حاضر كجثة، كصورة، كشبح، كماضٍ، كذكرى، غائب ولكنه كثيف الحضور أيضا على الرغم من هذا الموت المخيف.

في مسرحية «المفتش»، من تأليف الكاتب الروسي نيقولاي غوغول، وصلت رسالة إلى حاكم إحدى المدن تفيد بقرب وصول أحد المفتشين لمراجعة الأمور فيها، تنقلب الأمور رأسا على عقب، يتظاهر سكانها والمسؤولون فيها بعكس حقيقتهم، هنا تتحسن أمور النظام والنظافة والتعليم والصحة والشوارع والثقافة وغيرها استعدادا لقدوم ذلك الوافد المجهول، يعيدون ترتيب مجهول، متوقع، متوهم، متخيل، غامض، ثم إنه لا يأتي في النهاية على الرغم من كل ما قاموا به من ترتيب لأمورهم كذبا ونفاقا. وتبدأ المسرحية بوصف حالة الذعر التي استبدت بجميع شاغلي درجات السلم الوظيفي في المدينة، بدءا من الشرطي الصغير، وانتهاء بالحاكم الكبير، فالكل يخاف وصول المفتش، والكل يريد التستر على عيوبه، ونواقصه [31] ثم إنهم يعتقدون عندما يرون شخصا ما، غريبا عن البلدة، أنه «المفتش» المتوقع، لكنه كان مجرد محتال خدعهم وجمع منهم بعض الأموال، استمع منهم لفضائحهم ومخازيهم ثم هرب، ولا يصل المفتش الحقيقي إلا في نهاية المسرحية، إلا في مشهدها الختامي، بعد أن يكون المغزى الحقيقي منها قد تحقق.

أما في رواية «الشيطان والآنسة بريم»، من تأليف الروائي البرازيلي باولو كويلو فيعود الغريب إلى بلدة صغيرة، حاملا معه الذهب والثروة، يحل بين أهل «بسكوس» القرية المحافظة على استقامة أهلها وطيبتهم، وعلى ميراث من الخرافات المتنوعة، يحل معه شيطان وسبائك ذهب، ورغبة في امتحان طبيعة البشر، في اختبار مقاومتهم للشر والجريمة والإغراء والاستيلاء على حقوق الآخرين. والرواية أشبه بإعادة كتابة أو محاكاة متهكمة Parody واعية من ذلك الغريب في مسرحية «زيارة السيدة العجوز» لـ «دورينمات»، بل إن إشارة ترد في الرواية إلى معرفة ذلك الغريب العميقة بتلك المسرحية. هكذا تسرد هذه الرواية قصة ذلك الصراع الأزلي بين الخير والشر، النور والظلام، الغريب هنا يهز استقرار ذلك المكان الشديد التنظيم، وقلب ألفة سكانه واستقرارهم رأسا على عقب [32]. والغريب هنا هو الشيطان، هو الشر الذي يطلب من أهل القرية المسالمين أن يقتلوا أحد مواطنيهم نظير بضع سبائك من الذهب.

وفي مســـرحية «ثورة الموتى»، من تأليف الأمريكي أروين شـــو، يرفض ستة جنود موتى أن يدفنوا، بعد أن يوضعوا في قبورهم، يقفون مرة أخرى داخــل تلك القبور، يرفضون دفنهم، يطالبون بالقصاص ممن تســبب في قتلهم وهم لا يزالون بعد شــبابا لم يشــبعوا من الحياة، ثم إنهم يطالبون بإيقاف الحرب. هنا يعود الموتى إلى الحياة، ليســوا كأشباح أو أطياف، بل كجثث حية تنبعث منها الروائح الكريهة والأقوال العنيفة التي تدين كل من أوصلهــم إلى هذا المصير، حيث يســتفيد من موتهم القادة، ورجال الدين، ورجــال الأعمــال، والصحافيون، وغيرهم مــن أركان المجتمع، وكل هؤلاء الذيــن قتلوهم أول مــرة، ثم حاولوا قتلهم مرة أخــرى، لكن الجثث تخرج من قبورها، يرفض أصحابها الموت، يرفضون من أســلموهم للموت، إنهم يحبون الحياة، يفكرون في حياة أفضل، يحملقون فيها ويحلمون بها[33].

خاتمة الفصل

لقد قــرأ دريدا مقال فرويد عن الغرابة في علاقتــه بتلك التأثيرات التي ســماها بذر بذور المعنى dissemination من خلال الإبدال والإرجاء اللانهائي للمعنــى، فلدى فرويد، كما قال دريدا، في «الغرابة» انتباه غير مســبوق لذلك النــوع من التناقض الوجداني غير المحســوم، نوع من اللعــب بكل ما هو بديل ومــزدوج، حالة من التبادل اللانهائــي للعلاقات بين الخيالي أو العجائبي وبين الواقع، حالة من الإزاحة والإحلال والاســتبدال التي لا تنتهي، حالة من اللجوء إلــى القلق المرتبط بالقطع والانقطاع أو الخصاء والذي لا توجد أســرار خلفه وبين العلاقات البديلة السرية، قد يتضمن التكرار أيضا نوعا من الإرجاء للفقد والخــوف والتهديد هكذا تحــل دائما البدائل والتعويضات والأشــباه والصور الأخرى مع حدوث الانقطاع والفقد، يقول المثل المصري: «يقطع من هنا ويوصل من هنا» في إشــارة مختلفة إلى أن رزق المرء لو انقطع فلا بد أنه سيعود، وأنه عندما يفقد شيئا فإن الله يعوضه بغيره حتى لو تكرر هذا القطع.

ومصطلح «اللاحســم» undecidabilty لدى دريــدا، هو البديل الذي اســتخدمه لمصطلــح فقدان اليقين أو عــدم التأكــد Uncertainty الذي اســتخدمه ينتش وبعده فرويد، وكذلك مصطلــح التأرجح أو التذبذب أو التردد الذي استخدمه تودوروف وكذلك جاكسون وغيرهما.

ومصطلح «اللاحسم» أحد المفاهيم الأساسية التي يقوم عليها المذهب التفكيكي في الأدب، وهناك جوانب عديدة مشتركة بين التفكيكية ومصطلح الغرابة، حيث إنهما يقومان معا، على أفكار الازدواجية والقلق والتناقض الوجداني والهدم والبناء والحقائق المتغيرة والمعاني المضطربة والمزاجية والمرجأة، حيث لا يوجد تعيين ثابت، ولا تأكد، ولا وحدة عضوية، أو حقيقة كلية، أو مركز واحد، بل أجزاء مقطعة وأعضاء منفصلة تسعى حية بمفردها، وقد تطمح إلى العودة إلى الكل الخاص بها من أجل أن تنفصل عنه من جديد أيضا، أو كما قال الشاعر العربي: قلق على قلق ومثلي يقلق... إلخ، وهذه العناصر التفكيكية الموجودة في مفهوم الغرابة ربما كانت هي أيضا ما جعلته أكثر المفاهيم شهرة في التحليل النقدي اليوم كما يقول رون باركن جونيلاس. وكما سيتبين لنا ذلك جليا خلال الفصلين التاليين من هذا الكتاب وخصوصا في الفصل الأخير، وقبل فرويد بوقت طويل استفاد القص القوطي كذلك من فكرة التكرار من أجل إحداث الشعور بالخوف والغرابة لدى القراء[34].

هكذا تكون حالة الانتياب أو المراودة أشبه بعملية وساطة، عملية تربط بين مؤسسة اجتماعية وفرد، بنية اجتماعية وذات إنسانية، بين التاريخ والسيرة الذاتية، وذلك في ضوء تعريف أفيري غوردون لها[35].

هكذا تظهر هذه الأشباح أو الأطياف عندما لا يكون ممكنا بعد، الاحتواء أو مواصلة القمع أو الكبت أو الإيقاف لذلك الاضطراب الذي تمثله هذه الأشباح، الذي تعبر عنه، تذكر به وترمز إليه، تعود على نحو متكرر كي تجعله مرئيًا، لماذا؟ لأن ما يُقْمَع أو يُكْبَت لا يموت؛ بل يظل حيًا، خاصة عندما يرتبط ذلك الكبت بالعنف والقوة والظلم، هنا تظهر الأشباح والأطياف الدالة على ما تم قمعه أو كبته، وهنا تكون أشكالها مرئية، مرئية في الحياة، أو في الفن والأدب والثقافة بشكل عام[36].

لقد كانت الأشباح في التصور التقليدي العام - وربما الحديث أيضا حاضرة دائما - ينظر إليها على أنها وسطاء بين عالم الأموات وعالم الأحياء، وسطاء يحملون رسائل، تكون مهمتهم أن يقوموا بالإخبار أو نقل تحذير معين أو نبوءة. وقبل القرن التاسع عشر - في أوروبا خاصة - لم

تكن الأشـــباح مهمة في ذاتها، بقدر أهمية الرســـائل المحـــذرة أو النبوئية التـــي تحملهـــا، وعلى الرغم من أنها - أي الأشـــباح. بحكم طبيعتها كانت تســـتثير الخوف والدهشـــة، فإن ظهورها أو إدخالها داخل العالم، لم يكن هدفه الأساسي إثارة الخوف فقط. حيث يتضمن التعامل مع الشبح. وفقا لما قالتـــه مرغريت آتوود «وعيا بأن هناك دائما عتبـــة، بين عالمنا والعالم الخاص به. عتبة ينظر إليها على أنها مســـاحة أو حيز مكاني مألوف في مقابـــل ذلك العالم البعيـــد غير الآمن الخاص بالآخـــر»[37]. هكذا يمثل الشـــبح، الآخر، أيّا كان، الماضي، الخارج، الأفكار والمعاني الأخرى، العوالم الأخـــرى، الأماكن الأخرى، الأزمنة الأخرى... إلخ، وهذه الآخرية هي التي تـــؤدي إلـــى المواجهة مع العوالم الأخرى، أي المســـاحات - أو الحيوزات - العقليـــة الخاصة بأزمنة وأشـــكال مختلفة تتعلق كلهـــا، في جوهرها، بما يسمى: «روح المكان».

حيث يشـــير مصطلح «روح المكان» إلى تلك الجوانـــب الفريدة المميزة لمكان ما، تلك الجوانـــب التي غالبا ما يحتفي بها الفنانون والكتاب، والتي يتـــم الاحتفاء بها أيضا في الحكايات والاحتفالات الشـــعبية. إنها نســـيج غير مرئـــي من الثقافة يظهر في القصص والفنون والذكريات والمعتقدات والكتابـــات التاريخية والجغرافية وغيرها. وقد يشـــير هذا المصطلح إلى ذلك الجانـــب الفيزيقي المادي الحســـي من مكان ما (الجبـــال، الحدود، الغابـــات، الأنهار، البحار، الأســـلوب المعماري، أســـاليب الحرف الريفية والشـــعبية، المناظر الطبيعية، وغيرها)، وقد يشـــير إلى الجوانب الخاصة بالعلاقات الإنســـانية بين البشـــر (علاقـــات القرابة والصداقـــة وأرواح الأســـلاف وما شـــابه ذلك). وهي تلك العلاقات التي قد تستثير، مجازيا، ما يســـمى بالإحســـاس بالمكان Sense of place وهـــو مصطلح قد ينطبق أكثر على الأماكن المدنية وشـــبه المدنية، وعلى الشوارع السريعة الطويلة، والطرق الواســـعة، والعمارة، والتخطيط العمراني، وعلى شـــكل واجهات المحال، وطريقة تزيين الشوارع... إلخ. لكن حتى بالنسبة إلى هذه الأماكن المدنية، من الممكن للمرء أن يســـتخدم مصطلـــح «روح المكان» أيضا. وقد اســـتخدم الرومان مصطلح «عبقرية المكان» - واستخدمه بعد ذلك جمال

حمـــدان في كتابه عن مصر «عبقرية المـــكان» - ويماثل هذا المصطلح في مضمونـــه مصطلـــح «روح المكان» الأكثر حداثة. واســـتخدم هذا المصطلح تاريخيًّـــا، أيضا، للإيحـــاء بوجود كائن ما وراء طبيعـــي صغير مثل الجني أو الجنية والعفريت وما شـــابه ذلك، وكذلك استخدم هذا المصطلح أيضا للإشـــارة إلى تلك الروح الهائمة في المكان، أو الشـــبح الـــذي ينتاب هذا المـــكان ويروده[38]. وعلى الرغم من التخلي عن مثل هذه الأفكار في العالم الحديث، فإنها لا تلبث أن تظهر في صيغ مختلفة، في مفاهيم جديدة أكثر تجريدا، وأقـــل مادية، وأقل خرافية، ومنها مثلا مصطلحات: الغرابة لدى فرويد، والشبحية والمراودة لدى دريدا. هكذا حدث تحول في طبيعة النظر إلى الشبح في الثقافة والأدب، فبعد أن كان ينظر إليه على أنه أداة سردية، وسيلة لتجسيد حالة ما ترتبط بالطبيعة الطيفية لبعض الأحداث وأصبح ينظر إليه على أنه مجاز أدبي وأداة نقدية أيضا[39].

مثلما قد تكون هناك روح هائمة في المكان، ربما تكون هناك أيضا روح للمكان كما قال المفكر والروائي الفرنســـي المعاصر باسكال كينار فإنه، «لا يسكن الإنسان داخل بيته فقط، بل يسكن البيت داخل روحه أيضا».

وقـــد كانت تلك الروح الهائمة في المكان، وفي العقل والوجدان موجودة أيضا، ومتمثلة في شخصية كوبولا/ كوبوليوس الشريرة في قصة هوفمان الطويلـــة «رجل الرمال»، والتي أثارت كل تلـــك الأفكار التي طرحها ينتش وفرويد وســـيكوس وكوفمان ومولر وإليســـون وغيرهم من العلماء والنقاد، ومايزالـــون يطرحونها حتى الآن. هذه القصة القصيرة الطويلة (النوفيلا) ونقادها، هي موضوع كتابنا في الفصلين القادمين منه.



8

نص واحد غريب

«وما نظرت إلـى المرآة حتى صرخـت وخفق قلبي خفوقا شـديدا، لأن مـا انعكس لي فـي المـرآة لم يكـن وجهي، بل وجهـا تقطبت أسـاريره بضحكة شيطان آخر»

(نيتشه، هكذا تكلم زرادشت)(1)

كان الهـدف الواضح من دراسـة فرويد لموضـوع الغرابة، هو أن يكتشـف المعنى والدلالات العميقة له بالنسبة إلى نظرية التحليل النفسـي. ويُعَدُّ مقاله نفسه عن هذا الموضوع أشـبه بنقطة تقاطع تواجه الغرابة عندها - كظاهرة جمالية - اللغة الخاصـة بالتحليل النفسـي. إن الغريب هو الأجنبـي أو الآخر داخـل النظرية، أما المفاهيم الأخرى فهي أشـبه بالطبقة العليـا المألوفة، تربة الأرض وأعشـابها، تلك التـي كان فرويد يعـود إليها دوما، وعلى نحو متكرر.

وتقوم الغرابة فـي جوهرها - كفكرة عامة - على أسـاس سلسلة من الحضور المتزامن للأجنبي والمألوف معـا، المعروف والمجهول معـا، الموت في الحيـاة، والحياة في الموت.

وهكذا يكون أي كاتب يقوم بتجسيد الصراع بين الشخصيات الرئيسية - وفقا لما يراه فرويد - إنما يكرر أو يعمل على حدوث تكرار خاص بهذا الازدواج الموجود داخل فكرة الغرابة، أي الازدواج بين المألوف والغريب، حضور الشك وفقدان اليقين من ناحية، والشعور بالألفة والتعرف من ناحية أخرى.

ونستعرض فيما يلي بعض المعلومات عن الكاتب الألماني الشهير إرنست هوفمان، ثم نقدم ترجمة لقصته «رجل الرمال» (التي نشرها هوفمان العام 1816)، ونقدم في الفصل التاسع من هذا الكتاب بعض الدراسات النقدية التي أجريت على هذه القصة الطويلة، وعلى قراءة فرويد التحليلية نختتم هذا الفصل ببعض الدراسات النقدية التي أجريت على هذه القصة، وعلى قراءة فرويد التحليلية النفسية لها.

هوفمان.. ذلك الغريب

إرنست تيودور أماديوس هوفمان (1776 - 1822) مؤلف رومانتيكي ألماني للقصص الخيالية، وقصص الرعب، ومؤلف أيضا وناقد موسيقي، ورسام لوحات فنية وكاريكاتيرية، وقد كان المؤلف أيضا لتلك القصة الطويلة القصيرة (النوفيلا) المسماة «كسارة البندق، والملك الفأر» التي قام الباليه الشهير «كسارة البندق» على أساسها. كما قام باليه «كوبولا» على أساس قصص أخرى كتبها هوفمان. وهوفمان من المؤلفين البارزين في الحركة الرومانتيكية عموما، وقد كانت كتاباته شديدة التأثير خلال القرن التاسع عشر. وفي ضوء إحدى قصصه وهي «رجل الرمال The Sandman»، قامت دراسة فرويد عن الغرابة، وهي تلك الدراسة التي أطلقت سيلا من الكتب والمقالات عن هذا الموضوع خلال القرن العشرين، ولاتزال تفعل ذلك حتى الآن، وربما ستستمر في ذلك نظرا إلى ما تتمتع به من خصوبة فكرية، وثراء فلسفي [2].

في شيخوخته، رفض غوته ما يكتبه هوفمان، واصفا إياه بأنه أدب له خصائص مزعجة بسبب ما تحتويه كتاباته من جنون. أما فرويد فرأى في كتابات هوفمان ذلك الاستكشاف الجوهري الأول للغرابة في الأدب. كما أن دستويفسكي، وبتأثير من بو أيضا، أكمل مهمة تكوين الرؤى الداخلية

الملازمة للجنون، فكتب روايته الشـهيرة «القريـن» (أو المثل)، وقد اعتمد هوفمان على كتابات بعض الأطباء النفسيين المعروفين في زمنه في وصف سـمات شخصياته وتجسـيدها، كما أنه تأمل بعمق في النصوص الطبية المكتوبة حول مثل هذه الشـخصيات، ربما حتى يتمكن أيضا من تجسـيد بعض تلك المفارقات فيها، وهو بذلك كان يواصل أيضا بعض التراث الذي قدمه ديدرو، وجوناثان سويفت قبله في هذا الشأن [3].

قبل أن نقرأ

في ضوء هذه القصـة القصيرة الطويلة، أو هذه الرواية القصيرة جدا (النوفيـلا) التي كتبها هوفمان عام 1816، كتـب عالم النفس الألماني إرنسـت ينتش دراسـته حول علم نفس الغرابة العام 1906، وهي تلك الدراسـة التي أكد خلالها أهمية الإحسـاس بالشك والحيرة المعرفية في إثارة الأحاسـيس الخاصة بالغرابة، كما أنه تحدث خلال دراسـته تلـك أيضا عن موضوعات مثـل: الإحيائية، حركة الميت وتحوله إلى ما يشبه الحياة، وهمود الحي وتحوله إلى ما يشبه الموت، وهنا جذور فكرة الأتمتة والآلية والأوتوماتون التي في شخصية «أوليمبيا» في قصة رجل الرمال لـ «هوفمان»، والتي ستنتشـر بعد ذلك في المسـرح، والسينما، والخيال العلمي.

كذلـك تحدث ينتش عن عامل آخر له صلتـه بالإحيائية والغرابة، ويتمثل هذا العامل في ميل الإنسان إلى إضفاء نوع من التناظر أو التماثل الفطري لحالته النفسية أو حتى الجسدية الخاصة على الطبيعة، فيعتقد أن أشياء الطبيعة، أشـياءها غير الحيـة، يمكن أن تكون حية وتتحـرك بالطريقة نفسـها التي يتحرك الإنسـان بها، ويحدث هذا لـدى البدائي، والأديب، والفنـان، ومبدعين كثيرين، ويحدث كذلك لـدى الطفل، ذلك الذي يميل إلـى أن يملأ عالمه بالشـياطين، وقد يتحدث ذلك الطفـل أيضا، بطريقة جـادة، إلـى المقعد، أو الملعقـة، أو قطعة من القمـاش، أو دمية، وقد يقع فـي حبها، مثلما فعل ناثانيل في قصـة «رجل الرمال»، حين وقع في حب الدمية «أوليمبيا». وتمثل هذه الظاهرة شكلا خاصا من أشكال ما يسميه

علمـــاء النفس بـ «الرفيق الخيالي»، حيث يختلق الأطفال، بل بعض الكبار، شخصيات متخيلة تصبح أصدقاءهم وأحباءهم، ولأسباب كثيرة ناقشناها في كتابنا عن الخيال [4].

وتحدث أيضا ينتش عن قصة «رجل الرمال» لهوفمان، وعلاقتها بعوامل مثل: الاعتقاد بوجود الأشـــباح، ظاهرة القرين والازدواج، وغيرهما، وقد اســتفاد فرويـــد من أفكار ينتش، وبـــدا كما لو كان مضطرا إلـــى أن يذكر ما قام به ينتش، قبله، على مضض؛ لأنه كان يحب أن يكون الرائد دائما، والأول دائما. على كل حال، هنا نموذج يتبدى لنا من خلاله كيف يمكن أن يسبق الإبداع الأدبي، ما يقدمه علماء النفس والنقاد من تصورات ونظريات، وقد قدمنا خلال هذا الكتاب تفسيرات عدة لقصة هوفمان هذه، إضافة إلى ما قدمه ينتش وفرويد وغيرهما من تفســيرات لها. وســـوف يـــرى القارئ أن بهذه القصة بعض الاســـتطرادات غير الضرورية التي قـــد تصل بنيتها أحيانا إلى حد الترهل، ولكنه ســـوف يرى أيضا كيف حاول هوفمان أن يجســـد المخاوف البشـــرية والهواجس المخيفة للإنســـان المعاصر، في عالم أصبح معظم ما فيه صناعيا، آليا، جميلا من الخارج، وفاقدا للروح من الداخل، ولســـوف يرى القارئ العزيز أيضا، بعض ديناميات عملية الإبداع، خاصة مـــا يتعلق فيها بما يحدث عندما لا يجد المبدع أذنا مصغية، أو أفقا رحبا يتلقـــى ما يكتبه، بل يصمه بالبـــرود والعبث واللامعنى كما فعلت كلارا مع ناثانيل، وكيف قد يضطر إلى أن يســـرد قصصه وأشـــعاره، ويقدم إبداعه إلى دمية صامتة لا تشـــعر أو تفكر، وهنا نجد الآخر الذي قد يكون حيا، ولكنـــه يفتقـــد الحياة، وقد يكون آليـــا غير حي، لكنه قـــادر - نوعا ما - على الاســـتجابة، هنا قد يتحول المبدع نفســـه إلى آلة، إلى أوتوماتا، دمية متحركة، يفقد روحه عندما يفتقر إلى الآخر الحميم، وقد يســـلمه فقدان الروح إلى الجنون كما حدث بالنسبة إلى ناثانيل.

هنـــا أيضا في هذه القصة التيمات الأساســـية الخاصـــة بالغرابة، مثل القرين (كوبولا وكوبوليوس)، والتلبس الشيطاني، والإحيائية والدمى، والخوف والجنون، هنا صراع العقل والوجدان، وهنا الالتباس، هنا وعي بالتفكك والازدواج واختلال الشعور بالذات والواقع، وأمور كثيرة ناقشناها في هذا الكتاب.

يقول علماء النفس الآن - في بعض دراساتهم - إن كل إنسان يولد مزودا باستعدادات خاصة للإبداع، واستعدادات خاصة أيضا للجنون، وإن الظروف أو الشروط الاجتماعية والإنسانية والشخصية التي سيمر بها هي التي تحدد ما إذا كان هذا الإنسان سيصبح مبدعا أو أنه سيتحول إلى مضطرب نفسيا أو مجنون، وبالطبع ليست المسألة هنا من قبيل الثنائية القطعية الجازمة التي تجعل كل إنسان إما أن يصبح مبدعا، وإما أن يصبح مجنونا؛ وذلك لأن هناك درجات من الإبداع، ودرجات وأنواعا أيضا من الجنون، وطبيعة الظروف التي سيعيشها المرء، وكذلك مدى وعيه بذاته، هي التي ستحدد ما سيؤول إليه مساره على طريق الإبداع أو نحو هاوية الاضطراب النفسي أو الجنون، وثمة فئة ثالثة تظل تتأرجح بين هذا وذاك، وفئة رابعة تقف عند خط السواء، في دائرة الحياة العادية، التي لا يعتقد أصحابها - مثلما اعتقد هاملت - أن الزمن قد اضطرب، ولا مثلما اعتقد هيغل «أن كل شيء ليس كما ينبغي أن يكون»؛ بل يعتقدون أن «الزمن ليس مضطربا، وأن «كل شيء كما ينبغي أن يكون»، ولم يكن ناثانيل - بطل قصة «رجل الرمال» هذه - (5) من هذه الفئة الأخيرة قط.

رجل الرمال

تأليف: إرنست هوفمان

ترجمة: شاكر عبدالحميد

من ناثانيل إلى لوثاريو

لا بد أنك قد شعرت بالضيق البالغ لأنني لم أكتب إليك خلال ذلك الوقت الطويل الماضي. أتوقع أن تكون أمي غاضبة أيضا، كما أن «كلارا» ربما تعتقد أنني أعيش هنا في حالة من الانغماس في المتع الخاصة، وأنني قد نسيت تماما ملاكي العزيز الذي انطبعت صورته عميقا داخل قلبي وعقلي. لكن هذا ليس هو واقع الأمر. فأنت حاضر دائما في أفكاري كل يوم وكل ساعة، وفي أحلامي السعيدة دائما ما تظهر صورة كلارا العزيزة أمامي تبتسم لي بعينيها اللامعتين كما

اعتــادت أن تفعل ذلك عندما كنت أدخل الغرفــة، لكن، آه، كيف كان يمكنني أن أكتــب إليك وأنا تهيمن عليَّ هــذه الحالة من الكآبة التي جعلت عقلي في حالة شديدة من الاضطراب؛ لقد دخل شيء مخيف جدا حياتي!! فمثل سحب معتمة يصعب اختراقها بواسطة أشعة شمس دافئة، تحوّم فوقي هواجس كئيبة تتعلق بقدر مروّع ينتظرني. سأخبرك ماذا حدث بالنسبة إليّ، أرى أنه ينبغي لي أن أفعل ذلك، مع أن مجرد التفكير في تلك الهواجس يدخلني في نوبة من الضحك تشبه ضحك المجانين. آه يا عزيزي لوثاريو، كيف يمكنني أن أبدأ، وبأي طريقة يمكنني أن أجعلك تشعر كيف أن ما حدث بي منذ أيام قليلة كان من الممكن أن يدمر حياتي فعلا؟ ولو كنت فقط موجودا هنا معي، لا بد أنك كنت ستقدّر ذلك الأمر بنفسك: وكما هي العادة، لا بد أنك كنت ستعتقد يقينا، أنني رجل مجنون يرى الأشباح.

باختصار، فإن ذلك الشيء المرعب الذي حدث، وذلك الانطباع المخيف الذي سأحاول جاهدا أن أجعله يتبدد، وبلا جدوى، لا يشتمل على أي شيء أكثر من أنه، ومنذ أيام قليلة ماضية، وتحديدا في ظهيرة يوم الثلاثين من أكتوبر، دخل غرفتي بائع لأجهزة قياس الضغط الجوي (البارومتر) وعرض عليّ السلع تلك التي يبيعها، وأنا لم أشتر منه شيئا، بل هددته بأن ألقي به أسفل السلم، وعندئذ فإنه غادر طوعا. أنت ستفهم طبعا أن فقط بعض التداعيات الخاصة التي تمتد بجذورها في أعماق حياتي هي التي ستضفي معنى ما متعلقا بأن مجرد ظهور مثل هذا التاجر (التعس) قد يحدث أثرا ما غير ودي لديّ، وقد كان هذا هو ما حدث حقيقة. وأنا أستجمع الآن - بكل قوتي - شتات نفسي كي أخبرك بهدوء، وأناة، بكثير من الأمور عن فترة شبابي، الأول، وبالقدر الذي سيكون كافيا لجعل كل شيء واضحا، ولا لبس فيه، بل مفعما بالحيوية لكل حواسك القوية. وبينما أبدأ حكايتي، فإنني أسمعك تضحك، وأسمع صوت كلارا أيضا وهي تقول «هذه مجرد سذاجة أطفال!».

اضحك، أتوسل إليك، اضحك مني بقدر ما تحب! أرجوك أن تفعل ذلك، لكن، يا إلهي الذي في السماء، إن شعر رأسي يقف خوفا، وإنني، وكما لو كنت - وأنا أرجوك أن تضحك مني - أقوم بذلك وأنا في حالة من جنون اليأس تشبه الحالة التي كان عليها فرانز مور في بعض كتابات شيللر وهو يتوسل إلى دانيال. ولكن دعنا نبدأ المهمة التي بين أيدينا الآن!

لقد كنا، إخوتي وإخواتي وأنا، ونحن بعدُ صغار، نادرا ما نرى أبانا خلال النهار كله، إلا وقت تناول طعام الغداء. ربما لأنه كان شديد الانشغال. أما وقت العشاء، والذي كان وبما يتفق مع العادات والأعراف القديمة، يقدم مبكرا، في الساعة السابعة مساء، وقد كنا نحن، ومعنا أمنا كذلك، نذهب جميعا إلى مكتب حجرة المطالعة الخاصة بوالدنا ونتحلق حول مائدة ما ونحتسي قدحا كبيرا من الجعة. وغالبا ما قص علينا قصصا غريبة، وقد كان هو نفسه يستثار تماما وهو يحكيها إلى درجة أن غليونه (البايب) كان يسقط من فمه؛ ومن ثم كان ينبغي لي أن أعيد إشعاله له من خلال قطعة مشتعلة من الورق أو الخشب.

وقد كان ذلك مصدرا للمتعة الكبيرة بالنسبة إليَّ. لكنه كثيرا ما كان يعطينا أيضا كتبا مصورة، ويجلس صامتا لا يتحرك في كرسيه ذي الذراعين، ثم ينفث سحبا كثيفة من الدخان، بحيث كنا نبدو وكأننا تغلفنا سحابة من الضباب، وفي مثل تلك الأمسيات كانت أمنا تستغرق في حالة من الكآبة الشديدة، ولحظة أن تدق الساعة التاسعة تقول: «الآن، أيها الأطفال، إلى السرير، إلى السرير! فرجل الرمال قادم، الآن».

وخلال تلك المناسبات كنت أسمع فعلا شيئا يمشي متثاقلا، صاعدا السلالم ببطء، من خلال وقع خطوات بطيئة، وكنت أعرف أنه رجل الرمال. وذات مرة بدت لي تلك الأصوات الخافتة مخيفة على نحو خاص، وسألت أمي وهي تقودنا خارج غرفة أبي: «أمي، مَنْ رجل الرمال، ذلك الذي يبعدنا دائما عن أبينا؟ ما شكله؟».

أجابــت أمي «ليــس هناك رجل رمال، يا طفلــي العزيز... فعندما أقول إن رجل الرمال قادم، فإن كل ما أعنيه هو أنك قد بدأت تغفو، ولا تســتطيع أن تُبْقِيَ عينيك مفتوحتين، كما لو كان هناك شخص ما قد ذر بعض الرمال فيهما».

لم تكن إجابة أمي تقنعني أو ترضيني، ومن ثم فقد تكونت في عقلي الصغير تدريجيًا، فكرة فحواها أنها تنكر وجود رجل الرمال، فقط، لأنهــا لا تريدنا أن نخاف منه، وذلك لأن الحالة التي كانت تنتابني حال ســماعي له وهو يصعد السلالم، حالة قد استمرت معي ولم تتوقف. ومندفعا بفضول كبير لأن أعرف مزيدا من المعلومات حول رجل الرمال هذا، وصلته الخاصة بنا كأطفال، ســألت أخيرا تلك المرأة العجــوز التي كانت تعتني بأختي الصغيــرة عن طبيعة رجل الرمال هذا، وأي نوع من البشر هو.

«أوه يــا نات» أجابت المربية، «ألم تعــرف ذلك حتى الآن؟ إنه رجل شــرير، يتعقــب الأطفال الذيــن يرفضون الذهاب إلى ســريرهم ويقذف حفنة مــن الرمال في عيونهم، حتى إن عيونهم هذه تندفع مغطاة بالدماء وتقفز خارجة من رؤوسهم، ثم إنه يضع هذه العيون في كيســه ويحملها إلى ذلك القمر الهلالي الشكل ويقدمها طعاما لصغاره هؤلاء الذين يعيشــون في أعشــاش هنــاك، وبمناقيرهم المعقوفة كالبوم ينقرون عيون الأطفال الأشقياء، ويلتقطونها».

هكذا اكتست تلك الصورة الخاصة برجل الرمال الشرير بتفاصيل جديدة بالنســبة إلــيّ، ثم إنني كنــت عندما أســمع أصوات تلك الخطوات المتثاقلة وهي تصعد الســلالم في المســاء مقتربة، كنت أرتجف من الخوف والذعر، أما أمي، التي لم تســتطع أن تستخرج مني أي شــيء مني إلا تلك الصرخة: «رجل الرمال! رجل الرمال!، فكانت تتمتم بينها وبين نفســها باكية. لقد كنت أول المندفعين إلى غرفــة نومهم في تلك الليالي التــي كان يأتي منها، وقد كان طيفه المخيــف يعذبني حتى مطلع الفجــر، وقد كنت قد أصبحت بالفعل

أكبر سـنا بدرجة كافية لتجعلنـي أدرك أن الحكاية التي روتها لي تلك المرأة العجوز عن عش أطفال رجل الرمال الصغار في القمر لا يمكن أن تكون حكاية حقيقية، لكن رجل الرمال نفسه ظل بالنسبة إليَّ طيفا مخيفا، كان ثمة رعب استثنائي خاص يهيمن عليّ عندما أسـمعه، ليس وهو يتقدم صاعدا السلالم فقط، بل وهو يفتح بقوة أو عنوة باب غرفة مطالعة والدي، ويدخلها، وقد كانت هناك أوقات يختفـي فيها بعيدا عنا، ليالي عدة، ثم إنه كان يأتي بعد ذلك، على نحو متكرر، ليلة وراء أخرى.

وقد اسـتمر هذا الأمر بضع سـنين، لكني لم أستطع قط أن أعوّد نفسي أو أجعلها تألف ذلك الشبح الغريب؛ فصورة رجل الرمال لم تشـحب قط أو تخفت بداخلي، كما أن ما كان يقوم به مع أبي قد بدأ يشـغل خيالي على نحو متزايد. وقد منعني نوع من الجبن من أن أسـأل أبي حوله، ومن ثم فقد قررت أن أستكشـف ذلك الأمر، وأرى رجل الرمال الخرافي ذلك بنفسـي، ومع مرور السنين كانت تلك الرغبة تنمو بقوة بداخلي أكثر فأكثر. لقد أخذني رجل الرمال نحو بداية الطريق الخـاص بكل ما هو غريب، وتكتنفه المغامرات، وهو شعور قد وجد، وبسهولة، مقاما له في قلب طفل صغير. هكذا لم يفتني شيء ويغلب عقلي مثل القراءة أو الاستماع إلى الحكايات الرهيبة حول الأرواح الشريرة والساحرات والأقزام وما شابه ذلك، لكـن رجل الرمال كان هو الذي فاق ما عداه أهمية بالنسـبة إليَّ؛ ومن ثم فقد كان من عادتي أن أرسـم صورا بشعة له على المناضد وخزانات الملابس (الدواليب) والجدران في كل مكان داخل المنزل.

وعندما بلغت سن العاشـرة نقلتني أمي من غرفة الأطفال إلى غرفة أخرى صغيرة تقع على ممر لا يبعد كثيرا عن غرفة أبي، وكان لايزال ينبغـي لنا أيضا أن نذهب إلـى مضاجعنا (أو أسـرّتنا) عندما تدق السـاعة التاسعة، وكنت لاأزال أستمع إلى صوت ذلك الرجل المجهول وهو يصل إلى بيتنا، ومن غرفتي الصغيرة اعتدت سماعه وهو يذهب

إلـــى مكتب أبي، ثم يعقب ذلك مباشـــرة أن ينتشـــر عبر أرجاء المنزل بخار غريب رقيق. ومع تنامى فضولي، وكذلك شـــجاعتي، تمنيت أن أتعرف إلى رجل الرمال، وأطلع على أموره، بطريقة أو بأخرى. وغالبا ما اعتدت أن أتســـلل زحفا من غرفتي إلى الممر عندما تتصرف أمي، لكني لم أســـتطع أن أكتشف شـــيئا، وذلك لأن رجل الرمال قد اعتاد غالبـــا أن يظل بالفعـــل داخل المنزل، في ذلك الوقـــت الذي أكون قد وصلت خلاله إلى المكان الذي قد أستطيع من خلاله أن أراه. وأخيرا، ومدفوعا، بدافع غلاب لا يقاوم، قررت أن أخفي نفســـي داخل غرفة أبي ذاتها، ومن هناك أنتظر حضور رجل الرمال.

وهكذا، فإنه ذات مســـاء، دلني صمت أبي وكآبة أمي على أن رجل الرمال ســـوف يأتي، فتظاهرت بأنني متعب تماما، وغادرت الغرفة قبل الســـاعة التاســـعة، واختبأت داخل كوة أعلى سلم البيت. لقد صـــدر صرير عن باب المنزل وهو يفتـــح، وعبرت خطوات صدرت عنها أصوات مكتومة من ذلك الرواق واتجهت نحو السلم، وبهدوء، فتحت باب غرفة أبـــي، وقد كان أبي يجلس كما اعتاد، صامتا بلا حركة، معطيا ظهره للباب، وهو لم يلحظني، وفي لحظة كنت داخل الغرفة واختبأت خلف ســـتارة ممتدة عبـــر خزانة ملابس مفتوحة خلـــف الباب مباشـــرة، وفيها كانـــت ملابس أبي تعلـــق. واقتربت الخطوات المكتومة أكثر فأكثر، كما كانت هنا أصوات سعال غريبة، وأحاديث خشـــنة حادة، ودمدمة من الخارج، وارتجف قلبي واهتز بفعـــل الخوف والتوقع، ثم على نحو أكثـــر فأكثر قربا خلف الباب، وبخطوة ســـريعة وضربة قوية على المزلاج (السقاطة) انفتح الباب محدثا جلبة، استجمعت شجاعتي كلية، واختلست النظر إلى خارج مكمني بحذر، وكان رجل الرمال يقف أمام أبي في وســـط الغرفة، وكان وجهـــه مرئيّا تماما في الضوء الســـاطع للمصابيح، كان رجل الرمال الرهيب هو نفســـه المحامي العجوز كوبوليوس، الذي أحيانا ما كان يأتي لتناول طعام الغداء معنا.

إن أكثر الأشكال إحداثا للرعب لم تكن لتقدر على استثارة ذعر أعمق من ذلك الذعر الذي كان يستثيره في نفسي كوبوليوس هذا، تخيل رجلا ضخما، عريض المنكبين، برأس كبير، غير متناسق الشكل، وبوجه لونه كلون الغراء الأصفر، بحاجبين كثيفين رماديين، من تحتهما زوج من العيون الخضراء المتقدة التي تشبه عيون القطط على نحو حاد، ثم هناك أنف كبير ثقيل يتجه نازلا فوق الشفة العليا، وفمه المنحية خطوطه في الشكل غالبا كان ما يتشوه شكله بضحكة حقودة خبيثة تصدر عنه، وفي تلك الأوقات كانت تظهر بثرتان ذواتا لون أحمر ثقيل على خديه، ثم يخرج صوت هسيس غريب كصوت الأفعى من بين أسنانه المزمومة بإحكام وغالبا ما كان كوبوليوس يظهر مرتديا سترة رمادية باهتة تم تفصيلها على الطراز القديم، ومرتديا كذلك صدرية نمطية، وبنطالا ضيقا، ولكنه إضافة إلى ذلك كان يرتدي أيضا جوارب سوداء وحذاء بإبزيم مزين مجلي، وبالكاد كانت جُمّة من الشعر المستعار الصغيرة تغطي ما يزيد على قمة رأسه، كما كانت لفات أسطوانية الشكل من الشعر المجعد تتدلى فوق أذنيه الكبيرتين الحمراوين، وهناك أيضا جزء عريض من الشعر رمادي اللون، يبرز إلى الخارج خلف رقبته، بحيث كان يمكنك أن ترى إبزيما (دبوسا) فضيًا يثبت ربطة عنقه. لقد كانت الصورة العامة له كريهة تعافها النفس، وقد كان الأكثر إثارة للنفور من غيره بالنسبة إلينا كأطفال، هي يداه المغطاتان بشعر كثير ملتف فيما يشبه العقد، ومن ثم فإننا كنا نفقد رغبتنا في أي شيء يلمسه بيديه، وقد لاحظ هو نفسه ذلك، وكان يجد متعة في أن يلمس بأصابعه، تحت هذه الذريعة أو تلك، أي قطعة صغيرة من الكعك، أو أي فاكهة لذيذة الطعم كانت أمنا تضعها خلسة في صحن طعامنا؛ ومن ثم فإن الحلوى أو المربى التي كان يفترض أن تجعلنا نستمتع بها كانت تملؤنا فقط بالاشمئزاز والنفور، وقد كان يفعل الأمر نفسه، في تلك الأيام الخاصة، التي كان والدنا يصب لنا فيها كأسا صغيرة من النبيذ: لقد كان يصل بيده بسرعة

إلى تلك الكأس حتى يرفعها إلى شفتيه الزرقاوين ويضحك على نحو شيطاني عندما نجرؤ على إبداء غضبنا منه فقط من خلال تنهيدة مهذبة، وقد اعتاد أيضا على أن يسمينا الحيوانات الصغيرة، وعندما يكون موجودا، لم يكن ليسمح بأن يصدر أي صوت عنا، وقد كنا نلعن ذلك الرجل الشرير والبغيض الذي سعى - على نحو متعمد - إلى أن يدمر حتى أقل المتع وأصغرها بالنسبة إلينا. كما كان يبدو أن أمنا قد كانت تكره كوبوليوس البغيض مثلما كنا نفعل؛ وذلك لأنه كان لحظة أن يظهر بنفسه، فإن بهجتها الخاصة، طبيعتها المرحة البسيطة غير المتكلفة، كانت سرعان ما تتحول إلى حزن أو انقباض وأسى حقيقي. أما أبي فقد كان يتعامل معه بوصفه كائنا علويا سماويا ينبغي تحمل طباعه السيئة، وأنه ينبغي أن نجعله محتفظا بحالة مزاجية طيبة، أيا كانت تكلفة ذلك، وقد كان عليه أن يلقى بأدنى تلميحة أو إشارة فقط، فتعد أطباق الطعام التي يفضلها، وتقدم إليه الأنبذة (جمع نبيذ) النادرة أيضا.

عندما رأيت الآن هذا الـ «كوبوليوس»، امتلأت روحي بالخوف، وكذلك الرعب؛ لأنه من بين جميع البشر ثبت أن هذا الرجل نفسه هو رجل الرمال، لم يعد رجل الرمال الآن بعد ذلك هو ذلك الإنسان الغول، أو البُعبُع في الحكاية الخاصة بمرحلة الطفولة المبكرة، والذي كان يأخذ عيون الأطفال طعاما لعش البومة في القمر. لا، لقد كان الآن هو ذلك الوحش الطيفي البغيض الذي يجلب التعاسة والبؤس والدمار الدنيوي الدائم أينما حل أو ذهب.

وقد وقفت في مكاني ذلك كما لو كنت قد تم تثبيتي فيه، ومخاطرا بإمكان أن أكتشف، كما كنت أعتقد جازما، وأن أعاقب بقسوة، ظللت هناك، في مكمني، أستمع، بينما رأسي يرتطم بالستارة، فقد استقبل أبي كوبوليوس باحترام شديد محتفيا به، ثم إن كوبوليوس قد صاح بصوت خشن مجلجل: «هيا، إلى العمل»، ثم تخلص من سترته وألقى بها.

أمـــا أبي فقد تخلص ببطء وعبوس من عباءتـــه، ثم تدثر كل منهما بـ «ســـمق» أسود طويل، ولم أســـتطع أن أرى من أين حصلا على هذين الثوبـــين. ثم فتح أبي الأبواب ذات المصاريـــع القابلة للطي في خزانة الملابس التي في الجدار، ثم إنني رأيت أن ما اعتقدت – ولوقت طويل – أنه خزانة ملابس، قد كان – بدلا من ذلك – كهفا أسود، في داخله ينتصـــب موقد نار صغير، ثم إن كوبوليوس قد اقترب منه فتصاعدت نار زرقـــاء متوهجة فوق ذلك الموقد. وقد كانـــت الأدوات من الأنواع كلهـــا ملقاة هناك، حول ذلك الموقد. يا رب يـــا كريم! فلحظة أن مال أبي فوق النار، بدا منظـــره مختلفا تماما عما أعرفه. لقد كان هناك ألم تشـــنجي مصحوب بتقلصات قد شوهت ملامحه الرقيقة الطيبة، وحولتها إلى قناع شيطاني شائن منفر. قد أصبح شبيها بكوبوليوس، وهنا أمسك كوبوليوس بملقاطين لامعين، وبواسطتهما استخرج مواد براقـــة متوهجة من داخل الدخان الأســـود، ثم بـــدأ يطرق هذه المواد بقوة بمطرقة كي يشـــكلها، وقـــد بدا لي كأنني أرى وجوها بشـــرية، هنـــا وهناك، في كل مكان، لكنها كانت وجوها بلا عيون، كما أنه بدلا من العيون قد كانت هناك فجوات ســـوداء شـــنيعة. «العيون، أحضر العيون!»، هكذا صرخ كوبوليوس في صوت بارد أجوف؛ وبســـبب ذلك الرعب الهائل الذي سيطر عليَّ، صرخت بصوت مرتفع، وسقطت من مكمني على أرضية الغرفة، وأمسك كوبوليوس بي.

أيها الحيـــوان الصغير! أيها الحيوان الصغيـــر! تحدث كوبوليوس بنبرة متذمرة، كاشـــفا عن أســـنانه، ثم جذبني إلـــى أعلى ودفعني نحو موقد النار، إلى درجة أن ذلك اللهب بدأ يحرق الجانب العلوي من شـــعري. «من الآن لدينا عيون، عيون، زوجان جميلان من عيون الأطفال»، همس كوبوليوس وأخذ حفنة من الرماد الأحمر المتوهج بيده، وكان على وشـــك أن يذرها داخل عينـــي، لكن أبي رفع يديه وناشده وهو يصرخ «أيها الأستاذ!، أيها السيد!، دع ناثانيل يحتفظ بعينيه، دعه يحتفظ بهما!».

هنا ضحــك كوبوليوس بقوة وصــرخ: «يمكن للصبــي أن يحتفظ بعينيه، وأن يحتفظ بقدرته على اســتخدامهما. لكن دعنا نلاحظ الآن آليات عمل يديه وقدميه».
ومــع انتهائه من قوله هذا أمســك بي بعنف شــديد إلى درجة أن مفاصلي قد طقطقت، ثم إنه فكك يديّ وقدميّ، وثبتها في أشكال متعددة مختلفة.
«إنها لا تبدو في وضع صحيح على أي حال! لقد كانت حالها السابقة أفضل! لقد كان الخالق يعرف ما كان يفعله!» هكذا دمدم كوبوليوس في كلامه، وأصدر صوتا يشــبه فحيح الأفعى، ثم أصبح كل شــيء مظلما حولي، وعَمَّ جسدي كله تشنج مفاجئ، فلم أعد أشعر بشيء. ثم مر تنفس رقيق عبر وجهي، واســتيقظت كما لو كنت أصحو من نوم الموت، ثم رأيت أمي، تميل فوقي.
«هل ما زال رجل الرمال هنا؟» هكذا غمغمتُ قائلا.
«لا، يــا طفلي العزيز، قــد ذهب بعيدا، منذ وقــت طويل، وهو لن يؤذيك». هكــذا قالت أمي، ثم قبلتني واحتضنت ذلك الطفل الذي عاد إليها.
لمــاذا ينبغي لي أن أزعجك يا عزيــزي لوثاريو، بكل هذه التفاصيل الدقيقــة، مع أنــه يظل هناك الكثير والكثير ممــا ينبغي أن يقال؟ كفى! لقد تم كشفي وأنا أسترق النظر، وأساء كوبوليوس معاملتي، وقد جلب الخوف والذعر اليّ معهما حمى شــديدة رقدت خلالها مريضا عدة أسابيع. «هل مازال رجل الرمال هنا؟»، كانت تلك هي الكلمــات المفهومة الأولى التي قلتها، وقد كانت هي العلامات على أنني قد شُفيت من مرضي، وأنه قد تم إنقاذي، أما الشيء الوحيد الباقي لديّ كي أحكيه لك فهو تلك اللحظة الأكثر رعبا من لحظات طفولتي، وستكون حينئذٍ مقتنعا بأنه ليس ثمة ضعف في عيني هو الذي صور لي هذا العالَم باهتا وغير ممتع هكذا بالنســبة إليَّ، بل إن نوعــا من المصير المظلم، بدلا من ذلك، قد أســدل فوق حياتي،

فعلا، حجابا من الكآبة، وهو حجاب ربما سأمزق أغلاله إربا في لحظة موتي فقط.

لم يعد كوبوليوس يُشاهد بعد ذلك، على أي حال، وقد قيل إنه غادر المدينة، وربما كانت قد مضت سنة بعد ذلك، وكنا جلوسا حول المائدة في المساء، بما يتفق مع عاداتنا القديمة، التي ظلت لا تتغير، وقد كان أبي يشعر بالبهجة وهو يحكي لنا أشياء مسلّية حول تلك الرحلات التي قام بها في شبابه. ثم، وفجأة عندما دقت الساعة التاسعة، سمعنا فجأة صوت مفصلات باب المنزل وهي تصدر صريرا، ثم وقع خطوات بطيئة متثاقلة تحدث صوتا مكتوما عبر قاعة الدخول إلى البيت، ثم بدأت تلك الخطوات تصعد السلالم.

«هذا هو كوبوليوس» هكذا قالت أمي، ووجهها يزداد شحوبا. «نعم، إنه كوبوليوس»، أجاب أبي بصوت فاتر منكسر، ثم انسابت الدموع من عيني أمي، ثم صرخت «أيها الأب، أيها الأب، هل ينبغي أن يكون الأمر كذلك؟». «إنها المرة الأخيرة» قال أبي «إنه يأتي للمرة الأخيرة، أعدك بذلك، والآن اذهبي، اذهبي مع الأطفال، اذهبوا، اذهبوا إلى أسرتكم. ليلة سعيدة!».

وقد شعرت بأنني أتحطم تحت صخرة قاسية، واحتبست أنفاسي! وأخذتني أمي من ذراعي حيث كنت أقف هناك بلا حراك: «هيا، يا ناثانيل، هيا بنا» هكذا، قالت أمي، وإنني تركتها تقودني بهذه الطريقة، وذهبت إلى غرفتي.

بعد ذلك صاحت أمي نحوي: «الأمور على ما يرام، الأمور كلها على ما يرام. ارقد في سريرك واستغرق في النوم»، ولكني، وقد برح بي ألم خوف وكرب داخليان لا يمكن وصفهما، لم أستطع القيام بما يتجاوز مجرد إغلاق عيني. لقد كان كوبوليوس البغيض المنفر يقف أمامي بعينيه الناريتين يضحك بحقد ساخرا مني، وقد حاولت، ولكن بلا جدوى، أن أطرد صورته من عقلي.

ربما كان الوقت قد تجاوز فعلا منتصف الليل عندما حدث انفجار

مخيف، يشـبه صـوت انطلاق النيران من مدفـع، فاهتزت أرجاء المنزل كله، وكانت هناك أصوات فوضى وتدافع، تعبر من أمام باب غرفتـي، كما أُغْلِقَ باب المنزل الخارجي بعنف، محدثا ضجة عالية «هـذا هو كوبوليـوس»، صرخت في فزع، ووثبت من سـريري، ثم سمعت صرخة حادة، إنها صرخة الكرب المبرح الحادة اليائسة، ثم اندفعت متجها نحو غرفة أبي، وقد كانت الأبواب لا تزال مفتوحة، فـي حين كانت كتل خانقة من الدخـان تتدافع إلى الخارج متجهة نحوي، وقد كانت الخادمة تصرخ «آه يا سـيدي، يا سيدي!»، وأمام الموقـد الذي يتصاعد منه الدخان كان أبي يرقد ميتا فوق الأرض، وكان وجهه ملطخا مسودا بالدخان، ومشوها على نحو بشع، وكانت أخواتـي ينتحبن ويجهشـن بالبكاء والعويل حولـه، في حين كانت أمي بجـواره غائبة عن الوعي، أما أنا فقـد صرخت بصوت عالٍ «كوبوليوس، أيها الشـيطان المجرم، لقد قتلت أبي»، ثم خارت قواي تماما.

وعندما سُـجِّي والدي في تابوته بعد ذلك بيومين، تحولت ملامحه ثانية إلى تلك الملامح الهادئـة والرقيقة، التي كان عليها دائما في حياتـه، كما أنني شـعرت، في أعماق روحي، بالعـزاء لمعرفتي أن علاقتـه تلك مع كوبوليوس الشـيطاني الطابع لم تصبه، تحت أي ظروف، بلعنة أبدية دائمة.

وقـد أيقظ الانفجار الجيران، وأصبحت الأمور الخاصة بما حدث معروفة للجميع، كما أنها اسـترعت اهتمام السلطات المعنية، تلك التي رغبت في أن تسـتدعي كوبوليوس لتفسـير ما حدث، لكنه - على كل حال - اختفى من دون أن يترك أي أثر وراءه.

عندمـا أخبرك الآن - يا صديقـي العزيز - بأن بائع أجهزة قياس الضغط (الباروميتر) الذي سبق أن ذكرته، لم يكن سوى كوبوليوس الشرير المجرم نفسه، فإنك لن تلقي باللوم عليّ عندما أفسر ظهوره مرة أخرى بأنه نذير أكثر أنواع الشؤم كآبة. لقد كان يرتدي ملابس

مختلفة، لكن شكل كوبوليوس وملامحه كانت منطبعة بشدة في أعماق كياني بحيث يصعب أن تكون هناك أي احتمالية لأن أخطئ تعرُّف صاحبها، بل إنه حتى - إضافة إلى ذلك - لم يقم حتى بتغيير اسمه! فقد سمعت أنه قد يقدم نفسه هنا على أنه ميكانيكي بارع في صنع الأجهزة الدقيقة يسكن سفوح الجبال، وأنه يسمي نفسه جيوسيبي كوبولا.

وقد قررت أن أحصل منه على أفضل ما لديه، ثم - وأيّا ما كانت النتيجة - أن أنتقم لموت أبي.

لا تخبر أمي شيئا عن عودة ظهور ذلك الوحش الكريه الوضيع، وأبلغ تحياتي إلى عزيزتي كلارا، وسوف أكتب إليها عندما أكون في حالة مزاجية أكثر هدوءا. وداعا.

من كلارا إلى ناثانيل

الحقيقة أنك لم تكتب إليَّ منذ وقت طويل، لكني أعتقد - مع ذلك - أنني موجودة معك، أسكن أفكارك كلها، وذلك لأنك لا بد كنت تفكر فيّ عندما انتويت أن ترسل خطابك الأخير إلى أخي «لوثاريو»، لكنك وجهت خطابك إليّ بدلا من أن توجهه إليه، وفي حالة من البهجة الكبيرة فتحت الخطاب ثم أدركت توّا الخطأ الذي في كلماته التي تقول «آه، يا عزيزي لوثاريو». وقد كان ينبغي لي ألا أقرأ أكثر من ذلك، وأن أعطي الخطاب لأخي، لكنك اعتدت أن تغيظني بقولك إنني أمتلك طبيعة أنثوية هادئة، رابطة الجأش تماما، وإلى حد أنه حتى لو انهار المنزل فإنني، ومثل شخصية تلك السيدة في إحدى القصص، سأتوقف، وألمس الستائر بنعومة كي أعدل من شكلها قبل أن أهرب، ومن ثم فإنه بالكاد، يمكنني إقناعك بأن بداية خطابك قد حركت مشاعري على نحو عميق تماما. لقد كنت أتنفس بصعوبة بالغة، في حين بدأ رأسي في الدوران. آه، أيها الحبيب ناثانيل، ما تلك الأشياء المفزعة التي ظهرت في حياتك؟ إن كوني بعيدة عنك لا يعني ألا أراك

ثانيـــة: لقد مزقـــت تلك الفكرة نياط قلبي مثـــل خنجر ملتهب، هكذا واصلت قراءة الخطاب وقد كان وصفـــك للبغيض كوبوليوس مرعبا، وقـــد عرفت الآن فقط، أن والـــدك العزيز لقي حتفه نتيجة مثل ذلك الموت المخيف، أما لوثاريو، الذي أعطيته خطابك. فقد حاول أن يهدئ من روعي، لكنه لم ينجـــح في ذلك إلا قليلا. لقد كانت صورة التاجر الكريه جيوســـيبي كوبولا تطاردني في كل مكان، وإنني أشعر بالخجل إلى حد كبير عندما أعترف إليك بأنه كان قادرا حتى على أن يحدث الاضطراب في نومي أنا أيضا، ذلك الذي كان دائما عميقا، ونادرا ما حـــدث الاضطراب فيه من خلال أي من تلك الأنواع كلها من الأحلام الغريبة. ولكن في الحال، وحالما جاء اليوم التالي، رأيت كل شيء على نحـــو مختلف، لا تغضـــب مني، أيها الحبيب الغالـــي، حتى لو اضطر لوثاريو إلى أن يخبرك بذلك، فإنه على الرغم من هواجســـك الغريبة من أن كوبوليوس على وشـــك أن يلحق بك الأذى، بطريقة أو بأخرى، فإنني الآن، مرة أخرى، هادئة ومبتهجة مثلما كنت كذلك دائما.

دعنـــي أقل لك ما أعتقده، بشـــكل مباشـــر: إن كل تلك الأشـــياء الشبحية والمخيفة التي نتحدث عنها، إنما تحدث فقط في داخلك أنـــت، وإنه لا يوجد إلا دور صغير للعالـــم الخارجي الواقعي فيها، وإنه ربما كان كوبوليوس العجوز بغيضا ومنفرا بدرجة كافية، ولكن ذلـــك قد يعود في جوهره، إلى أنه يكره الأطفال إلى درجة تجعلهم يشعرون بمشاعر بغض مماثلة نحوه.

لقـــد توحد رجل الرمال المخيف الذي فـــي حكاية الطفولة المبكرة، على نحو طبيعي في عقلك، خلال طفولتك، مع شخصية كوبوليوس العجـــوز. ومـــع أنك لم تعد تعتقـــد في حقيقة رجـــل الرمال، فإن كوبوليوس، ظل بالنســـبة إليك وحشـــا شـــبحيًا وخطرا، على نحو خاص، بالنســـبة إلى الأطفـــال، كما أن تلك الأشـــياء الغريبة التي كان يقوم بها ليلا، مع والدك، لم تكن في الحقيقة أكثر من تجارب خيميائية ســـرية، كانا يقومان بها معا. وبالكاد كان يمكن أن تشعر

أمك بالســرور، بالنســبة إلى مثل تلك التجــارب؛ وذلك لأن كمية كبيــرة من النقود كانت تتبدد، دون شــك، فيها، وإضافة إلى ذلك، وكمــا هو مفترض، ومتوقع، دائما بالنســبة إلى مثل تلك التجارب المعملية، فإن والداك، الذي اســتغرقته مثــل تلك الرغبة الخادعة فــي الوصول إلى الحقيقة العليا، وســيطرت عليه، كان قد أصبح غريبا عن عائلته. لقد ســبب والدك - بالتأكيد - الموت لنفسه من خلال لامبالاته الخاصة تلك، وإنه لا ينبغي أن نلوم كوبوليوس على ذلك. وقد سألت بالأمس عالم كيمياء متبحرا في علمه عمَّا يقطن بجوارنا، عما إذا كان مثل ذلك الانفجار المباغت المميت أمرا ممكنا في مثل تلك التجارب الكيمائية، فقال «آه، بالطبع»، ثم طفق يصف لــى بطريقته الخاصة كيفيــة حدوث مثل هذا الانفجــار، وبأنواع الأمثلة والأسماء كلها، وهي أسماء كثيرة وغريبة الجَرْس، وطريقة النطق كنت عاجزة تماما عن تذكرها، بعد ذلك، والآن، فإنني أتوقع أن يصيبك الضيق من عزيزتك كلارا فتقول : لا يمكن حتى لشعاع واحد من ذلك العالم الغامض الذي يحير البشــر بأسلحته الخفية أن يختــرق ذلك القلب البارد، ذلك القلب الذي يبتهج فرحا بفاكهة خادعة براقة، ولا يظن أن سما قاتلا كامنا فيها.

يــا محبوبــي ناثانيــل، ألا تعتقــد - إذن - أنه حتى تلــك القلوب المبتهجة، البسيطة، غير المتكلفة، اللامبالية، من الممكن أن تسكنها أيضا هواجس قوى مظلمة مخيفة تسعى جاهدة أن تدمر أعماقنا؟ سامحني لو أنني، أنا الفتاة البسيطة (الساذجة) فقط، قد حاولت أن أشــير، وبطريقة بسيطة نوعا ما، إلى ما أعتقده فعلا حول مثل تلــك الصراعــات الداخلية. إنني على يقين مــن أنني لن أجد في النهاية، الكلمات الصحيحة، وإنك ســتضحك مني، ليس بسبب ما أعتقد أنه غباء مني؛ بل لأن الطريقة التي أقول بها ما أعتقده هي طريقة خرقاء تماما.

ربما هناك فعلا بعض القوى المخيفة الظلامية التي تشدنا إليها، والتي

تقودنـــا عبر ممر مدمــر تكتنفه المخاطر، ممر ربما كنـــا نحن، وعلى نحو ما، غير قادرين على الســير فيه، لكن، ولو كان الأمر كذلك، فإن تلك القوى لا بد أنها ســتتخذ بداخلنا شكلا خاصّا بنا، وإننا سنتحول إليهـــا، نصبح مثلها، وتصبح هي نحن، ومـــن دون ذلك، لن نصغي إلى مـــا تمليه علينا، وإلا فإنه لن يكون هنـــاك أى حيز بداخلنا يمكن لهذه القوى أن تقوم من خلاله بممارســة عملها الخفي. لكننا لو كنا نمتلك عقلا راسخا، عقلا يقوى من خلال قدرته على العيش في بهجة، فإننا ســنكون دائما قادرين على تعرف جوهر ذلك الأثر الضار غير الودي، ومـــن ثم يكون على تلك القوة الغريبـــة أن تخضع لذلك الصراع الذي لا بد أن نفترض حدوثه، وذلك قبل أن تتخذ ذلك الشــكل الذي تكون عليه، والذي هو - كما قلت - مجرد صورة مرآوية ما، لأنفسنا.

«وما هو مؤكد أيضا» - كما صاغ لوثاريو الأمر - هو أن هذه القوة النفسية المظلمة، ولحظة ما أن نخضع لها ونستسلم، فإنها غالبا ما تتخذ أشــكالا أخرى يلقي بها العالم الخارجي في طريقنا ويقربها إلينـــا، وإلى الحد الذي تســتمد منه تلك الروح التـــي تبدو وكأنها تحرك تلك الأشكال، طاقتها المشتعلة من خلالنا نحن أنفسنا، ومن خـــلال علاقتهـــا الوثيقة بنا، ثم إنه ومن خـــلال تأثيرها البالغ في قلوبنا، تمتلك تلـــك القوى القدرة على أن تلقي بنا في الجحيم، أو أن ترفعنـــا إلى جنات الفردوس، وهـــذا مرجعه إلى أن هذه القوى إنما هي فقط «أشباح الأنا» الخاصة بنا».

ولســـوف ترى - يـــا محبوبي ناثانيل - أنني قـــد تحدثت كثيرا إلى أخي لوثاريو، حول تلك القوى والطاقات المظلمة، وأنا أطرح، عليك، الآن فقط، تلك الاستنتاجات الأساســـية التي توصلنا إليها - ليس بطريقة سهلة - وذلك لأنها تبدو لي بالغة العمق، وأنا لم أفهم تماما كلمـــات لوثاريو الأخيرة، أو خلاصة ما توصـــل إليه، لقد أدركت - بشكل عام فقط - بعض ما يقصده، وما يقصده، يبدو لي، مع ذلك، حقيقيّا تماما، كُنْ على يقين بأن تلك الأشـــكال القادمة من الخارج

ليـــس لها أدنى تأثير فيك، إنه فقط ذلك الاعتقاد بأن لها مثل تلك القوة مـــا يضفي عليها ويمنحها مثل ذلك التأثيـــر، وما لم يكن كل سطر كتبته في خطابك قد تحدث عن ذلك الاهتياج الشديد العميق الذي تشـــعر به، وما لم تكـــن تلك الحالة التـــي تعانيها قد حركت أعمـــاق روحي بقوة، ما لم يكن الأمر كذلك؛ فإنني كنت ســـأضحك من تلك الصوره الخاصة برجل الرمال المحامي، وبائع البارومترات كوبوليوس، لكـــن ابتهج يا ناثانيل، كن مبتهجا! لقد قررت أن أصبح الروح الحارســـة لك، وإنه لو تجرأ كوبـــولا - ذلك المنفر - أن يرزح بثقله على أحلامك فإنني ســـأعتبره - ســـاخرة منـــه - غير جدير بالاهتمام! إنني لا أخشـــاه، ولا أخاف من يديه المرعبتين. يمكنه أن يظهر كمحام أو كرجل رمال، لكني لن أتركه يفســـد عليَّ متعة تناول الكعك الذي أحبه، أو أن أجعله يسلبني عينيّ.

المخلصة لك دائما، يا أيها الحبيب الغالي ناثانيل

من ناثانيل إلى لوثاريو

لقد حدث الأمر بالتأكيد بســـبب شـــرودي الذهني الغريب،، لكني مازلت أشعر بالأسف لأن كلارا قد فتحت خطابي إليك وقرأته، وقد ردت عليه بخطاب فلسفي شديد العمق، أثبتت خلاله - بالتفصيل - أن كوبوليوس وكوبولا يوجدان فقط بداخلي، وأنهما شبحان يتعلقان بـ «الأنا» الخاصة بي، وأنهما ســـيختفيان فورا ويتحولان إلى رماد، لحظة أن أعـــرف حقيقتهما. إن المرء لم يكـــن ليعتقد أن مثل ذلك العقل الذي يشع غالبا من خلال هاتين العينين اللامعتين المبتسمتين مثـــل حلم جميل عزيز، يمكنـــه أن يكون قادرا على القيام بمثل ذلك التحليل الحكيم الجدير بنظار المدارس. لقد لجأت إليك، وتحدثتما عني. وافترض أنك ألقيت عليهـــا محاضرة في المنطق، بحيث إنها كانت قادرة على تمحيص كل شـــيء وتمييزه على نحو صحيح، ليكن الأمر كذلك، وعلى نحـــو افتراضى، دعنا نقل، إضافة إلى ذلك، إن

بائع أجهزة الضغط الجوي جيوسيبي كوبولا ليس هو البتة المحامي العجوز كوبوليوس. لقد حضرت مجموعة من المحاضرات مع أستاذ جديد للفيزياء وصل توّا، وهو ليس إلا العالم الشـــهير ســـبالانزاني وهو إيطالي الجنسية. وقد كان قد عرف كوبولا لسنوات كثيرة، وهو يقول إنك تســـتطيع – على كل حال – أن تقول من خلال صوته إنه فعلا من سكان ســـفوح الجبال، لقد كان كوبوليوس ألمانيا، ولم يكن ذلك ليجعلني – على كل حال – مستريحا تماما. ويمكنك أن تستمر فـــي اعتقـــادك – ومعك كلارا – بأنني مجرد حالم يشـــعر بالكآبة، لكني لا أســـتطيع أن أتخلـــص أبدا، من ذلك الانطبـــاع الذي تركه وجه كوبوليوس الملعون بداخلي. وأنا أشـــعر بالسرور الآن، لأنه قد غادر المدينة، كما أخبرني بذلك ســـبالانزاني. وبالمناسبة، فإن هذا الأستاذ صاحب غريب، إنه رجل قصير القامة ممتلئ الجسم، عظام وجناته ناتئة مرتفعة، له أنف نحيل، وشـــفتان بارزتان مقلوبتان إلى الخارج، وعينان تومضان قليلا، لكن صورة تشـــودويكي في روزنامة برلـــين للجيب التي طبعها كاغليســـترو قد تعطيك فكرة عن شـــكل سبالانزاني أفضل من وصفي هذا له.

منـــذ وقـــت قريب، صعـــدت الســـلالم داخـــل بيت البروفيســـور ســـبالانزاني، وأدركت وجود ســـتارة كانت مشدودة بإحكام، هناك، عبـــر باب زجاجـــي، وفوقهـــا كان هناك بصيص مـــن الضوء، ولم أعرف، حتى أنا نفســـي، كيف أن أنظر عبر ذلك الباب. وقد كانت هناك امرأة طويلة، نحيلة جدا، كاملة من حيث نســـبها وتناســـبها، ترتـــدي ملابس رائعـــة، كانت تجلس في الغرفة بجـــوار (منضدة) صغيرة، كانت ذراعاها راقدتين على المنضدة، ويداها مضمومتين، وقد كانت جالسة في مواجهة الباب، ومن ثم فقد استطعت أن أرى وجهها الملائكي كله، وقد بدت وكأنها لم تلحظ وجودي، كان هناك شـــيء ثابت ولامع يتعلق بهما، وإنني قد أستطيع أن أقول، تقريبا، إنهـــا كانت فاقدة لحاســـة الإبصـــار، وكما لو كانت تنـــام وعيناها

مفتوحتان. وقد انتابني، بسببها، شعور محير غريب تماما، ومن ثم فإنني قد تسللت بهدوء، بعيدا نحو غرفة إلقاء المحاضرات المجاورة لها، وقد عرفت، بعد ذلك، أن تلك الشخصية التي رأيتها كانت هي أوليمبيا، ابنة سبالانزاني، التي احتجزها وحجبها، وعلى نحو لا يصدق وجدير بالاستنكار، هناك، بحيث لا يستطيع أي إنسان أن يقترب منها. لكن ربما كان هناك - بالطبع - شيء غريب خاص يتعلق بها، فلربما كانت ضعيفة العقل، أو شيئا من هذا القبيل.
لكن لماذا أكتب إليك عن هذا الأمر؟ بينما كان يمكنني أن أخبرك بهذا الأمر على نحو أفضل، من خلال تفاصيل أكثر، ووجها لوجه، وذلك لأنك لا بد أن تكون قد عرفت أنني سأكون معكم بعد أسبوعين، إنني أود أن أرى ملاكي العزيز الجميل، كلارا ثانية. حينئذ سيمكنني أن أطرد بعيدا ذلك المزاج السيئ (كما اعترفت به) الذي أوشك أن يتغلب عليّ بعد أن قرأت خطابها الحكيم المزعج ذلك، وهذا هو السبب الذي يجعلني لا أكتب إليها اليوم. أرسل إليكما آلاف التحيات.

لا شيء يمكن أن يكون أكثر غرابة ومجافاة للعادي من الأمور، قد يمكن اختراعه من ذلك القدر الذي أصاب صديقي المسكين، الطالب الشاب ناثانيل، الذي أخذت على عاتقي مهمة أن أحيطك به علما. فهل سبق لك، أيها القارئ العزيز، أن شعرت بأي شيء يستحوذ عليك ويمتلك قلبك تماما، ويأخذك، يأخذ أفكارك وحواسك بعيدا عن كل شيء آخر، وحيث كل شيء يضطرب، ويصبح عكرا، ويغلي بداخلك، فيدفع الدم المتدفق الحار، عبر أوردتك، فتصبح خدودك ملتهبة بلون أحمر، وتصبح نظرتك غريبة، كما لو كنت تبحث عن أشكال ما في مساحة خالية غير مرئية لعينيك، وكذلك يتفكك كلامك فيصبح مجرد تنهدات أسيانة مقبضة؟ ثم يسألك أصدقاؤك: «ماذا حل بك أيها الصديق العزيز؟ ما الذي جرى؟» ثم عندما ترغب في أن تصف لهم الصورة التي في عقلك بكل ألوانها الحية، وكذلك الضوء والظل الخاصان بها، فإنك مجهوداتك تذهب

كلهـــا هنا أدراج الرياح، وقد يبدو الأمر، ذلك، وكأنك قمت بتجميع كل مـــا قد حدث معا – كل ذلك المدهش، العظيم، الشـــنيع، المبهج، الشـــبحي، وإنك تعبر عنه، من خلال الكلمة الأولى نفســـها، بحيث تســـتطيع أن تؤثر فيَّ، لكن كل كلمة، كل شـــيء داخل مجال الكلام، يبدو – هنا – لا لون له، باردا، ميتا.

وإنك قد تكون بحثث وبحثت، وتكون قد تلجلجت وتهتهت، في حين تصطدم أسئلة أصدقائك الواقعية الرزينة بالنار التي بداخلك مثل هبـــات ريح جليدية، فتهدد هذه النار حتى توشـــك أن تنطفئ، أما إذا قمـــت – على كل حال – منذ البداية بما يقوم به رســـام مصور جســـور، أي بالوضع، ومن خلال ضربات قوية بالفرشاة، لمخطط، أو شكل عام يتعلق بالصورة التي تحملها بداخلك، فإنك ستستطيع بعـــد ذلك، أن تتقـــدم نحو وضع الألوان من خـــلال صبغات يزداد توهجها شـــيئا فشـــيئا، ومن ثم فقد تجرف أصدقاءك انفعالاتهم الناتجـــة مـــن رؤيتهم لتلـــك البهجة الصاخبة الحية من الأشـــكال المتنوعـــة وتطوح بهم، كما أنهم – مثلك – قد يشـــاهدون أنفســـهم وســـط تلك الصورة التي خرجت من بين شـــغاف قلبك! ولا بد لي أن أعترف إليك – أيها القارئ العزيز، بأن أحدا لم يســـألني فعلا عن القصة الخاصة بالشـــاب ناثانيل، لكن، وبلا شـــك أنك تعرف، فإنني أنتمي إلى ذلك الجنس الغريب من المؤلفين، أي هؤلاء الذين عندما يحملون بين جوانحهم شيئا مما قد قمت بوصفه توا، فإنهم، وفيما يبدو، يسمعونه، كل من يقابلهم، العالم كله تقريبا، ويسألهم: ما الأمر؟ أخبرنا به! ومن ثم فإنني قد شعرت بدافع قهري بداخلي لأن أتحدث إليك حول حياة ناثانيل التعسة: لقد امتلأت روحي بكل ما هو غريب وعجيب فيها، ولكن، ومن أجل هذا الســـبب نفســـه، كذلك، فإنه ينبغي علي أن أقوم بالتكوين في داخلك للإطار العقلي الصحيح المناسب لاستقبال تلك الأشياء التي تتجاوز في عجائبيتها كل الدرجـــات العادية، قـــد عانيت كثيرا كي أســـتهل قصة ناثانيل

بطريقــة أصيلة دالة ومحكمة، مثل: «كان يا مكان»، أو «حدث ذات مرة» - إنها البداية المحببة بالنسبة إلى أي قصة، لكنها بداية رزينة رصينة أيضا، أو ربما أقول «في تلك المدينة الصغيرة التي اســمها كــذا»، إنها بداية أفضل قليلا، على الأقل إنها تعود بنا إلى البداية، أو، كما حدث الأمر، فإنني قد بدأت القصة من منتصفها.
«اذهب إلى الشــيطان..» صاح الطالــب ناثانيل، بعينين مملوءتين بالغضب الشديد والذعر، عندما ظهر بائع أجهزة قياس الضغط الجوي جوســيبي كوبولا.. لقد كتبت ذلــك - في الحقيقة - في وقــت بدا لي فيه أنني أدركت شــيئا مضحكا فــي عينيْ الطالب ناثانيل الجامحتين، إن قصته هي - على كل حال - قصة مسلية.
هكذا وجدت نفســي فــي النهاية غير قادر على أن أجد شــكلا ما، أيّا كان، يكون مناســبا للتعبير، ويقوم بتجســيد حتى أضعف الانفعــالات المتجســدة في رؤيتــي الداخلية؛ ومن ثــم فإنني قد قــررت ألا أبدأ هذا الأمــر البتة، ولذلك، فتقبــل - أيها القارئ الرفيق - هذه الرســائل الثلاث، التــي كان صديقي لوثاريو طيبا بدرجة كافية، حتى إنه قام بتوصيلها إليّ، بوصفها مخططا عاما للصورة التي أحاول الآن، جاهدا، خلال مســار الســرد، أن ألقي مزيدا من الألوان عليها. وربما مثل رســام بارع للصور الشخصية (البورتريه)، قد أنجــح في التقاط أكثر من صورة بهذه الطريقة، بحيث إنك، ومع أنه لم تتح لك الفرصة لمعرفة الشــخص الأصلي صاحب هذه الصورة، فإنك، مع ذلك، قد تعتقد أن الصورة مفعمة بالحياة، وأنك ربما كنت قد رأيت فعلا، ذلك الشــخص صاحبها مــرات بعينيــك الحيتين. وربما قد تعتقد أيضــا بعد ذلك - أيها القارئ العزيز - أنه ليس هناك شــيء أكثر عجائبية أو جنونا من هذه الحياة الواقعية نفسها، وأن كل ما قد يستطيع الشعراء القيام بــه هو أن يلتقطوا هذا الأمر بوصفه انعكاســا قاتما مظلما وقد تجسد في مرآة باهتة.

وكل ما يمكن إضافته إلى هذه الرسـائل الثـلاث هو أنه، وبعد موت والـد ناثانيل، أن كلارا لوثاريو، وقد كانـا طفلين لزوجين ذوي قربى بعيدة، وقد ماتا أيضـا وتركا هذين الطفلين يتيمين، أن والدة ناثانيل قد أخذتهما، بعد ذلك إلـى منزلها. وقد أدركت كلارا وناثانيل وجود علاقـة حميمة دافئة تربـط بينهما، ولم يُظْهِر أي إنسـان على ظهر البسـيطة أدنى اعتراض على وجود مثـل هذه العلاقة؛ ومن ثم، فإنه عندمـا غادر ناثانيل البلدة كي يواصل تعليمه في مدينة (ج) فقد كانا مخطوبـين أحدهما للآخر، و(ج) هي المكان الذي كان ناثانيل موجودا فيـه عندما كتب خطابـه الأخير، في حـين كان يواظب على حضور المحاضرات التي كان البروفيسور سبالانزاني، الشهير يلقيها هناك.
إننـي أتمنى الآن - بصـدق - أن أواصل قصتي دون تردد، لم تكن صورة كلارا هي التي تقـف مفعمة بالحيوية أمام عيني، الآن، في تلك اللحظة التي لم أسـتطع أن أبعد نظرتـي المحدقة عنها، كما كانت هي الحال دائما عندما كانت تنظر إليّ بوجهها ذي الابتسامة العذبة. ربما لم يكن ممكنا أن نصف كلارا بالجميلة، وقد كان ذلك رأى كل هـؤلاء الذين تكون مهمتهـم فهم الجمال، لكن حتى لو قام المهندسون المعماريون بامتداح طبيعة النسبة والتناسب في شكلها، وإذا وجـد المصورون أنه قد تم تشـكيل عنقهـا وكتفيها وصدرها تقريبا، على نحو بسـيط غير مبالغ في زخرفته، فإنهم جميعا ربما كانوا مفتونين بشعرها المجدلي الرائع، كما أنهم سيودون أن يثرثروا كثيرا حول بشـرتها ومظهرها العـام، ولا بد أن أحدهم - على كل حال - من أصحاب الرؤى الحقيقية، سـيود أن لو تكون لديه تلك الفكرة الغريبة الخاصة بالمقارنة بين عيني كلارا وبحيرة ما رسمها الفنان روسـديل في إحدى لوحاته [6]، فوقها سـماء زرقاء صافية خالية من السحب، وغابات وأراضٍ خضراء عامرة بالزهور، الحياة الكاملة المتعددة الألوان والمشـاهد الطبيعية الخصبة التي تكون قد انعكسـت فيها. وقد يذهب الشـعراء والموسيقيون إلى ما هو أبعد

مــن ذلك - على كل حـــال - ويقولون: «أية بحيــرة، وأي انعكاس؟ إننا عندما ننظر إلى كلارا نســمع صوت النغمات السماوية تتدفق ناحيتنــا خارجة من عينيهــا، فتنفذ إلى أعمــاق قلوبنا، تلك التي ستســتيقظ وتزداد حركتها بين جوانحنــا، وإننا إذا كنا - حينئذ - غير قادرين على الوقوع حقيقة في أسر أي أغنية كاملة، فإن ذلك يكون مرده إلى أنها - بشكل عام - قليلة الأهمية بالنسبة إلينا، وإن تلك الحقيقة التي لا نخطئ قراءتها هي تلك الابتسامة التي تتموج حول فم كلارا، عندما نتجرأ على أن نغني شيئا أمامها يفترض أنه أغنيــة، في حين لا يكون في واقع الأمــر أكثر من نغمات متداخلة عكــرة يُقذف بها». هكذا كان لــكلارا مثل ذلك التأثير فيهم.. لقد كانــت تمتلك ذلك الخيــال الفعال المفعم بالطاقــة الخاص بطفل ســعيد بريء، وذلك القلب الأنثوي شــديد الرقة واللطافة، وكذلك نــوع من الفهم الحــاد الواضح للأمور. ولم تكــن تتوافر لأصحاب الخيــال الجامح فرصٌ كبيرة للنجاح معهــا؛ وذلك لأنه، مع أنها لم تقل ذلك على نحو، مفصل، فإن ذلك الهذر يكون - في أية حال من أحواله، غريبا عن طبيعتها. وقــد كانت عيناها اللامعتان، وكذلك ابتســامتها الرقيقة المتهكمة، تقول لهم: «أصدقائي الأعزاء، كيف أمكنكم أن تعتقدوا أنه ينبغي لي أن أنظر إلى تخيلاتكم الشــعرية العابرة بوصفها كائنــات واقعية حقيقية تمتلك القدرة على الحياة والفعل؟». ولهذا الســبب وُصِمَتْ كلارا بواســطة كثير منهم بأنها: باردة، متحجرة المشــاعر، نثرية الميول واقعيــة المزاج، لكن آخرين غيرهم، وهم هــؤلاء الذين كانوا ينظرون إلى الحياة بعيون صافية واضحة، قد شــعروا بعاطفة ما غير عادية نحو تلك الفتاة المرحة، الذكية، البســيطة، ولكن لم يشعر بمثل هذه العاطفة، ناحيتها، كما فعل ناثانيل نفسه. ومن جانبها، تعلقت كلارا بمحبوبها بكل روحها، وقد كانت أول مجموعة من السحب تمر فوق حياتها، هي تلك التي ظهرت عندما ابتعد ناثانيل عنها ورحل بعيدا عن البلدة، فأي بهجة

تلك التي حملتها فجعلتها تحلق، عندما عاد ناثانيل إلى البيت وظهر في غرفة أمه؟ كما وعد لوثاريو في خطابه الأخير، ومثلما تمنى ناثانيل، واعتقد أنه سيحدث، فإنه عند رؤيته الأولى لكلارا بعد عودته، تبددت من عقله كل تلك الأفكار الخاصة بالمحامي كوبوليوس وانقشعت، وكذلك تلك الشجون التي أثارها خطاب كلارا السابق إليه.

وقد كان ناثانيل على حق - على كل حال - عندما أخبر لوثاريو أن حياته قد تأثرت بشكل سيئ بفعل تاجر أجهزة الضغط الجوي ذلك الكريه كوبولا، وهي حقيقة تبدو واضحة لكل إنسان، خاصة عندما كشف ناثانيل في الأيام الأولى، بعد عودته، عن تحول كلي في شخصية، ربما كان سيهبط تدريجيا، وينحدر نحو حالة من التهويمات المقبضة الكئيبة، ثم يتصرف بعد ذلك مباشرة بطريقة غريبة تماما، مقارنة بطرائقه المألوفة في السلوك. لقد أصبح كل شيء، الحياة كلها، بالنسبة إليه، حلما، وشعورا منذرا بشر يوشك على الوقوع، لقد تحدث ناثانيل - باستمرار - عن كيف أن كل واحد منا يعتقد نفسه حرًا، يكون - في الواقع - ألعوبة معذبة في يد قوى غامضة، وأن المقاومة هنا لا طائل من ورائها، وأن علينا أن نخضع مستكينين لإملاءات القدر. وقد استمر يؤكد كثيرا أنه من الحماقة الاعتقاد أن التشكيلات الإبداعية في الفن والعلم هي نتاجات إرادتنا الحرة: فالإلهام الذي - وحده - يجعل تلك الإبداعات ممكنة، لا ينبع أو يتقدم من داخلنا، بل إنه يحدث من خلال قوة عليا ما توجد خارجنا.

وقد وجدت كلارا أن تلك التخييلات الغامضة، خاصة عندما تصل إلى حالاتها القصوى، تكون بغيضة ومنفرة، لكن محاولة تفنيدها بدت لها - أيضا - لا جدوى منها. وفقط عندما تقدم ناثانيل نحو إثبات أن كوبوليوس هو في الحقيقة قوة شريرة ما قد استحوذت عليه وتلبسته منذ أن كان يختبئ ويستمع إليها في الماضي، خلف

تلك الستارة، في غرفة أبيه، وأن ذلك الشيطان الكريه كان مستمرا بعـــد ذلك، وعلى نحو مخيف فـــي محاولاته لتحطيم هناءة حبهما، هنـــا فقط أصبحت كلارا أكثر جديـــة، وقالت «نعم يا ناثانيل، أنت على حق، إن كوبوليوس قوة شريرة غير ودودة. وهو يستطيع القيام بأشياء مرعبة، إنه يشبه قوة شيطانية قد خطت ودخلت - على نحو مرئي - في حياتنا، ولكن ذلك قد حدث فقط لأنك قد فشـلت في أن تطرده من عقلك، فمادمت تعتقد فيه، فإنه يســتمر في الوجود والفعل. إن قوته تكمن، فقط، في اعتقادك فيه».

ولشعوره بالســخط الشديد من اعتقاد كلارا الجازم بأن الشيطان موجود، كقوة بداخله فقط؛ كان ناثانيل على وشــك أن يقدم شرحا تفصيليّـا لنظريتــه الغامضة حول الشــياطين والقوى الوحشــية الأخرى، وفي تلك اللحظة، وفي حالة من الغيظ، ألقت كلارا ببعض الملاحظات غير المناسبة، وقطعت المحادثة التي كانت تدور بينهما، وفي تلك اللحظة، قام ناثانيل بالتســرية عن نفسه بأن استغرق في فكــرة فحواها أن مثل تلك الأفكار العميقة هي - وكما كانت دائما - بعيدة عن أن تدركها تلك القلوب الباردة الجامدة. ومع ذلك، فإنه ولكونه غافلا عن أنه بذلك يضع كلارا ضمن البشر الأدنى مرتبة، فإنه لم يتوقف عن محاولاته لأن يُدخل كلارا إلى قلب هذه الأسرار في الصباح الباكر التالي، فبينما كانت كلارا مشغولة بإعداد طعام الإفطار، وقف ناثانيل إلى جانبها وقرأ على مسامعها بعض المدون في كتبه الغامضة، إلى درجة أن كلارا قد ســألته: «لكن، يا عزيزي ناثانيل، لنفترض أننى اعتبرتك قوة شــريرة لها القدرة على التأثير السـيئ في القهوة التي أعدها، إننى لو افترضت ذلك، وكما تريد أنت مني ذلك، فإنني ســأهمل كل شــيء، وأقف وأنظر إلى عينيك وأنــت تقرأ، ومن ثم فإن القهوة ســتغلي كثيرا، ولن يحصل أيٌّ منا على أي طعام للإفطار». هنا أغلق ناثانيل كتابه بقوة، وأسرع مغادرا غرفته وهو في مزاج بالغ السوء.

فـي الأيام السـابقة، كانت لديه موهبة متدفقة قـادرة على تخيل القصص المبهجة والمفعمة بالحيـاة، قصص كان يتمنى أن يدونها، وأن يجعل كلارا تسـتمتع بها، بكل جوانحها، أما الآن، فإن قصصه قـد أصبحت أكثـر كآبة، أصبحت غير مفهومة، وغير ذات شـكل محدد، وقد كان يشعر بأن كلارا لم تنجذب قط إلى هذه القصص الأخيـرة، حتى عندما كانت تتحفظ - علـى نحو واضح - عن أن تقـول له ذلك. وقد وجدت كلارا - في الغالـب - أن ذلك الملل لا يمكن تحمله، وعندما كانت تشـعر بذلك، فإن ضجر العقل وسأمه الـذي لا يقهـر، والذي كانت تعانيه، إنمـا كان يتبدى في الطريقة التـي تتكلم بها، وكذلك النظرة التـي تتجلى في عينيها. لقد كانت قصـص ناثانيل مملة تمامـا حقا، كما أنه قد تزايـد لديه - على نحو واضـح - ذلك الضيق من اسـتجابة كلارا البـاردة الواقعية غيـر المبالية بهذه القصص، فقد كانت غير قادرة على التغلب على ذلك المزاج السـيئ الذي هيمن عليها وسـيطر، بسبب تلك النزعة الملغـزة الغامضة المقبضة المملة الخاصة بناثانيل، وبالقصص التي كان يقرأهـا على مسـامعها، ومن ثم، ومـن دون أن يلحظا ذلك، فقـد أصبحا - وعلى نحو متزايـد - غريبين أحدهما عن الآخر. وقـد كانت صورة كوبوليوس - وكما كان ناثانيل نفسـه يقول ذلك، وهـو في حالة من الارتباك - تنمو مبهمة غامضة في خياله، وفي قصصـه، وحيث كان كوبوليوس يظهر دائما كمندوب أو أداة مهلكة شـريرة في يد الشـيطان، وغالبا ما كان الأمـر يتطلب منه - من ناثانيـل - جهدا كي يضفي الحياة، وكذلك المظهر الخارجي القابل للتصديق، عليه، ثم إنه، أخيرا عثر على الفكرة التي يسـتطيع من خلالها تحويل كآبته المقبضة المنذرة بالشر، والمتعلقة بأن كوبوليوس قد يمزق أواصر بهجة حبه إلى موضوع لقصيدته: لقد صور نفسه، ومعـه كلارا، وهما يجمع بينهما حب حقيقي، يوحدهما، ولكن، في التـو واللحظة، كما لو كانت هناك يد سـوداء قـد امتدت فوقهما

ومحت مشــاعر البهجة والســرور التي كانا يشعران بها، وإنه عند النهاية، وبينما كانا واقفين أمام المذبح في الكنيسة لعقد زواجهما، ظهر كوبوليوس المرعب ولمس بيده عيني كلارا الجميلتين، فاقتُلعتا من محجريهما وانطلقتا مثل شــرارتين دمويتين حمراوين، اندفعتا مشــتعلتين وحرقتا - ســطحيّا - صــدر ناثانيل. هنا أمســك به كوبوليوس، قيد حركته وألقاه في حلقة مشتعلة من النار، وقد كانت تلك النيران متأججة وتتحرك بسرعة العاصفة، ومن ثم فإنها دفعته بعيدا بعنــف وصخب، لقد كان الأمر في مجمله أشــبه بحالة من الاضطراب والفوضى الشــديدة، وأشبه بما يحدث عندما يضرب إعصار بقوة أمواج البحر المكســوة بالزَّبد، فتهدر تلك الأمواج مثل زمجرة عملاق أبيض الشعر يكون منهمكا في صراع عنيف. وخلال حالة الفوضى والاحتياج هذه، سمع ناثانيل صوت كلارا وهي تقول لــه: «هل ترى؟ لقد خدعك كوبوليوس، لم تكن تلكما العينان اللتان أحرقتا صدرك عينيَّ، لقد كانتا قطرات متوهجة ســاخنة من دماء قلبــك أنت - إننى مازلت أحتفظ بعينــيّ، إن عليك فقط أن تنظر إليّ!». هنا فكر ناثانيل بينه وبين نفسه قائلا: «هذه هي كلارا التي أعرفها، وأنا ســأظل حبيبها إلــى الأبد». ويبدو أن هذه الفكرة قد دخلت بنفسها إلى حلقة النيران واحترقت بداخلها، فإذ بها تتوقف، وإذا الفوضــى والهرج والمرج الملازمة لها تخمد وتســكن، هنا نظر ناثانيل إلى عيني كلارا، لكنه وجد الموت يحدق فيه في هدوء، وعلى نحو بارد، من داخلهما.

بينمــا كان ناثانيل يؤلف قصيدته هذه، كان شــديد الهدوء، رابط الجــأش، متمالكا نفســه، وقد كان يصقل كل بيت ويحســنه، وقد مكنته قيود الوزن الشعرية من أن يستمر في عمله، من دون كلل أو ملل، حتى أصبح كل شــيء في القصيــدة واضحا ومتناغما، ولكنه عندما انتهى من قصيدته وقرأها لنفسه - بصوت مرتفع - انتابته مشــاعر الرعب، وصرخ بقوة قائلا: «أي صوت مروع هذا؟!»، وقبل

أن يمضي وقت طويل على كل حال، فإنها بدت بالنسبة إليه ليست أكثر من قصيدة جيدة ثم أنه وصل إلى حالة من الاعتقاد بأن ذلك المزاج البارد المهيمن على كلارا قد يتأجج مشتعلا بواسطة هذه القصيدة، هذا مع أنه في تلك اللحظة لم تكن لديه أي فكرة واضحة عما سيؤدي إليه تأجج انفعال كلارا، لو حدث، أو ما الغرض الذي تحققه هذه العملية التي يزعجها من خلالها ويضايقها بصور مرعبة تتنبأ بمصير مخيف ودمار ماحق للحب الذي يربط بينهما. وقد جلس ناثانيل وكلارا في حديقة أمه الصغيرة، وقد كانت كلارا في مزاج مفعم بالبهجة؛ وذلك لأن ناثانيل، خلال تلك الأيام الثلاثة السابقة التي كان يكتب فيها قصيدته، لم يعذبها بأحلامه وهواجسه، كذلك كان ناثانيل نفسه، يتحدث بمرح حول أشياء سارة في الحياة، حتى أن كلارا قد قالت: «الآن فقط قد استعدتك إليَّ مرة أخرى، الا ترى كيف أننا قد طردنا الآن، كوبوليوس البغيض بعيدا عنا؟».

في تلك اللحظة فقط تذكر ناثانيل أنه يحتفظ في جيبه بالقصيدة التي أراد أن يقرأها على مسامعها، فأخرج الأوراق وبدأ يقرأها عليها، وقد افترضت كلارا أنها ستكون - كما هي العادة - شيئا مملا، ولكنها - منصاعة إليها - بدأت في هدوء، في حياكة شيء كالجورب كانت تحمله، ولكن، ومع ظهور سحب يزداد سوادها تدريجيًا في القصيدة، أسقطت الجورب الذي كانت تحيكه، ثم حدقت في ناثانيل في دهشة جامدة، خالية من الإحساس. أما ناثانيل فاستمر يقرأ بلا هوادة، في حين كانت إثارية الانفعال المتأججة بين جوانحه تصبغ وجنتيه بلون أحمر مضيء، كذلك كان الدمع الهتون يسح من عينيه حتى أكمل في النهاية قصيدته وتأوه معبرا عن شعوره بالإنهاك الشديد. ثم إنه أمسك بيد كلارا، كما لو كان قد ذاب أو تضعضعت حواسه نتيجة تعاسة لا فكاك له منها، تنهد قائلا: «آه!، يا كلارا، كلارا!».

هنـــا ضمته كلارا بحنان إلى صدرها وقالت له برقة، ولكن بطريقة بطيئة وجادة تماما: «ناثانيل، يا عزيزي، يا ناثانيل العزيز، ألقِ بهذه القصة المخبولة المجنونة التي لا معنى لها في النار!».
هنا انتفض ناثانيل مرتدا إلى الخلف، وهو في غضب عارم، وأبعد كلارا عنه بعنف وصرخ: «أوه، أيتها الآلة المتحركة البغيضة، الفاقدة للحياة»، ثم إنه اندفع إلى الخارج وقد جرحت كلارا جرحا عميقا، وانسـكبت دموع مريرة من عينيها، وقالت وهي تنشج: «واحسرتاه عليّ، إنه لم يحبني قط، لأنه لم يفهمني قط».
أما لوثاريو - شــقيق كلارا - فخطا مســرعا إلى داخل التعريشة، ثم إن كلارا قد وجدت نفســها مضطرة إلى أن تحكي له ما حدث، وقد كان يحب «لوثاريو» شــقيقته بمجامــع قلبه، ومن ثم فإن كلمة قد ذكرتها - وهي تشــكو إليه ما فعلــه ناثانيل - قد صدمته مثل جمرة مشــتعلة، إلى درجة أن ذلك الضيق الذي كان يشعر به سرّا منــذ وقت طويل نحو ناثانيل - ذلك الحالم الغامض - قد اشــتعل وتفجر بداخله فتحول غضبا عارما، ومن ثم فإنه جرى نحوه ولحق بــه، وبكلمات قاســية وجه إليه اللوم على ســلوكه الذي يفتقر إلى الإحســاس نحو أختــه الحبيبة، ورد عليه ناثانيــل، الذي أغضبته كلمــات لوثاريو، بكلمات مماثلة، فقد نعت لوثاريو ناثانيل بالمجنون، والأحمق المغــرور، ورد ناثانيل على كلامه ذلك بأن نعته بالصاحب العــادي، النكرة، الجدير بالازدراء، هكــذا أصبحت المبارزة بينهما أمــرا لا يمكن تجنبه. وبما يتفق مع العــرف المتعارف عليه هناك، اتفقا على أن يواجــه أحدهما الآخر صباح اليوم التالي خلف تلك الحديقة بسيوف طويلة مستدقة الأطراف حادة الشفرات، وبجبين مقطب مكفهر تسللا في صمت خارجين من ذلك المكان، وقد كانت كلارا قــد ســمعت اتفاقهما العنيف ذلك، ومع حلول الغســق رأت الشــخص المنظم للمبارزات يحضر الســيوف المفولية الحادة، وقد حدثها قلبها بما يوشك أن يحدث.

وعندما وصل لوثاريو وناثانيل إلى موضع المبارزة، كان عليهما أن يخلع كل منهما سترته في صمت كئيب، ثم ومن خلال ميل إلى القتال متعطش إلى الدماء كان يتأجج في عين كل منهما، كانا على وشك أن يهاجم أحدهما الآخر، وفي تلك اللحظة اندفعت كلارا من باب الحديقة، ومن خلال نشيجها، صرخت بصوت مرتفع: «أيها الرجلان المتوحشان البغيضان، اقتلاني أنا أولا قبل أن يهاجم أحدكما الآخر! وإلا فكيف سيمكنني أن أستمر باقية على قيد الحياة في هذا العالم إذا قتل محبوبي أخي، أو قتل أخي محبوبي؟!».

هنا أسقط لوثاريو سلاحه وحدق في الأرض، كما أن الحب كله الذي حمله ناثانيل تجاه كلارا الرقيقة، خلال أيام شبابهما، قد بعث حيًا وأينع في قلبه مرة أخرى، فأسقط سلاحه القاتل من يده وجثا عند قدمي كلارا وهو يقول لها: «هل يمكنك أن تسامحيني، يا كل من بقي لي، يا محبوبتي كلارا؟ وهل يمكنك أن تسامحني، يا أخي الأثير لوثاريو؟».

وقد تأثر لوثاريو بألم صديقه العميق، ومن ثم عادت المياه إلى سابق عهدها مرة أخرى بين هؤلاء الثلاثة، فاحتضن كل منهم الآخر، وهطلت من عيونهم الدموع مدرارا، وأقسموا على أن يظلوا متآلفين متحدين معا، في حب وإخلاص دائمين، وعلى ألا ينفصلوا بعضهم عن بعض، أبدا.

لقد بدا الأمر لناثانيل كأن عبئا ثقيلا كان يرهق كاهله، ويشده إلى الأرض بإحكام قد رفع عنه، وكما لو أنه، بالعقل، قد قاوم قوى الظلام التي ظللته بجناحيها، وأحاطت به، وأنه بذلك قد أنقذ وجوده الكلي من ذلك الدمار الذي كان يهدده، ثم إنه قضى أياما ثلاثة جميلة مع أصدقائه الأعزاء قبل أن يعود إلى مدينة (ج)، حيث انتوى أن يدرس لمدة عام واحد آخر، على أن يعود إلى موطنه، بعد ذلك، إلى الأبد.

لم تكن أمه قد أخبرته بأي شــيء من بين كل تلك الأمور الخاصة بكوبوليــوس؛ وذلك لأنهم عرفوا أنها لم تكــن لتقدر على التفكير فيــه من دون أن يصيبها الرعــب، خاصة لأنها - مثل ناثانيل - قد اعتبرته مسؤولا عن موت زوجها.

وقد شــعر ناثانيل بالدهشة الشــديدة عندما عاد إلى الغرفة التي كان يســتأجرها، ووجد أن ذلــك البيت كله قد احترق، وأنه لم يبق منه ســوى جــدران متفحمة جرداء مازالت واقفة منتصبة وســط الــركام، ومــع أن تلك النيران كانــت قد اندلعت فــي ذلك المعمل الخــاص بالكيميائي الــذي كان يعيش في الطابــق الأرضي، وأن المنــزل قد احترق من أســفله إلى أعلاه، فإن أصدقاءه الشــجعان رشيقي الحركة قد نجحوا في الوصول إلى غرفة ناثانيل، التي تقع في الطابق العلوي، وأن ينقذوا بســرعة كتبه ومخطوطاته وأدواته، ثم إنهم نقلوا كل شــيء سـليما، لم يلحقه ضــرر، إلى منزل آخر، واستأجروا غرفة فيه، وإليها انتقل ناثانيل فورا كي يشغلها.

لــم يبدو الأمــر الخاص بأنه قد أصبح يعيش فــي الجانب المقابل للبروفسور ســبالانزاني أمرا جديرا بالدهشة على نحو خاص من جانب ناثانيل، كما أنه لم يعتقد بوجود شــيء مهم عندما لاحظ أن نافذة غرفته تطل مباشــرة على الغرفة التي كانت أوليمبيا، ابنته، تجلس فيها وحيدة، دائما، ومن ثم فإنه اســتطاع أن يتعرف شكلها على نحو واضح، ولو أن القســمات المميزة لوجهها ظلت أيضا غير واضحة بالنســبة إليه. علــى كل حال، فإنه قد ذهــل في النهاية، عندما عرف أن أوليمبيا قد كان يمكنها أن تجلس ســاعات طويلة جدّا، غير منشــغلة تماما بأي شــيء، بجــوار منضدتها الصغيرة، متخذة الوضع الجسمي ذاته الذي يشبه الوضع الذي اكتشفها من خلالــه، عندما رآها للمرة الأولى، من خلال ذلك الباب الزجاجي، كما أنه لفت انتباهه، وذهل، من حقيقة أنها كانت تجلس في هدوء، محدقــة نحوه بنظــرة ثابتة لا تتحرك. وقد وجد نفســه مضطرا

أيضا إلى أن يعترف بأنه لم ير في حياته مثل هذا الشكل الجميل الذي كانت أوليمبيا عليه، ومع ذلك، ولأن كلارا كانت تشغل قلبه، فإنه ظل غير مبالٍ تماما تجاه أوليمبيا الثابتة الوضع، الجامدة: كل ما كان يفعله هو أنه كان يلقي - بين الفينة والفينة - بنظرة سريعة عابرة من فوق كتابه إلى ذلك التمثال الجميل، هذا كل ما كان يحدث.

وذات يوم، وبينما كان مشغولا بالكتابة إلى كلارا، سمع دقة خفيفة مهذبة على بابه، وفُتح الباب بناء على طلبه، ومنه ظهر كوبولا، البغيض المنفر، وهو ينظر إليه. وشعر ناثانيل بأنه يرتجف حتى أعماق نفسه، وتذكر ما أخبره به سبالانزاني حول صاحبه الريفي هذا. على كل حال، فإنه عندما تذكر الوعد المقدس الذي أخذه على نفسه أمام محبوبته فيما يتعلق برجل الرمال كوبوليوس، فإنه شعر بالخجل من مخاوفه التي تشبه مخاوف الأطفال، فاستجمع شتات نفسه بكل وقته، ثم قال، بتهذيب وهدوء بقدر ما استطاع: «ليس في نيتي أن أشتري أي بارومتر يا صديقي العزيز، ومن ثم ارحل من فضلك».

في تلك اللحظة دخل كوبولا - بخطوات سريعة متلاحقة - داخل الغرفة، وتشوه فمه الواسع بتكشيرة قبيحة، ثم برقت عيناه الصغيرتان بحدة من تحت أهدابه الطويلة الرمادية، وقال في صوت خشن أجش: «ليس البارومتر، ليس البارومتر، ما أريد بيعه إليك، إنَّ لديَّ أيضا عيونا جميلة، عيونا جميلة».

هنا صرخ ناثانيل، وهو يشعر بالرعب: «أيها الرجل المجنون، كيف يمكن أن يكون لديك عيون كي تبيعها؟».

لكن كوبولا كان قد وضع فعلا أجهزة قياس الضغط الجوي جانبا، ثم وصلت يداه إلى الجيوب الواسعة لمعطفه، وأخرج منها مناظير يد، وأيضا زوجين من النظارات أو العوينات، ووضع ذلك كله على منضدة ناثانيل وقال «هذه، هذه، نظارات كي تضعها على

أنفك، إنها عيوني، عيوني الـ «جميلة!»، وخلال ذلك كله كان كوبولا يستخرج مزيدا ومزيدا من النظارات، بحيث أصبح سطح المنضدة كلــه يتلألأ ويطلق شـــررا، ويلتمع ببريق زجاجي له شـــكل غريب: هكذا كانت هناك ألف عين تحدق وتطرف، ترتعش، تُغمض وتُفتح، ونظراتها المحدقة مثبتة على ناثانيل تتفرســـه، لكنه لم يستطع أن يحـــول عينيه بعيـــدا عن تلك المنضدة، حيث اســـتمر كوبولا يلقي مزيـــدا ومزيدا من العوينـــات فوقها، وقد تقافـــزت تلك النظرات الســـريعة كلها، في فوضى جامحة، وانطلق منها ضوء أشعة حمراء كالدم نحو صدر ناثانيل. ولأنه كان قد فقد شـــجاعته، نتيجة ذلك الذعر غير القابـــل للتحكم فيه، فإنه صرخ: «توقف، كف عن هذا! أيها الرجل الرهيب!».

وقد كان كوبولا منهمكا في الوصول إلى جيبه لاســـتخراج مزيد من العوينات spectacles، هذا مع أن المنضدة كانت كلها مغطاة بأنواع منها، لكن ناثانيل أمسك بذراعه بشدة في تلك اللحظة. أما كوبولا فحـــرر يده بلطـــف من قبضة ناثانيل وهو يضحك ضحكة خشـــنة كريهـــة، ثم قال بطريقته المعهودة في الكلام: «آه، هذه ليســـت لك، لكنهـــا عوينات جميلة»، ثم جمع كل تلك النظـــارات كلها، ووضعها بعيـــدا، ثم ومـــن جيب فرعي فـــي معطفه، اســـتخرج كمية كبيرة مـــن أجهزة التليســـكوب من الأحجام جميعهـــا، ولحظة أن اختفت النظارات، أصبح ناثانيل هادئا تماما، وأصبحت كلارا حاضرة بقوة في عقلـــه، وأدرك أن ذلك الطيف الذي أصابه بالرعب الشـــديد، ربما قد يكون قد ظهر من داخل عقله هو، وأن كوبولا هذا قد يكون خبير بصريات جديرا بالتقديـــر، ومتخصصا في الميكانيكا، بارعا فـــي مجاله، وليس بالضرورة أن يكـــون هو ذلك الطيف العائد بعد غياب، أو ذلك القرين المتوهم للبغيض كوبوليوس. وكذلك، فإن تلك العدسات التي كان كوبولا يضعها راقدة فوق المنضدة، لم يكن هناك شـــيء - إضافة إلى ذلك - جدير بالملاحظة حولها، أو شيء شرير

خبيث كذلك الذي حدث عندما كانت العوينات أو العيون الصناعية هي الموضوعة فوق المنضدة. وكي تعود الأمور إلى حالتها الطبيعية مـرة أخرى، عقد ناثانيل العزم على أن يشـتري فعلا، من كوبولا، تليسكوبا صغيرا نظيفا من ذلك الذي يوضع في الجيب، ثم إن من أجل أن يختبره، نظر من خلاله إلى الخارج، عبر نافذة غرفته.

لم يسـتخدم ناثانيل في حياته - من قبل - «منظارا» يمكن أن يجعل الأشـياء تبدو لعينيـه أكثر دقة ووضوحا كما هـي الآن. وعلى نحو لا إرادي نظـر داخـل غرفة سـبالانزاني، وكانـت أوليمبيا، تجلس كالمعتاد هناك أمام مائـدة صغيرة، ذراعاها راقدتان فوقها، ويداها مضمومتـان. الآن فقط اسـتطاع ناثانيل أن يشـاهد وجه أوليمبيا الجميل، كانت عيناها وحدهما تبدوان له ثابتتين وميتتين وجامدتين، علـى نحو غريب، ومـع ذلك فإنه ومع تحول الصورة المنعكسـة من خلال المنظار لأن تصبح حادة ومحددة الملامح أكثر فأكثر، بدا الأمر كأن أشـعة من ضوء القمر قد بدأت تنبعث مـن داخل عينيها. لقد كانتـا - في تلك اللحظة - كما لو كانتا تكتسـبان قوة الإبصار، كما أن نظراتهما الخاطفة قد أصبحت أكثر دفئا، ومفعمة أكثر بالحياة. وقـد وقف ناثانيل أمام النافذة، كما لو كان قد جمد في مكانه، فقد كان ذاهلا غائبا عن الوجود، يتأمل جمال أوليمبيا السماوي.

وقد أيقظه من تلك الحالة الشـبيهة بالحلم العميق التي اسـتغرق فيها حركة نافدة الصبر بالقدمين، وكحة بدا صاحبها كأنه ينظف حلقه، وقد كان ذلك هو كوبولا الذي كان يقف وراءه: ويقول «ثلاث دوقيات». لقد كان ناثانيل قد نسـي تمامـا تاجر البصريات هذا، ومن ثم فإنه قد دفع بسرعة المبلغ المطلوب، هنا سأله كوبولا بصوته المنفر الأجش، وبابتسـامته المستهزئة المتهكمة «هل هي كذلك، ها؟ عدسات جميلة، أليست هذه عدسات جميلة؟».

«نعم، نعـم، نعم»، أجاب ناثانيل في ضيق، ثـم أضاف: «وداعا، يا صديقي العزيز!».

وغـــادر كوبولا الغرفة، لكن من دون أن ينســـى أن ينظر إلى ناثانيل عدة نظرات جانبية ســـريعة غريبة، ثم ســـمعه ناثانيل يضحك بعد ذلك، وهو في طريقه إلى الســـلم. هنا فكر ناثانيل قائلا: «نعم آه، حســـنا، إنه يضحك مني لأنني لا بد قد اشـــتريت هذا التليسكوب الصغير بثمن مرتفع جدا، بثمن باهظ من دون شك!»، ثم إنه لحظة أن نطـــق ناثانيل هذه الكلمات على نحـــو خافت، فإنه كما لو كانت هنـــاك زفرة مـــوت عميقة قد تردد صداها علـــى نحو مرعب بين جنبات غرفته، ثم إن موجة من الخوف قد ســـيطرت عليه وجعلته يحبس أنفاســـه، لكنه كان هو نفســـه الذي زفر هذه التنهيدة، وقد أدرك هو نفســـه ذلك جيدا، ومن ثم فإنه قال لنفســـه: «إن كلارا - من دون شـــك - على حق في اعتباري تَفِهـــا يخاطب الأرواح، ومع ذلك، فإن الأمر الشـــاذ، بل البالغ الشذوذ أيضا، هو أنني ربما قد كنت قد اشتريت هذه العدسات من كوبولا بثمن باهظ تماما، وهي فكرة لاتـــزال تملأني بكل تلك المخاوف، وأنـــا لا أرى أي مبرر لها البتة على الإطلاق».

ثـــم إنه جلس كي ينهـــي خطابه إلى كلارا، لكـــن لمحة خاطفة عبر النافـــذة جعلته متأكدا من أن أوليمبيـــا لاتزال تجلس هناك أيضا، وفـــي لحظة وثب من مكانه، كمـــا لو كان مدفوعا بقـــوة لا تقاوم، وأمسك بـ «تليسكوب» كوبولا، ولم يستطع أن ينتزع نفسه بعيدا عن ذلك المشهد المغوي الخاص بـأوليمبيا، واستمر هكذا حتى استدعاه صديقه وزميل دراســـته سيغموند من أجل تلك المحاضرة التي كان البروفسور سبالانزاني سيلقيها.

لقد كانت الســـتارة التي أمام تلك الغرفة القدرية مشدودة بإحكام، ولم يستطع ناثانيل أن يلحظ وجود أوليمبيا من خلال الباب، كما أنه لم يســـتطع خلال اليومين التاليين أن يكتشف وجودها في الغرفة، وبصعوبة، كان يستطيع أن يبتعد عن نافذته، بل كان يحدق عبرها، علـــى نحو متواصل، من خلال تليســـكوب كوبولا، وفي اليوم الثالث

وضعت الستارة بحيث كادت تغطي النافذة كلها. وفي حالة تامة من اليـأس، ومندفعا بفعل رغبة متأججة بداخله، انطلق ناثانيل بعيدا عن المدينة في اتجاه الريف، وقد كانت صورة أوليمبيا تحوم أمامه، وتحلق فـي الهواء فوقه، تبرز من بين أشـجار الدغل، وتنظر إليه مـن بين جدول الماء المتعرج بأعـين وامضة لامعة. أما صورة كلارا فانمحت تماما من عقله، فلم يعد يفكر سـوى في أوليمبيا، ثم إنه انتحب بصوت مرتفع وهو يقول: «واحسرتاه يا نجمة حبي المجيدة، إنك ما إن توجت حياتي حتى تلاشـيت مباشـرة وتركتني في ليل معتم بلا أمل ولا رجاء!».

وعندما كان على وشـك أن يعود إلـى غرفته، تنبه لوجود ضوضاء تتـردد أصداؤها، وضجيج أيضا في بيت سـبالانزاني. وقد كانت الأبـواب لاتزال مفتوحة، وأشـياء من جميـع الأصناف تحمل إلى داخل ذلك البيت، وقد نُزِعَتْ النوافذ كلها التي في الطابق الأرضي، وكانت الخادمات المنهمكات في أعمالهن مغبرات يكنسن الأرضيات بمقشات كبيرة، ومن داخل البيت كان يخرج صوت ضربات ودقات متكررة بمطـارق يقوم بها نجارون ومنجـدون، وتوقف ناثانيل في ذهول تام، ثم جاء سـيغموند وهو يضحك، وقال له: «حسـنا، ماذا تعتقد أن صاحبنا سبالانزاني العجوز يود أن يفعل؟».

وقـد أكد له ناثانيل أنه ليسـت لديه أدنى فكـرة عما يحدث، وأنه لا يعرف أي شيء، أيّاً ما كان، حول هذا الأستاذ، لكن أنه أدرك بدهشة بالغـة أن هناك صخبا هائـلا يحدث في ذلك المنزل الذي يكون عادة صامتا ومقبضا، ثم إنه عرف من سـيغموند، أن سبالانزاني ينوي أن يقيم احتفالا كبيرة يتضمن حفلة موسـيقية، وحفلة راقصة في اليوم التالـي، وأن نصف الجامعة ثـم قد تمت دعوتهم إلـى هذه الحفلة، وقد تناثرت الأقوال، هنا وهناك، وأشـارت إلى أن ابنة سـبالانزاني، أوليمبيـا، التي أخفاها أبوها، دوما، وعلى نحو متسـم بالقلق البالغ، بعيدا عن عيون الناس جميعهم، ستظهر، أمامهم، للمرة الأولى.

فيمــا بعد وجــد ناثانيل بطاقة دعــوة تنتظره، ثــم عندما وصلت العربــات التي تجرهــا الخيول، وبدأت الأضــواء في الوميض في الغــرف المزينة، فإنه ذهب إلى بيت «الأســتاذ»، وقلبه يدق بصوت مرتفع، وقد كانت الصحبة كبيرة العدد ومتألقة، ثم ظهرت أوليمبيا ترتدي ملابس شــديدة الثراء، وعلى درجة عالية من الذوق أيضا، وقد اجتذب وجههــا ومظهرها الإعجاب، لكــن ظهرها المقوس - نوعــا ما - وكذلك خصرهــا النحيل الدقيق، بــدوا كأنهما نتيجة لعملية شد لجسدها من خلال أربطة محكمة، وقد كان هناك شيء ما يسترعي الانتباه في إيقاع مشيها وسرعته، وكذلك الوضع الذي اتخذه جســدها، شــيء وجده كثيرون غير مريح، لكن ذلك كله قد عُــزي إلى ذلك الانضباط أو التحفظ المفروض عليها بفعل حضور كل هذه الصحبة معها.

ثم بدأت الحفلة الموسـيقية، وقد كانــت أوليمبيا هي التي تعزف على آلــة البيانو، مــن خلال تمكن بارع، وقد أدت أيضــا - ببراعة مماثلة واقتدار - أغنية أوبرالية بصوت كان واضحا ومحددا تقريبا، ويشــبه صوت الناقوس، وقد ابتهج ناثانيل فصار مسـلوب الرشد، فوقف في الصف الخلفي من الحفل، وفي ظل ضوء الشــموع المبهر لم يســتطع أن يميــز تماما قســمات وجــه أوليمبيا، ومن ثم فإنه أمســك خفية بتليســكوب كوبولا، ونظر إليها عبر الغرفة. آه! لقد أدرك حينئذٍ كيف أنها تحدق نحوه أيضا بعينــين مفعمتين بالرغبة، وكذلك أن كل نغمة غنتها كانت ممتزجة بنظرة حب كانت تشعل الطريق الممتد بينها وبين قلبه! وقد بدت التعاقبات النغمية الســريعة بالنسبة إليه أشبه ببهجة الروح الســامية العليا التي يتغير مظهرها بفعل الحب، فيكتسب هالة المجد والفخار. وبعد اللحن الختامي Cadenza انطلق الصوت الطويل الحاد المرتعش مرتفعا في فضاء الغرفة، فشعر كما لو كان قد عانقته ذراعان دافئتان، فلم يســتطع أن يمنع نفسه فصرخ بصوت مرتفع في ألم ونشوة: «أوليمبيا».

هنا تحول الجميع برؤوسهم ونظروا نحوه، وضحك بعضهم منه أيضا، في حين بدا وجه عازف الأرغن الكنسي مستاء أكثر من غيره، ولم يقل سوى: «الآن، الآن!».

وانتهت الحفلة الموسيقية، وبدأت الحفلة الراقصة. «أن أرقص معها!» كان ذلك هو الهدف الذي هيمن على ما عداه من رغبات، لدى ناثانيل، لكن كيف يستجمع شجاعته كي يطلب «منها» ذلك الطلب المألوف في مثل تلك الحفلات، أن ترقص معه؟ ومع ذلك - وهو نفسه لم يعرف كيف حدث هذا - فعندما بدأ الرقص، وجد نفسه يقف بجوارها، أوليمبيا التي كانت لاتزال وحيدة، وقادرة بصعوبة على التمتمة، بكلمات قليلة فقط، قد غاب عنها معناها، هنا أمسك ناثانيل بيد أوليمبيا، وقد كانت يدها باردة كالثلج، فشعر ببرودة تشبه الموت تسري مخيفة في أوصاله، ثم إنه نظر إلى عينيها، وقد كانت تنظر أيضا نحوه بعينين مملوءتين بالحب والرغبة، وفي تلك اللحظة، بدا كما لو أن نبضا ما قد بدأ يسري وينبض في تلك اليد الباردة، وكما لو أن تيارا من دماء الحياة قد بدأ يتدفق فيها، وفي قلب ناثانيل أيضا، كان الفرح بالحب يسري بداخله على نحو متألق، هكذا احتضن أوليمبيا الجميلة، حلق معها نحو ذلك الحشد الراقص.

لقد كان يعتقد - حتى تلك اللحظة - أنه راقص بارع، لكن ذلك الإيقاع الدقيق الفريد الذي كانت أوليمبيا ترقص من خلاله، والذي دفعه على نحو متكرر بعيدا تماما عن طريقته المعتادة في الرقص، أجبره على أن يتعرف مدى النقص الذي كان مميزا لرقصه الخاص، ومع ذلك، فإنه لم يعد يرغب في أن يرقص مع أي امرأة أخرى، أيا ما كانت، كما شعر بأنه قد يود أن يقتل أي شخص يتجرأ ويقترب من أوليمبيا كي يدعوها إلى الرقص. ومع ذلك فإن هذه الدعوة قد حدثت مرتين فقط، ولدهشته فإن أوليمبيا قد غادرت مكان جلوسها بعد ذلك، لكنه نجح في أن يجتذبها - مرة بعد الأخرى - إلى باحة الرقص.

ولو أنه كان قادرا على أن يلحظ أي شيء، غير أوليمبيا الجميلة، فإنه كان سيرى بالضرورة مشهدا غير سار يحدث هناك أيضا، حيث كان الضحك الذي يُكْتَم بصعوبة منتشرا بين الشباب الموجودين، في هذا الركن أو ذاك، من أركان الغرفة، وقد كان ضحكا موجها نحو أوليمبيا على نحو خاص، أما ناثانيل، الذي توهج بالطاقة بواسطة الرقص، وكذلك كمية الخمر التي احتساها، فقد تخلى تماما عن تحفظه، ثم إنه جلس بجوار أوليمبيا، ويده في يدها، وبشغف بثها حبه لها بكلمات غير مفهومة لأي منهما، ومع ذلك فإنها، ربما، قد فهمت ما قاله؛ وذلك لأنها قد حدقت على نحو ثابت في عينيه، وتنهدت مرة بعد أخرى قائلة «آه، آه، آه!»، في حين قال ناثانيل نتيجة لذلك: «آه أيتها المرأة الجميلة السماوية، يا شعاع الضوء المنبعث من أرض الحب الموعودة، آه يا قلبي الذي انعكس عليه وجودي كله!»، وكلمات كثيرة أخرى من هذا القبيل، لكن أوليمبيا لم تقم فقط إلا بمجرد التنهد مرة بعد أخرى وهي تقول «آه، آه!»، وقد مر البروفسور سبالانزاني مرات كثيرة بهذا الثنائي السعيد، وابتسم لهما بطريقة راضية فريدة.

إن ناثانيل قد وجد نفسه الآن، في عالم آخر تماما، فإنه بدا له - فجأة - أنه هنا، أن الجزء السفلي من جسم البروفسور سبالانزاني قد أصبح ينمو بشكل معتم مظلم، وملحوظ، ومخيف.

ثم نظر ناثانيل حوله وأجفل على نحو محفوظ عندما رأى أن مصدري الضوء اللذين تُركا مضيئين في الغرفة قد بدآ يخفتان حتى أوشكا على الانطفاء، وقد كانت الموسيقى والرقص قد توقفا منذ وقت طويل، وصرخ ناثانيل في يأس جامح: «انصرفوا! انصرفوا!»، ثم قَبَّلَ يد أوليمبيا، ثم مال نحو فمها وتقابلت شفتاه الشغوفتان بشفتيها الباردتين كالثلج! وبمجرد أن لمس يد أوليمبيا الباردة حتى شعر برعب داخلي يتلبسه ويسيطر عليه،

لقد تذكر فجأة الملحمة الخرافية الخاصة بالعروس الميتة، لكن أوليمبيا جذبته بقوة نحوها، وعندما تبادلا قبلة، بدت شـفتاها كأنهما يدب فيهما دفء الحياة.

وقد مشي البروفسور سبالانزاني ببطء عبر الغرفة الخالية، وكانت أصداء خطواته تتردد عميقة مكتومة، أما شكله الخارجي فكان له، بفعل الظلال المتقطعة، مظهر غريب يشبه الشبح. أما ناثانيل فقد همـس إلى أوليمبيا قائلا: «هل تحبينني؟ هل تحبينني يا أوليمبيا؟ فقـط قولي لـي هذه الكلمة: فقـط هل تحبيننـي؟»، هنا نهضت أوليمبيـا على قدميها وتنهدت فقط قائلة: «آه، آه». فتبعها ناثانيل، ثم وجدا نفسيهما يجلسان أمام البروفسور، ذلك الذي قال لناثانيل مبتسما«: لقد استمتعت بمحادثة فريدة مفعمة بالحياة مع ابنتي... حسـنا، إذن، يا سـيدي ناثانيل، إذا كان يطيب لك أن تتحدث إلى ابنتي القليلة الفهم، فأنت مرحب بك، لزيارتها.

هكذا غادر ناثانيل منزل البروفسـور وسعادة كلية تشع في صدره. وقد كانت حفلة سـبالانزاني هي الموضـوع الوحيد للمحادثات أو الحـوارات، خلال الأيام التالية. ومع كل ما قام به البروفسـور من أجـل جعل هذه العلاقة علاقة راقية تماما، فإن طرائف محلية من كل نوع كانت تُحكى عن تلك الجوانب غير المتسـمة بالكفاءة، والتي تنم عن شـذوذ، والتي كانـت جلية للعيان فيها، وقـد وُجِّه هجوم خاص نحـو أوليمبيا، تلك الصامتة، الجامـدة جمود الموت، والتي نسـبوا إلى عينيهـا الجميلتين - مع ذلك - غبـاء تامّا، واعتقدوا أنهم اكتشـفوا - من خلال ذلك - السـبب الذي جعل سبالانزاني يخفيها عن عيونهم وقتا طويلا. وقد اسـتمع ناثانيل إلى ذلك كله، وكان الغضـب يتملكه في الداخـل، لكنه ظل - مع ذلك - محتفظا بصمته، وذلك لأنه فكر في أنه «ما الجانب المهم الذي يستطيع عن طريقـه أن يبين لهؤلاء الزملاء أن غباءهم الخاص هو الذي يمنعهم من تعرف طبيعة أوليمبيا العميقة والرائعة؟».

وذات يـوم قال له صديقه سـيغموند: «قدم لـي معروفا يا أخي، وأخبرني كيف لفتى ماهر مثلك أن يفتن بدمية خشـبية ذات وجه شـمعي، مثل تلك التـي هناك؟!»، وكان غضب ناثانيل يوشـك أن يتأجـج جامحا، ضد صديقه، لكنه كظم غيظه في نفسـه، وأجابه قائلا: «أخبرني أنت يا سـيغموند، كيف؟ فـإذا كانت القاعدة هي أننا ندرك الجمال بسرعة حيثما ظهر، فإن شخصا مثلك لا بد أنه سيفشـل في الاستجابة لسحر مثل سـحر أوليمبيا السماوي، ومع ذلك فإنني أشـعر بالامتنان لهذه الحقيقـة، وذلك لأنها تعني أنك لن تكون منافسـا لي، وإذا كان ذلك قد حدث، فإن واحدا منا كان سيسقط مضرجا في دمائه».

وقـد أدرك سـيغموند جيدا تلك الحالة التـي كان صديقه عليها، ومـن ثم فإنه قد حَـوَّل – بمهارة – دفة المحادثـة في اتجاه آخر، بعد أن عَبَّرَ عن رأيه الذي فحواه أنه ليس في الحب تفسـير مقنع لأذواق النـاس: ثم أضاف «ومـع ذلك، فإن الأمـر الغريب هو أن كثيرا منا يتمسـكون تقريبا بالرأي نفسـه فيما يتعلق بـ أوليمبيا»، نحـن لا نعتبرهـا مريضة، يا أخـي، ولكنها تبدو، بالنسـبة إلينا، جامدة وفاقدة للروح. إن شـكلها الخارجي متناسق تماما، وكذلك وجهها، هذا حقيقي! وربما قد توصف بالجميلة، ما لم تكن عيناها تفتقدان الحياة تماما هكذا، بل إنني يمكن القول أيضا إنها عمياء، إنها تمشي مشية قياسية منظمة على نحو غريب يلفت الانتباه، كما أن حركاتها جميعها، تبدو كأنها متحكم فيها بواسـطة آلية الساعة المنظمـة، أما عندما تعزف الموسـيقى أو تغني فإنها تفعل ذلك من خلال طريقة متكررة منظمة فاقدة للبهجة والروح، تشـبه ما تقوم به الآلة. كما أنها ترقص بالطريقة نفسـها أيضا. لقد اكتشفنا أن أوليمبيا هذه «غريبة» تماما، ونحن ليست لنا علاقة بها، فهي تبدو، بالنسـبة إلينا، مثل مخلوق حي، لكن يظل هناك سبب ما يجعلنا لا نسبر أغواره أو نفهمه جيدا».

أمـا ناثانيل فكظم مشـاعر المرارة التي كادت تسيطر عليه وهو يستمع إلى هذه الكلمات، فتحكم في الجانب الحاد من طباعه، وقال بشكل جاد تماما: «إن أوليمبيا قد تبدو غريبة تماما بالنسبة إليكم - أيها البشر العاديون الباردو المشاعر، أما بالنسبة إلى الذين يمتلكون قلوب الشعراء، فإنها تتجلى وتكشف عن دخيلتها، وهكذا فإن نظرة الحب من عينيها قد انبعثت نحوي أنا وحدي، ثم تدفقت عبر عقلي وحواسي، وفي حب أوليمبيا وحده وجدت ذاتي مرة أخرى. أما بالنسبة إليك فإن ما قامت به عندما ابتعدت عن ثرثرتكم وهذركم الفارغ الذي يمتع ذوي الطبائع السطحية، أمر غير مناسب. إنها لا تقول سوى كلمات قليلة، هذا حقيقي، لكن هذه الكلمات القليلة تبدو أيضا مثل كلمات هيروغليفية مبهمة أصيلة، تنبع من عالم داخلي ممتلئ بالحب والمعرفة العليا النابعة من الحياة الروحية المستغرقة في تأمل الخلود، الذي يكمن وراء هذا العالم، ولكن، وبسبب ذلك كله، لا تفهمون شيئا، ومن ثم تذهب هذه الكلمات كلها هباء».

«ليحرسك الله، يا أخي العزيز» قال سيغموند ذلك برقة، وتقريبا في حالة من الخوف، «لكن ما يبدو لي هو أنك تنطلق في مسار مشؤوم. يمكنك أن تعتمد عليَّ إذن ... لا، لن أقول أكثر من ذلك!». وفجأة بدا سيغموند، البارد، العادي، بالنسبة إلى «ناثانيل» صديقا مخلصا تماما، ومن ثم فإنه أمسك بيده الممتدة إليه وسلم عليه بحرارة.

لقد نسي ناثانيل تماما وجود فتاة تدعى كلارا، كان غارقا في حبها من قبل، كما اختفت صور أمه، ولوثاريو، وغيرهما من ذاكرته، لقد عاش فقط من أجل أوليمبيا، وقد كان يجلس معها كل يوم ساعات طويلة، ويستغرق في تخييلات وتهويمات تتعلق بحبه لها، وكذلك العاطفة التي تظللهما، والعلاقة الروحية الوثيقة التي تجمع بينهما، وقد كانت أوليمبيا تصغي إلى ذلك كله بإخلاص شديد.

ومـــن داخل أعماق طاولـــة الكتابة الخاصة به (المكتب) اســـتخرج ناثانيل كل شـــيء كان قد كتبه من قبـــل: قصائد، وكتابات خيالية، رؤى، وروايات، وحكايات، قصاصات يومية كانت تتزايد يوميّا على نحو عشـــوائي، ســـوناتات ومقطوعات صغيرة وقصائد غنائية، ثم قرأها جميعا لــ أوليمبيا حتى نهايتها، وعبر ســـاعات طويلة، من دون أن ينالـــه التعـــب أو العناء، فهو لم يحظ مـــن قبل، بمثل تلك المســـتمعة العجيبة، فهي لم تكن تحيـــك الملابس أو تغزل الخيوط، ولم تكن تحدق بنظرها إلى خارج النافذة، ولم تكن تطعم عصفورا فـــي قفص، ولم تكن تلعب مع كلب تحمله بين ذراعيها في حضنها، أو مـــع قطة تحبها، كما أنها لـــم تكن تحرك يديها أو أصابعها، في قلق وهي تمســـك بمنديل أو أي شـــيء آخر، وهي لم تجد قط أنه من الضروري أن تكتم تثاؤبا من خلال سعلة مفتعلة؛ باختصار، لقد كانـــت تجلس بلا حراك، في حين أن نظرتهـــا المحدقة مثبتة على عيني محبوبها، وهي ترنو إليه، على نحو مفعم بالحيوية والشغف، بنظرة كانت تشتد، تتزايد شيئا فشيئا، وفقط عندما نهض ناثانيل وقَبَّلَ يدها، ومن دون شـــك، فمها، فإنها قالت «آه، آه»، ثم أضافت: «ليلة سعيدة، يا عزيزي!».

عندما عـــاد ناثانيل إلى غرفته كان مبتهجـــا، ومن ثم صاح: «آه يا ذات الجمـــال الرائع العميق، أنت فقـــط، أنت فقط التي تفهمينني على نحو تام».

ثم إنه شـــملته رجفة بهجة عميقة عندما تأمل ذلك التناغم الرائع الذي يوحد بين طبعه وطبع أوليمبيا، ويجمعهما - على نحو واضح - يومـــا بعد يوم، وقد بدا له أيضا أن ما تقوله أوليمبيا عن إنتاجه الأدبي، وعن موهبته الشـــعرية عموما، إنما يأتي من أعماق وجوده هو ذاتـــه، وأن صوتها، كان فعلا صوت تلك الأعماق نفســـها، وأن ذلـــك لا بد أن يكون هو الأمر في حقيقتـــه؛ وذلك لأن أوليمبيا لم تقل قط سوى تلك الكلمات، التي ذُكرت من قبل، لكن حتى ناثانيل

نفســـه، وفي بعض لحظات الرزانة - عندما يســتيقظ في الصباح مثــلا - كان قادرا على أن يدرك مقدار ما كانت عليه أوليمبيا من ســلبية وصمت، لكنه - على كل حال - كان يقول لنفسه بعد ذلك: «أي معنــى للكلمات؟». إن نظرة خاطفة من عينيها المقدســة تقول مــا يفوق كثيرا ما قد يقوله أي حديث يدور فوق هذه الأرض، وهل يستطيع طفل سماوي علوي أن يكيف نفسه مع تلك الدائرة الضيقة التي تدور بفعل تلك الظروف البائسة المدمرة الخاصة بهذه الأرض الدنيا؟».

وقد كان البروفســور سبالانزاني يبدو مبتهجا تماما بتلك العلاقة التي تطورت بين ابنته وناثانيل، وقد أرسل إشارات كثيرة إلى هذا الأخير، تدل على رضاه عن هذه العلاقة ومشــاعره الطيبة نحوه، ثم إنه عندما تجرأ ناثانيل في النهاية لأن يلمح - بشكل واضح - إلى رغبته في خطبة أوليمبيا، تهلل وجه سبالانزاني كله بابتسامة كبيــرة، وقال إنه يمنح الفرصة كاملة لابنته لتقرر ما تريد. وهكذا فإن ناثانيل، وقد شجعته هذه الكلمات، وحرّكته الرغبة المتأججة فــي قلبه، قرر أن يرجو أوليمبيــا أن تقول له - على نحو واضح، وبــلا تحفظ، وبكلمات بســيطة - خلاصة رأيهــا في ذلك الحب الــذي تكنــه له عندما أخبرته - منذ وقت طويــل - أنها تريد أن تكون له وحــده، وإلى الأبد. ثم إنه بحث عن الخاتم الذي أعطته أمه له عندما غادر البلدة، حتى يســتطيع أن يقدمه إلى أوليمبيا كرمــز لإخلاصه لها، ولفجــر ينبلج ويتعلق بحيــاة جديدة تجمع بينهمــا، وفي أثناء بحثه عن الخاتم، رأى خطابات كلارا ولوثاريو، فألقــى بها جانبا دونما أدنى اهتمام، ثم وجد الخاتم، ووضعه في جيبه، وانطلق يعدو في اتجــاه غرفة أوليمبيا، وعندما صعد إلى السلم ووصل إلى الجانب العلوي المنبسط منه، سمع صوتا غريبا يهــدر في صخــب، وقد بدا ذلك الصوت كأنــه يصدر من مكتب ســبالانزاني، وقد كان هناك ضرب بالأقــدام على الأرض، ولغو

ولغـط، ودفع وضربات مكتومة ناحية الباب، مع أصوات متداخلة تقسـم وتحلف وتسـب وتلعن: «دعك من هذه الفكرة ! دعك من هـذه الفكرة، أيهـا الحقير، أيهـا الوغد! هل هـذا ما خاطرت بحياتـي من أجله؟ ها، ها، ها، ها! هذا ليس ما اتفقنا عليه! لقد صنعت العينين! لقد صنعت الدمية الميكانيكية المنظمة كالسـاعة أيها الأحمق التعس، عليك اللعنة أنت وآلية سـاعتك! أيها الكلب الملعون، صانع السـاعات الملعون، صانع السـاعات، لترحل معك! أيها الشـيطان، توقف، يا مخرج عروض العرائس! أيها الحيوان، توقف، اذهب بعيدا، دعك من هذا».

لقـد كانت تلك الأصوات المرتفعة هكذا والمنهكمة في شـجار، هي أصوات سبالانزاني، ومعه البغيض كوبوليوس، وعندما سيطر خوف مجهول على ناثانيل، اندفع إلى داخل المكتب، وقد كان البروفسـور يمسك بما يشبه امرأة من كتفيها، في حين يمسك الإيطالي كوبولا بها من قدميها، وكانا قد سـيطر عليهما غضـب عارم، يجذبانها ويشـدانها بقوة من أجل أن ينتزعها أحدهما من الآخر، أما ناثانيل فتراجـع إلى الخلف في ذعر عندما تعرف إلـى أوليمبيا في هذا الشـكل الأنثـوي، ثم إنه اندفـع متأججا بغضب جامـح كي ينقذ محبوبته، وفي تلك اللحظة تحول كوبولا نحوه بوجه مخيف، فانتزع الشيء الشبيه بالمرأة من يديّ البروفسور وضربه بها ضربة مروعة، فسـقط إلى الخلف بعنف وفوق المائدة، تلك كانت أشياء مثل بعض الأدوات الكيميائية (المعوجة) والزجاجات والأسطوانات الزجاجية موضوعة عليها، فوقعـت جميعها، كما تحطمت الأواني الزجاجية وتفتتت إلى ألف قطعة، أما كوبولا فوضع الشيء الشبيه بالمرأة على كتفه، ثم، وهو يضحك ضحكة، انطلق يعدو بسـرعة هابطا السلم، حتـى إن قدميّ تلك المرأة اللتين كانتا تتدليان على نحو منفر خلف ظهره، كانتا ترتطمان بذلك السـلم محدثتين جلبة وصوتا خشـبيا مكتوما.

توقــف ناثانيل، وقد جمده الرعب، لقد رأى الأمر بوضوح تام، رأى وجه أوليمبيا الشمعي الشاحب شحوب الموت، وهو يخلو من عينين فيــه، ومــا كان فيه - بدلا منهما - مجرد فجوتين ســوداوين، لقد كانت دمية ميتة!».

أما سبالانزاني فقد كان يتدحرج مترنحا فوق الأرض، وقد أصابت قطع الزجاج المتكســرة رأســه وصدره وذراعيه بجــروح كان الدم يتدفق منها كما لو كان يتدفق من نافورة، لكنه، وبكل ما يمتلك من قوة، استجمع شــتات نفسه وصاح «اتبعه، تعقبه، ماذا تنتظر؟ لقد سرق كوبوليوس مني دميتي الآلية الأوتوماتون الأجمل. لقد كلفتني عشــرين عاما من العمل! لقــد غامرت بحياتي مــن أجلها! وتلك الدواليــب الصغيــرة الميكانيكية فيها، وآلية الكلام، والمشــي، كلها ملكــي، ومن صنيعتي! أما العينان فمســروقتان منك! أيها الحقير الملعون، تعقبه! اســتعد أوليمبيا لي ثانية منه، وهاتان هما ! هاتان هما العينان!».

عند هذه النقطة رأى ناثانيل عينــين ذواتي نقاط دامية بداخلهما ترقدان على الأرض وتحدقان فيه، ثم أمســكهما سبالانزاني بيده غير المجروحة، وقذف بهما نحو ناثانيل، فارتطمتا بصدره.

هنا اجتاح الجنون ناثانيل وأنشب فيه مخالبه القوية الملتهبة فمزقه وهاجــم عقله بعنف فطفق يضحك ويقــول: «ها، ها، ها! دائرة من النار! من النار! در بســرعة! در! من النار! در بسرعة! در! دائرة من النــار! بمرح! ببهجة وجذل! دمية متحركــة ها، بمرح وجذل! دمية متحركة ها، دمية متحركة جميلة، در بسرعة! در!» ومع صيحته تلك قذف بنفسه بقوة فوق البروفسور، وأمسك بحلقه، وأوشك أن يقتله خنقــا لولا أن هذه الجلبة كانت قد جذبت أنظار حشــد من الناس في الخارج، فاندفعوا إلى داخل البيت، وأبعدوا عنه ناثانيل الشديد الغضــب، ومن ثم أنقذوا البروفســور وبدأوا علــى الفور يعالجون جروحــه. أما ســيغموند، صديــق ناثانيل، وعلى الرغــم من قوته

البدنية الواضحة، فإنه لم يستطع أن يكبح جماح صديقه المجنون الذي استمر يصيح بصوت مخيف «در بسرعة، دمية متحركة، درا» Spin, Spin بقبضتي يديه المضمومتين بقوة، هنا وهناك، وأخيرا نجحت تلك القوة المتوحدة لمجموعة من هؤلاء القوم في التغلب عليه وطرحه أرضا وتقييد حركته على نحو محكم، ثم إن الكلمات التي كان يصيح بها قد انحلت وصارت غامضة حتى أصبحت مثل خوار حيوان مخيف، ثم إنهم أخذوا ناثانيل بعد ذلك، ذلك الذي كان واقعا في براثن جنون مخيف متأجج، إلى مصحة للأمراض العقلية.

أيها القارئ العزيز، قبل أن أواصل حديثي فأخبرك بما حاق بعد ذلك بتعس الحظ ناثانيل، يمكنني أن أخبرك كذلك، وعلى افتراض أنك تشاركني اهتمامي، بمصير صانع الآلات والكائنات الآلية المخلقة البارع سبالانزاني، بأنه قد شفي تماما من جروحه، وأنه قد أجبر على مغادرة الجامعة؛ وذلك لأن حكاية ناثانيل قد أحدثت اضطرابا كبيرا هناك، وقد اعتبرها الجميع نوعا من الخداع الذي لا يمكن التسامح معه، والذي جعل دمية خشبية، بدلا شخص حي، تتسلل وتدخل خلسة إلى جلسات الشاي المحترمة التي كانت تعقد هناك (والتي شاركت أوليمبيا فيها بنجاح كبير)، وحتى المتاجرون في القانون قد قالوا أيضا إن تلك الخدعة كانت متقنة، وإن كل ما كان يتضمنه ذلك من خداع يستحق اللوم إنما كان يتم علانية أمام الناس؛ ومن ثم فإنهم قد أدركوا - على نحو بارع - أن أحدا فيما عدا هؤلاء الطلاب شديدي الذكاء قد اكتشف هذا الخداع، هذا مع أن الجميع الآن يتظاهرون بالحكمة، ويزعمون أنهم يتذكرون تلك الأشياء التي كانت تبدو لهم جديرة بالشك، لكنهم لم يُقدموا أيضا، وعلى نحو واضح، أي شيء له قيمة حقيقية يدل على ذلك، فهل كان الأمر جديرا بالشك بالنسبة إلى أي فرد، مثلا، ووفقا لشهادة بعض المتأنقين المعتادين حضور جلسات الشاي تلك، لو كانت أوليمبيا تقوم بالعطس والتثاؤب أكثر

مـــن غيرها؟ لقد أدت أوليمبيا، وهذا ما أكده رجل مهذب متأنق، ذلك الصوت الخاص بآلية الدمية الميكانيكية التي تستعد للعمل، وكانت هناك في الوقت نفســه صرخة طويلة حادة ملحوظة، وما شابه ذلك، أما أستاذ الشــعر والبلاغة فأخذ مقدارا صغيرا من السـعوط بيده، ثم أغلق صندوق السـعوط بقـوة، محدثا صوتا عاليـا، ثم نظف حلقة في رزانة وقال: «يـا رجال الطبقة الراقية ونساءها، ألا ترون أين تكمن المشكلة؟ إن الأمر كله مجرد أليغورة (عظة مجازية)، اسـتعارة طويلة ممتدة! هـل تفهمونني؟ وكونوا عاقلـين وهادئين»، لكـن عقول كثير من هـؤلاء القوم المحترمين المنتمين إلى الطبقة الراقية لم تسـتطع أن تهدأ، فقد ضربت تلك الحكايـة الخاصة بالدمية المخلقة أعمـاق أرواحهم؛ ومن ثم ظل يتسـلل إليهم، خفية، في الحقيقة، نوع من عـدم الثقة الملحوظة في الشـكل الإنساني. ومن أجل أن يصبحوا مقتنعين تماما بأنهم لم يقعوا في حب دمية خشـبية، كان كثير من الشـباب الغارقين فـي الحب يطلبون من محبوباتهم أن يغنين ويرقصن بشـكل أقل من ذلك الشـكل التام المعتاد، وأيضا أنهن خلال قيامهن بالقراءة ينبغـي لهـن أن يقمن برتـق الملابس وحياكتهـا، واللعب مع كلب صغير، وما شـابه ذلك، ولكن، والأكثـر أهمية من ذلك كله، أنهن ينبغي لهن ألا يكتفين فقط بالاسـتماع، بل ينبغي لهن أن يتحدثن أيضا، وبالطريقة التي تشير إلى أن ما يقلنه إنما يدل على تفكير حقيقي، وأيضا على وجود مشـاعر وراء هذا التفكير والكلمات، وفـي ضوء هـذا النظام أصبحت علاقات حـب عديدة أكثر قوة ومتانـة، بينما انحلت علاقات، وروابط أخـرى، وتفككت بهدوء، وقـد كانوا يقولون: «إنك لن تسـتطيع أن تتكهـن بالطريقة التي ستصير إليها الأمور»، ومن أجل مواجهة كل أنواع الشكوك، كانت هناك كمية لا يمكـن تصديقها من عمليات التثاؤب والعطس في حفلات الشاي تلك كلها.

وكما ذكرنا، فإنه كان على سـبالانزاني أن يغادر المدينة كي يتجنب أي تحقيق قانوني معه بسبب الخداع الذي قام به حين أدخل دمية مخلقة إلى المجتمع البشري، كذلك كان على كوبولا أن يغادر أيضا.
أمـا ناثانيل فاسـتيقظ كما لـو كان واقعا في براثـن حلم مهيمن مخيف، وفتح عينيه، وشـعر بإحساس من البهجة، لا يمكن وصفه، يتدفق بداخله، ويصحبه دفء سـماوي علـوي، لقد كان يرقد في سـرير في غرفته ببيت أبيه، وكانـت كلارا تميل فوقه، وكانت أمه ولوثاريو يقفان قريبين منه.
«أخيرا، أخيرا، يا محبوبي ناثانيل، قد شفيت من مرضك المخيف. أنـت لي مرة أخـرى الآن!»، هكذا قالت كلارا مـن أعماق روحها، وأخذت ناثانيل بين ذراعيها. على كل حال، فإن دموعا حارة تدفقت من عينيه، معبرة عن البهجة الصافية، والأسى أيضا، وتنهد بصوت مرتفع وهو يقول «يا كلارتي العزيزة!».
أما سـيغموند، الذي كان قد قاسـى ويلات صديقه وشاركه فيها، فقد جاء إليه، وسلم عليه ناثانيل بيده وقال: «يا أخي المخلص، أنت لم تتخل عني قط».
هكذا تبدد كل أثر للجنون وانقشع، ثم أصبح ناثانيل أكثر قوة في ظل تلك الرعاية الشـاملة التي أحاطته بها، وكذلك أحباؤه وأصدقاؤه. هكذا دخل الحظ السـعيد في ذلك الوقت إلى المنزل، ثم مات خال مسن بخيل له، وترك لأم ناثانيل قدرا معتبرا من المال، إضافة إلى أمـلاك صغيرة في منطقة جميلة ليسـت بعيدة عـن بلدتهم، وقد حدث ذلك في الوقت الذي رغبت الأم فيه، ومعها ناثانيل وكلارا - وقد كانا يرغبان في الـزواج - ومعهم لوثاريو، أن ينتقلوا إلى ذلك المـكان الجديد. لقد أصبح ناثانيل أكثـر رقة وبراءة مما كان عليه من قبل، ثم إنه أدرك - للمرة الأولى - حقيقة ما كانت عليه كلارا مـن طبيعة رائعة وبريئـة. ولم يقم أحد بعد ذلـك بالتلميح - ولو بشكل بعيد تماما - إلى ما قد حدث في الماضي. فقط عندما كان

سـيغموند على وشك الرحيل، حدث أن قال ناثانيل: «في أمان الله يا أخي! لقد كنت أسلك طريقا مخيفا، لكن عندما حان الوقت جاء مـلاك وقادني إلى الطريق الصحيـح! آه، لقد كان ذلك الملاك هو كلارا». ولم يشأ سيغموند أن يدعه يستطرد في هذا الحديث خوفا من أن تُبعَث فيه تلك الذكريات المؤلمة العميقة، من جديد.

هكذا حان الوقت لأن ينتقل هؤلاء الأشـخاص السعداء الأربعة إلى تلك الأملاك الصغيرة التي ورثتها الأم، وقد كانوا يجوسـون خلال شـوارع المدينة في منتصف النهار، وكانوا قد اشتروا أشياء كثيرة، وكان البـرج الطويل الخاص بأحد المباني العامـة في المدينة يلقي بظلال ضخمة فوق منطقة السـوق. وهنا قالت كلارا: «دعنا نصعد ذلـك البرج مرة واحدة فقـط... وننظر من خلالـه عبر الجبال». وبسـرعة فائقة صعد ناثانيـل وكلارا معا البـرج، وذهبت الأم مع خادمـة لها إلى البيـت، أما لوثاريو فلم يرغب فـي صعود كل تلك الدرجات التي تؤدي إلى قمة البرج؛ ومن ثم فإنه فضل أن ينتظرهما أسـفله. هكذا وقف العاشـقان، ذراعا في ذراع، في قاعة العرض (الغاليـري) العليا من البرج، وحدقا نحو الخارج، نحو غابة يتضوع أريجها، ونحو جبال زرقاء تشـرئب مثـل مدينة عملاقة خلف تلك الغابة.

«انظر فقط إلى تلك المجموعة من الشـجيرات الرمادية القصيرة الجميلـة التي تبدو كأنها تتحرك وتتقدم نحونا»، قالت كلارا ذلك، ووضـع ناثانيل يده على نحو آلي في جيبه الجانبي، ووجد بداخله «تليسكوب» كوبولا، وحدق من خلاله، وكانت كلارا تقف أمام العدسة مباشرة، فانتابته رعدة وقشعريرة، وسيطرت عليه، وشاحبا كالموت حدق فـي كلارا، ثم في التو بدأت عيناه تـدوران في محجريهما، وبدوتـا كما لو أن نارا تومض وتختفـي، ثم تتوهج خلفهما، ثم بدأ يزأر على نحو مرعب مثل حيوان أسـير، ثم وثب عاليا في الهواء، في حين كان يضحك بشكل شنيع مرعب، ثم إنه صرخ بصوت حاد:

«حشــوة، دمية متحركة، قصة ملفقة، دمية متحركة، حشوة»، وبقوة كبيرة أمسك بكلارا، وحاول أن يقذف بها من فوق البرج.
ولأنهـا كانت فــي حالة من الخوف القاتل، تشــبثت بــ «درابزين» شرفة البرج، وقد سمع لوثاريو ذلك الهياج الخاص بذلك المجنون، وسمع صرخة كلارا التي تنم عن الخوف، وتدفقت هواجس مخيفة بداخله، فانطلق يعدو صاعدا ســلالم البرج، وقد كان باب المستوى الثاني المنبســط في البرج مغلقا، وتزايــدت صرخات كلارا أعلى فأعلى، ولشعوره بالتشتت الشديد بسبب احتدام الخوف والغضب بداخله، ألقى لوثاريو بنفسه على الباب، فانفتح.
ثم أصبحت صرخات كلارا، شــيئا فشــيئا، أكثر ضعفا: «النجدة، ســاعدوني، ســاعدوني»، ثم تبدد صوتها في الهــواء. أما لوثاريو فصرخ قائلا: «لقد ضاعت، قتلها رجل مجنون»، وقد كان باب قاعة العرض مغلقا أيضا، وقد منحه اليأس قوة فخلع الباب بمفصلاته.
يا إله الســماوات، كانت كلارا. بينما يمســكها ناثانيل الذي يهذي، تتدلى معلقة في الهواء من فوق شــرفة قاعــة العرض، وقد كانت تمسك بالدرابزين الحديدي للشــرفة بيد واحدة، وبسرعة الضوء أمسك لوثاريو أخته بشــدة وجذبها إلى الخلف، وفي الوقت نفسه وجــه لطمة قويــة بقبضته المحكمة إلى وجه ذلــك الرجل المجنون الهائج، فتراجع إلى الوراء بقوة، وترك ضحيته.
ثم انطلق لوثاريو نازلا درجــات البرج، وكانت أخته الفاقدة للوعي بين ذراعيه، لقد أُنقذت، أما ناثانيل فكان يدور داخل قاعة العرض، يهذي ويثب عاليا في الهواء، ثم يصرخ: «قصة ملفقة حشوة، دائرة من النار، قصة ملفقة، حشوة، دائرة من النار!».
وقد هرع الناس وجاءوا عندما ســمعوا تلك الصرخات الوحشــية وتجمعوا أسفل البرج، ومن بينهم برز - على نحو عملاق - المحامي كوبوليوس، الذي كان قد وصل توا إلى المدينة وتوجه مباشــرة إلى منطقة السوق. وقد أراد بعض الناس أن يدخل البرج ويسيطر على

ذلـــك الرجل المجنـــون، لكن كوبوليوس ضحك وقـــال : «لا تزعجوا أنفسكم، إنه ســـوف ينزل بنفسه فورا»، ثم حدق والجميع معه إلى أعلـــى. أما ناثانيل فتوقـــف فجأة كأنما قد تجمد فـــي مكانه، ثم انحنى إلى أســـفل ومال، وتعرف على كوبوليوس، ثم بصرخة عالية شـــقت الفضاء قال: «ها! عيون جميلة! عيون جميلة!»، ثم قفز من فوق الشرفة إلى الأرض.

وبينمـــا كان ناثانيل يرقد على أرضية الشـــارع الممهدة وقد تحطم رأسه، اختفى كوبوليوس بين الحشود.

بعد ذلك بعدة ســـنوات، كان يمكنك أن ترى كلارا، في مكان قصي من الريف، تجلس مع رجل شـــغوف محب لها، يدها في يده، أمام باب ذلك البيـــت الريفي الجميل، وهناك طفـــلان جميلان يلعبان عنـــد قدميها، ومن ذلك المشـــهد كان يمكنك أن تســـتنتج أن كلارا قد وجدت - في النهاية - تلك الســـعادة المنزلية الهادئة التي كانت ملائمة تماما لطبعها المرح المبتهج المميز، تلك السعادة التي لم يكن ناثانيل - ذلك الذي كان مستغرقا في هذيانه الداخلي - ليقدر أنه يمنحها، أبدا، سعادة مثلها.



9

رؤى نقدية متعددة

«ومن انفرد وطال مقامه في البلاد والخلاء، والبعد من الإنس - استوحش - لاسيما مع قلة الأشغال والمذاكرين... والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع، وقد عاينوه أو صوره لهم واصف صدوق اللسان، بليغ في الوصف، ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا صادق»

(الجاحظ، متحدثا عن الجان والأشباح، كتاب الحيوان) [1]

نستعرض، فيما يلي، أهم الدراسات النقدية الحديثة التي أعادت النظر والفحص للأفكار الأساسية التي جاءت في مقال فرويد نفسه، وكذلك في قصة هوفمان التي قام على أساسها ذلك المقال، والتي قدمنا ترجمة كاملة لها في هذا الكتاب.

وقد كتب هذه الدراسات النقدية كل من:

1 - ديفيد إيلسون: أستاذ الأدب الفرنسي والأدب المقارن، ورئيس قسم اللغات الأجنبية بجامعة ميامي، فلوريدا، الولايات المتحدة الأمريكية، ومؤلف كتب كثيرة عن بروست، وألبير كامي، والكلمات، والعالم، وغيرها. وقد كتب كثيرا حول هذا الموضوع في كتابه: الأخلاقيات والجماليات: من الجليل إلى الغريب (2001) [2].

2 - هيلين سيكسو (1937 - ...): كاتبة مسرحية، وشاعرة، وفيلسوفة فرنسية، وناقدة أدبية مشهورة، وقد كتبت هنا دراسة بعنوان: «السرد المتخيل وأشباحه: قراءة في مقال فرويد حول الغرابة» (3).

3 - سارة كوفمان (1934 - 1994): ناقدة وفيلسوفة فرنسية، من تلميذات دريدا. لها كتابات مهمة حول ينتش، وفرويد، وكانط، وروسو، وغيرهم. وقد انتحرت في العام 1994، ودراستها هنا بعنوان: «القرين هو/ والشيطان، غرابة رجل الرمال» (4).

4 - ليز مولر: محاضرة في قسم الأدب المقارن بجامعة كوبنهاغن، لها بضعة كتب مهمة، منها كتابها «نظرية فرويد في الأدب»، ودراستها التي اعتمدنا عليها هنا بعنوان: «رجل الرمال: الغرابة كمشكلة من مشكلات القراءة» (5).

5 - نيل هيرتز: أستاذ متفرغ بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة جون هوبكنز بالولايات المتحدة الأمريكية، مهتم بأشكال الجليل في الأدب، وكذلك بتاريخ التصوير الفوتوغرافي، ودراسته هنا عنوانها هو: «فرويد ورجل الرمال» (6).

أولا: ذلك الواقع الذي يحاكي الخيال

يرى إليسون أوجه تشابه كثيرة بين ناثانيل، الشاعر، وبين أوليمبيا الدمية المخلّقة، فيقول، «ليست فقط حياة ناثانيل، وجسد أوليمبيا الآلي، هما ما قد تم تكوينهما وبناؤهما حول مشكلات الحضور والغياب للعينين، وكذلك الموضوع المتكرر الرئيسي الخاص بالرؤية عموما، لكن أيضا هناك ذلك المشهد المسخي الغروتسكي الخاص بفصل وإعادة تنظيم أطراف ناثانيل عندما كان صغيرا واكتشفه كوبوليوس في مكمنه، الذي يرهص ويتنبأ بمصير أوليمبيا وقدرها المحتوم التالي في القسم الأخير من القصة، خاصة عندما انتهى الصراع والعراك بين سبالانزاني وناثانيل حولها في النهاية بتمزيقها أو بتحويلها أوصالا مفككة متقطعة لا يمكن تنظيمها أو تجميعها في كل أو كلية مرة أخرى.

هكــذا فإن ناثانيل، الذي أعجب بأوليمبيــا، واعتقد أنه يحبها، والذي جعلها موضوعا لانفعاله الخادع، هو أيضا يشــبهها كثيرا. إن التشابه بين الشاعر الشاب والأوتوماتون (الكائن المخلق الآلي) ربما كان أحد التأثيرات الغريبة التي توحي بها هذه القصة.

ويفرد إليسون جانبا مهمّا من بحثه - حول الغرابة وفرويد - لموضوع القريــن والعينــين، فهو يــرى أن العينين، في قصة هوفمــان، هي مبدأ الحياة، لكنها أيضا مبدأ الحياة الاصطناعية، فالبطل يخلق - نرجســيّا - مخلوقاته من خلال عينيه، لا يتكاثر بأعضائه، وهو يجعل كلارا غريبة عنــه، ويفك ارتباطه بها عــن طريق قراءة قصائده لهــا. كلارا العاقلة، الواضحة، الواقعيــة، لا تتناغم مع مخلوقات ناثانيــل وأعماله الخيالية التي يتفق معها أكثر قرينه الصامت، مرآته، موضوع إسقاطاته أوليمبيا، الأوتوما، الآلية، المخلقة.

إن ناثانيــل يخلق هنا من خــلال المحاكاة، يتكاثر مــن خلال المحاكاة والازدواج والحياة المزدوجة، القرين، المثل، الشبه، الذي لا يكون بالضرورة صورة مرآوية حرفية له، بل تعبير مجازي خيالي مجسد لمخاوفه وأحلامه، مــن خلال قوة التمثيل للرؤية، الانقســام والازدواج الذي ينتمي إلى المرايا والظلال وغريزة الموت، فالعين هنا مصدر شــيطاني للحياة، قوة شيطانية خاصة بالازدواج. وعلى عكس ما قاله فرويد، يقول هوفمان في هذه القصة إن ناثانيل إذا فقد عينيه سيستعيد نشاطه الجنسي، لا أن يفقده، سيصبح واقعيّــا، لا خياليّا. وليس رجل الرمال هنــا بديل الأب القادر على العقاب والإخصــاء - كما نظر إليــه فرويد - بل إنه قرين خيالي شــيطاني يتيح الفرصة للاطلاع على الأسرار، والكشف عن الخفي والمخبوء والخيالي.

إن القريــن ليــس حيّا وليس ميتــا، لقد صمم، وأنتج مــن أجل أن يكمل الحياة، كي يكمل الحي، كي يجعله خالدا، وهو أيضا النذير بالموت. كما أشار إلى ذلك فرويد ورانك من قبله. إنه يخفي، من خلال كماله واكتماله، الحضور الخاص للموت، من خلال خلقه لما يرجو أن يكون الأقران الخالدة المجسدة له، الأشــباه الخالدة التي يحاول الإنسان أن يهرب من خلالها من الحقيقة التي فحواها أن الموت موجود فعلا - من قبل - في الحياة، وأن إحســاس الغرابة الخاص بالقرين إنما ينشــأ عن كونه لا يســتطيع إلا أن يستثير أو يستحضر معه تلك الحقيقة التي يحاول الإنسان - بلا جدوى - أن ينساها: الموت.

لقد كان هوفمان يعرف أن الغرابة هي منطقة خاصة بالموت، أي بما لا يمكن الإحاطة به أو احتواؤه، بالموت المتكرر، وهي تلك المنطقة التي دخلها فرويد في العام 1919، بعد سكرة الموت الطويلة الخاصة بالحرب العالمية الأولى، لكنها أيضا المنطقة التي دخلها ينتش قبله أيضا، ودخلها فلاسفة ومحللون نفسيون، ثم دخلها فرويد كي يكتشف وجودها في الخيال الأدبي الرومانتيكي المكتوب قبل عصره بمائة عام، كما ذكرنا ذلك في مواضع كثيرة سابقة في هذا الكتاب.

إن ترددات فرويد المتعددة، تأرجحاته، تعريفاته، وإعادة تعريفاته، خطابه المزدوج، المتناقض وجدانيًا ومعرفيًا، حذره، وعدوانيته، كلها دلائل - كما يشير إليسون - على حيرته المعرفية، عدم تأكده الناتج من انقساماته الداخلية كمحلل فيما يتعلق بموضوع مراوغ، ويهرب دوما من التحديد، مثل الغرابة، مما يعكس كذلك ذلك النمط المتلفظ به تحت تلك البنية الواضحة أو الصريحة، بنية السطح التي في حكاية هوفمان الغريبة.

هكذا يحاكي مقال فرويد قصة هوفمان الطويلة، وهكذا مَثَّل ذلك المقال نوعا من التردد والشك والالتباس بين السيطرة العقلية على الأحداث والتشظي أو التفكك غير القابل للتحكم فيه بداخلها، وربما كان ذلك راجعا - في المقام الأول - إلى أنه كان يرى نفسه داخل القصة، وأنه لم يستطع أن يبعد أو يستبعد نفسه عن ذلك السرد المنطقي الذي كان هوفمان يقدمه، أو عن نفوذه الساحر الذي هيمن من خلاله على أحد كبار مفكري القرن العشرين بواسطة شخصيات خيالية تنتمي إلى قرن قبله. لقد سيطر نص هوفمان على فرويد وتلبسه، هيمن عليه، انتابه، تكرر ظهوره لديه، حضر على الرغم من غيابه، في حين غاب فرويد على الرغم من حضوره، ومن ثم كان كل ما استطاعه فرويد هو أن يعيد ويكرر، لا أن يُغيِّر فعلا ويُجدِّد. ومثلما كرر بعض أفكار ينتش على الرغم من نبرة التعالي التي أشار من خلالها إليه، فإنه كرر أيضا كثيرا من أفكار هوفمان وثيماته كأمثلة دالة على الغرابة - كما يراها هو - في حين أنها كانت في الواقع الأمثلة الخاصة بهوفمان، وقد جاءت إليه كأشباح، انتابت عقله، وسكنت مقاله.

وأقرب الشخصيات إلى فرويد داخل القصة - فيما يرى إليسون - هي شخصية كلارا، ذات التفكير المنطقي الواضح، إنها تبدو كأنها ترهص بمجيء فرويد، الأب الحقيقي للتحليل النفسي، إنها تتحدث إلى محبوبها،

ناثانيل، بأسلوب تحليلي نفسي لا يمكن تجاهله، لقد كانت تتحدث عن الغرابة أيضا قبل أن يتحدث عنها فرويد بمائة عام تقريبا، إنها تطمئن ناثانيل فيما يتعلق بمخاوفه من كوبوليوس، ويقوم تحليلها لحالته على أساس تمييز واضح، ومؤكد لديها، بين «الداخل» الخاص بعقل ناثانيل الميال إلى الاكتئاب والمولد للأفكار بعضها من بعض، وبين الواقع «الخارجي»؛ ومن ثم فإنه - في رأيها - يمكنه أن يجد العزاء والسلوان من أحزانه، ويُشفى من أخيلته المخيفة لو استطاع أن يعرف أن مخاوفه - تلك - مجرد مخاوف متخيلة، وأن يعرف أن ما رآه - عندما اختبأ في غرفة أبيه - ليس له أي أساس من الواقع، لكنه كان نتيجة لإسقاطاته المتخيلة.

هنا سعى نحو الحقيقة، لكن هذا الدافع الغلاب الغريب قد ترتب عليه أيضا دمار العائلة والبيت. ويفترض أن كلارا ووالدة ناثانيل هما من حملا على عاتقيهما مهمة حماية المنزل الذي دمره الوالد، ومعه ناثانيل وكوبوليوس، وغيرهما من الرجال، أمثال كوبولا وسبالانزاني، والذين تشابكت جهودهم معا وتراكمت معه فأنتجت بدعة، دمية غير حقيقية، لا هي حية ولا ميتة، نوعا من الخداع الذي تمثله أوليمبيا، أوتوماتون لا تحتوي على أي تشابه حقيقي مع أي امرأة حقيقية، يتجاوز تشابه تلك المواد الوامضة المشعة التي كانت في مدفأة والد ناثانيل مع الذهب الحقيقي.

وإنه حتى بعد تقطيع أوصالها، وإبعادها وطردها، ظلت أوليمبيا حية، بقيت شبحا بين الأحياء، عقبة في طريق الوصول إلى نهاية مقنعة للاستدلال الأخلاقي والمنطق. إن تمزيق أوصالها لا يعني نهايتها أو موتها؛ لأنها لم تكن أصلا حية حتى تموت، بل لقد فُكِّكَت؛ ومن ثم قد تمكن إعادتها من جديد، وهي قد عادت من خلال أعمال فنية أخرى فعلا، في المسرح مثلا. هكذا - كما يشير إليسون - لا يمكن للكائنات الآلية أن تموت، فالموت الموجود وراءها، لا يموت، بل يعاد تكوينه بوصفه نوعا من التكرار الجحيمي/المتجدد، والذي يكون في العادة، غريبا.

يقول ديفيد إليسون أيضا: إنه عندما ننظر من قرب إلى قصة هوفمان، ودراسة فرويد عنها، سوف نجد نوعا من التشابه الغريب بينهما، عند ذلك المستوى الذي يمكن تسميته بالدافعية اللاشعورية الكامنة خلف أو وراء الحوار القهري الخاص بمشكلة «التأطير» Framing والإغلاق السردي لدى الكاتبين، كما أنهما معا، يحاولان جاهدين - باستماتة - وضع

الغرابة والإحاطة بها داخل بنية منطقية، ففي حالة فرويد، مثلا، هناك مجهوداته المستميتة، للتمييز بين الأشكال الممكنة المختلفة من الغرابة في الفن والحياة، ولكن تصنيفنا لظاهرة كالغرابة، على نحو محدد، قد يعمل على إبطال الجانب الخاص بالقوة الهائمة غير المستقرة الخاصة بها، والمميزة لها.

وهكذا فإن الغرابة هي قوة هائمة، تتجاوز الحدود، لا تسكن في بيت واحد يؤديها؛ بل تخرج من بيت إلى آخر، ومن إطار إلى آخر، من مجال إلى آخر، من الفن إلى الحياة، ومن الحياة إلى الفن، ثم الأدب، ثم العلم، ثم تعود مرة أخرى إلى أحد بيوتها السابقة، كأنها ترفض التأطير والأسر، وكأنها لا تستطيع أن تجد ذاتها إلا في اغترابها؛ لأن استقرارها يعني موتها، لأنها لو استقرت لم تعد بعد غريبة، هنا تحولت كلارا في قصة هوفمان من الوقوع تحت أسر مشاعر الغرابة التي كانت تنتابها وهي تفكر في ناثانيل وتتعلق به، ولا تستطيع أن ترتبط به، لكنها لا تصبح غريبة بالنسبة إليه؛ بل أليفة ومألوفة معه وله، تحولت إلى أليفة مع زوج آخر، أليفة لشخص آخر، ولم يمكن هذا ممكنا إلا بغرابة وغربة لحقتا بناثانيل، غربة الموت والبعد، غربة قد يتحول معها شخصه إلى شبح، ينتابها في ليلها وأحلامها، لكنه - حتى نهاية القصة - كان شبحا غائبا، غير موجود حتى الآن - على الأقل. بالنسبة إليها، في صمتها، وهناءتها الظاهرة.

والخلاصة التي ننتهي إليها من دراسة إليسون على قراءة فرويد لقصة «رجل الرمال»، هي:

1 - إنها قراءة للقراءة، أي قراءة لما توصل إليه فرويد من قراءته لقصة هوفمان تلك، إضافة إلى أنها أيضا قراءة للقصة، ولكن من منظور جديد أثارته القراءة الأولى التي قام بها فرويد.

2 - خلال دراسته هذه ينتهي إليسون إلى القول إن ناثانيل الشاعر، الشخصية المحورية في القصة، هو أشبه بأوليمبيا الفتاة الدمية المخلَّقة، الجميلة التي تفتقر إلى الروح، وإنه يبدو مثلها كأنه يقوم بفعل جميل، في حين يفتقر ما يقوم به في واقع الأمر إلى الروح، وإنه يُسقط أفكاره وانفعالاته ورؤاه المفككة عليها، كما أنه يعيش من

خلالها الحياة المزدوجة للقرين، للشخص الذي يكون ظاهره غيـــر باطنه، الذي يكون ما يقوله غير ذلك الذي يفعله. كما أن فرويد نفسه في دراسته حول هذه القصة قد فعل الأمر نفسه أيضا.

3 - إن مقـــال فرويد نفســـه يحاكي قصـــة هوفمان، بما فيها من تردد وشـــك والتباس وتفكك وتداخل بين مستويات السرد، لكنه أيضا مثل شـــخصية كلارا، العقلانية الواضحة المنطقية، فهو يحاول أن يفـــرض طبيعته المنطقية على نص، ليس بطبيعته كذلك، ومن ثم كانت قراءته لهذه القصة تفتقر إلى الروح.

ثانيا: الغرابة وأشباح السرد

في دراســـتها التي كرستها لقراءة قصة رجل الرمال، لتيودور هوفمان، وكذلك قراءة فرويد لها، تقول هيلين سيكسو: «هناك شيء (بري) متوحش في الغرابة، إنه جو متأجج، قد يجعل الروائي بلا حماية أو أســـلحة يدافع بها عن نفسه، إنه يهيمن عليه ويحاصره».

والغرابة في رأي سيكســـو هي مركب أو مزيج يتدفق ويعمل على تكاثر الصدوع داخل السرد، ويشير إلى تلك الفجوات التي نحتاج إلى تفسيرها، فلا شيء أكثر مراوغة أو مخاتلة من البحث عنها، من ذلك السعي وراءها، والذي تشـــكل حركتـــه تلك المتاهة التي تحرض على القيام بهذا الســـعي، وتدفعه، إنه ذلك الإحساس بالغربة أو الغرابة الذي يفرض سره الضروري في كل مكان. وينجز ذلك بعض الاكتشافات، من خلال ذلك القرين الخاص بالمؤلف؛ ألا وهو التردد Hesitation، فنحن نواجَه هنا - إذن - بنص معين، بالنص ومعه الظل المتعلق بتردد مؤلفه وتأرجحه، ومعهما قرينهما الدال على المغامرة أو الطيش، وهنا تقترب سيكسو كثيرا من مفهوم تودوروف للغرابة كما عرضناه في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

إنهـــا تقول إن ما يتكشـــف حتمـــا داخل النص أمام عينـــي القارئ هو نوع من «مســـرح العرائس»، فيه تُقَدَّم الدمى الحقيقية أو الزائفة، والحياة الحقيقيـــة، وكذلك الحياة التي تحاكَى، من خلال معدّ مســـرحي (أو قائم بالإعداد) مهيمن على عمله، لكنه أيضا صاحب نزوات وتقلبات.

ليست هناك بؤرة محددة للغرابة، كما ترى سيكسو ليست هناك نواة محددة للغرابة، الغرابة موجودة دائما على الأطراف الخاصة بشيء ما، وقد ربطها فرويد بمفاهيم أخرى تتماثل معه (المخيف، المرعب، المغلق، المعذب، الغريب)، أو فرد داخل عائلة، لكنه في واقع الأمر ليس عضوا في هذه العائلة، إنه غريب على العائلة، وعن العائلة، وفي العائلة. وترى سيكسو كذلك أن هناك خصائص أدبية عدة في مقال فرويد موضع الاهتمام تجعله أقرب إلى القص السردي منه إلى المقال العلمي، ومنها: ذلك الاشتغال والدأب الطويل المتعلق بالمشاعر والانفعالات الشخصية، وذلك التوزيع وإعادة التوزيع الدرامي للأحداث في ضوء وجهات عدة من النظر، وذلك التشويق، وتلك المفاجآت والمآزق، وهذه كلها خصائص تعمل بشكل سردي، وقد اتخذ المؤلف - فرويد - خلالها صفة السارد للأحداث، تلك الخاصية لا يستطيع المحلل أن يتخذها.

وتتفق هيلين سيكسو مع كثير من الباحثين في أن فرويد قد حول قصة رجل الرمال في الاتجاه الخطي المنطقي المباشر فيما يتعلق بالتأويل لحالة ناثانيل، ونظر إلى هذه القصة كأنها نوع من دراسات الحالات المرضية، كما يحدث في العيادات النفسية، حيث تبدأ روايته لها من ذكريات الطفولة الخاصة بناثانيل إلى حالة الهتر والخبل التي أصابته، ثم تجيء نهايته المأساوية بعد ذلك. هكذا تدخل فرويد في القصة مرات عدة: فمرة يحاول أن يجعل غير المنطقي والخيالي منطقيًا وعقلانيًا (أي تحويل الغريب إلى مألوف)، ومرة يحاول أن يقيم علاقات وروابط واضحة لتأويل أحداث معينة، في حين لا تكون تلك العلاقات موجودة في ذاتها داخل النص.

كذلك أخفى فرويد - على نحو واضح - ما كان يتأجج في نسيج النص من توترات وشكوك؛ بأن حذف منه واقتطع - على نحو ما - تلك الانقطاعات الموجودة في العرض، وكذلك هذا السرد الخاص داخل النص، وفعل الأمر نفسه فيما يتعلق بالتتابع وتعاقب الساردين ووجهات النظر. وقد أدت هذه التدخلات - من جانب فرويد - إلى إقامة نوع من التعارض والمواجهة بين ناثانيل ورجل الرمال، وهي مواجهة موجودة ومتكررة في القصة، لكنها، هنا لدى فرويد، أقل إثارة للدهشة من حالتها داخل النص الذي كتبه هوفمان.

وترى سيكسو - كذلك - أن الأداء الصامت أو البانتومايم، الموجود على نحو مثير للاهتمام في قصة هوفمان، هو ذاته - كما تشير كوفمان - العنصر الذي يفسر ذلك السحر الموجود في هذا العمل الإبداعي، هذا البوح

عبر التأويل من خلال الرسائل، وصولا إلى المشهد الملحمي، هذا الاستدخال البالغ للشـخصيات والذوات والازدواج أو المضاعفة للواقع العادي من خلال واقع غير عادي (مما يجعل غير ممكن قراءة القصة على أنها تنتمي إلى أحد العالمـين: الواقعي والخيالي، حصريًا، دون الآخـر). وهذا البانتومايم، الذي يجعل القـارئ يتراوح ويتردد بين عالمي الواقع والخيال، هو ما رفضه فرويد أو استبعده. لقد كان يستبعد دوما كل ما يشير إلى الشك أو فقدان اليقين.

لقد خلق السرد الخيالي، هنا، أنواعا جديدة من الغرابة، وهذا السرد الخيالي ذاته هو الشـيء الغريب نفسـه، ولو كان لامرئ أن يعتبر الغرابة مثل شوكة يمكن أن توجَّه، كي تشير مرة ناحية الغرابة، ومرة ناحية القلق، فإن هذا المرء سـيمكنه أن يرى - عند الطرف الأبعد من الغرابة - سـردا خياليا يشـير إلى المجهول، عند الخبرة القصوى، بين كل جديد، ونوعا من المشاركة والعلاقة مع الموت.

هكذا يكون السـرد الخيالي، بوصفه رصيدا أو مخزونا للمكبوت، هو الذي يقاوم أكثر من غيره التحليل، ومن خلال ذلك يجتذبه. ووحده الكاتب هو الذي «يعرف»، ولديه الحرية أيضا لأن يحرض الغرابة ويسـتثيرها، أو يخفيهـا ويقمعهـا. بمعنى آخر، فإن الكاتب وحده هـو الذي لديه الحرية لأن يكشـف الغطاء عن المكبوت، أو يقوم بمزيـد من الكبت له، ولكن هذه «الحريـة» هي أيضا التي تتحـدى التحليل؛ وذلـك لأن دروبها الخفية أو السـرية التي ينبغي أن تظل «مكبوتة» غيـر متاحة إلا لصاحبها، بوصفها نوعا آخر من الغرابة، تشبه كل ما ينبغي أن يظل سريا وخفيا، وما يحاول الناقد أن يفعله هو أن يكشف الغطاء عن بعض محتويات ذلك الخفي، ألا يجعلهـا غريبة؛ بل مألوفة، وآمنة، ومؤكـدة، وقد تكون هذه المحاولة ذاتها غريبة؛ لأنها قد تكشـف ما هو مخبوء، ليس داخل عقل المؤلف ووجدانه، وضد أسراره وغرائبه؛ بل ما هو موجود داخل عقل الناقد وصندوق أسراره أيضـا، ولأن كل نص يتعامل مع الغرابة هو نص خفي، وكل نص يتعامل مع الغرابـة هو أيضا نص يتعامل مع الغياب ومع الموت، ونص يعود دوما، كما أنه يكرر ظهوره وغيابه.

هكذا يمكننا القول - كما تشير سيكسو - إن الغرابة وقرينها (السرد الخيالي) لا يختفيان أبدا على نحو كامل، فالغرابة تعيد «العرض» والتقديم والتمثيل لنفسها، إنها التي لن تقدم نفسها - إليك - في الوحدة والصمت والظلمة، هنا يكون السرد

ليس نتاجا خياليا محضا، ولا واقعيّا صرفا، بل حالة تقع في منزلة بين المنزلتين الخاصتين بالواقع الخيالي، هو «إخفاء للموت، توقع لحالة انتفاء التمثيل، دمية، جسد مهجن يتكون من اللغة والصمت، بحيث إنه، وخلال تلك الحركة التي تحوله، والتي تتحول من خلاله، يبتكر البدائل، وكذلك الموت».

هكذا يمكننا تلخيص ما عرضناه سابقا من رأي هيلين سيكسو حول موضوع الغرابة، وحول دراسة فرويد حولها فيما يلي:

1 - إنها اتفقت مع كثير من الباحثين الذين رأوا أن فرويد قد حاول - من خلال دراسته - أن يفرض نوعا من التأويل المنطقي العقلاني الواضح على حقبة هوفمان، وأنه تجاهل كثيرا من الجوانب الموجودة بداخلها، والتي تفتقر إلى المنطق أو العقل أو الوضوح.

2 - إن المهم في تفسير القصة ليس الجانب الواقعي منها فقط، ولا الجانب الخيالي فقط؛ بل ذلك التردد والتأرجح والالتباس والغموض الموجود بينهما.

3 - إنه ليست هناك نواة أو بؤرة محددة للغرابة، وإن الغرابة موجودة على الأطراف الخاصة بشيء ما، وإنها أشبه بالغريب داخل العائلة وعنها.

4 - إن طبيعة السرد الخاص بهذه القصة ربما أكثر أهمية من موضوعها.

ثالثا: القرين والشيطان والغرابة

وفقا لما تقوله سارة كوفمان في دراستها عن «القرين والشيطان» فإن فرويد في دراسته حول «الغرابة» قد استخدم ثنائية خاصة فيما يتعلق بمستوى المنهج، حيث استخدم التحليل اللغوي فيما يتعلق بأصل الفكرة العامة للغرابة، ثم إنه قام - ثانيا - بتحليل الخصائص والأشياء والانطباعات والخبرات والمواقف التي تعمل على ظهور «الغرابة» ذاتها، وقد حاول فرويد هنا أن يصل إلى نوع من الوحدة الخاصة التي تجمع بين هذين النوعين من التحليل بخدعة ماهرة. أما في القسم الثاني فقد أجاب فرويد خلاله عن عدد من الاعتراضات التي قد تستثار في مواجهة هذه الوحدة المدعاة بين منهجي الدراسة الخاصة به أو تدمرها.

في دراســتها، هذه، حول «رجل الرمال»، تقول ســارة كوفمان إن هذه الحكاية التي كتبها هوفمان حكاية مركبة؛ فهي تبدأ بالرسائل التي يتبادلها ناثانيل ولوثاريو وكلارا، حيث لم يوجه فرويد إلا النزر اليسير من الاهتمام لشــخصيتي لوثاريو وكلارا، كما تســتمر القصة من خلال خطاب مباشر يتوجه من خلاله المؤلف إلى القارئ، ثم تتكشــف القصة في النهاية وتنحل عقدتها بواسطة أكثر أعراف السرد تقليدية - وربما ابتذالا.

إن وجــود شــخصيات عدة في القصة لها وجهــات نظر مختلفة حول حكاية ناثانيل التي يرويها حول نفســه، وهي وجهات من النظر، أحيانا ما تكون متناقضة، وأحيانا ســاخرة، تســهم كلها في إطالة أمد هذه الحيرة المعرفيــة حتى نصل إلى نقطة النهاية الخاصــة بالقصة، وهكذا فإنه إذا كان منظــور كلارا - خطيبــة ناثانيل، كما يوحي بذلك اســمها - منظورا «واضحا»، بســيطا، واقعيّا، وإذا كانت وجهة نظرها وجهة يشــاركها فيها أخوهــا لوثاريو، أيضا، وكذلك بقية الأفــراد المحيطين بها، إذا كانت هذه الوجهة من النظر وجهة تتم عن فهم وإدراك عميقين، يتعارضان مع منظور ناثانيل، ذلك الحالم، الرؤيوي، المجنون، الذي يخلط بين الأحداث المتخيلة والواقعيــة، والذي يرى «القرين»؛ إذا كان الأمــر كذلك، فإن منظور كلارا هذا لم يوضع داخل القصة بوصفه منظورا يشــمل الحقيقة كلها، ومن ثم فإن القارئ لم يستطع إلا أن يتوحد معها أكثر من توحده مع ناثانيل.

ففــي تلخيصه للقصة قال فرويد إن كلارا - ومعها ناثانيل - ومن فوق قمة البرج الذي صعدا إليه أو تســلقاه، قد رأيا شــيئا غريبا يتحرك عبر الشــارع. وقد فحص ناثانيل ذلك الشيء مســتخدما منظار كوبولا المكبِّر للأشياء، وعندما ظنَّ أنه كوبوليوس وهو يمشي في الشارع، انتابته نوبة من الجنــون. هذا ما يقوله فرويــد، في حين أن الموجود في قصة هوفمان هو مجرد وصف لاقتراب شكل غير مميز من ذلك المكان الذي كان يوجد فيه ناثانيل وكلارا، وقد كان ذلك شيئا غامضا، على نحو كافٍ لإثارة تخييلات أي إنسان، وكافٍ أيضا لإسقاط هذه التخييلات عليه.

لقد كان الاستخدام لهذا التليسكوب هو الذي أثار جنونه، أكثر من ذلك المظهــر - أو الظهور - الخاص بكوبولا، فمن خلال ذلك المنظار، بدا وجه كلارا، خطيبته التي اعتقد أنه لا بد أن يتزوجها في النهاية، بدا له وجهها مرعبا، كأنــه رأس ميدوزا حقيقي، كما تخيله في قصيدته. ولعل هذا هو

السـبب الذي جعله يحاول رميها من فوق البرج. فذلك المنظار أمسـك به ناثانيل، «ومن خلاله حدق، وكانت كلارا تقف أمام العدسة، فانتابته رعدة وقشعريرة وسيطرت عليه، وشاحبا كالموت حدق في كلارا».

وكمـا جاء في نهاية القصيدة التـي كان ناثانيل يكتبها، فإنه حدق في عينـي كلارا، لكنه وجد الموت يحدق فيه بهـدوء من خلالهما، فمن خلال المنظار المكبر تصبح رؤية الإنسان للواقع رؤية محرفة، مشوهة فقط.

وحيـث إن الكاتب يسـتخدم شـخصيات متعددة لكل منهـا منظارها، منظورها في وجهة نظرهـا، رؤيتها الخاصة، فإن هذه الرؤية للواقع غالبا مـا تكون كذلك محرفة، على نحو ما، وقـد كان كوبولا يطلق على عويناته التي يبيعها «العيون المبهجة» أو الجميلة، حيث لا ترى عين ما الحقيقة أكثر مـن الأخرى، وحتى مع أن منظورا ما قد يكون أكثر جدارة من غيره بنهاية سـعيدة (زواج سعيد مثلا، كما حدث بالنسبة إلى كلارا) فإنه ليست هناك عين أو منظور أو وجهة نظر أكثر حقيقة مما عداها من الوجهات الأخرى.

ولعـل ما يبدو مثيرا للاهتمام وغريبا في نص هوفمان - تقول سـارة كوفمان - هو أنه لا توجد حالة من الجنون في جانب منه، وحالة من العقل في الجانب الآخر، بل إن ما يوجد هنا، هو حدودهما الخاصة غير المحددة على نحو واضح، حيث يصبح كل منهما مادة وموضوعا لمنظور خاص.

إن هذا التضبيب للحدود وجعلها مبهمة، تلك الحدود التي بين السوي والمَرَضي، المتخيـل والواقعي، هو ما يضع «رجل الرمال» بين تلك الأعمال التي تنتج الغرابـة من النوع الأول (الغرابة الخيالية) أكثر من النوع الثاني (الغرابـة الحياتية)، لكن حب الجدال كان هو مـا منع فرويد من التعرف علـى ذلك أو الاعتراف به، فعندما واجه حالة عدم التحديد التي في نص هوفمـان، فإنه اختار وجهـة نظر ناثانيل، ولا يعني ذلـك بالطبع أن رؤى ناثانيل ليست من نتاج «الخيال» أيضا.

وربما كان ذلـك التحول الخاص بالهوامش والحـدود، هو الذي يبدو - بالنسـبة إلى هوفمان - الوظيفة الجوهرية للأدب، حيث ينطوي التميز الخـاص للكاتب هنـا على ضرورة ألا يحاكي الواقع الموجود سـلفا أو من قبل، بل أن يمثل الواقع من خلال تعدد أو كثرة من المناظير المكبرة المحرفة للرؤية، وحيث يكون كل منظار، أو وجهة نظر منها، عنصرا مكونا أساسـيًا لواقع مختلف. وهكذا، فإن كل شخصية من الشخصيات التي في الأعمال

الســـردية الخيالية، هي أشـبـه بنوع من الإسقاط الخارجي للرؤى المتعددة للفنان أو الكاتب، وقد كان فرويد يعرف أن هوفمان قد اعتبر شــخصياته المتخيلة صورا مســتمدة من انطباعاته التــي تلقاها، وأنه احتفظ بها في «الغرفة المظلمة» الخاصة بلا شعوره حتى طُورت لاحقا. وهكذا فإن جنون ناثانيل جنون خاضع للعمليات نفســها التي يقــوم عليها الإبداع أو الخلق لــدى هوفمان، حيث يقوم الجنون والإبداع لديهمــا - ناثانيل وهوفمان - على أساس إجبار قهري داخلي يعزى إلى وجود قوة خارجية ما.

هكذا يظل هناك تفاوت - كما تقول كوفمان - بين الكلمة الميتة والباردة والمملــة من ناحيــة، وبين الحيوية المتوهجة للرؤية مــن ناحية أخرى، هذا التفــاوت هو ما يفســر ذلك التعقيد البنيوي للقصــة. لقد وضع هوفمان فــي البدايــة تخطيطات تقريبية عامــة لرؤيته الداخليــة، من خلال تلك الخطابات التي في بداية القصــة، ثم إنه أضاف بعد ذلك ألوانا متوهجة أكثر فأكثر مــن أجل أن ينتج، وبأكبر صدق ممكــن، «تلك الصورة.. التي تجيء من أعماق قلبه».

قد يمكن القول كذلك إن ناثانيل - من خلال الكتابة - قد كوَّنَ ذكرياته بدلا من أن يســتعيدها، فمن المســتحيل هنا التمييز بين الســرد الخاص بذكريــات طفولته وتخييلاته الخاصة، ومن المســتحيل كذلك التمييز بين الحكايــة الخاصة بالماضي والقصة المتخيلة حول المســتقبل. إن الســرد الخــاص بذكريات الطفولة - هنــا - هو بالفعل نوع من الأدب الموجود من قبل، مثلما هي حال القصيدة الخيالية التي تخيل فيها ناثانتيل مســتقبله، والتي هي نوع من التكرار الخاص من أجل عقاب الذات للماضي.

«لقد كانت شخصية (كوبوليوس) الكريهة - كما اضطر ناثانيل إلى أن يعترف - تنمو كئيبة معتمة في خياله.. وفي حكاياته التي يظهر كوبوليوس فيهــا كعنصر مهلك في يد القدر، كان الأمــر يتطلب - غالبا - جهدا من أجل إضفاء الحياة والبهجة عليه».

وإنــه من أجل أن يجعل رؤاه المخيفة تســود وتهيمن من خلال التكرار الرمزي لها، فإنه كان يسيطر على المستقبل من خلال التنبؤ، وأيضا التوقع الســادي المازوخي له؛ وذلك لأن المستقبل الذي تخيله كان في الواقع نوعا مــن التكرار والاتفاق المثير للدهشــة، وفيما يشــبه المصادفة، بين التخيل والواقع، وبين الماضي والحاضر.

وبينما كان ناثانيل يؤلف قصيدته هذه، كان شديد الهدوء، رابط الجأش، متمالكا نفسه وقد كان يصقل كل بيت ويحسنه، وقد مكنته قيود الوزن الشعرية من أن يستمر في عمله من دون راحة حتى يصبح كل شيء في القصيدة واضحا ومتناغما، ولكنه عندما انتهى من قصيدته وقرأها لنفسه - بصوت مرتفع - انتابته مشاعر الرعب، وصرخ بقوة قائلا: «أي صوت مروع هذا؟!»، وقبل أن يمضي وقت طويل على كل حال، فإنها بدت بالنسبة إليه ليس أكثر من قصيدة جيدة. ثم إنه فكر في أن مزاج كلارا الهادئ لا بد أن يستثار ويتأجج بفضل هذه القصيدة، هذا مع أنه، وفي الوقت نفسه، لم تكن لديه أي فكرة واضحة عمَّا ستؤدي إليه هذه الاستثارة التي قد تشعر بها كلارا، أو الهدف الذي يمكن تحقيقه من خلال إثارة الاضطراب لديها من خلال الصور المرعبة التي تتبئ بمصير مرعب ودمار ماحق لحبهما.

إن نشاط ناثانيل الأدبي، الذي هو - ضمنا - نشاط هوفمان نفسه، لا يمكن فصله عن تلك التيمات أو الموضوعات الرئيسية المتكررة الأخرى في القصة: تلك التيمات المتعلقة برجل الرمال، وكذلك الخوف من أن يفقد المرء عينيه، ومن الدال هنا الإشارة إلى أن الأدب قد تم إدراكه على أنه نوع من الأدب الرؤيوي أو الكشفي لو استخدمنا مصطلحات يونغ، أدب رؤيوي، كما أن نشاط ناثانيل الأدبي ليس منفصلا عن علاقاته بالنساء، فما الذي كان يبحث عنه في المرأة، سواء أكانت هي كلارا أم أوليمبيا؟ مجرد شخص طيّع سهل الانقياد، أو مستمع سلبي لقصائده، وهذه متعة نرجسية واضحة.

ويكرر هذا النوع من النتاج الأدبي الوافر، يكرر ويحاكي نشاطه الرمزي الذي كان يقوم به كطفل خلال الفترات التي كان كوبوليوس يتوقف فيها عن زيارة والده، حيث كان يرسم صورا لرجل الرمال في أشكال مختلفة كثيرة، «فقد كان يرسم على الموائد والدواليب والجدران وكل مكان في المنزل.. أكثر الصور غرابة وشناعة». ولم يجعله ذلك النشاط يسيطر على رعبه من رجل الرمال من خلال الرسوم الكاريكاتيرية المحقرة له فقط، لكنه - هذا النشاط - كان يقصد من ورائه الوصول أيضا إلى نوع من التعذيب الذاتي المازوخي: متعة تنبع فيما وراء مذهب اللذة، متعة يكافئها ويثمنها بطلنا الخاص، فمع أن رجل الرمال هو إنسان كريه، شخصية

غريبة وشـنيعة ومرعبة ومخيفة، وإنه كان يهرب شـعوريًا من مواجهته أو حضوره معه، فإنه - لا شعوريًا - كان يفكر فيه ويتمنى حضوره، وفي الليل كان يستدعيه، يستحضره فيعود رجل الرمال إلى أحلامه.

لقـد كان ناثانيل يسـتمتع كثيـرا بحكايـات السـاحرات والعفاريت والمخلوقـات الشـريرة، من الأنـواع كلها، وحقيقة أنه كان يفضل تفسـير مربيته السـادي لحكاية رجل الرمال على تفسـير أمـه لها الأكثر تطمينا وتهدئة، كانت حقيقة تنبع من تلك المتعة نفسها التي كان ناثانيل يستمدها من كل ما هو سلبي، ومن كل ما هو مخيف. فقد كان إدراكه للواقع مرتبطا دائما بكل أشكال القدر السـيئة: ذلك القرين الخيالي الذي يكرر الواقع، يضفـي عليه لونه الخاص، وهكذا فـإن ناثانيل، الذي أمل أو طمح في أن يحظى بنظرة خاطفة أو لمحة لرجل الرمال، قد اكتشـف فقط كوبوليوس المحامي، ثم إنـه خلع عليه كل تلك الخصال المرعبة المميزة لرجل الرمال، وخلـق صورة من خلالها، كانت ذات تأثير مرعب فيه، وهي صورة كان من غير الممكن أن تتفق مع أي كائن بشـري حقيقي «رجل الرمال المرعب، هو أيضـا المحامي العجوز كوبوليوس، الـذي كان أحيانا ما يأتي لتناول طعام الغداء معنا، لكن أكثر الأشكال إثارة للرعب، لم تكن لتقدر على أن تستثير في داخلي رعبا أعمق مما كان يستثيره في داخلي هذا الـ «كوبوليوس»».

والخلاصة أنه في دراستها هذه حول قراءة فرويد لقصة رجل الرمال، طرحت سارة كوفمان الأفكار التالية:

1 - إن الغرابة هنا تمثـل نوعا من المتعة المازوخية التي يتلذذ المرء خلالها بتعذيب نفسه، إنها نوع من الإشباع الذي ينشـأ عن القلق ذاته بكل ما يحتويه من عودة إلى الموضوع ذاته، وتكرار للقلق المصاحب له، ثم تكرار المتعة المترتبة على التخلص منه، وإبعاده بإسقاطه على أشياء وكائنات أخرى.

2 - هنـا - في دراسـة فرويـد - ثنائيـة تتعلق بمنهج التحليـل اللغوي الذي اسـتخدمه فيمـا يتعلق بأصل فكرة الغرابـة من ناحية، وتتعلق كذلـك بتحليل الخصائص التي تعمل على ظهور الغرابة ذاتها من ناحية أخرى، لكن فرويد وقع في أثناء ذلك في التبسـيط العقلاني لموضوع الغرابة، و«قصة» هوفمان هذه، فقد أهمل الاهتمام بدلالة الرسائل

الموجودة في القصة، وأهمل ارتباط هذه الرســالة بوجهات النظر المختلفة التي تتبناها الشخصيات فيما يتعلق بما يقع في القصة من أحداث.

3 - وقع فرويــد كذلك في أخطاء تتعلق بتفســير بعض أحداث القصة وتأويلها، وخصوصا فيما يتعلق بمشــهد نظر ناثانيل من منظاره إلى وجه كلارا، وما أصابه ذلك من رعب نتيجة لتشــوه الوجه لوجوده على مقربــة منه، في حين قال فرويد إن ذلك كان راجعا إلى رؤيته كوبوليوس يتقدم نحوه.

4 - هنــاك علاقة لا يمكن إنكارها بين أنشــطة ناثانيل الأدبية وأنشطة هوفمان كاتب القصة؛ ومن ثم بين مستويات الواقع والخيال لديهما أيضا.

رابعا: الغرابة كمشكلة أمام القراءة

فــي دراســتها المعنونة: «رجــل الرمال: الغرابة كمشــكلة أمــام القراءة» (2005)، اعتبرت ليز مولر مقال فرويد حول الغرابة فيما يتعلق بتفسير قصة رجل الرمال لهوفمان، أكثر العروض الموجزة قدرة على شرح الأفكار الأساسية لما أسمته هي الحفريات (الأركيولوجيا) التحليلية النفسية للنصوص، حيث إن هذه القصة ذاتها يمكن اعتبارها المثال الأدبي الرئيسي المميز للغرابة، وكذلك من حيث إن هوفمان في معالجته الخيالية لمادته - كما قال فرويد - «لم يقم بالخلــط الجامح بــين عناصرها بحيث لا يجعلنا قادريــن على إعادة تركيب أو تكويــن النظام الأصلي الذي كانت عليــه». وتمثل هذه الملاحظة بداية من حاشــية طويلة تلخص - كما تقول مولر - المســلمة الأساسية للنقد التحليلي النفســي التقليدي؛ وذلــك لأن الفكرة الخاصة بالنص الأصلــي، قد حُرِفَتْ مــن خلال معالجة المؤلف الفنية لها، ولكنها تظل، مع ذلك، قابلة للاســتعادة والتركيــب. وهكذا، فإن النســخة التحليلية التي قدمهــا فرويد لقصة «رجل الرمال» هي النســخة الأشبه بالشرط السابق للسرد نفسه، هكذا يقدم النقد التحليلي النفســي ذاته - إلينــا - بوصفه عملية تَمَعُّن وكَشــف لما خفي من الخيــال التحريفي للمؤلف، ثم القيام بعملية إعادة بناء، ومن خلال تلك الآثار التي تركها خلفه ذلك «التنظيم الأصلي» للعناصر، هكذا يرمم القارئ التحليلي النفسي النسخة الكامنة، الخفية، غير الخاضعة للمراقبة، من النص.

وقد تبنى فرويد - كقارئ لهذه القصة - موقفا سلطويا تجاهها، قام من خلاله باختزالها إلى موضوع خاص بالمعرفة التحليلية النفسية، هكذا بدا تحليله وكأنه حركة ارتدادية أو نكوصية اتجهت من سطح النص إلى أعماقه النفسية، وقد حدث ذلك من خلال حركة اتجهت من الغموض والخلط الجامح الموجودين داخل النص، إلى التماسك والقابلية للفهم الناتجين بعد انتهاء التحليل النفسي له.

وهكذا فإن فرويد، ومع تقدمه في تحليله للقصة، لم يقم إلا بإحلال النص الواضح محل النص الكامن أو الضمني له، أي مكان المحتوى الخيالي الذي يسمح لنا بفهم مناخ الغرابة الذي يستثيره هذا النص، والذي لا يوازيه أي شيء غيره.

وتركز ليز مولر تحليلها على «العين» كتيمة أساسية في النص، وتقول إنها تتفق مع سارة كوفمان وغيرها ممن قاموا بتحليل النص، على أن ما أهمله فرويد من جوانب داخل النص - في تحليله - بوصفها جوانب أو أبعادا غير مهمة في الغرابة فيه، هي - في واقع الأمر - الجوانب المهمة في التعامل مع المشكلة الخاصة بالسرد الخيالي والنزعة السردية الخيالية فيه.

في قراءة فرويد للقصة، كانت «العين» هي مجازا أو استعارة تتعلق بالفروق بين الجنسين، فالعين تمثل لديه بديلا لعضو الذكورة، العضو الذي يهدد ناثانيل، وفقا لعقدة أوديب، بإزالته هكذا تفهم العين في ضوء التقابل الثنائي بين الذكورة والأنوثة، أو بين الامتلاك والفقد، أو الحضور والغياب، لكن لو قرأ امرؤ قصة «رجل الرمال»، ولم يعتمد على التلخيص الذي قدمه فرويد لها، فسيجد أن تلك الثنائية الرمزية - التي طرحها فرويد - بين امتلاك العين وفقدها، هي ثنائية لا تحيط أبدا بالكلية الخاصة بصورة العين ورمزيتها في النص. إن امتلاك العينين - وفقا لفرويد - يرتبط بالحياة والدفء، وفقدهما يرتبط بالموت والبرودة، فلم يستطع ناثانيل أن يفهم أن أوليمبيا هي آلة ميتة مخلقة إلا بعد أن رأى وجهها وقد أصبح محجرا عينيها خاليين وسط ذلك الوجه.

لقد حول فقدان العينين أوليمبيا إلى قناع مخيف للموت «لقد رأى - ولكن وبوضوح شديد هذه المرة - أن ملامح وجه أوليمبيا الشمعية الشاحبة، شحوب ملامح الموت، تخلو من وجود عينين، وقد كان موجودا، بدلا منهما، مجرد فجوتين سوداوين، لقد كانت - في الحقيقة - دمية ميتة».

فدون نظرة محبوبها التي تمنحها الحياة، كانت يدا أوليمبيا وشفتاها باردة كالثلج، لقد كانت البرودة تشع ـ أو تنطلق ـ من جسدها البارد جدّا، وهي برودة وُصِفَتْ بأنها «برودة مميتة مرعبة»، وعلى العكس من ذلك كانت أمه، وكذلك خطيبته كلارا، توصفان بالدفء المنعش الباعث على الحياة والمجدد لها.

ليس هناك شيء جديد جدير بالذكر هنا حول ارتباط العينين بالحياة والدفء، وارتباط فقدانهما بالموت والبرودة، لكن المهم - كما تشير ليز مولر - ليس ذلك التقابل القطبي الثنائي بين امتلاك العينين وفقدانهما؛ بل تلك المسافة التي توجد بين هاتين الحالتين، أي تلك الحالة الثالثة أو الشرط الثالث، الذي يهز استقرار هذا التقابل الضدي الثنائي بين الحياة والموت، لقد طرحت تلك الثنائية السكونية الخاصة بالعينين ومحاجريهما الخاليين منهما من خلال المظهر الخاص بنوع خاص من العيون: العيون المقتلعة من محاجرها: العيون التي لا تنتمي إلى جسد محدد، العيون التي لا تنتمي - على نحو مؤكد - إلى شخصية بعينها، لكنها العيون التي تتوزع وتدور فيما بين شخصيات متعددة ومختلفة وعلى أنحاء مختلفة.

ويرتبط موضوع «العيون المقتلعة» بالطبع بالدمية أوليمبيا، التي قيل إن عينيها قد سرقتا من ناثانيل، لكن نظارات كوبولا المقربة (والمحرفة للصور) هي أيضا «عيون بلا أجساد»، من نوع ما، «عيون جميلة»، في حين يصيح كوبولا وهو يقدم سلعته كي يبيعها: «عيون جميلة»، واستمر يغطي مائدة ناثانيل بالعيون الزجاجية، العدسات.

عندما شاهد ناثانيل «عيون» صانع العدسات، سيطر عليه الرعب، ولكنه مع ذلك، اشترى منه بعض تلك العيون التي بلا أجساد، وخصوصا ذلك التليسكوب الذي حدد مصيره وعاقبته في النهاية.

إذن كان امتلاك العينين يرتبط بالدفء، وغيابهما يرتبط بالبرودة، فقد ارتبطت هذه العيون التي بلا أجساد بالنار واللهب والشرر الدافئ، بالانسفاع أو الشياط والاحتراق «دائرة من النار! من النار! هكذا صاح ناثانيل وهو يرى عيني أوليمبيا، وجهها الخالي من العينين، وهي ترقد على الأرض تحدق فيه». والنار في هذه القصة عامل حاسم في التحولات وعمليات العبور من حالة إلى حالة، ومن مرحلة إلى أخرى، وبالعكس، فالنار تحول كل شيء إلى نقيضه، فالطفل ناثانيل، الذي كان يختبئ في

غرفة الدراسة الخاصة بأبيه، رأى أباه وهو يميل فوق شعلة نار زرقاء، وقد حولت تلك النار ملامح أبيه الطيبة الهادئة إلى ملامح شيطانية، شائنة، فبدا وجهه مثل وجه كوبوليوس الشرير. وفي النهاية، مات الوالد محترقا في انفجار، احترق حتى الموت في مكتبه، في حين كان يشارك كوبوليوس تجاربه الغريبة، «وعلى أرضية الموقد الذي يتصاعد منه الدخان كان أبي يرقد ميتا وقد احترق وجهه، واسودت ملامحه وتشوهت على نحو بشع»، ولكن «بعد يومين من ذلك الحادث، وعندما سُجي جسد أبي في كفنه، كانت ملامحه مرة أخرى رقيقة وطيبة كما كانت دائما خلال حياته».

هكذا تبدو النار - هنا - وكأنها وسيط وهمي مضلل خادع، فخلال تأججها كان وجه الأب الطيب يشبه وجه كوبوليوس الشرير، وربما كانت تلك النار هي التي أوحت إلى ناثانيل بوجود ذات أخرى للأب، ذات شيطانية خفية.

يطلق على العيون التي بلا أجساد أيضا اسم المنظار أو النظارة المقربة Spyglass، وهذه هي الترجمة الإنجليزية لكلمة Perspektiv الألمانية، فالتليسكوب الذي اشتراه ناثانيل من كوبولا يحتوي على عين تمكن حامله من النظر خلسة، أو التجسس على الآخرين، أن يرى من خلالها ما لا يستطيع أن يراه بالعين المجردة، إنها عدسات، مرايا، يرى من خلالها المرء نفسه، إن العيون التي بلا أجساد هي عيون وليست عيونا، إنها عيون صناعية، عيون مشوهة للحقائق ومحرفة لها، ترتبط بالرؤية الأبعد والاستبصار، وترتبط بالعمى والتحريف، بالحياة كما بالموت. ولقد وجه ناثانيل تليسكوبه نحو نافذة أوليمبيا وهو «ولم يحظ في حياته بمثل تلك النظارة التي تحضر الأشياء أمام عينيه بمثل ذلك الوضوح والحدة».

هنا العيون التي بلا أجساد أداة ناقلة (وعاء) للرغبة المرتكسة أو المنحرفة؛ كما تقول مولر وذلك لأن ناثانيل هو مختلس للنظر، محب للنظر خلسة إلى الآخرين Voyeurer، تستحوذ عليه الرغبة في أن يرى ما هو مخبوء أو مخفي هناك وراء الأبواب المغلقة والستائر المسدلة.

وفي خطابه الثاني إلى لوثاريو تحدث ناثانيل عن كيف نظر خلسة إلى غرف البروفيسور سبالانزاني، وهذا المشهد نفسه هو حالة (مجرد حالة) من التكرار للمشهد الصدمي الخاص بطفولة ناثانيل الذي أشار إليه في خطابه الأول، حيث أشار إلى أنه كان مدفوعا برغبة غلابة

لأن يرى «رجل الرمال»، حيث تسـلل الطفل خلسة إلى غرفة دراسة أبيه، واختبأ خلف سـتارة، ومـن مكمنه رأى أباه والمحامي الشـرير كوبوليوس مندمجـين في تجارتهما الغامضة، ومن جوانب عدة فإن هذا المشـهد هو مفتاح أساسـي في حل اللغـز الخاص بالعيون التي بلا أجسـاد، وكذلك المصير المحتـوم لناثانيل وذلـك لارتباطه الوثيق بعمليـة التخليق للدمية الجميلة أوليمبيا.

وعندما نظر ناثانيل إلى غرفة البروفيسور سبالانزاني رأى امرأة شابة، ابنته أوليمبيا، كان وجهها يشبه وجه ملاك، ولكن مكان عينيها كان خاليا، على نحو غريب.. لم تكن قادرة على الرؤية. وعلى نحو متأخر فقط أدرك ناثانيل أن أوليمبيا هي النسـل أو النتـاج الخاص لكوبوليوس كوبولا الذي شـاهده ناثانيل، حيث كان الرجلان يقتتلان حول أوليمبيا، الدمية المخلقة التي صنعاها معا «العمل الذي اسـتغرق صنعه عشرين عاما»، وقد انطلق كوبوليوس يجري وهو يحمل الدمية الخشـبية، في حين ألقى سبالانزاني أوليمبيا الفاقدة للعينين على ناثانيل.

وتصنع هذه المشـاهد التي تبدو، هنا، مفككـة غير مترابطة - عندما توضع معا - نمطا خاصا متكاملا، فالمشـهد الخاص بالنار الذي شـاهده ناثانيـل من مكانه، في غرفة والده، ليلا، كان مشـهد تحول، خلق، تكوين، ومـن مكمنه خلف السـتارة رأى أباه وكوبوليوس يحـاولان خلق حياة من المـادة، وقد كان نوع الحياة التي نتجت من هذه العملية هي أوليمبيا: التي دبت فيها الحياة عندما سُرقت عينا ناثانيل ووضعتا في داخلها. إن العيون المقتلعة تتولد منها حياة صناعية وهمية، ثانوية، غير أساسية، لا تكون حياة لا موت. ووفقـا لفرويد فإن التيمة الخاصة بأوليمبيا هي التيمة الخاصة بتداخـل الحياة مع الموت، اختلاط الحـي بالميت، والواقعي بالاصطناعي، وهي لدى فرويد لا يمكن أن تكون مسئولة عن الغرابة في سرد هوفمان أو قصته؛ وذلك «لأن المؤلف نفسه قد تعامل مع حكاية أوليمبيا بلمسة خفيفة من السـخرية، وقد استخدمها لكي يضفي نوعا من الفكاهة على التفكير المثالـي الخاص بذلك الشـاب ناثانيل حول محبوبته، لكن السـخرية هنا ليسـت موضوعا مسـتقلا، يمكن عزله عن التيمة الخاصة برجل الرمال، فالتيمـة الخاصة بأوليمبيا تتداخل داخل القصة كلها، حيث يتكرر ارتباط الحيـاة بالموت في علاقتهمـا بالدمية المخلقة هنا، حتـى بعد أن تفككت

أوصـــال أوليمبيا. فعند نهايــة القصة، وعندما أعـــاد ناثانيل علاقته مع كلارا، فإنهما صعدا معا إلى البرج، وصرخ بصوت مرتفع: «دمية خشبية»، وفي نوبة جنون حاول أن يلقي بنفسه في تكرار - ولكن بطريقة عكسية - لمشهد التحريك الإحيائي، أي المشهد الذي أضفى من خلاله ناثانيل الحياة على أوليمبيا، الميتة، وهنا يضفي، هو نفسه، الموت على كلارا الحية.

لقد أســاء فرويد تفســير ما رآه ناثانيل عندما نظر من تليسكوبه فوق البرج، فافترض أن رؤيتــه كوبوليوس المخيف يتحرك هي التي أوقعته في نوبة جنون، لكن الحقيقة هي أنه لم يكن كوبوليوس هو الذي رآه ناثانيل، لم يكن هو الأب المهدد بإخصائه، لقد كانت هي كلارا، كانت كلارا تقف أمام المنظار المقــرب، ومثلما رأى بمنظاره المقرب أوليمبيــا الدمية تتحول إلى امرأة حية، فإنه رأى - بالتليســكوب - كلارا وهي تتحول الآن إلى مخلوق آلي ميت، «دمية خشــبية» كمــا صاح، وكما حدث عندمــا انجلت حقيقة أوليمبيا، له فوقع في براثن نوبة من الجنون، فقد حدث الأمر نفسه عندما رأي كلارا دمية خشبية.

هكذا تَحَلَّق حشـــد من الناس أســفل البرج، ومن بينهم برز كوبوليوس فجــأة، وظل ناثانيل واقفا صامتــا في مكانه، وبكلمــات قالها «آه، عيون جميلة ! عيون جميلة»، ألقى بنفسه من فوق شرفة البرج.

إن ثمــن الرغبة في بعث الحياة قد يكون هو الموت، لكن الموت نفســه لا يستطيع أن يضع نهاية لنمط التكرار هذا الذي يتحكم في السرد. لقد ترتب على فشــل ناثانيل فــي أن يضع حدودا مميزة بين الحــي والميت، والواقعي والحقيقي والاصطناعي، تحركه الدائم بينهما فيما يشبه العدوى أو المرض.

هكذا يكمن ســر الغرابة هنا في حالة (المابين)، أي تلك الحالة التي ما بــين الحي والميت، الحقيقي والاصطناعي، الــذي ليس كاملا وليس ناقصا، الــذي يرى ولا يرى، ومثلما تُضاف إلى الحياة - من خلال الإســقاط - إلى الأعمال الفنية التي تفتقر إلى الحياة، فكذلك الحياة نفسها محاطة بالموت. لقد كان ما استطاع أن يراه ناثانيل من خلال منظار كوبولا، هو ما لم يستطع فرويد أن يراه. لقد اســتطاع أن يرى مرة أخــرى عن طريق التكرار، عندما نظر إلــى كلارا، عودة غريبة لأوليمبيا في كلارا، للميت في الحي، والجامد في المتحرك، والصناعي في الإنســاني، والبارد في الدافئ، باختصار للموت في الحياة، وكأن ما كان قد أرهص به وتنبأ في قصيدته قد ظهر أمامه حيّا

«نظــر ناثانيل إلى عيني كلارا، لكن ما كان ينظر برفق إليه من خلال عينيها كان هــو الموت»، هكذا أصبحت العيون التي بلا أجســاد لدى ليز مولر رمزا للمنطقة الشــبحية أو المنطقة البينية التي بين الرؤية وفقدان البصر، الحياة والموت، الطبيعي والاصطناعي، المنطقة التي في قلب التعدد والازدواج.

ليست هناك - هنا - حياة على أحد الجانبين، وموت على الجانب الآخر، لكــنَّ هناك حياة في الموت، وموتا في الحيــاة. ليس هناك - هنا - عمى في أحد الجانبين وإبصار في جانب آخر، بل هناك عمى داخل الإبصار، وإبصار داخــل العمى، وليس هناك - هنا - اصطناعية في جانب وطبيعية في جانب آخر؛ بل هناك اصطناعية في الطبيعي، وطبيعية في الاصطناعي، ومن خلال ذلــك كله تتخلق الغرابة وتتجســد، ثم إنها تؤكد من خلال الشــك والفقدان لليقين حضورها القار العميق في الحياة العادية، وفي الفن والأدب كل يوم.

ووفقــا لما وصلت إليه ليز مولر من دراســتها تلــك، فإنه نتيجة لذلك الغمــوض الذي بــين «الرؤية» و«العمــى»، والحقيقة والخداع، في ســرد هوفمــان؛ كانت تلك العين/العيون المقتلعة هي المجاز أو الاســتعارة الدالة على هذا المحو أو الطمس للحدود بين كل تلك الأبعاد.

هكذا تكون هذه العين التي فوق ســطح الســرد، هي الحد القائم بين الداخل والخارج، بين الــذات والآخر، بين البصيرة والعمى، لكن ما حدث في هذه القصة، هو ذلــك الانهيار إلى هذا الحد، فتداخلت مناطق الموت مــع الحياة، والعمى مــع البصيرة، والخوف مع الطمأنينــة، والخيالي مع الواقعي، والصناعي مع الطبيعي، لقد كانت تلك العين هي وســيلة العبور دائما من حد إلى آخر، وبالعكس.

ومثلما طرح كانط في الماضي فكرة «انهيار التمثيلات»، وكما أشرنا إليها بالتفصيل في كتاب سابق لنا عن «الفن والغرابة»، وأشرنا إليها باختصار في الفصل الأول من الكتاب الحالي، فإن ليز مولر قد اســتفادت من هذه الفكرة أيضا وطورتها، فقالت إن العين المقتلعة في نص هوفمان كانت وســيلة العبور الدائــم الذي أحدث اضطرابا في التمثيــل الخاص بتلك الثنائية القائمة بين الحيــاة والموت، مما جعلنــا غير قادرين على إقامة تمييــز واضح بين العالم الواقعي والعالم المتخيل. هكذا يكون الســرد، طبيعة الســرد، والنص الأدبي نفسه، هو الوســيلة التي أحدث من خلالها هوفمان هذا الأثر الغريب لدينا، بشــكل يفوق ما كان يمكن أن يحدثه المضمون الذي يحتويه النص لو قُدِّم من

خلال سرد آخر. وقد كانت العين - العين المقتلعة تحديدا - هي المجاز أو الاستعارة التي تمكن هوفمان من خلالها من إحداث ذلك الأثر الغريب لقصته. هكذا لا يكون الأثر الغريب مستمدا من أي مضمون أو مادة خاصة بعينها بقدر ما يكون مستمدا من الطريقة التي قُدِّم هذا المضمون أو هذه المادة من خلالها. هنا قد نتذكر ما قاله بعض النقاد والفنانين من أن الفن ليس مجرد مضمون معين؛ بل الطريقة التي يتم من خلالها تمثيل هذا المضمون.

والخلاصة التي نخرج بها من دراسة ليز مولر هذه أنها :

1 - تتبنى دراستها ما يسمى بالتحليل النفسي الأركيولوجي لحفريات (طبقات) النصوص الأدبية، حيث هناك طبقات واضحة، وأخرى غامضة فيه.

2 - إن فرويد في تحليله لـ«نص» هوفمان قد أبرز المستوى (الطبقة) الأعلى، والعقلانية الواضحة الخاصة بالسطح فيه على حساب الطبقات الأخرى الخفية اللاعقلانية، الغامضة منه؛ ومن ثم فإنه تحليل اختزالي وجامد.

3 - تركز مولر على مجاز العين واستعاراتها في قصة هوفمان بشكل يفوق التركيز الجنسي الخاص بها، الذي اهتم به فرويد، كما أنها تقول إن فقدان العينين ليس مرتبطا بموضوع الخصاء كما طرح ذلك فرويد، بل بالدلالات المتعددة للعين كرمز للحياة والرؤية والإبداع والحب والحياة، وإن الأكثر أهمية هنا أيضا ليس هو دلالة العين الخاصة بالموت والحياة؛ بل دلالاتها التي تقع في منزلة بين منزلتي الحياة والموت، ومن ثم فإنها اهتمت برمزية العيون المقتلعة من محاجرها، من حيث ارتباطها بالنار والتحول، والانتقال من مرحلة إلى أخرى، وكذلك بوصفها عيونا صناعية، عيونا مشوهة للحقائق ومحرفة لها، ترتبط بالعمى والتحريف والموت، كما بالحياة، باختلاس النظر والرغبة في المعرفة.

4 - يكمن سر الغرابة هنا - في رأي مولر - في الحياة الحديثة المعاصرة في تلك الحالة التي بين الحي والميت، الحقيقي والصناعي، والمتحرك والساكن، المفرد والجمع، والطبيعي في الاصطناعي، الموت في الحياة.

5 - تتفـق ليز مولر مع سـارة كوفمـان وغيرها في أن طبيعة السرد والنص الأدبي نفسه الذي قدمه «هوفمان» هو ما خلق أثر الغرابة أكثر من مضمونه.

خامسا: رجل الرمال والدافع القهري للتكرار

وفقا لما قاله نيل هيرتز في دراسـته «حول الغرابة» في قصة «رجل الرمال»، فإن الدافع القهري للتكرار هو المفهوم الذي يعطي الوحدة والمبدأ العام، واللمسـة الخاصـة لمقال فرويد عن الغرابة، وكذلك لكل مـا كتبه حول غريزة الموت. فمنذ البداية كان فرويد مشغولا بمجموعة من الظواهر التي تكرر وتعيد نفسها مرة بعد الأخرى: ظهور المحتويات الطفولية للأحلام، الأعراض العصابية، حالات التحول والرغبات، اللاشعور والإشباع الخيالي وعلاقة المرضى بالمعالجين لهم ... إلخ.

هكذا فإن الشـعور بالغرابة قد يتم توليده وتنميتـه عن طريق تذكير المرء، وتذكره، بالدافع القهري للتكرار، وليس بما يتم تكراره ذاته، إنه مبدأ عام، أسلوب مميـز لحدوث الظاهرة، أكثر من كونه متعلقا بمضمون الظاهرة ذاتها، ويصبح هذا الوعي بالعملية ذاتها، المتكررة هذه، وعيا بغرابتها، قبل أن يكون وعيا بجانب مـن جوانب مضمونها، ذلك الذي كان مكبوتـا، والذي يعود الآن إلى الوعي. إن هـذا الظهور المفاجئ، الانبثاق للتكرار، هو الذي يخيف، ربما لأنه يوقظ شـيئا كان ينبغي أن يظل نائما. كما قال فرويد. في اللاوعي، مكبوتا فيه، هناك، في غابات النسيان، لكنه يعود الآن في شكل متكرر ومخيف، وقد يبدو هذا التكرار أحيانـا، مثل حالة من المراوغـة، والمواربة، التي تكمن داخل الاختلاف، حيث لا يمكـن الفصـل - هنا - بين الوعي بعملية التكرار هـذه، والوعي بالمضمون، أو الموضوع، أو الشـيء الذي يتكرر حدوثه أو ظهوره، فالتكرار يصبح مرئيًا عندما يكتسـي اللون الطابع الخاص بالشيء الذي يتكرر، والذي يوظف. هذا الشيء. بدوره، بوصفه لغة حية أو قوية، تجسد نوعا من الاتساق البلاغي الخاص لشيء كان يمكن أن يظل. على نحو آخر. صامتا، مكبوتا، مسكوتا عنه.

هكـذا يكون التكرار نوعا من الإعلان أو الإفصاح المجازي عن مسـكوت عنه، ومكبوت يعاود الظهور، مرة بعد أخرى، بأشكال رمزية ومجازية وغريبة دالة عليه، وهو نفسـه. كمبدأ أو مضمون. يجسـد هذه الغرابة في تنويعاتها المختلفة، ويطرحها في مواجهة واقع يستدعيها، ويتيح الفرصة لظهورها على الرغم من إنكاره الدائم لها.

هنـــاك قراءتان - كمـــا يعيد هيرتز تذكيرنا - لقصـــة هوفمان قدمهما فرويد، حدثت الأولى على مســـتوى السطح الواضح، حيث أعطى تعبيرات ســريعة انتقائية لحبكة القصة، وقد تحركت هذه القراءة - على نحو متتابع - مـــن الطفولة الخاصة بالبطل - ناثانيل - حتى وصلت إلى نوبات الجنون التـــي هاجمته وأوصلته إلى الانتحار في النهاية، وهنا، عند هذا المســـتوى، هناك حديث عن حكاية رجل الرمال الذي كانت الأمهات يخفن به أطفالهن حتـــى يناموا، وكذلك شـــعور ناثانيل بالخوف من المحامـــي كوبوليوس الذي يهدد عينيه هو نفسه، وموت والده وهو يجري معه تجارب غامضة، وتتطور الأحداث بأشـــكال لافتة، مفاجئة، فنرى كيف حل كوبولا صانع العدســـات محل كوبوليوس المحامي الشرير، وكيف أن الغرابة في القصة جوهرها تلك الحكاية القديمة الخاصة برجل الرمال، وما كان يســـتثيره في عقل الطفل مـــن مخاوف مرتبطة بســـرقة العينين، وكيف أن فرويد قـــد رفض ما قاله ينتش من أن مصدر الغرابـــة المتعلقة برجل الرمال هو تلك الحالة الخاصة من الحيرة المعرفية، أو عدم اليقين والشك فيما إذا كان شيء ما يكون ساكنا ظاهريًا، هو شـــيئا يتحرك فعلا أو لا. لقـــد أصر فرويد - على نحو متكرر - على رفض هذا التفســـير، وقال إن هذا النوع من الشك والحيرة المعرفية إنمـــا يتولد لدى القارئ للقصة منذ الصفحات الأولى منها، وإنه تتولد لديه الشـــكوك منذ البداية حول ما إذا كان الكاتب يأخذه إلى العالم الواقعي أو إلى عالم خيالي من خلق هوفمان نفســـه، ثم إنه قال أيضا إن تلك الشكوك تتبدد لدى القارئ عند نهاية القصة، حيث يدرك أن كوبولا صانع العدسات هو نفســـه كوبوليوس المحامي، وهو أيضا رجل الرمال الذي في الحكايات. بمعنى آخر، إن إحســـاس ناثانيل بأن هذا الرجل هـــو «المتحكم المرعب في قوى الظلام، والمتلاعب بها» هو أمر صحيح داخل المستوى الخيالي الخاص بالقصـــة، ونحن لا يُفتـــرض منا - كما قال فرويد متهكمـــا - أن ننظر إلى الإنتاجات التي يقدمها لنا خيال رجل مجنون، وإنه من خلال سيطرة عقولنا الواعية، نكون قادرين على اكتشاف الحقيقة الدالة على الاتزان.

هذا فيمـــا يتعلق بالمســـتوى الأول، أو التأويل الأول للقصـــة، أما التأويل الثاني لها فقد قدمه فرويد في حاشـــية طويلـــة مكثفة على نحو لافت أيضا لمقاله، حيث قال إن تلك الحقيقة الرزينة، الدالة على العقل، التي تكمن خلف نتاجات خيال المجنون، تلك البنية الكامنة الضمنية فيها، إنما تتعلق بما يسمى

«التنظيم الأصيل» Original Arrangement لعناصر القصة، وهنا فإننا، وبدلا من ذلك المسار الخطي للسرد، من خلال الكشف عبر الزمن للمصير الذي ينتظر ناثانيل، نجد أن ما عرضه فرويد هو سلسلة من البنيات المتكررة التي تم تنظيمها بشكل معين كي تعرض لنا وتظهر تلك القوى الموجودة داخل عقل ناثانيل، ذلك الذي قام بخلقها وتطويرها كي تجسد لنا ذلك التناقض الوجداني لديه نحو أبيه، والذي يقسم شخصيته إلى شخصيتين: تتعلق إحداهما بالأب المحب العطوف الذي قتل، في حين تتعلق الأخرى بشخصية كوبوليوس الشرير الذي ينبغي أن يوجه إليه اللوم بسبب ذلك الحدث العنيف الذي أدى إلى موت الوالد، ثم تحدث هذه المزاوجة ويعاد إنتاجها مرة أخرى عند المقارنة بين شخصيتي سبالانزاني (الميكانيكي أو المهندس والد الدمية أوليمبيا) وكوبولا (الذي يدمر الدمية)، ويرتبط ذلك كله بسلسلة من العلاقات الثلاثية، فيها يوقف رجل الرمال مساعي ناثانيل لإنجاح حبه وعلاقته بكلارا، خطيبته أولا، كما أنه يخطف أوليمبيا التي كان ناثانيل يحبها، ثم يدفعه نحو الانتحار عند عودة الحياة إلى مجاريها بينه وبين كلارا.

وقد رأى فرويد أن هذين التأويلين للقصة ليسا متناقضين، بل مرتبطان أحدهما بالآخر ارتباط المستوى السطحي لها بالمستوى العميق، حيث إن عقدة الخصاء كما قال، «هي التي ولدت القصة الخيالية الخاصة برجل الرمال، وإن القارئ، حتى لو كان شديد الاقتناع بواقعية القصة، بل خصوصا عندما يكون شديد الاقتناع بها، يشعر بوجود شعور غريب ما يصدر عن تلك «العودة للمكبوت» ويتجسد عبر السرد.

والسرد لدى هوفمان سرد مقتحم أو مندفع، إنه سرد مفعم بالحيوية، متحول، قُلَّب، باذخ، متقن، زاخر بالسجع والتكرارات اللفظية والتلميحات والإشارات الأدبية الضمنية، والتغيرات في الإيقاع التي تشعر القارئ بالإجفال والمفاجئة، كما أن هناك، فيه، ذلك التجسيد للمزاج الشخصي المتقلب، ولديناميات الكشف والتطور التدريجي شبه الموسيقية. وإضافة إلى ذلك، فإن هذا السرد المتدفق حيوية، يصور في لحظات خاصة، بعض المضامين المهمة في العمل بطرائق شتى، كان تجاهل فرويد لها أمرا محيرا؛ وذلك لأن ما قد يكون مثيرا للقلق والاضطراب في هذه القصة إنما يتعلق بالمستوى الخاص بالسطح فيها، بالطريقة التي تم السرد من خلالها فيها، مثلما هو متعلق بمضمونها، أو المستوى العميق الخاص الذي يخفيه هذا السطح أيضا.

ثم يركز هيرتز في دراسته على نوعين من هذه التأثيرات الناتجة من البراعة الفنية لدى هوفمان، هما:

1 - بنية القصة: فقد أضفت خدعة هوفمان أو حيلته الماكرة الخاصة باستخدام شكل الرسائل في الكتابة، منزلة غريبة على هذه الرسائل التي تبدأ بها القصة، فمثلها مثل أية شواهد توثيقية موجودة في السرد، ومصاحبة له، تكون هناك درجة أعلى من التصديق والمصداقية لها؛ ومن ثم يميل القارئ إلى الاستمرار في قراءتها من خلال إيهام خاص بأنها واقعية. كما أن الراوي إنما يقدم - هنا فقط - تأويله الخاص لها. ولأن الرسائل هنا قد سبقت السارد، الراوي، فإن ما يقوله عنها وحولها، يبدو أن له الأثر الخاص بجعل القارئ يسترجعها، ويتكيف معها، ثانية، ويضفي عليها نوعا من الواقع التوثيقي، ويتذكر - أيضا - الجانب المتخيل فيها، وكذلك حاجة الراوي إليها لإضفاء المصداقية على ما يكتبه.

2 - إن هذا التركيب البنيوي المعقد الذي يشتمل على نوع من الإرجاء الزمني داخل النص، يجعل القارئ في حيرة من أمره، يجعله غير متأكد مما إذا كان ما يقرؤه سردا واقعيا أو سردا متخيلا، أو مزيجا من الواقع والخيال؟ وهنا أمر وثيق الصلة بما قاله فرويد حول الفعل. أو الحدث. المرجأ deffered action، وقدرته على إضفاء المعنى والقوة المَرَضية الطابع على خبرات الطفولة وتخييلاتها. وليست هذه البنية الزمنية القائمة على الإرجاء منذ الصفحات الأولى للقصة هي المميزة لها فقط؛ بل أيضا محتوى خطاب ناثانيل الأول، أو رسالته، تفسيره لعملية شبه الخصاء التي توقع أن تُجرى له على يد كوبوليوس، هذا النوع من الاستحضار الحالي لخبرات ماضية، مرجأة، متأخرة، لكنها مخيفة وعنيفة تجيء في الحاضر، وتحضر عبر الذاكرة، عبر الرسائل، هي أيضا أمر مميز لهذه البنية.

داخل القصة هناك تشابه ما بين ذلك الكشف التدريجي لمصير ناثانيل ونوع التطور في السرد والتفصيل فيه، أي بين القوة الدافعة المحركة الموجهة لناثانيل والمهيمنة عليه، والقوى الدافعة للسارد أو الراوي. وهناك أثر

مماثـل خلقه اختيار هوفمـان، وكذلك معالجته للأسـلوب أو طريقة الأداء، حيـث تعـرض لنا . القصة على نحو متسـق. ذلك الحـس المرضي والمعاناة، وكذلك الكوميديا الخاصة بالجوانب السـيكولوجية الشيطانية من خلال لغة تعتمد على مفردات وموضوعات مسـتمدة من الجماليات الرومانتيكية، كما لو كان هوفمان قد بدأ من الموضوع المشترك الذي يهيم فيه الشعراء والعشاق والمجانين (وفقا لمقولة شكسبير الشهيرة) ويولعون، ثم قام بالتجميع معا، لكل تلك الصور والنسـخ المفككة المتناثرة من هذه الشخصيات المتماثلة (الشاعر والعاشـق والمجنون)، وقدمها في نوع مـن التداخل الدلالي والتراكم الخالص لتلـك الأمثلة من الشـخصيات؛ حتى يصيب القارئ بالحيـرة، مثلما أصابت نظارت كوبولا المكبرة ناثانيل أيضا بالحيرة حينما وضعها أمامه على المائدة.

في نهاية دراسـته يقول هيرتز إن هناك تعبيرا في الفرنسـية لا يوجد له مقابـل دقيق في الإنجليزية، وهـو mise en abyme، وهو يعنـي «الإلقاء في الجحيم»، أو «الرمي في الهاوية السحيقة»، وهو يشير إلى ذلك الإيهام بالتراجع أو الارتداد اللانهائي للخلف الذي يمكن أن يخلقه الكاتب أو المصور الرسـام، أو المصور السينمائي أيضا، إنه أمر شبيه بالمتاهة التي تعود في حلقات ودوائر تصغـر وتصغر في كل مرة حتى تختفي، إنه نوع من التكرار داخل العمل الفني للبنية الأكبـر، وفي صور مصغرة، ويتم إطلاقها بحيث تبدو سلسـلة لا تنتهي من عمليات الكناية أو المجاز المرسـل التي لا تنتهي، فيها تكني الحلقة الأصغر عن الحلقة الأكبر، والأصغر منها عنها، وهكذا، وفيها تحاكي عملية الرمي في الجحيم أو الهاوية السحيقة هذه، عمليات التكرار الجامحة غير المتحكم فيها، تلك التي تبدو هنا وكأنها تحمل ناثانيل كالدوامة معها، وتنقله من سطح هناءته الظاهرة إلى جحيم تعاسته اللانهائية، نحو موته، أو نهايته المحتومة.

هكذا تكـون القراءة الأدبية لهذا العمل هي الجانب الناقص في قراءة فرويد له، هكذا تكون قراءة فرويد له ناقصة، هكذا تكون قراءته له غريبة عنه إلى حد ما.

إن ما جعل هذه القصة مثالا جيدا على المفارقة الرومانتيكية والتهكم، وكذلـك قدرتها على إحداث الاضطراب الخـاص بالغرابة، ليس ما ذكره فرويد فقط، بل أيضا قدرتها وقابليتها للتفسير من خلال هذين الإطارين أو النموذجين التفسـيريين: قدرتها على التحول والظهور داخل مقتضيات وحدود التفسـير السيكولوجي/الشـيطاني، وكذلك داخل حدود التفسير

الأدبي، بـل ووجودها أيضا، على تلك الحدود مـا بين هذين النوعين من التفسيرات، ومن ثم فإنها تؤكد - على نحو ما - تلك الفروق بين التفسيرات السيكولوجية والأدبية، وكذلك بعض أنواع العلاقات المشتركة بينهما أيضا. لقد أبرز فرويد وأكد الجانب المظلم الشيطاني من القصة، لكن ثمة جوانب إبداعية وأدبية وفنية مضيئة أخرى فيها لم ينتبه لها أو يهتم.

وبشكل عام، هناك خمسة اعتبارات في رأي هيرتز قام هوفمان بتقديم هذه القصة من خلالها بشكل مركب:

1 - إن السرد لدى هوفمان سرد مفعم بالحيوية، سرد متقن، باذخ، وفيه كذلك تجسيد للمزاج النفسي المتقلب المضطرب.

2 - إنه قدم عددا من التأويلات المتصارعة لمصدر الطاقة التي تدور خلال القصة، أو داخلها، والتي تدفع الشـخصيات نحو الفعل أو التعبير، هل هي نوع من الخلق للذات أو أنها تشع من مصدر خارجي؟ وهل القصة سيكولوجية (تنبع من مصدر داخلي) أم شيطانية (تنبع من مصدر يقع فيما وراء الطبيعة)؟

3 - إنـه نتيجة لمعالجات هوفمـان التي تقوم غالبا على الإرجاء والأفعـال المؤجلة، وكذلك طرائق السـرد المعقدة، فإن القارئ قد يشـعر بالارتباك والحيرة، بأن حياة ناثانيل، وكتابته، وكذلك الراوي الذي يحكي القصة، وكتابة هوفمان نفسها، وكذلك ولع القارئ المستقبل لها، كلها أمور مدفوعة بفعل الطاقة نفسها وتأثيرها، ومدفوعة كذلك نحو التمثيل لهذه الطاقة، صبغها ورسمها من خلال حدود يصعب تبينها، وذلـك من أجل جعلها تترك أثـرا، يكون - بقدر الإمكان - غيـر قابل للمحو أو الطمس، وهـذه كلها أمور تتجاوز تلك القراءة المحدودة الخاصة التي قام بها فرويد.

خاتمة الفصل

لقد أجمع هؤلاء النقاد على أن فرويد قد تبنى وجهة منطقية عقلانية من النظـر والفهم والتحليل لنص هو بطبيعته، ولغرابته، ليس كذلك، أي أنه ليس منطقيّـا ولا عقلانيّا أبدا كذلك، كما أنهم أكدوا أن الجانب المنسـي الخفي، المكبوت، المسـكوت عنه في دراسـة فرويد، أهم من تلك الجوانب التي أعلن

عنهــا أو صرح بها. واتفــق هؤلاء النقاد كذلك على أن مــا أهمله فرويد من جوانــب داخل نص هوفمان بوصفها جوانب غيــر مهمة في موضوع الغرابة، هي الجوانب التي كانت ربما الأكثر أهمية من الجوانب التي اهتم بها فرويد.

ووفقا لما قاله ســتيف فايــن S.Vine، فإن المرء قد يبــدو له أنه يعرف الغرابــة، لكنــه، وفي الوقت نفســه، لا يكون قد عرفهــا. إن المرء لا يمكنه أن يعــرف الغرابة؛ وذلــك لأن تأثيرها يعمل على جلــب المألوف في إهاب الغريــب، الدخيل، الآخر، وطابعه. إن المرء قــد لا يتعرف الغريب أو يحيط بالموضوع الغريب، وبدلا من ذلك، فإنه قد يحدث له الاضطراب بســبب قوة الغرابة وتأثيراتها في إحداث الاضطراب الخاص في قدرة المرء على تعرُّف مشــاعره الخاصة به، والأشياء التي قد تستثير لديه مشاعر الغرابة أيضا. وبشــكل عام، تحدث الغرابة - وفقا لما قالته فرنسواز ميلتزر F. Meltzer - «عندما يشعر المرء بأنه .. ليس في بيته، ليس في العالم الذي يعرفه، بل إنه غريب ضائع، في عالم شاسع ممتد موحش وغريب أيضا» [7].

لقد كان فرويد يبحث في الأدب عن مادة للتحليل النفسي، لكن النقاد الجدد - أو بالأحرى الناقدات الجديدات صاحبات الاتجاه النسوي المتميز في النقد الحديث - من اللائي استعرضنا تحليلاتهن هنا في هذا الفصل على الرغم من ميولهن التحليلية النفســية التي أعادت ذلك الأدب المنسي، المســتبعد، المخفي، المسكوت عنه، المكبوت والغريب في دراسة فرويد، إلى مجال الأدب والجماليات الذي هو الميدان الحقيقي للغرابة، كما أشار إلى ذلك فرويد نفســه، حين قال إن هوفمان هــو الكاتب الذي نجح في إنتاج التأثيرات الغريبة أفضل من أي كاتب آخر، لكنه رفض ما قاله ينتش قبله مــن أن التأثيرات الغريبة لدى هوفمان مســتمدة من تلاعبه داخل النص بفكــرة الأوتوماتا، أو الكائن الآلي المخلــق، الدمية، وفضَّل فرويد بدلا من ذلك التركيز على التخييلات الليلية الكابوسية المتعلقة برجل الرمال، التي كانت - وفقا لما قاله - تجســد مخاوف ناثانيل الطفولية أو اللاشــعورية، وهي تلك المخاوف التي لم تنته إلا بموته.

هذه، على كل حال، محاولة ما، قمنا بها، لتقديم بعض الأفكار الحديثة المرتبطة بموضوع «الغرابة في الأدب» إلى القارئ العربي العزيز.



الهوامش



الفصل الأول

(1) وليم شكسبير الملك لير (ترجمة جبرا إبراهيم جبرا) بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.

(2) ألف ليلة وليلة، الجزء الثالث، بيروت: دار مكتبة الحياة، الجزء الثالث (من دون تاريخ نشر).

(3) وقد عرض الدكتور جابر عصفور هذه الفكرة في ندوة حضرتها في نهاية الثمانينيات من القرن الماضي في مدينة مسقط في سلطنة عمان حول مستقبل الثقافة العربية، وقد ضاع من ذاكرتي تاريخ الندوة ولكن بقيت الفكرة.

(4) Collins, Jo, & Jon Jervis, J (2008) Introduction In: Collins & Jervis (eds) Uncanny Modernity, Cultural Theories, Modern Anxities N.Y: Cambridge Univ. McMillan press, 4-5.

الجدير بالذكر هنا أن هذا الجزء الخاص بمعنى الغرابة وما يرتبط به وكما ورد في هذا الفصل، سبق لنا أن عرضناه أيضا في كتابنا عن «الفن والغرابة: مقدمة في تجليات الغريب في الفن والحياة» والذي صدر عن دار ميريت بالقاهرة في العام 2010، ونظرا إلى أن هذا الكتاب الأخير غير متاح للكثيرين من الكتاب العرب فقد قدمنا تلخيصا للفصل الأول منه في الكتاب الحالي وعلى نحو مختصر.

(5) المصدر السابق.

(6) Freud, S. (2003) The Uncanny: Penguin Books. (Originally published 1919).

(7) Royle, N (2003) The Uncanny. Manchester: Manchester univ. Press, 4

(8) Freud, op. Cit.

(9) المصدر السابق.

(10) Johnson L.R (2010) Aesthetic Anxiety, Uncanny Symptoms in German literature and Culture. Amsterdam: Rodopi 9-10.

(11) المصدر السابق.

(12) Vidler A. (1992) Architectural Uncanny, essay on the Modern Unhomely. Cambridge: The MIT. Press

(13) Punter, D (2006) Shape and shadow. (in:D Punter, ed) A Companion to the Gothic. London: Blackwell 193-205.

(14) Freud, op.cit.

(15) Winchell, J. (1997) Century of uncanny, the Modest Terror of A Theory. Paradoxa, Vol. 3, No.3520-4.515-

(16) Cannon, D (2010) Subjects Not-at-Home, Forms of the uncanny in the Contemporary French Novel. Amsterdam Rodopi, 9.

(17) Freud, op.cit.

(18) وقد صرح لنا بتفضيله لهذه الترجمة لهذا المصطلح في لقاء معه في القاهرة في حضور الصديق الفنان التشكيلي د. عادل السيوي في صيف العام 2010.

(19) وقد استخدم د. حسن المودن هذه الترجمة لهذا المصطلح في دراسات عديدة له عن الأدب المغربي أو العربي عامة، ربما كان أشهرها دراسته عن قصص الكاتب المغربي محمد غرناط. واستخدمها كذلك الناقد الدكتور محمد برادة في تقديمه لترجمة الصادق بوعلام لكتاب تودوروف الشهير عن الأدب العجائبي وفضل بوعلام هذه الترجمة أيضا لهذا المصطلح.

(20) شاكر عبد الحميد (2010) الفن والغرابة – مقدمة في تجليات الغريب في الفن والحياة. القاهرة: دار ميريت للنشر والمعلومات – وطبعة خاصة من مكتبة الأسرة – مواضع متفرقة.

(21) ابن منظور، محمد بن مكرم المصري (1988) لسان العرب المحيط. بيروت: دار الفكر.

(22) المرجع السابق نفسه.

(23) المرجع السابق نفسه.

(24) الجاحظ (1986). كتاب الحيوان، الجزء السادس، تحقيق عبد السلام هارون - 107.

(25) أبو حيان التوحيدي (1981) الإشارات الإلهية، تحقيق: عبد الرحمن بدوي. الكويت وكالة الكويت للمطبوعات.

(26) Vidller، op.cit.

وانظر أيضا:

- Melbank A (2009) Chesterton and Tolkein.. N.y: t&t

- مدكور ثابت (1994) الكسر النسبي في الإيهام السينمائي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب: مواضع متفرقة.

(27) صالح سعد (2001) الأنا والآخر. ازدواجية الفن التمثيلي، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة: 174-175.

(28) Cannon, op. cit, 9-10.

(29) Newman, S (2005) power and politics in postcultaralist Thought . N.Y: Routledge.

(30) Heidegger, M (1962) Being and Time. London: Translated by: John Macquassie N,Y: Harper& Raw. (5985-)

(31) Ellison, D-(2001) Ethics and Aesthetics in European Literature from the sublime to the uncanny N.Y. Cambridge Univ. press.

(32) http://en.wikipedia.org/wiki/sublime/philosopy.

(33) Kant, E (1960). Observations on the feeling of the beautiful and sublime, Berkeley: Univ. of California press.

(34) Freud, op, cit.

(35) Holland, D. (2004). Gothic and Gender: An Introduction. London: Blackwell, 33-66.

وانظر أيضا:

Burke E (1990) A philosophical Enquiry into the origin of our ideas of the sublime and beautiful .N.Y: Oxford Univ. press (originally published 1859).

(36) Shaw, P. (2006). The Sublime. London: Routledge, 126 -127.

(37) المصدر السابق.

(38) Freud, op,cit.

(39) المصدر السابق.

(40) Masschelein, A (2002) The Concept-as-Ghost, Conceptualization of the uncanny in the Twentieth century theory . Mosaic, March,101.

(41) شاكر عبد الحميد، الفن والغرابة، مواضع متفرقة.

(42) Ellison, D. op.cit.

(43) Punter. Op.cit.

(44) Jentsch, E (1906) On the Psychology of the uncanny In Collins & Jervis, Eds (2008) op. cit , 216-228.
وانظـــر أيضا عرضا مفصلا لأفكار ينتش عـــن الغرابة في كتابنا «الفن والغرابة»، الذي صدر عن مكتبة الأسرة، القاهرة، 2010.

(45) Freud,op,cit.

(46) Winchell, J. op.cit.

(47) Ronen, R (2009) Aesthetics of Anxiety N.Y: Sunny press 43-44.

(48) المصدر السابق.

(49) المصدر السابق.

(50) Stern, L (1997) I Think Sebastian, therefore I… Somersault Film and the Uncanny, paradoxa, 3-3-4-348-366.

الفصل الثاني

(1) Miller K (208) Doubles. Studies in literary History. London: Faber & Faber, 21-25

(2) Ellison, D (2001) Ethics and Aesthetics in European Literature, from Sublime to the Uncanny N.Y. Cambridge Univ. press 53.

(3) Cooppan, V. (2009) Worlds within, National Narratives & Global Connections in Postcolonial Writing. Stanford: Stanford Univ. Press 71-77.

(4) Ibid, 133-134.

(5) فرانـــز كافـــكا (1994) المســـخ (ترجمة: أحمد عمر شـــاهين)، القاهرة: دار شرقيات للنشر والتوزيع.

(6) فرانـــز كافـــكا (2009) القضية (ترجمة: مصطفى ماهـــر). القاهرة: المركز القومي للترجمة.

(7) إدغار آلان بو (1986) القط الأســـود وقصص أخرى (ترجمة خالدة ســـعيد) بيروت: دار الآداب، الطبعة الثانية.

(8) المرجع السابق.

(9) إدغار آلان بو (1997) القلب الواشي. (ترجمة: طاهر البريري) مجلة «نزوى» العمانية، العدد التاسع، يناير 1997 - 197 - 198.

(10) Wuletich- Brinberg, S (1988) Poe, The Rationale of the Uncanny. N.Y: Peter Lang.

(11) المصدر السابق.
(12) المصدر السابق، 8.
(13) المصدر السابق، 8-9.
(14) انظر المقدمة المهمة التي كتبها الشـاعر الفرنسـي الشـهير تشارلز بودلير للترجمة التي قام بها هو نفسه لقصص إدغار آلان بو وترجمتها خالدة سعيد، ضمن مجموعة القط الأسود (1986).
(15) Freud, S. (2003) The Uncanny. London: penguin Books (first published, 1919.)
(16) المصدر السابق.
(17) Royle, N, (2003) The Uncanny. Manchester: Manch. Univ. Press 4
(18) Stern, L (1997) I Think Sebastian, Therefore.... Iam. Somersault Film and the Uncanny, Paradoxa, 3-3-4-348-366.
(19) Freud, op, cit
(20) Freud, op, cit.
(21) تزفيـتن تـودوروف (1994) مدخل إلى الأدب العجائبـي (ترجمة الصديق بوعلام) القاهرة: دار شرقيات للنشر 48-50.
(22) Jackson, R (1981) Fantasy, The Literature of Subversion. London: Methuen.
(23) تودوروف، المرجع السابق (ترجمة الصديق بوعلام).
(24) Jackson, Op.cit.
(25) تودوروف، المرجع السابق (ترجمة الصديق بوعلام).
(26) تودوروف، المرجع السابق (ترجمة الصديق بوعلام).
(27) Cannon, D (2010) Subjects Not-at-Home, Forms of the Uncanny in the Contemporary French Novel. Amsterdam Rodopi, 9.
(28) Berrshim, (2010). Gothic Hauntings, Melanchology Crypts and Textual Ghosts. N.Y: Palagrave, Macmillan, 1-4
(29) Abraham, N. & Torok, M (1968) The Wolfmans Magic Word: Acryplonymy, trans. N. T. Rand Minneapolis: Unicip Minnerata Press.
(30) تودوروف، المرجع السابق (ترجمة الصديق بوعلام). ص 50.
(31) Cooppan, V. (2009) Worlds Within, National Narratives & Global Connections in Postcolonial Writing. Stanford: Stanford Univ. press.
(32) Ibid.
(33) Royle, N (2003) The Uncanny. Manchester: Manchester Univ. Press, 4.
(34) Punter, D (2006) Shape and Shadow. (in:D Punter, ed) A Companion to the Gothic. London: Blackwell 193-205.
(35) Abraham, N. & Torok, M(1968) The Wolfmans Magic Word: Acryplonymy, trans. N. T. Rand Minneapolis: Unicip Minnerata Press.

(36) Jose B. Monleon (1990) A Specter Is Haunting Europe: A Sociohistorical Approach to the Fantastic. Princeton: Princeton University Press.

(37) عبـد الفتـاح كليطـو (2006) الأدب والغرابة، دراسـات بنيوية في الأدب العربي. بيروت: دار الطليعة.

(38) المرجع السابق.

(39) المرجع السابق.

(40) محمـد بن عبد العظيم بن عـزوز (2009) الغرابة بين التلقي والدلالة في السرد العربي القديم. الرياض: كتاب الرياض، مؤسسة اليمامة الصحافية.

(41) حسن المودن، الكتابة والغرابة المقلقة في قصص محمد غرناط (داء الذئب، 1996، نموذجا).

(42) المرجع السابق نفسه.

الفصل الثالث

(1) روبرت لويس ستيفنسون (2008)، دكتور جيكل ومستر هايد، (ترجمة جولان حاجي)، دمشق: دار المدى للثقافة والنشر.

(2) Hessel, S. (2010) Fear itself: Reasoning the Unreasonable (ed), N,Y: Rodopi.

(3) https://en.wikipedia.org/wki/fear.

(4) الباحث العربي http://Baheth.info

(5) أبو هلال العسكري (1981) الفروق في اللغة بيروت: دار الآفاق الجديدة.

(6) المرجع السابق نفسه.

(7) Cavallaro D. (2002) The Gothic Vision: Three Centuries of Horror, Terror and Fear: N.Y Continuum,16.

8) Carrol, N (1990) The philosophy of Horror, or paradoxes of the heart. N.Y: Rautlege.

(9) Beville, M (2009). Gothic – Postmodernism: Voicing the Terrors of Postmodernity. Amesterdam: Rodopi, 24-25.

(10) المصدر السابق.

(11) المصدر السابق، 43.

(12) Cavallaro, op.cit, 2-5.

(13) Beville, op.cit.

(14) Burke E (1990) A Philosophical Enquiry into the Origin of Our Ideas of the Sublime and Beautiful. N.Y: Oxford Univ. Press (originally published 1859).

(15) http://www.gothic.cc/site/Literary_articles/21.html

(16) الواقعية الفيكتورية، يقصد بها الإشارة إلى الفترة من 1837-1901 والتي ترتبط باسـم الملكة فيكتوريا والتي شهدت أيضا نهضة في الصناعة والتعليم قام جانب كبير منها على أسـاس نهب ثروات المستعمرات، وفي الرواية التي أصبحت أكثر شـعبية من الشعر، وكان أشـهر من كتبوا القصص والروايات

القريبــة والخيالية وربما المخيفة في تلك الفتــرة: رودريارد كيلبنغ وجوزيف كونراد وستيفنســون ود. هـ. ويلز وهــي روايات تقع على حافة الواقعية، ذات ملامح رومانتيكية، لكنها ليســت خيالية، تقوم على أساس الحبكة والتشويق، التشويق الذي يرتبط بالشك وفقدان اليقين.

(17) Cavallaro, op.cit, 2 – 5.

(18) Beville, op.cit.

(19) شــاكر عبدالحميــد (2009) الخيال: من الكهف إلــى الواقع الافتراضي. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة.

(20) Beville, op.cit.

(21) http://en.wikipedia.org/wiki/The_Horla

(22) المرجع السابق.

(23) Cavallaro, op.cit, 27-38.

(24) المصدر السابق.

(25) المصدر السابق.

(26) ت.س. إليــوت (1996) قصائــد (إعداد وترجمة وتقــديم وهوامش ماهر شفيق فريد) الإسكندرية: دار ومطابع المستقبل.

(27) Beville, op.cit,69-72.

(28) إليوت، مرجع سابق.

(29) إليوت، مرجع سابق.

الفصل الرابع

(1) Wilkins, D et. al, (2005) Art Past Art Present N.Y: Upper Saddle River, 166.

(2) Lorraine, T.E. (1990). Gender, Identity and The Production Of Meaning. Oxford: Westview Press: 25-36.

(3) المصدر السابق.

(4) المصدر السابق.

(5) Apollon, W. & Feldstein, R. (1996) Lacan, Politics, Aesthetics. N.Y: State Univ. of New York: 47-49.

(6) Lorraine, op.cit.

(7) المصدر السابق.

(8) شــاكر عبد الحميد (2001) التفضيل الجمالي: دراســة في ســيكولوجية التذوق الفني. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، الفصل الثالث.

(9) المصدر السابق.

(10) Newman, S (2005) Power and Politics in post-culturist Thought. N.Y: Routledge, 129-130.

(11) المصدر السابق، 130.

(12) المصدر السابق، 131.

(13) Winchell, J. (1997) Century of Uncanny, the Modest Terror of Theory. Paradoxa, Vol, 3, No.3-4, 515-520.

(14) المصدر السابق.

(15) Simeon, P. & Abugel J. (2006) Feeling Unreal Depersonalization Disorder and The Loss of Self. N.Y: Oxford Univ. press, 54-56.

(16) المصدر السابق.

(17) المصدر السابق.

(18) المصدر السابق، 49.

(19) المصدر السابق، 38، 79.

(20) إبراهيم أصلان، وردية ليل (1999). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة مكتبة الأسرة. 99 - 101.

(21) Simeon, D. & Abygel, J. (2008) Feeling Unreal: Depersonalization Disorder and the Loss of the Self, Cambidge: Oxford University Press.

(22) Sierra, Mauricio (2009) Depersonalization: A New look at a Neglected Syndrome N.Y: Cambridge: Cambridge Univ. press 61-65.

(23) Simeon, D. & Abygel, J. op.cit, 54-55.

(24) Dryden, l (2003) The Modern Ghothic and literary Doubles, Stevenson, wilde and wells.N.Y: Palgrave , 59-60.

(25) Davies, l.,(2003), Foreword to Linda Dryden , ibid.

(26) Hessel. S. (ed), (2010) Fear Itself: Reasoning the Unreasonable. N.Y: Rodopi.

وانظر أيضا:

Homi K. Bhabha, (1994), The Location of Culture. N.Y: Routledge.

(27) Dryden, op. cit, 43-46.

(28) المصدر السابق.

(29) Cavallaro D(2002) The Gothic Vision Three Centuries of Horror , Terror, and Fear. N.Y. Continuum 30.

(30) Dryden, op. cit, 47-48.

(31) إبراهيم عبدالمجيد (2001). تحت المظلة 2000، ضمن «مجموعة سفن قديمة». القاهرة: دار ميريت للنشر والمعلومات.

(32) Kristeva, J.(1991) Strangers to Ourselves. Trans by: leon Routdiez. Colombia: Colombia Univ. press, (188-190).

الفصل الخامس

(1) Thiher, A(2004). Ravels in Madness, in Medicine and Literature. Michigan: Michigan Univ. Press.

(2) روبرت لويس ستيفنسون (2008)، دكتور جيكل ومستر هايد، (ترجمة جولان حاجي)، دمشق: دار المدى للثقافة والنشر.

(3) فرانز كافكا (2002) الآثار الكاملة مع تفسيراتها (الذات. المحاكمة) (ترجمة: إبراهيم وطفى) دمشق، دار الحصاد للنشر 269.
(4) شـــاكر عبد الحميد. الفروق بين الجنسين في أساليب التعلم والتفكير. مجلة دراسات نفسية، 1998، 8، 2-3.
(5) شاكر عبد الحميد (1997) الأدب والجنون، القاهرة: دار غريب للطبع والنشر.
(6) Dryden, L.(2003) The Modern Gothic and literary Double Stevenson, wilde, and wells. N.Y.Palgrave, 38-42.
(7) المصدر السابق.
(8) المصدر السابق.
(9) المصدر السابق، 38 - 40.
(10) Miller K(208) Doubles. Studies in Literary History. London: Faber & Faber, 21-25.
(11) المصدر السابق.
(12) المصدر السابق 49.
(13) المصدر السابق.
(14) المصدر السابق.
(15) Hegel, G.W. (1999) Aesthetics, Lectures on Fine Arts. Cambridge: Univ. Press, 553-4. (Originally Published 1835).
(16) Pesic, P. (2003) Seeing Double, Shared Identities in Physics, Philosophy and Literature. Cambridge: Mass, The MIT Press.
(17) Through Miller, op. cit,32.
(18) خورخـــي لويس بورخيس (2009)، النمر الآخر، شـــعر (ترجمة محمد عيد إبراهيم). الشـــارقة: اتحـــاد كتاب وأدباء الإمارات. قصيـــدة «أنا ويورخيس»، 222-223
(19) المرجع السابق، قصيدة «كل شيء ولا شيء»، 224-226.
(20) المرجع السابق، قصيدة «مرثية بورخيس»، 229-230.
(21) Miller op. cit.
(22) بول جونســـون (1998). المثقفون (ترجمة: طلعت الشـــايب). القاهرة: دار شرقيات للنشر والتوزيع.

الفصل السادس

(1) أوفيـــد مـــن خلال باســـكال كينـــار (2007) الجنس والفـــزع. (ترجمة: روز مخلوف) دمشق: دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع. ص184.
(2) Warner, M (2007) Fantastic Metamorphoses Other World Oxford: Oxford Univ. Press، 162.
(3) خوزيه ساراماجو (2008) الآخر مثلي (ترجمة: بدر الدين عرودي) القاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الجوائز.
(4) Davies, L (2009) Telling Them Apart, Conrad, Stevenson and the Social Double In Dryden, L.(2003) The Modern Gothic and Literary Double Stevenson, Wilde, and Wells. N.Y: Palgrave 52-71.

(5) المصدر السابق.
(6) المصدر السابق.
(7) المصدر السابق.
(8) المصدر السابق.
(9) المصدر السابق.
(10) Warner op. cit, 163.
(11) المصدر السابق، 164.
(12) المصدر السابق.
(13) المصدر السابق، 165.
(14) Weber, A (2003) The Doppelganger. The Double Visions in German Literature. N.Y: Clarendon press, 1-5.
(15) Weber, A. op. cit.
(16) Weber, A. op. cit.
(17) Dryden, et al (2009) Robert Louis Stevenson & Joseph Conrad, Writer of Transition. Texas: Texas Tech Univ. Press، 5859-.
(18) إدغار آلان بو (1986) وليم ويلسون في: القط الأسود (ترجمة خالدة سعيد).
(19) روبــرت لويس ستيفنســون، (2008)، دكتور جيكل ومســتر هايد، ترجمة جولان حاجي، دمشق: دار المدى للثقافة والنشر.
(20) أوسكار وايلد (1988) صورة دوريان جراي (ترجمة: لويس عوض) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، مواضع متفرقة.
(21) Conrad, J. (2007), The Secret Sharer, N.Y: FQ Publishing.
(22) Pesic, P.(2003) Seeing Double, Shared Identities in Physics, Philosophy and Literature. Cambridge: Mass, The MIT Press.
(23) فيــودور دستويفســكي (2008)، روايــة المثــل أو القرين (ترجمة ســامي الدروبي): القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
(24) شاكر عبد الحميد (1997) الأدب والجنون، القاهرة: مكتبة غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
(25) ســليمان فياض (1982) القرين ولا أحد. القاهــرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة مختارات فصول.
(26) المرجع السابق نفسه.
(27) فخــري صالح (2010) خوســيه ســاراماغو، الروائي المدهــش والروائي المثقف، جريدة الحياة اللندنية، العدد 17243 - بتاريخ 20 يونيو 2010.
(28) خوزيه ســاراماجو (1999)، عام وفاة ريكاردو ريس. (ترجمة: محمد فهمي عبداللطيف). القاهرة: دار الهلال، رواية الهلال.
(29) فــوزي فهمي (2010) أيهما الوجه الحقيقي؟ دراســة نقدية منشــورة في جريدة الأهرام المصرية بتاريخ 31 مايو 2010.
(30) Ruth Parkin – Gounelas (2001). Literature and Psychoanalysis Intersexual Readings. N.Y.: Palgrave.

وانظر أيضا:

Rank, O. (2009) Double: A Psychoanalytic Study. North Carolina: University of North Carolina Press.

(31) المصدر السابق.

(32) Weber op. cit 6-10.

(33) كلود ليفي شتراوس (1986) الأسطورة والمعنى (ترجمة: شاكر عبدالحميد). بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، انظر الفصل الثالث خاصة.

(34) Weber op. cit, 6-10.

الفصل السابع

(1) Elizabeth B. (1993). Risky Resemblances: on Repetition, Mourning, and Representation. In: S. W. Goodwin and E. Bronfen (eds) Death and Representation. Baltimore and London: The Joln Hopkins Press. 103 -129.

وانظر أيضا

Wenstein London, P. (2005) Unknowing the Work of Modern Fiction. London: Cornell University Press.

(2) Del villano, B (2007). Ghostly Alterities, Spectrality and Contemporary Literatures in English, NY: Ibiden Verlag.

(3) http://en.wikepedia.org/wiki/revernant_(folklore).

(4) Ratmoko, D. (2006) on Spectrality. Santasies of Redemption in the Western Canon. N.Y: Peter Lang.

(5) إدجار آلان بو (1986) القط الأســود وقصص أخرى (ترجمة خالدة سعيدة بيروت: دار الآداب، الطبعة الثانية «قصة ليجيا».

(6) المرجع السابق.

(7) مقدمة بودلير لكتاب بو، القط الأســود وقصص أخرى (ترجمة خالدة سعيد – مرجع سابق.

(8) وليم شكســبير «مســرحية هاملت» (ترجمة جبرا إبراهيم جبرا) بغداد: دار المأمون.

(9) Newman, s (2005). Power and Politics in Post-cultural Thought. N.Y. Routledge, 120-122.

(10) المصدر السابق.

(11) Del villano, op.cit, 1-4.

(12) Sterner, M (2006) The Ego and its own, eds by: D.lopold N.Y: Cambridge univ press.

(13) المصدر السابق.

(14) المصدر السابق.

(15) Royle, N (2003) The Uncanny. Manchester: Manchester Univ. Press, 4.

(16) Coopan,V, (2009) Worlds Within Stanford: Stanford Uniu Press 15-17.

(17) Derrida, J(1994) Specters of Marx: The State of the Debt, the Working of Mourning, and the New International. Trans. By Peggy Kamuf N.Y: Routledge.

(18) المصدر السابق.

(19) المصدر السابق.

(20) Newman, opcit.

(21) المصدر السابق.

(22) Berthin, (2010). Gothic Hauntings, Melanchology Crypts and Textual Ghosts. N.Y: Palagrave, Macmillan, 1-4.

(23) Davies (2007) Haunted Subjects Deconstruction, Psychoanalysis and the Return of the Dead. Basingstoke: Palgrave McMillan.

(24) Gordon, A.(2008) Ghostly Matters: Haunting and the Sociological Imagination. Minnesota: University of Minnesota Press .

(25) Atwood, M (2002) Negotiating with the Dead, A Writer on Writing .N.Y: Cambridge Univ. Press book,162.

(26) فـوزي فهمي (1989) مسـرحية عودة الغائب. القاهـرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(27) فردريش دورينمات (1964) زيارة السيدة العجوز (ترجمة: مصطفى ماهر) القاهرة: المؤسسـة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشـر، سلسلة المسرح العالمي، مقدمة المترجم، ص 4.

(28) فردريش دورينمات، زيارة السيدة العجوز، سبق ذكره.

(29) جورج شـحادة (1973) مهاجر برسـبان (ترجمة أدونيـس) الكويت: وزارة الإعلام، سلسلة من المسرح العالمي.

(30) من مقدمة أدونيس لمسرحية جريرسبان لجورج شحادة، ص 5.

(31) نيقولاي جوجول (1993) المفتش (ترجمة: هاشـم حمادي) الكويت: سلسلة المسرح العالمي، وزارة الإعلام.

(32) باولـو كويلو (2010) الشـيطان والآنسـة (ترجمة جواد صيداوي وبسـام حجار)، بيروت: شركة المطبوعات للنشر.

(33) آروين شو (2005) ثورة الموتى (ترجمة: فؤاد دوارة) القاهرة: المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، سلسلة روائع المسرح العالمي.

(34) Ruth Parkin – Gounelas (2001). Literature and psychoanalysis Intersexual Readings. N.Y.: Palgrave.

(35) Radway, J. (2008) Foreword to Avery F. Gordon Ghostly Matters, op.cit.

(36) المصدر السابق.

(37) Attwood, Opcit.

(38) http://en.wikipedia.org/wiki/Spirit_of_place

(39) Berthin, op.cit.

الفصل الثامن

(1) فريدريك نيتشه (من دون تاريخ) هكذا تكلم زرادشت (ترجمة: فليكس فارس) بيروت: دار العلم للملايين، 108.
(2) http://en.wikipedia.org/wiki/E.T.A.Hoffmann.
(3) Wuletich – Brunberg, G (1988) Poe, The Rationale of the Uncanny N.Y: Peter Lang.
(4) Jentsch, (1906) On the Psychology of the Uncanny. In Collins & Jervis , eds, 2008, 216-228. Uncanny Modernity Cultural Theories, Modern Anxities. Cambridge. Camb. Univ. Press.
(5) Hoffmann. E.T.A. (1982) Tales of Hoffmann. Selected and translated with an introduction by: J. Hollingdale. London: Penguin Books, 85-125.
(6) روزديل (1625 – 1682) فنان هولندي كان مولعا برسم الحقول والبحيرات والمناظر البحرية والطبيعية عامة.

الفصل التاسع

(1) الجاحظ (1986). كتاب الحيوان، الجزء السادس، تحقيق عبد السلام هارون.
(2) Ellison, D (2001) Ethics and Aesthetis in Eurapean Literature from the Sublime to the Uncanny .N.Y: co Cambridge. Camb. Univ. Press.
(3) Cixous,H (2005) Fiction and its phantoms: A Reading of Freud's Das unheimliche, The Uncanny In: Steve Vine (ed) Literature in Psychoanalysis, A Reader. N.Y: Palgrave 84-96.
(4) Kofman, S (2005) The Double is/and the Devil - the Uncanniness of the Sandman, In Steve vine, ibid, 68-83.
(5) Miller, L (2005) The Sandman, The Uncanny as a Problem of Reading , In: Steve Vine, op. cit. 97-110.
(6) Hertz, N (2009). Freud and The Sandman, in: Hertz, The End of Line: Colorado: The Davies Group, 113-134.



المؤلف في سطور

د. شاكر عبدالحميد

- من مواليد أسيوط - جمهورية مصر العربية.
- وزير الثقافة الحالي في جمهورية مصر العربية.
- يعمل أستاذا لعلم نفس الإبداع في أكاديمية الفنون - وزارة الثقافة المصرية.
- شغل منصب نائب رئيس أكاديمية الفنون.
- شغل منصب عميد المعهد العالي للنقد الفني بأكاديمية الفنون.
- شغل منصب الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة.
- كتب أكثر من عشرين كتابا مؤلفا أهمها: «الطفولة والإبداع» (في خمسة أجزاء) - «الأدب والجنون» - «الأسس النفسية للإبداع الأدبي للقصة القصيرة» - «العملية الإبداعية في فن التصوير» - «التفضيل الجمالي» - «الفكاهة والضحك» - «عصر الصورة» - «الخيال». وقد صدرت الكتب الخمسة الأخيرة من هذه القائمة عن سلسلة عالم المعرفة في الكويت.
- ترجم أكثر من ثمانية كتب أهمها: «بدايات علم النفس الحديث» - «الأسطورة والمعنى» - «العبقرية والإبداع والقيادة» - «سيكولوجية فنون الأداء». وقد صدر الكتابان الأخيران عن سلسلة عالم المعرفة بالكويت أيضا.
- متخصص في دراسات الإبداع الخاص بالأطفال والكبار.
- له دراسات عديدة في النقد الأدبي والتشكيلي.



هذا الكتاب

«الغرابة» ليست مصطلحا أحادي البعد، بسيط المعنى؛ بل مصطلح متعدد الأبعاد، مركب المعاني، متنوع الدلالات، ومن معانيه: حضور الموت في الحياة وحضور الحياة في الموت. ومن معانيه أيضا ظهور المألوف في سياق غير المألوف، ومن معانيه كذلك: ظهور غير المألوف في سياق مألوف، وتحول الساكن إلى متحرك، والمتحرك إلى ساكن، عودة الموتى إلى الحياة، ودخول الأحياء عالم الموتى، وثمة معانٍ أخرى ستتجلى لنا خلال هذا الكتاب.

يشتمل هذا الكتاب على تسعة فصول: قدم المؤلف خلالها تحديدا لغويا وفلسفيا وسيكولوجيا لمعنى الغرابة، وقارن بينه وبين المعاني الخاصة بمفاهيم أخرى تلتبس معه أحيانا مثل الغربة والاغتراب والتغريب وغيرها. ثم طرح بعض التصورات الخاصة حول تلك العلاقات الممكنة بين عالم الأدب - القصة القصيرة والرواية خاصة - ومفهوم الغرابة، ثم عمد إلى التركيز أيضا على تلك العلاقات الموجودة بين إحساسات الخوف والفزع والرعب من الإحساسات المخيفة وبين الإحساس بالغرابة. ثم تحدث بعد ذلك عن مفهوم الذات وتطورها نحو السواء أو نحو التفكك والاختلال والمرض. وأيضا الجذور الفلسفية والسيكولوجية والأدبية لفكرة الازدواج. كذلك تم التركيز في هذا الكتاب على فكرة القرين أو الشبيه في الأدب. وفي الكتاب أيضا حديث عن «روح المكان»، وعن الروح المهوِّمة في المكان، وعن مفاهيم الأشباح والأطياف والمراودة وعن معاني هذه المفاهيم القديمة والحديثة وعلاقتها بموضوع الغرابة في الأدب خاصة.

ISBN 978 - 99906 - 0 - 353 - 8
رقم الإيداع (2011/792)